التَّفْسِيرُ الثَّمِينُ

لِلعَلَّامَةِ العُثَيْمِين

تفسير سورة الأحزاب
تفسير سورة سبأ

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء العاشر

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

مجمع البحرين للنشر والتوزيع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ



ALTABARI'S LIBERARY

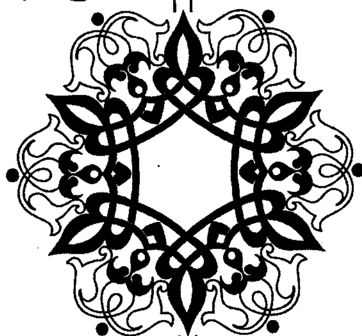
بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة الأحزاب

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١، ٢]

التفسير

البسملة قد تقدم الكلام عليها من حيث المعنى ومن حيث الإعراب، وقلنا في الإعراب: إنها جار ومجرور متعلق بمحذوف، وأنه ينبغي أن يقدَّر ذلك المحذوف فعلًا خاصًّا متأخرًا.

مثال ذلك: عندما تريد أن تقرأ، تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فيكون التقدير: بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ، وهو أحسن من أن تقول: التقدير ابتدائي بسم الله الرحمن الرحيم، أو التقدير: أبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأننا إذا قدرناه فعلًا خاصًّا كان أدل على المقصود، فإن كلمة ابتداء عامة في كل ما يبتدئ به، لكن إذا عينت الفعل، وقلت: بسم الله أقرأ، كان أدل على المقصود هذا واحد، نقدره فعلًا؛ لأن الأصل في الأعمال هي الأفعال، ولهذا تعمل بدون شرط، وأما ما يعمل من الأسماء فإنه لا يعمل إلا بشروط، كاسم الفاعل واسم المفعول والمصدر وما أشبه ذلك، فنجعله متأخرًا لسببين:

السبب الأول: التبرك بالبداءة، باسم الله.

والسبب الثاني: الدلالة على الحصر؛ لأن تأخير العامل يدل على الحصر، أو بعبارة أعم: لأن تأخير ما حقه التقديم، يدل على الحصر، إذنْ نقول في البسملة كلما جاءت متعلقة بمحذوف يقدر

هذا المحذوف فعلًا خاصًا متأخرًا، فعندما تريد أن تتوضأ، كيف نقدر؟ بسم الله أتوضأ، وعندما يريد الإنسان أن يذبح ذبيحة يكون التقدير: بسم الله أذبح، وعلى هذا فقس، يقول الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وهنا (اسم) مضاف إلى الله وهو مفرد فيفيد العموم، ولهذا قدَّره الشُّرَّاح بأن المعنى بكل اسم من أسماء الله، والاسم مأخوذ من السُّمو وهو الارتفاع، وقيل: من السِّمة وهي العلامة، ولو قيل بأنه مأخوذ من هذا وهذا لم يكن بعيدًا؛ لأنه يُظهر المسمى فيكون فيه معنى الارتفاع، ولأنه يميزه فيكون فيه معنى العلامة وأسماء الله تعالى تقدم الكلام عليها في درس «التوحيد» ولا حاجة في الكلام عليها هنا.

وقوله: ﴿اللَّهِ﴾ علم على ذات الله سبحانه وتعالى، وهو أصل الأعلام أسماء الله كما نعرف أعلام وأوصاف، لكن أصلها كلمة الله؛ ولهذا تأتي الأسماء دائمًا تبعًا لها فهي الأصل، وربما يأتي لفظ الجلالة تابعة لغيرها من الأسماء، مثل قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] فهنا الله تابعة لما قبلها.

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة، لكن الأول منهما يدل على الرحمة باعتبارها وصفًا لله، والثاني يدل على الرحمة باعتبارها فِعلًا له؛ فهو رحمن وهو رحيم متصف بالرحمة، وفاعل للرحمة، يعني: أنه سبحانه وتعالى مع كونه رحيمًا فإنه يرحم، وهذا الذي قررته وقرره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الفرق بين الرحمن وبين الرحيم، وإن كان بعض العلماء يفرِّق بينهما بأن الرحمن ذو الرحمة العامة والرحيم ذو الرحمة الخاصة، ويقول: إنه يدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، لكن المعنى الذي أشار إليه ابن القيم أبلغ وأحسن، ولهذا جاءت الرحمن على وزن (فعلان) وهذا الوزن يدل غالبًا على السَّعة والامتلاء فهو سبحانه وتعالى واسع الرحمة، وهو سبحانه وتعالى يرحم من يشاء، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

والبسملة آية من كتاب الله تأتي في مُبتدأ كل سورة إلا في سورة «براءة» فإنه ليس فيها بسملة، وذَكَر أهل العلم أن سبب سقوط البسملة في «براءة»: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أشكل عليهم هل هي من سورة الأنفال أم هي سورة مستقلة؟ فجعلوا بينهما فاصلًا، ولم يكتبوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وهذا واضح، لكن أوضح منه أنه لو كانت البسملة قد نزلت بين سورة الأنفال وبراءة لم يمكن أن تسقط؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر:٩] لكن لما أشكل على الصحابة هل هي مستقلة أو من سورة الأنفال، وضعوا الفاصل فقط.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ النداء هنا للنبي ﷺ بوصفه نبيًّا، وقد يناديه الله تعالى بوصفه رسولًا، فيخاطبه سبحانه وتعالى بوصفه رسولًا في مقام الرسالة كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] والنبي مشتق، فأصلها النبيءُ، وقيل: أصلها النبيو بالواو، فعلى

القول الأول، يكون مشتقًّا من النبأ، وأبدلت الهمزة بالياء تخفيفًا، وعلى القول الثاني يكون مشتقًّا من النَّبْوَة وهي الارتفاع، ولا شك أن مقام النبوة مقام رفيع، وأن النبي مُخْبِرٌ ومُخْبَرٌ أيضًا، فهو فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، يقول الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمراد به نبينا محمد ﷺ يقول له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ قال المؤلف: [دُمْ على تقواه]، صرفها المؤلف عن لفظها؛ لأنك إذا أمرت أحدًا بشيء، فالأصل أنه غير متلبس به، فإذا قلت: يا فلان قم، فهل هو قائم؟ لا، هذا هو الأصل أن الأمر إنشاءٌ ما لم يكن فإذا قلت: يا فلان قم أو يا فلان اقعد؛ فإنه حين توجيه الأمر إليه ليس متصفًا بهذا الوصف، والنبي عليه الصلاة والسلام قال الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، فلو أخذنا بظاهر العبارة لكان النبي ﷺ حين توجيه الخطاب إليه لم يكن متقيًا، وهذا أمر لا يمكن؛ لذلك يكون معنى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: دم على تقواه، ومنه هنا نأخذ أن الأمر بالشيء قد يكون أمرًا بتجديده، وقد يكون أمرًا بالاستمرار عليه.

وقد يكون أمرًا بالتفصيل لهذا المأمور به، فمثلًا إذا قلت: يا أيها المؤمن آمن، فالمعنى: دُمْ على إيمانك وحققه، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] الأمر هنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: دوموا عليه لكن فيه التفصيل؛ لأنهم آمنوا مجملًا، ثم قال ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، فصار إذن توجيه الأمر في الأصل إلى من لم يكن متلبسًا به، هذا هو الأصل، وقد يوجَّه إليه لطلب الاستمرار، وقد يوجه إليه لبيان التفصيل، كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وقوله ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تأتي التقوى في القرآن الكريم كثيرًا فما معناها؟ ومن أين هي مشتقة؟

نقول: هي مشتقة من الوقاية، ولهذا يقولون: إن أصل التاء فيها واو فتقوى بمعنى (وقْوَى) هذا أصلها، وإذا كانت بمعنى الوقاية، فإن التقوى هي: أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله عز وجل، ولا وقاية من عذاب الله إلا بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وعلى هذا فنقول: إن المراد بالتقوى فعل أوامر الله واجتناب نواهيه، ومن المعلوم أننا إذا قلنا: فعل أوامر الله، فأوامر مضافة إلى الله فالإنسان سينوي بهذا الفعل امتثال أمر الله، وكذلك إذا قلنا: اجتناب نهي الله، فإن الإنسان سيجتنبه؛ لأن الله نهى عنه؛ لأن مجرد الفعل بدون نية ليس بتقوى، ومجرد الترك بدون نية ليس بتقوى، لكن لما كان الفعل والترك مضافان إلى الله صار لابد فيهما من النية.

قال: [﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك].

قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عطف قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ على ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن ترك طاعة هؤلاء من تقوى الله عز وجل فيكون عطفًا على التقوى

من باب عطف الخاص على العام، وهذا كثير في القرآن والسنة وكلام العرب.

والكافر هو الذي صرح بكفره وأعلنه، وأما المنافق فهو الذي أخفى كفره وأظهر أنه مؤمن، ومن أين اشتُق الكفر أو الكافر؟

يقولون: إن الكفر في الأصل: الستر، ومنه الكُفُرَّى، وهو غلاف الطلع؛ لأنه يستره، هذا في الأصل، وسُمي الذي لا يؤمن بالله كافرًا؛ لأنه ستر نعمة الله عز وجل، وجحد شريعته فصار بذلك ساترًا للحق وساترًا للنعمة التي أنعم الله بها عليه.

وأما النفاق فإنه مأخوذ من نافِقاءِ الْيَرْبُوع، واليربوع دُوَيْبَّةٌ معروفة تتخذ بيتًا في الأرض، وتحفر الجحر وتجعل له بابًا وتجعل في آخره بابًا مغلقًا بشيءٍ من التراب، بمعنى أنها تحفر حتى إذا وصلت إلى منتهى الجحر حفرت إلى أن يبقى عليها شيءٌ قليل من طبقة الأرض بحيث إذا دفعته برأسها أو إذا دفعه برأسه انفتح، هذه هي النافقاء، ويصنع ذلك من أجل أنه إذا فوجيء من باب الجحر خرج من هذا؛ فهكذا المنافق إذا خُوطب بالإيمان قال: إنه مؤمن، يتخلص، كما أنه إذا أتى إلى قوم كفار يقول: إنني كافر، فيتخلص من ملامة هؤلاء وملامة هؤلاء.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يطيع الكافر، لكن الذي قد يمكن أن يطيع المنافق؛ لأن المنافق لا يُحَسُّ بنفاقه وكفره، ولا يعلم عنه، فقد يَغتر به الإنسان، فلهذا قَدم الله الكافرين هنا على المنافقين مع أنه في باب الوعيد يقدم المنافقين على الكافرين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقول المؤلف: [فيما يخالف شريعتك]، هذا القيد يقتضي تخصيص النهي، مع أن النهي مطلق، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فما الذي حمل المؤلف على أن يقيده بما يخالف الشريعة؟

الجواب: الذي حمله على ذلك؛ لأنه لو فُرض أن الكافر أو المنافق أَمَر بما يوافق الشريعة لكان لزامًا علينا أن نطيعه؛ لا لأنه أمر؛ لكن لأن هذا مقتضى الشريعة، هذا وجه. ووجه آخر هو أن يقال: إن تقييد المؤلف ذلك بيانٌ للواقع؛ لأن الكافر والمنافق لعداوتهما لشريعة النبي ﷺ لا يمكن أن يأمرا إلا بما يخالف الشريعة فيكون هذا القيد بيانًا للواقع والقيد الذي يكون بيانًا للواقع لا يقيِّد؛ لأنه لا يُراد، وأظن أن في ذلك أمثلة مرت علينا كثيرًا، فمن أمثلة ما يكون فيه القيد بيانًا للواقع وغير مراد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قيد مبين للواقع وليس المعنى: أن هناك ربًّا لم يخلق وربًّا خلق.

والأمثلة في هذا كثيرة، فهنا يمكن أن نحمل كلام المؤلف في قوله: [فيما يخالف شريعتك]، على أنه بيان للواقع وهو أن الكافر والمنافق لا يمكن أن يأمر إلا بما يخالف الشريعة؛ لأن الكافر كافرٌ بها، والمنافق أيضًا كافرٌ بها، لكنه يظهر الإيمان.

ثم قال:[﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون قبل كونه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يخلقه].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، هذه الجملة محلها أو موضعها ما قبلها في المعنى تعليلية، ووجه كونها تعليلية لما قبلها أن الله لما أمر نبيه ﷺ بالتقوى ونهاه عن طاعة الكافرين بيَّن أن هذا الأمر والنهي صادرٌ عن علمٍ وحكمةٍ، وأنه سبحانه وتعالى أعلم بما يكيده هؤلاء الأعداء من الكفار والمنافقين، فلا تطعْهم فليسوا أهل نصحٍ لك أبدًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ [بما يكون قبل كونه]، هل هذا التقييد صحيح؟

الجواب: نعم؛ لأنه عليم بما يكون قبل كونه وبعد كونه، وحال كونه موجودًا وبعد حال كونه معدومًا، فعلْم الله تعالى يتعلق بالأشياء، في أحوالها الثلاث: قبل الوجود، وحين الوجود، وبعد العدم.

وعلم المخلوق لا يتعلق بهذه الأشياء في الأحوال كلِّها، قبل الوجود معلوم أنه لا يعلمه، وحين الوجود لنفرض أنه يعلمه، وبعد العدم قد ينْسَاهُ، فعلم المخلوق محفوف بنقصين: جهل سابق، ونسيان لاحق، أما الله عز وجل، فإن علمه كامل جملة وتفصيلًا في جميع الأحوال، قبل الوجود وحين الوجود وبعد العدم، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فنفى عنه الضلال الذي هو الجهل والنسيان الذي هو الذهول عن الشيء بعد علمه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ إذن نقول: عليمًا بما يكون قبل كونه وبما يكون حين كونه وبما يكون بعد عدمه، أي: في كل الأحوال.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ مرت علينا كثيرًا وبينَّا أنه مشتق من الحِكمة والحُكم، وأن حكم الله عز وجل كونيٌّ وشرعي، وأن الحكمة نوعان: غائية وصورية، صورية ليس معناها أنها بالصورة فقط، لكن كون الشيء على هذه الصورة حكمة والغاية منه حكمة أخرى، فإذا كان كذلك، تكون الأقسام أربعة: حكم مشتمل على الحكمة في صورته وغايته حكم كوني، وحكم شرعي مشتمل على الحكمة في صورته وفي غايته.

وهنا إشكال في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾؛ لأن المعروف أن الشيء الماضي قد مضى، ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾، فهل يفيد أنه الآن ليس بعليم؟

الجواب: لا؛ لأنَّ (كان) قد تكون مسلوبة الزمان ويُقصد بها اتصاف اسمها بخبرها، وتحقق

ذلك الاتصاف بدون أن يُلاحظ الزمان فيها، وهي كلما جاءت بالنسبة إلى الله تعالى وأسمائه وصفاته، أنها على هذا الباب، وهي أنها تفيد تحقق اتصاف الموصوف الذي هو اسمها بصفته وهو خبرها بقطع النظر عن الزمان، فعليه نقول: إن الفعل هنا مسلوب الزمان يعني: لم يزل ولا يزال عليمًا حكيمًا.

إذن العلم والحكمة هل هما من الصفات الذاتية أو الفعلية؟

نقول: من الصفات الذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال عليمًا ولم يزل ولا يزال حكيمًا، والله أعلم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

نقول في: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني: استمر على اتباعه، واتباع ما يُوحى إلى النبي ﷺ بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام يشمل اتباعه بالتبليغ واتباعه بالدعوة واتباعه بالعمل؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالأمور الثلاث: مأمور بتبليغه، وبالدعوة إليه، وبالعمل به.

وقوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ الوحي في الأصل الإعلام بسرعة وخفاء، فالإعلام بسرعة وخفاء يسمى وحيًا، والمراد به هنا: إبلاغ النبي ﷺ ما شرعه الله سبحانه وتعالى، سواء كان بواسطة أو بغير واسطة، ومعلوم أن إبلاغ الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الوحي ظاهر أو لا؟ ليس بظاهر؛ لأن النبي لا يعرف أنه يوحى إليه إلا بما يظهر من الوحي، لكن لا ندري كيف يوحى إليه لولا أنه أخبرنا بذلك.

وقول: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول من صيغ العموم تشمل كل ما يوحى إلى النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يفيد أن هؤلاء الكافرين والمنافقين كانوا يحاولون من النبي ﷺ أن يخالف شريعته، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قد لا يعلم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هؤلاء الكفار والمنافقون.

وقوله: ﴿خَبِيرًا﴾ الخبير مشتقٌّ من الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور ولهذا سُمي صاحب الحرث والزرع خبيرًا وسُميت المزارعة مخابرة؛ لأن الحب يُدفن في الأرض فيكون باطنًا غير ظاهر.

فالخبير هو العليم ببواطن الأمور؛ إذن الخبير أخص من العليم؛ لأن العليم يشمل العالم بظواهر العلوم وبواطنها، لكن الخبير أخص وهو العالم ببواطن الأمور، والعالم بالبواطن عالم بالظواهر من باب أولى، وعندي يقول المؤلف: [وفي قراءةٍ بِالتَّحْتَانِيَّةِ]، فتكون: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ و اصطلاح المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: [في قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قرئ]

فهي شاذة، وعلى هذا ففي الآية قراءتان سبعيتان تجوز القراءة بكل منهما، وعندما نقول: تجوز، فليس معناه أن القراءة بهذا وهذا على حدٍّ سواء، لكن المعنى أن القراءة بهما غير ممنوعة؛ لأن الأفضل أن تقرأ بهذه تارة وبهذه تارة، فإن اختلاف القراءات كاختلاف العبادات، وقد ذكرنا أن الأفضل في العبادات الواردة على وجوهٍ متنوعة أن تأتي بهذه مرة وبهذه مرة؛ لأجل أن تكون قد عملت بالسنة في جميع وجوهها، كذلك في القراءات الأفضل أن تأتي بهذه مرة وبهذه أخرى، بشرط أن تكون عالمًا بالقراءة، ولكنها بالقول الذي نقوله: إنما هو في قراءة الإنسان على الخاصة، أما قراءته على العامة فإنه لا ينبغي أن يخرج عن القراءة الموجودة بين أيديهم؛ لأن العامي لا يُدرك هذه القراءات، أو لا يدرك اختلاف هذه القراءات، فإذا قرأت القرآن بغير ما بين يديه فإنه سينكر عليك، لكن هذا الإنكار ربما تجيب عنه، لكن سيقع في نفسه شيءٌ من الشك.

ولهذا ينبغي لنا أن نحدِّث الناس بما تدركه عقولهم، كما في حديث عليٍّ رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟)[1].

فالحاصل: أن طالب العلم الذي يعرف القراءات ينبغي له أن يقرأ أحيانًا بهذه وأحيانًا بهذه، ولكن هل يجمع بين القراءتين؟ يعني: مثلًا هنا أقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، و﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؟

الجواب: لا، ولكن الأفضل أن تأتي بهذه مرة وبهذه مرة؛ لأنك إذا جمعت بين قراءتين فقد خالفت؛ إذ إن من قرأ بالتاء لا يقرأها بالياء فكيف تجمع بينهما؟! لكن بعض أهل العلم يقولون: لا بأس أن تجمع بين القراءتين سواء كانت منفصلة أو غير منفصلة بمعنى: أنه يجوز أن تقرأ بالقراءتين في الآية الواحدة، ويجوز أن تقرأ في آية بقراءة قارئ وفي آية أخرى بقراءة قارئ آخر.

أما الثانية: وهي أن تقرأ في آية بقراءة قارئ، وفي آية أخرى بقراءة قارئ آخر فهي جائزة، أما الجمع بين القراءتين في آية واحدة وفي تلاوة واحدة فإن في جوازه نظرًا يعني: مثلًا تقرأ هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ على قراءة أحد القراء ثم تأتي مثلًا في قراءة ثانية تخالفه في آية أخرى فتقرأ بها.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

١ - يستفاد من هذه الآية الكريمة أن مجرد النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يعتبر تعظيمًا له ﷺ؛ لأن النداء بالنبوة تعظيم مع أن الأنبياء الذين سواه يناديهم الله تعالى بأسمائهم: يا موسى،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٧).

يا عيسى وما أشبه ذلك، أما النبي عليه الصلاة والسلام، ما ناداه إلا بوصف النبوة أو الرسالة.

فإن قلت: أليس الله قد قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح:٢٩] فخاطبه هنا باسمه، فهذا يرد ما تقول؟

نقول: هذا ليس مقام نداء وخطاب، لكن هو مقام خبر.

٢ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب التقوى؛ لقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

٣ - **ويستفاد منها:** وجوب التقوى على الأمة، فإذا كان الرسول ﷺ يُؤمر بالتقوى، فغيره من باب أولى هذا وجه، وجه آخر أن الخطاب الموجه للرسول عليه الصلاة والسلام موجه له ولأمته ما لم يقم دليل على التخصيص.

وبهذه المناسبة، فالخطابات الموجهة للرسول عليه الصلاة والسلام إما أن يقوم دليل على العموم، أي: في نفس الخطاب ما يدل على العموم، أو فيه ما يدل على الخصوص، أو فيه ما لا يدل على هذا ولا على هذا؛ فالذي فيه ما يدل على العموم بالعموم، دليله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، أو فيه ما يدل على الخصوص قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٩] وله أمثلة كثيرة، أو فيه ما لا يدل على هذا ولا على هذا، مثل هذه الآية التي معنا، ولكن حكمها عام للنبي ﷺ ولأمته.

٤ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ عبدٌ مأمورٌ مكلفٌ؛ وذلك لأمره بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

٥ - **ويستفاد من ذلك:** أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة، فإن التكاليف لا تسقط عنه، وعلى هذا يتفرع على هذه الفائدة: بيان ضلال أولئك الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان إذا وصل إلى درجة المعاينة سقطت عنه التكاليف؛ لأنَّا نقول: لا أحد يبلغ مرتبة النبي ﷺ عند الله عز وجل، ومع ذلك لم تسقط عنه التكاليف، فإن قالوا: إن الله يقول: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني: حتى تصل إلى درجة اليقين، ثم تنتهي عن العبادة، فبماذا نجيبهم؟

نقول: المراد باليقين هنا الموت، والدليل قول أصحاب الجحيم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦،٤٧] أي: الموت، وليس معناه أنهم وصلوا إلى درجة اليقين أبدًا، لكنهم ماتوا على التكذيب، ولم يصلوا إلى درجة اليقين، وإذا كان هؤلاء يقولون: إننا وصلنا إلى درجة يقينٍ يكونون به من أصحاب الجحيم، فنحن نوافقهم على ذلك.

٦ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** تحريم طاعة الكافرين والمنافقين والركون إليهم، لقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

٧ - ويستفاد منها: أن الكافر والمنافق لا يمكن أن يكونا ناصحين للمؤمنين أبدًا، ولو أمكن أن يكون فيهم نُصح، ما نهى الله عن طاعتهم مطلقًا، لأن الناصح يُطاع.

٨ - ويستفاد من الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العليم والحكيم).

وبالنسبة للعلم نقول: إن علم الله كما يتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل، يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل فهو يتعلق بالواجب وذلك في كل ما أخبر به عن نفسه، وبالممكن مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨]، وبالمستحيل كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٢]

١ - ويستفاد من هذه الآية الكريمة: وجوب اتباع ما أُنزل على النبي ﷺ، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، فإن قلت: هل هذا على العموم، وأنه يجب اتباع ما أُنزل على الرسول؟

الجواب: لو قلنا بالعموم، إذن يجب أن نرفع الأيدي في الصلاة، ويجب أن نسبح أكثر من مرة إلا ما قام الدليل على أنه ليس بواجب، لكن نقول: هذا يُستثنى منه ما قام الدليل على أنه ليس بواجب؛ لكن ما صح عن النبي ﷺ ولو كان غير واجب، يجب اعتقاد مشروعيته، حتى وإن كان غير واجب الفعل، فعندنا اعتقاد المشروعية، وتنفيذ هذا المشروع على حسب ما جاءت به الأدلة إما واجب، وإما مستحب؛ وأما اعتقاد المشروعية فيما صح فهو واجب - فمثلًا - يجب عليَّ أن أعتقد مشروعية مجافاة العضدين عن الجنبين في السجود وغيرها، لكن فعل ذلك يتوقف على الأدلة التفصيلية؛ إن دلت الأدلة على وجوبه فهو واجب، وإن دلت على أنه مستحب فهو مستحب.

٢ - ويستفاد من الآية الكريمة: ثبوت رسالة النبي ﷺ ونبوته، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣- ويستفاد من الآية الكريمة: أن لله تعالى ربوبية خاصة بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقد مر علينا كثيرًا بأن الربوبية نوعان، والعبودية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فمثال الربوبية العامة قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الصافات:٥] هذه عامة، ومثال الخصوصية مثل هذه الآية قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢].

وكذلك العبودية نوعان: عامة وخاصة، فالعامة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ

بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤]، والخاصة قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١] والمراد الرسول عليه الصلاة والسلام.

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أن علم الله تعالى شامل للأمور الباطنة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

٥- ويستفاد منها: تحذير الإنسان من المخالفة؛ لأن هذا يوجب أننا لا نخالف الله ما دمنا نعلم أنه خبير بما نعمل؛ فإننا لا يمكن أن نخالف الله -عز وجل- مثل ما لو قلت: اذهب وأنا أعلم ما تفعل، فالمراد بهذا: التهديد والتحذير من المخالفة، فكل نص يبيِّن الله فيه أنه يعلم ما نعمل فهو تحذير لنا من مخالفته.



قال الله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمرك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا لك]، فالتوكل بمعنى الاعتماد مع الثقة، ولهذا فسروه بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله عز وجل، بأن يكون القلب معتمدًا على الله لا على غيره في جلب المنافع وفي دفع المضار مع ثقته بالله سبحانه وتعالى، يعني: واثقًا بأن الله سبحانه وتعالى سيكفيه، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، فإذا صَدَّقت الله عز وجل في أنه سيكفيك فهذا هو تمام التوكل.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جاءت هذه في القرآن في عدة مواضع ومنها قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة:٢٣] وعلى هذا يكون التوكل من العبادة، لأن الله تعالى أمر به، وما أمر الله به شرعًا فهو من العبادة، وسيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد أقسام التوكل.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ الباء يقول أهل الإعراب: إنها زائدة لتحسين اللفظ وأن لفظ الجلالة[1] هو الفاعل، والتقدير: وكفى الله وكيلًا، و﴿وَكِيلًا﴾ حالٌ من الفاعل.

والمعنى: ما أعظم كفاية الله تعالى في هذا الشيء إن كان هو (كفى بالله شهيدًا) فهو: ما أعظم كفاية الله تعالى في شهادته، وإن كان: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، ما أعظم كفاية الله في وكالته.

---

(١) الأصوب أن نقول: اسم الجلالة.

وقوله: ﴿وَكِيلًا﴾، يقول المؤلف: [حافظًا لك]، وعلى هذا ففعيل هنا بمعنى فاعل، وليست بمعنى مفعول؛ لأن الوكيل إذا قلت: وكلت هذا الوكيل، فإن ﴿وَكِيلًا﴾ بمعنى مفعول، لأنه مُوَكَّل، لكنه هنا بمعنى فاعل أي أنه حافظ، فالاعتماد من الإنسان، والحماية والحفظ من الله، ويدل لتفسير المؤلف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، وسوف يقوم سبحانه وتعالى بحفظه وبتحقيق ما توكل به عليه.

قال المؤلف: [وأمته تبع له في ذلك كله]، إنما قال هذا؛ لأن الخطاب في الآيات موجه للنبي ﷺ فأمته تبع له، من أين علمنا أن أمته تبع له؟ علمنا ذلك من طريقين، أو من أحد طريقين:

الطريق الأول: أن الله أمرنا بالتأسي به، فكل أمر موجه للرسول ﷺ لا يدل الدليل على تخصيصه به، فهو لنا أيضًا، فنحن مأمورون باتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثانيًا: أنه من المعروف في الخطاب أن الخطاب الموجه إلى المتبوع خطاب له ولتابعه ولهذا يقول مثلًا القائد لضابط الجيش: اذهب إلى المكان الفلاني، هل هو يريد اذهب أنت بنفسك أم أنت بمن تبعك؟ هو يريد: أنت بمن تبعك، فالخطاب في اللغة العربية إذا وجه إلى المتبوع، فهو له وللتابع.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** وجوب تقديم الوحي على الرأي، لقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، فإن هذا الخطاب موجه إلى النبي ﷺ، وإلى أمته بالأولى، فيفيد وجوب تقديم الوحي على الرأي، وتقديم الرأي على الوحي له أقسام:

* منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما هو دون ذلك، فالذين يقدمون الرأي على الوحي مع علمهم بالوحي، معتقدين أن غير الوحي مساوٍ له، أو أكمل منه، أو أنه يجوز الحكم بالرأي المخالف للوحي مع العلم به، فهؤلاء يعتبرون كفارًا، في هذه الأحوال الثلاث، إذا اعتقدوا أن الرأي أكمل وأنفع من الوحي، أو أنه مساوٍ له، أو أنه يجوز تقديمه على الوحي مع العلم به، فهؤلاء كفار، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

* وأما من قدموه بتأويل ظنًّا منهم أن ذلك لا يخالف الوحي، أو أنه طريق يوصلهم إلى الوحي، فهؤلاء لا يصلون إلى درجة الكفر، وذلك مثل كثير من المتعصبين للمذاهب، فإنهم لا يرون أن هذه المذاهب خارجة عن الوحي، وإنما يرون أن ذلك طريق إلى العمل بالوحي، فيقولون: هذا إمامنا أعلم منا وأفهم فنتبعه، ونتهم رأينا بالنسبة إلى رأيه، وإلا فنحن متمسكون بشريعة الله ومحكِّمون لكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهؤلاء نقول: إنه إذا تبين لهم الحق، وجب عليهم اتباعه، ولو خالف متبوعهم من الأئمة؛ وذلك لأن الحق لا يخطئ، والأئمة يخطئون، ولا

يمكن أن تُدعى العصمة لأحد من البشر إلا رسول الله ﷺ، فالذي يدعي العصمة لغير الرسل رجل ضال، كما يفعل الرافضة لأئمتهم، وهذا ضلال بيِّن؛ لأن أئمتهم قد يخطئون، كما يخطئ غيرهم.

وقد مر علينا ما وقع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو إمام الأئمة ـ بالنسبة لأولئك القوم ـ أنه أخطأ، حين أعطاه النبي ﷺ حُلَّة من حرير فلبسها، فقال: «**إِنِّي مَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، إِنَّمَا تُعْطِيهَا الفَوَاطِمِ**»(١)، وكذلك ما هو مشهور عنه من أن المرأة إذا كانت حاملًا، وتوفي عنها زوجها، فإنها تعتد بأطول الأجلين، وهذا مخالف للسنة الصحيحة الصريحة.

والحاصل: أننا نقول: إن في الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وجوب تقديم الوحي على الرأي، وأنه يجب الحكم بما جاء به الشرع مطلقًا، سواءً خالف رأي متبوعك أم لم يخالف.

٢- **وفي هذا دليل على:** وجوب التوكل على الله، وقد ذكرنا في «**كتاب التوحيد**» أن التوكل ينقسم إلى أقسام: أحدها توكل العبادة؛ وهو شعور الإنسان بافتقاره إلى المتوَكَّل عليه، وذله بين يديه، وهذا لا يجوز صرفه لغير الله، وصرفه لغير الله كفر وشرك؛ لأنه إشراك بالله فيما لا يستحقه إلا الله، وهو شرك أكبر، هذا هو النوع الأول من أنواع التوكل.

النوع الثاني من أنواع التوكل: الاعتماد على الغير الذي جعلته نائبًا عن نفسك، هذا جائز وقد وقع حتى مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإنه وَكَّلَ «عروة بن الجَعْد» على أن يشتري له أضحيةً، وكان له وكيل في خَيْبَر، وكذلك وَكَّلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ذبح ما بقي من الهدي، وهو جائز ولا إشكال فيه، ووكل علي بن أبي طالب حين ذهب إلى تبوك أن يكون خليفةً له في أهله، وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكَّل هارون حين ذهب إلى الطور وقال: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢]، إذنْ هذا جائز ولا إشكال فيه؛ لوقوعه من الأنبياء، ولأنه عقد من العقود، والأصل في العقود الحل إلا ما قام الدليل على منعه.

والثالث: أن يعتمد على من لا يصح الاعتماد عليه: على قوة سرِّية نعلم أنه لا أثر لها في هذا الاعتماد، وهذا شرك، قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، مثل اعتماد أولئك الذين يتوسلون بالأموات، ويعتقدون أن في الاعتماد عليهم خيرًا، هؤلاء قد يصل بهم الأمر إلى الشرك الأكبر، وإلا فمجرد اعتمادهم عليهم شرك ولا يحل.

والرابع: أن يعتمد على قوة ظاهرة مؤثرة لكنه يعتمد عليها، لا باعتبار أنها نائبةٌ عنه، بل باعتبار

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٧١)، والنسائي (٥٢٩٨)، وأبو داود (٤٠٤٣)، وابن ماجه (٣٥٩٦) واللفظ له.

أنها مجدِية له، وأنها مصدر سعادته وفلاحه ورزقه، وما أشبه ذلك، فهذا مكروه، وقد يصل إلى درجة التحريم كاعتماد الإنسان على الراتب، وعلى المعاش من الوزارة التي يعمل فيها، أو الإدارة أو الرئاسة أو ما أشبه ذلك، فهذا فيه نوع من الشعور بالافتقار إلى ذلك الشيء، والتذلل له.

ولذلك تجد الذين ابتُلوا بهذا النوع يحابون من كانوا يعتمدون عليهم، يحابون كبراءهم من الوزراء وغير ذلك، يحابونهم في أمر لا يجوز، أما مجاملتهم فيما هو جائز، فهذا أمر لا بأس به، لكن محاباتهم في المحرم، فهذا لا يجوز، لكن هذا قد يقع، لأنهم يشعرون بأنهم مفتقرون إلى هؤلاء، فهذا أقل أحواله: الكراهة.

والإنسان ينبغي له أن يكون عزيز النفس، لا يعتمد إلا على ربه سبحانه وتعالى.

٣ - ويستفاد من الآية الكريمة أن كِفاية الله - عز وجل - فوق كل كفاية؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وزعم بعض أهل العلم، أن مثل هذا التركيب يفيد التعجب، يعني: ما أعظم كفاية الله، وهذا ليس ببعيد، أن كون هذه الصيغة تحول من (وكفى الله وكيلًا) إلى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لا يبعد أن يكون المراد بذلك: بيان المبالغة في كفايته سبحانه وتعالى، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].



❁ قال الله تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿مَّا﴾ نافية، ولفظ الجلالة: فاعل، وقوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ هل هي مفعول ﴿جَعَلَ﴾، الأول أم الثاني؟ هي مفعولها الأول وهو مؤخر، ومفعولها الثاني قوله: ﴿لِرَجُلٍ﴾ ومن هنا نقول: إنها زائدة من حيث الإعراب، فنعرب ﴿قَلْبَيْنِ﴾ على أنها مفعول به منصوب وعلامة نصبه ياءٌ مقدرة على هذه الياء التي جُلبت ؛ لأن عمل الأداة الظاهرة أقوى من عمل الأداة غير الظاهرة يعني مثلًا ﴿جَعَلَ﴾ تنصب ﴿قَلْبَيْنِ﴾، لكن عارضها عامل أقوى مباشر، وهو حرف الجر، فيقولون: إن الياء هذه ليست ياء النصب، لكنها ياء حرف الجر الزائد، وعلى هذا فنقول: علامة

نصبه ياء مقدرة، في مكان الياء الموجودة التي اجتلبت من أجل حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ﴾ هذا الجعل كونيٌّ، وليس شرعيًّا؛ لأن الجعل الذي يُضاف إلى الله ينقسم إلى قسمين: جعل شرعي، بمعنى ما شرع، وجعل كوني، بمعنى ما خلق، مثال الجعل الشرعي، قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣] هذا، جعل شرعي، والدليل أنه كونٌ واقع مجعول لكنه شرعًا لم يُجعل.

وأما الجعل الكوني: فهو كثير، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١٠،١١]

وفي هذه الآية الكريمة قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هي من الجعل الكوني، وأكد الله هذا النفي بحرف الجر الزائد؛ لأن الحروف الزوائد من أدوات التوكيد، إذن محال أن يكون في الإنسان الواحد قلبان، ولكن هل هذه الجملة مرادة لذاتها، أو مرادة لغيرها؟

الجواب: يرى المؤلف وجماعة من علماء التفسير: أنها مرادة لذاتها، وأنها نفي لأمر قد ادُّعي، ولهذا قال ردًّا على من قال من الكفار: إن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ﷺ، هذا ما ذهب إليه جماعة من أهل العلم، يعني: أن هذا نفي لأمر ادعاه رجل من الكفار، يقول: إن له قلبين، وإذا كان له قلبان كان له عقلان، وإذا كان له عقلان كان أفضل من النبي ﷺ؛ لأنه ما له إلا قلب واحد.

وذهب بعض المفسرين - وعلى رأسهم الزهري رحمه الله - إلى أن هذه الجملة ليست مقصودة لذاتها، لأنها أمر معلوم؛ لأنه ليس لإنسان قلبان، لكنها توطئة وتمهيد لما يأتي بعدها، لأنه ذكر في الآية الكريمة ثلاثة أشياء قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، فكما أنكم تقرون بأنه لا قلبين لرجل في جوفه، فكذلك ليست الزوجة أمًّا؛ لأن الله لم يجعل للإنسان أُمَّيْن، كما أنه ليس له قلبان، وكذلك ليس هناك ابن غير حقيقي، يعني: ليس للإنسان ابن خلق من مائه وابن نسب إليه ولم يخلق من مائه، بل ابنك من خلق من مائك. وهذا ما اختاره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، على أن هذه الجملة توطئة؛ لأن انتفاء القلبين في الجوف الواحد أمر معلوم، والقصة التي ذكروها ينظر في صحتها، وحتى لو صحت، فإن هذا الذي يقول إن له قلبين، ادعاؤه أن له قلبين يدل على أنه لا قلب له؛ لأن هذا أمرٌ مستحيل.

يقول الله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ فهل قوله ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ يعتبر قيدًا شرطيًّا له مفهوم؟

فيقال: لا، ولكنها لبيان الواقع؛ لأنه من المعلوم أن القلوب في الأجواف وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]؛ لأن قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ كقول الإنسان: ولا ماشٍ يمشي برجليه، لبيان الواقع، وإن كان بعض المتأخرين زعم في قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أنها قيد شرطي لتخرج الطائرة المعروفة، لأنها تطير بغير جناحيها، وقد يقال: إن هذا ليس بصحيح أيضًا، حتى الطائرة الآن تطير بجناحيها أين النفاثات؟ النفاثات التي تطير بها في الجناحين، والمراوح التي كانت في الأول في نفس الجناحين، لكن لا شك أن الطائرة ما هي من الأمم التي هي أمثالنا، بل هي من صنعنا.

إذنْ قوله تعالى ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾، لبيان الواقع.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي﴾ يقول المؤلف: [بهمزٍ وياءٍ وبلا ياءٍ]، بهمزٍ وياء تكون: ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾، وبلا ياء، يعني: بهمزٍ بلا ياء، تكون اللاءِ، وهي كما نعرف جميعًا جمع التي، فهي مثل الذين في الذكور، جمع الذي، اللائي.

وقوله: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ يقول: [بلا ألف قبل الهاء وبها والتاء الثانية في الأصل مدغمة في الظاء] ﴿تظَّهَّرون﴾ وهذه قراءة وفي الأولى يقول: [بلا ألف قبل الهاء]، وبها يعني بألف قبل الهاء، فتكون ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾، هذان قراءتان، وإلى الآن ما جاء المؤلف بالقراءة المشهورة عندنا وهي ﴿تظاهرون﴾، فيكون في الآية ثلاث قراءات: ﴿تظَّهَّرون﴾، ﴿تظَّاهرون﴾ والثالثة ﴿تُظَاهرون﴾، وتظَّهَّرون وتظَّاهرون، يقول: [والتاء الثانية في الأصل مدغمة، التاء مدغمة في الظاء] وأصلها تتظاهرون، أو تتظهَّرون، لكن صارت تظَّهَّرون فأدغمت التاء في الظاء.

فما معنى ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾؟ أي: تقولون: إنهن عليكم كظهور أمهاتكم، وهذه صيغة طلاق في الجاهلية، أي: إذا أراد الإنسان أن يطلق امرأته طلاقًا بائنًا، قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، فتطلق طلاقًا بائنًا؛ لأن ظهر أمه لا يحل له بحال من الأحوال، وخص الظهر؛ لأنه محل الركوب، والإنسان يركب زوجته؛ لأنها فراش، كما قال النبي ﷺ.

إذنْ ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ أي: تقولون: لهن أنتم علينا كظهر أمِّنا، وهذه الجملة يعتبرها أهل الجاهلية طلاقًا بائنًا، أما في الإسلام فليست بطلاق، بل هي «ظهار»، أي: أنها موجبة لتحريم المرأة حتى يفعل الإنسان ما أمره الله به كما في سورة المجادِلة.

يقول: [﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ يقول الواحد مثلًا لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي]، ويمكن أن يقول غير هذه العبارة، فممكن أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي، ويمكن أن يقول: أنت علي كبطن أمي، فالعبرة بالمعنى لا بالصيغة، وقد مر علينا في كتاب «الظهار» تعريفه: وهو أن يشبه الرجل زوجته بمن تحرم عليه تحريمًا مؤبدًا بنسبٍ أو بسبب مباح، المهم: أن يكون تحريمًا مؤبدًا، هذا هو الظهار عند أهل العلم، وسبق الخلاف فيما لو حرَّمها أو لو ظاهر منها، وشبهها بمن تحرم عليه

تحريمًا إلى أمد.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، الذي نصبها ﴿جَعَلَ﴾، والمفعول الأول: ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾، و﴿الَّٰٓـِٔي﴾ صفتها، و﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ صلة الموصول، و﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ المفعول الثاني.

قال المؤلف: [أي كالأمهات في تحريمها بذلك، المعدّ في الجاهلية طلاقًا، وإنما تجب به الكفارة بشرطه كما ذكر في سورة المجادلة]، هذا في الإسلام ليس بطلاق، ولكنه تحريم تجب به الكفارة بشرطه وهو العود، لقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[المجادلة:٣].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قال المؤلف: [جمع دعي، وهو من يُدعى لغير أبيه ابنًا له] أدعياء جمع دعي، كأغنياء جمع غني، وأكفياء جمع كفي ولها أمثلة، ودعي فعيل بمعنى مفعول وأصلها دعيو بالواو، لكن قلبت الواو تاءً لعلةٍ تصريفية.

إذنْ دعي بمعنى مدعو، والدعاء في الأصل طلب الإقبال والمراد بادعاء هنا النسبة، بأن ينسب إلى غير أبيه، فيقال: هذا ابن فلان وليس ابنًا له حقيقةً، وهؤلاء الأدعياء ما جعلهم الله تعالى أبناءَ لا شرعًا ولا قدرًا، أما لا قدرًا فواضح، وأما شرعًا فهنا نفى الله عنه، قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، فإذا كان الأدعياء ليسوا أبناءَ لا قدرًا ولا شرعًا؛ فإنه لا يتوجه الذهن إليهم شرعًا، هذه الكلمة التي أقولها يتبين بها ضعف قول من يقول في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] إن قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ قيد يحترز به عن ابن التبني؛ لأننا نقول: ابن التبني لا يدخل في الابن أصلًا، فلا يذهب إليه الوهم، حتى نقول: إنه يحتاج إلى قيد يحترز به عنه، وسبق أن بحثنا هذه المسألة في باب «المحرمات في النكاح».

المهم: أن الأدعياء ما جعلهم الله أبناءَ لا شرعًا ولا قدرًا، وكانوا في الجاهلية يدْعُون الإنسان لغير أبيه، يكون هذا الرجل شريفًا، وذا نسب، وهذا الدعيُّ وضيعًا نسبه عند الناس ليس بذاك الشيء، أو ليس له نسب معلوم فيُدعَى إلى هذا الأَب من أجل رفعته، فأبطل الله ذلك؛ لأن دعوة الإنسان إلى غير أبيه، يترتب عليها أمور، كل ما يترتب على النسب من تحريم وتحليل وإرث ونفقات وغيرها، ربما تنتقل إلى هذا الدعي بسبب أنه دُعي إلى هذا الرجل، فلذلك منع الله ذلك شرعًا؛ لأن تسمية الشيء باسم بعيد عن حقيقته، هذا يوجب أن تنقلب الأوضاع حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال:«**لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى صَلَاتِكُمُ العِشَاءَ، يَدْعُونَهَا العَتَمَةَ، وَهِيَ تَعْتِمُ بِإِبِلِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي كِتَابِ اللهِ العِشَاءُ**»[1]، فكل الأشياء التي إذا سميت باسم آخر ربما تختلف أحكامها، فإن الشرع نهى عنه.

وقوله:﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قال: [حقيقةً]، حقيقة تفسير لأبناء، يعني: ما جعلهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٤٤)، والنسائي (٥٤١)، وأبو داود (٤٩٨٤).

أبناء على وجه الحقيقة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ قال: [أي: اليهود والمنافقين] المؤلف يريد أن يكون الخطاب هنا لليهود والمنافقين، والصواب: أنه عائد على كل من دعا شخصًا لغير أبيه من الأدعياء، سواء كان من المنافقين، أو من اليهود، أو من المشركين، أو من المسلمين، فإن هذا قول يقوله الإنسان بِفِيهِ وليس حقيقةً، فهو نفسه يعلم أن هذا الدعي ليس ابنًا لهذا المدعو إليه، فكيف يقول ما يعتقد أن الأمر بخلافه؟!

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أتى بضمير الجمع في الخطاب، لأن المخاطبين جماعة، وقد مر علينا في اسم الإشارة: أن اسم الإشارة يراعى المشار إليه، والكاف يراعى بها المخاطَب، وهنا المشار إليه مفرد مذكر وهو دعوة الرجل إلى غير أبيه، والمخاطبون جماعة ذكور.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تقولونه بألسنتكم وأنتم تعرفون الحقيقة أنها ليست كذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قالوا لما تزوج النبي ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ التي كانت امرأة زيد بن حارثة، الذي تبناه النبي ﷺ، قالوا: تزوج محمد امرأة ابنه فأكذبهم الله في ذلك].

وكلام المؤلف بعيد من ظاهر الآية إلا أن كلام المؤلف يقول: إنهم بعد أن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش، وكانت في الأول عند زيد بن حارثة، قالوا هذا القول، والآية ما فيها إشارة للقصة إطلاقًا، إنما الآية يتحدث الله فيها عن ابن التبني، ما تحدث الله تعالى ولا أشار إلى تزوج الرجل بزوجة ابنه الذي تبناه.

والصواب: أن الآية إنما هي في نسبة الإنسان إلى غير أبيه تبنيًا.

وقوله: [﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ في ذلك ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيل الحق].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ المؤلف قيَّدها، فقال: [في ذلك]، والصواب: عدم القيد، حتى وإن كان السبب هو هذا؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ما هو الحق الذي يقوله الله عز وجل فيما يقوله؟

الجواب: فسره الله تعالى في القرآن نفسه، فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] هذا هو الحق الذي يقوله الله عز وجل، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، فكل ما قاله الله عز وجل فهو دائر بين أمرين: إما خبر وإما حكم، فالخبر أحقيته الصدق والحكم أحقيته العدل، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، ولهذا إذا قال قائل: ما هو الحق في قول الله؟

نقول: الحق في قول الله ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، لم يقل: (ويهدي السبيل)؛ لأن الجملة الثانية تتعدى للغير

فهناك هادٍ ومَهْدٍ، ومهدي إليه وفيه، هناك هادٍ وهو الله ومهدٍ وهو الإنسان مثلًا، ومهديٌّ إليه وفيه أيضًا، وهو الدين السبيل الموصل إلى الله عز وجل، مهدي إليه هذه هداية الدلالة، ومهدي فيه، هذه هداية التوفيق؛ لأنك تقول: دللته إلى كذا، وهديته في كذا بمعنى جعلته عاملًا فيه، وهذا هو الحكمة في أن الله عز وجل قال في سورة الفاتحة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، ولم يقل: إلى الصراط؛ لأجل أن تعم الهداية إليه بالدلالة إليه وبيانه، والثاني: الهداية فيه بالعمل به، وهذا مقصود كل داعٍ، يدعو الله عز وجل الهداية أن يهديه الله إلى الشيء فيعرفه ويعلمه ويهديه فيه، فلا يضل عنه.

إذنْ ﴿ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾(أل) هذه للعهد الذهني، وأي سبيل يراد بهذه الآية؟ المراد: سبيل الله عز وجل، والدليل أن المراد سبيل الله قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام:١٣٥]، إذنْ السبيل التي يهدي الله إليها هي سبيل الله عز وجل، وهي طريق الحق، ومن جملة ذلك أنه سبحانه وتعالى لم يجعل الزوجات اللاتي ظَاهر منهن أزواجهن أمهات، ولم يجعل الأدعياء أبناءً، فقال الحق في ذلك وهدانا السبيل في ذلك، فالزوجة زوجة، والابن الدعي ليس ابنًا.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذا السياق القرآني:** أن القرآن قد بلغ الغاية القصوى في الإقناع وإقامة البرهان، وجه ذلك أنه قدَّم الدليل على المدلول بصورة لا يمتري فيها أحد، وهي قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، فإن هذا أمر معلوم، ولا يتنازع فيه اثنان، أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، ليس فيه قلبان، لأن هذين القلبين إن اتفقا على أمر واحد صار القلب الثاني لا فائدة منه، وإن اختلفَا، تناقَضَا في عين واحدة، فماذا يصنع الإنسان؟ هل يتبع القلب الأيمن أم يتبع القلب الأيسر؟! يبقى محتارًا، لذلك ما جعل الله لرجلٍ من قلبين، لأنه في جسم واحد، وتأمل قوله: ﴿فِي جَوْفِهِ ﴾ يستفاد منها فائدة، غير أنها بيان للواقع، فيستفاد منها: أن الجوف الواحد لا يتناسب معه إلا قلب واحد، وإلا لكان القلبان في جوفين، لا في جوف واحد، فصار فيها فائدة، غير ما سبق، وهي أنها بيان للواقع، لأن الجوف الواحد لا يمكن أن يديره إلا قلب واحد.

إذن في الآية الكريمة: سياق الشيء بالبرهان، أو إثبات الشيء بالبرهان الذي يكون قاطعًا لا يمتري فيه أحد.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المرأة المظاهَر منها ليست أمًّا، لقوله : ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾، ويتفرع على هذه الآية أن جعلها أُمًّا في الظهار كذب، وزور، ومنكر، ولهذا قال الله في آية الظهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة:

٢]، فهو منكر لمخالفة الشرع وزور لمخالفته الواقع والحقيقة.

٣ ـ ويستفاد من الآية الكريمة: الإشارة أو التنبيه على تحريم الظهار؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، فإذا كان الله ما جعل ذلك، فإنه لا يحل لنا أن نجعل شيئًا لم يجعله الله، لأن الأمر من الله وحده.

٤ ـ ويستفاد من الآية: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أن الأبناء الأدعياء ليسوا بأبناء حقيقة، فهم ليسوا أبناءً قدرًا وليسوا أبناءً شرعًا ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

٥ ـ ويستفاد منها: أنه إذا لم يكن الابن الدَّعي ابنًا لا شرعًا ولا حقيقةً، فإنه لا يحتاج إلى قيد يخرجه من معنى البنوة؛ لأنه غير داخل فيها أصلًا حتى نحتاج إلى قيد نخرجه به، ويتفرع على هذه الفائدة: بيان ضعف قول من يقول: إن الاحتراز في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾عن ابن التبني؛ لأننا نقول: إنه ـ أصلًا ـ لم يدخل حتى يحتاج إلى قيد يخرجه.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يقول قولًا لا يعتقده؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

٧ ـ ويستفاد منها: أنه ليس من الرجولة، وليس من العقل أن يقول الإنسان قولًا بفِيهِ، وهو لا يعتقده بقلبه؛ لأن المراد من قوله تعالى: ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ التنديد بهم والتوبيخ لهم، كيف تقولون شيئًا بأفواهكم وأنتم تعترفون بقلوبكم بأنه ليس موافقًا للواقع؟!!

٨ ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن قول الله ـ عز وجل ـ كله حق، ليس فيه باطل، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، والحق سبق أنه في كلام الله هو الصدق والعدل، لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، فهو باعتبار الخبر صدق، وباعتبار الحكم عدل.

٩ ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن كلام الله ـ عز وجل ـ ليس فيه تناقض، لقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، والتناقض لا يكون إلا في الباطل، فالحق لا يمكن أن يتناقض.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما وصف الله به نفسه في كتابه، فهو على حقيقته، وليس فيه تحريف، أو تأويل؛ لأنه لو كان على خلاف ظاهِرِهِ، لكان ظاهره يدل على باطل، فإذا قلنا: إنه على خلاف الظاهر، لزم أن يكون دالًا على باطل، إذا كان المراد بآيات الصفات خلاف ظاهرها، صار ظاهرها باطلًا؛ لأنه خلاف المراد، وهذا ينافي قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقول إلا الحق.

١١ ـ ويستفاد من الآية: أنه مع ظهور أن الله يقول الحق، فإن الناس لا يتَّفِقُون عليه، لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ يعني: حتى مع أن الله لا يقول إلا الحق فليس كل أحد يهتدي لذلك، بل الهداية بيد الله ـ عز وجل ـ.

١٢ - **ويستفاد من الآية الكريمة**: أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه - سبحانه وتعالى - في سؤال الهداية؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، وتأمل تغيير الصيغة؛ حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، ولم يقل: (ويهدي السبيل) لأجل أن تكون الجملة الثانية مستقلة بركنيها، بمبتدئها وخبرها؛ لأن قوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي﴾ هو مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِي﴾ خبره، فهذه الجملة مستقلة عن الأولى؛ لأن ذلك أبلغ في بيان أن الهداية بيد الله - سبحانه وتعالى -.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن طريق الحق واحد، لقوله: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو مفرد، ولهذا السُّبل تأتي جمعًا فيما يخالف الحق، مثل قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالصراط أفرده في قوله: ﴿صِرَٰطِي﴾، أما الصراط الآخر المخالف لصراط الله جمع، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾.

وإذا جاء طريق الحق مجموعًا فالمراد تنوع شرائعه، وكذلك الوليُّ: أولياء الكفار في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]؛ لأن سبل غير الحق متنوعة، وكل نوع منها عليه طاغوت يدعو إليه.



قال الله تعالى:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥]

التفسير

قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ قال المؤلف في التفسير: [لكن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾]، هنا أتى بالاستدراك، وفي ظني: أنه حاجة إلى الاستدراك، وأن الجملة استئنافية، فلما أبطل الله سبحانه وتعالى أن يكون هؤلاء الأدعياء أبناءً، أمر بأن ندعوهم لآبائهم، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما كانت الآية الثانية ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾، غير مقابلة لما نفاه الله في الأول، يعني: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، لكن جعلهم أبناء آبائهم، فرأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا هو وجه الاستدراك.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، لكن جعلهم أبناء لآبائهم فادعوهم لآبائهم، نقول:

هذا لا حاجة إليه، فالجملة استئنافية، ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾، أي: انسبوهم لآبائهم، تقول: يابن فلان، وكلمة ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾ جمع أبٍ، هل المراد هنا باعتبار المدعوين، يعني: لأن الناس كثيرون، أو أن المراد آباؤهم بالنسبة لكل شخص، بمعنى: أن الإنسان ينسب إلى أبيه وجده وهكذا، أو شامل للأمرين؟

الجواب: هو شامل للأمرين، فالإنسان يُدعى لأبيه يقال: فلان بن فلان بن فلان، والرسول ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، بل إنه عليه الصلاة والسلام قال: أنا ابن عبد المطلب، ومحمد عندنا صاحب «الألفية»، قال محمد، واسمه: محمد بن عبد الله، أبوه عبد الله، فهو فيما يظهر أنه شامل، يعني: أنه جمع باعتبار أفراد الناس، وجمع باعتبار الآباء؛ لأن الآباء أبٌ أدنى، وأبٌ فوق.

وقوله: ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿هُوَ﴾ الضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ ﴾ أي: هو دعاؤهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨] ﴿هُوَ﴾ أي: العدل المفهوم من الفعل، فهنا ﴿هُوَ﴾ أي: دعائهم لآبائهم ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: أعدل.

وقرأها بعضهم باسم الفاعل، أي: ﴿هُوَ قَاسِطٌ عِنْدَ اللهِ﴾، يعني: هو العدل عند الله عز وجل، وإنما لجأ إلى ذلك؛ لأن المعروف أن اسم التفضيل يشترك في أصل معناه: المفضل والمفضل عليه، فإذا قلت: فلانٌ أشجعُ من فلان، فكلاهما شجاع، لكن هذا أشجع، فهنا إذا جعلنا اسم التفضيل على بابه، وقلنا: دعاؤهم لآبائهم أقسط عند الله من دعائهم لمن تبناهم، صار في دعائهم لمن تبناهم عدلٌ، مع أنه لا عَدلَ فيه، ولذلك قال بعض المفسرين: إن (أفعل) التفضيل هنا إنه بمعنى اسم الفاعل، حتى لا يكون في الطرف الثاني منه شيء.

وقال بعض المفسرين: هو على بابه، واللغة العربية تأتي باسم التفضيل دائمًا فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ [الفرقان:٢٤] مع أن أصحاب النار لا خير في مستقرهم.

وعلى هذا فنقول: إبقاء الآية على ظاهرها، يكون أولى، فإذا قلنا ذلك، فإنه يرد علينا سؤال، لماذا عبَّر بأفعل التفضيل في طرف ليس في الطرف الآخر منه شيء؟

قلنا: لبيان أن هذا غاية ما يكون من العدل يقول: فائدتها: أن دعاءهم لآبائهم أعدل شيء، وهو غاية ما يكون من العدل، فاسم التفضيل هنا باعتبار المعنى، أي: أن هذا أعدل شيءٍ، وكلمة ﴿أَقۡسَطُ﴾ اسم تفضيل من الثلاثي؛ لأن اسم التفضيل لا يصاغ إلا من الاسم الثلاثي، ثم إن الرباعي من هذه المادة ليس بمعنى العدل، بل بمعنى الجور، فالقاسط: هو الجائر، والمقسِط: هو العادل، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن:١٥] وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحُجُرات:٩].

إذنْ يَرِد علينا إشكال في مسألة الأقسط هنا، فنقول في الجواب عنه: إن في هذا دليلًا على صحة مذهب الكوفيين الذين يقولون بجواز صيغة اسم التفضيل من غير الثلاثي، يقولون: أقسط من باب الإقساط، يعني: أن ذلك أعدل.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: في حكمه؛ لأن حكم الله عز وجل يضاف إليه، وهذا نظير قوله تعالى في الذين يرمون المحصنات: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، تأمل قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾! انتقلنا الآن عن الآية، إذا قذف رجل امرأةً بالزنا، فهو باعتبار الواقع، قد يكون حقًّا وقد يكون كذبًا، أي: قد يكون حقًّا أنها زنت، وقد يكون كذبًا، لكنها في حكم الله كذب، ولهذا قال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ما قال: فأولئك هم الكاذبون؛ لأنه قد يكون حقيقة باعتبار الواقع، لكن في شرع الله هم كاذبون، ولهذا يجب عليهم حد القذف، إذا لم يأتوا بأربعة شهداء.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: إن لم تعلموا آباء هؤلاء الأدعياء، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يعني: وليسوا أبناءكم، يعني: حتى في الحال التي لا يعرف لهذا الرجل أبٌ، فإنه لا يجوز أن يُنسب إلى غير أبيه، ولكن يكون أخًا لنا في الدين، ومولىً لنا إذا كان قد دخل في مُلكنا ثم حررناه مثلًا، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة اختصام علي وجعفر وزيد بن حارثة، قال لزيد: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا» فهو أخ في الدين، وليس ابنًا لي، وهو أيضًا مولاي إذا كنتُ قد أعتقتُه، ولو لم أعرف أباه، فإنه لا يُنسب إليَّ؛ ولهذا تجدون العلماء - رحمهم الله - الذين يكتبون أسماء الرجال، عندما ينسبون أحدًا من الموالي إلى مَنْ أعتقه، يقول: القرشي مولاهم مثلًا، والتميمي مولاهم؛ لأنه لو قال: القرشي فقط، يظن الظان أنه قرشي حقيقةً، فإذا قال: مولاهم، يعني: أنه نسب إليهم، لكونه مولىً لهم، ومولى القوم منهم، حتى إن العلماء قالوا في الصدقة: إنها تحرم على موالي بني هاشم؛ لأن مولى القوم منهم، لكنهم لا ينسبون إليه نسبًا حقيقيًّا؛ بل لا بد من أن يقيد.

أما كونهم إخواننا في الدين، فظاهر، وأما كونهم موالي، فإن كان عتيقًا للمرء فهو مولىً له بالعِتق، وإن لم يكن عتيقًا له فهو مولىً له في الدين، لأن المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١] فهم إخوانكم ومواليكم، فتدعوه بيا أخي، ولو قلت: يا بن أخي يصلح، ولهذا المؤلف يقول: [﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ بنو عمكم] فجعل الولاية هنا ولاية النسب، وليست ولاية الدين، لكن في النفس من هذا شيء؛ فالولاية إما ولاية نسب، وإما ولاية دين، وإما ولاية عتق، فأما ولاية العتق، فواضح أن العتيق مولىً لمن أعتقه، وأما ولاية الدين: فظاهر أيضًا أن كل مؤمن وليٌّ لأخيه المؤمن.

أما ولاية النسب، لقوله: [بنو عمكم]، فهذه إن كانت اللغة العربية يأتي فيها مثل هذا التعبير، فنحن نقبل ذلك، لأن القرآن عربي، ولا مانع من أن يكون للفظ الواحد عدة معان إذا كانت لا تناقض بينها.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ ﴿جُنَاحٌ﴾ اسم (ليس) مؤخرًا، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾قال: [في ذلك]، أي: في دعائهم لغير آبائهم، يعني: أن الإنسان لو أخطأ، فدعا شخصًا لغير أبيه، فإنه ليس عليه إثم؛ لأنه أخطأ، والخطأ مرفوع عن هذه الأمة (١).

وفي قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، المؤلف يقول: [في ذلك] فكأنه خص الآية، والصواب أنها عامة، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإذا كان السبب هو دعوة الإنسان لغير أبيه، فإنه لا يقتضي تخصيص هذا العام بهذه المسألة؛ لأن القاعدة المقررة: أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهذه القاعدة لها أدلة من القرآن والسنة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ [المجادلة:١،٢]، فالسبب خاص، ولكن الحكم عام.

وكذلك في السنة: «رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا فِي السَّفَرِ قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، وحَوْلَهُ زِحَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: صَائِمٌ، فقال: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» إلا أن هنا، أي: في الحديث الذي ذكرت، فيه أن قوله: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ».

إذا قلنا:أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإنه يشكل على هذا أن النبي ﷺ كان يصوم في السفر، كما في حديث أبي الدرداء: «مَا فِيْنَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُوْلُ الله ﷺ وعبدُ الله بِنْ رَوَاحة» فكيف نجيب عن هذا الحديث «لَيْسَ مِنْ البِرِّ»، هل النبي ﷺ لم يفعل برًّا؟

الجواب: كلا، نقول: كما أشار ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللهُ إلى هذه المسألة، إن العبرة بعموم اللفظ، لكن يراعى المعنى الذي من أجله، وردت هذه الصيغة، فالمعنى هو المشقة، هنا نقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أي أنه لا يختص هذا الحكم بهذا الرجل بعينه، لكنه عام في جميع الناس، إلا أنه يجب أن نراعي المعنى الذي من أجله وردت هذه الصيغة العامة، وهي المشقة، فنقول: «لَيْسَ مِنْ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» إذا أدى إلى مثل هذه الحالة، وهذا واضح جدًّا، فهل هذا خرج عن القاعدة: العبرة بعموم اللفظ؟

نقول: لا، لأنه لو خُص الحكم بالرجل المعين، لكان خارجًا عن القاعدة، لكنه ما خُص به؛ لأنه عام لكل من صام ولحقه من المشقة ما لحق هذا الرجل.

---

(١) وذلك لقول النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

إذنْ فالحديث لم يخرج عن القاعدة، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لا يختص فيمن دعا رجلًا بغير أبيه مخطئًا بل هو عام، وهذه القاعدة العظيمة في الشريعة الإسلامية، سيأتي إن شاء الله تعالى بيان ما يترتب عليها من الفوائد.

ثم إن قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، ظاهره العموم في المأمورات وفي المنهيات، ولكن من تدبر النصوص وجد أن هذا خاص في المنهيات فقط، أن الإنسان ليس عليه جناح فيما أخطأ به؛ أما في المأمورات فليس عليه جناح فيما أخطأ به، ولكن هذه المأمورات إذا كان خطؤه مخلًا بصحتها، فلابد من إعادتها على وجهٍ صحيح، فهنا بالنسبة للمنهيات، ليس عليه جناح، ولا تبعة، ولا أثر، لكن بالنسبة للمأمورات ليس عليه جناح فيما أخطأ به، إلا أنه إذا كان هذا الخطأ مخلًّا بصحة المأمور، فإنه يجب إعادة المأمور على وجه صحيح، انظر مثلًا إلى الرجل الأعرابي الذي صلى بغير طمأنينة، مخطيء أم عامد؟ مخطيء؛ لأنه جاهل، يقول: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا فَعَلِّمْنِي، هل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ تركه، أو أمره أن يعيد الصلاة؟ أمره أن يعيد الصلاة، فلهذا نقول: إنه ليس عليه إثم في صلاته الأولى التي أخل فيها بواجب الطمأنينة؛ لأنه جاهل، لكن يجب عليه أن يعيد العبادة على وجهٍ صحيح.

وكذلك لو أن أحدًا ترك واجبًا من واجبات الحج جاهلًا، فإنه لا إثم عليه، لكن عليه إعادة ذلك الواجب، إن كان يمكن تداركه، فإن لم يمكن تداركه، فعليه بدله ـ عند جماهير أهل العلم ـ وهو فدية يذبحها في مكة، ويوزعها على الفقراء.

وقوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، (ما) هذه من صيغ العموم تشمل كل ما حصل فيه الخطأ، [﴿وَلَٰكِن﴾ في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فيه وهو بعد النهي]، أما قبل النهي، فإنه لا يؤاخذ به الإنسان؛ لأن الحكم لم يتقرر بعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢]، وقال أيضًا: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣]؛ لأنه قبل تقرير الحكم وثبوته شرعًا، فالأصل البراءة، وهو ما يعبر عنه الأصوليون: بالبراءة الأصلية.

وقوله: ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ؛ لأن المدار على القلب إذ إنه هو الذي يدبر الجوارح؛ لقول النبي ﷺ «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»، وهل القلب هو عبارة عن هذه البَضْعَة من اللحم أم أن المراد بالقلب: العقل المفكر، ومحله هذه القطعة من اللحم ؟

الصحيح: أنه الثاني، ولكن أين محل العقل؟ الصحيح أنه القلب؛ لأن الله قال في القرآن: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦]، فجعل العقل في القلب، ولهذا قال الإمام أحمد: إن العقل في القلب، وله اتصال بالدماغ. ولكني رأيت كلامًا لشيخ الإسلام ابن

تيمية أقرب إلى الواقع، وإلى الطب الحديث، يقول: إن أصل التفكير في الدماغ، ثم القلب يدبر يأمر وينهى، فيكون المخ كالسكرتير للقلب، يفكر وينظر، ثم يرسل إلى القلب، والقلب هو الذي يدبر بلا شك؛ لأن الكتاب والسنة يدلّان على أن القلب هو الذي يدبر، كما في الآية، وكما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلحتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلُّه، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، ولكن الاتصال بين المخ والقلب سريع ما يتصور سرعته، وهذا من تمام عظمة الخالق، ـ عز وجل ـ حيث إن هذه المعدات العظيمة في هذا البدن معامل، وآلات إلكترونية، وأشياء ـ سبحان الله العظيم ـ، إذا بحث الإنسان يجد ما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠،٢١] فسبحان الخالق العليم.

قال المؤلف: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما كان من قولكم قبل النهي، ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم في ذلك].

قوله: [لما كان من قولكم قبل النهي]، في هذا نظر ظاهر جدًّا، ووجهه: أنه قبل النهي لم يثبت الحكم حتى يكون الإنسان مخالفًا، فيوصف عدم مؤاخذته بالمغفرة؛ لأن المغفرة فرع عن وجود الذنب، وهنا لا ذنب قبل أن يتقرر الحكم، والصواب أنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيما وقع من قولكم بعد النهي على سبيل الخطأ، فإن هذا من مغفرته ـ سبحانه وتعالى ـ ورحمته، حيث إنه يرفع الخطأ عمن فعله بعد النهي وتقرُّر الحكم.

ثم يقال أيضًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تعود إلى الفعل الخطأ، والفعل العمد، أما الفعل الخطأ فإن رفع المؤاخذة به من آثار الرحمة، ولو شاء الله تعالى لكان يؤاخذ عبادَه بالجهل كما يؤاخذهم بالعمد، لكنَّ رحمته سبقت غضبَه سبحانه وتعالى.

وأما ﴿غَفُورًا﴾، فإنه يعود إلى ما فُعل عمدًا فإن من مقتضى كون الله غفورًا أن يسعى الإنسان في أسباب مغفرته وذلك بالتوبة مما حصل منه، فإذا تاب، فإن الله يتوب عليه ويغفر له.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب دعوة الإنسان إلى أبيه ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ يعني: انسبوهم لآبائهم لفظًا وحقيقةً؛ أما لفظًا فتقول: يا فلان بن فلان، فتنسبه إلى أبيه، وأمَّا حقيقةً: وذلك أن تعتقد أن البنوة الحق، إنما هي للأب الحقيقي الذي وُلد الإنسان من صلبه، لا للأب الذي ادُّعِيَ أنه أب.

٢ ـ **ويستفاد من الآية الكريمة:** أنه لا ينبغي أن يُدعى الإنسان لغير أبيه، وهذا نوعان:

أحدهما: أن يُدْعى لغير أبيه لفظًا وحقيقةً، فهذا لا يجوز، بل إن النبي ﷺ جعل ذلك من الكفر، إذا ادَّعَى الإنسانُ لغير أبيه وهو يعلمه، فإن ذلك كفر قال: «فَإِنَّه كُفْرٌ بِكُم أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُم».

الثاني: أن يَدَّعي إلى غير أبيه لفظًا، ولكن لا تثبت له أحكام البنوة إطلاقًا إلى من ادعى إليه، مثل هذا نقول: إنه خلاف ما أمر الله به، ولكن أهل العلم يقولون: إن الإنسان إذا اشتهر به مع عدم الالتفات إلى أحكامه ومقتضياته، فإنه جائز، وذكروا لذلك مثلًا وهو المقداد بن الأسود، فإن المقداد بن الأسود ليس أبوه هو الأسود، ولكن الأسود كان قد تبناه، واشتهر بهذه الكُنية حتى أبطل الله التَّبَنِّي، ولكن بقي مشهورًا بذلك، قالوا: فهذا لا يضر؛ لأنه انتفت عنه أحكام التَّبَنِّي، ولم يبق إلا اللفظ.

ومع هذا فإن الأفضل بلا شك، هو أن يُدْعَى إلى أبيه، لكن المشكل أن الشيء إذا اشتَهَـرَ، فوصفته بغير ما اشتُهر به، حصل بذلك التباس، الآن لو قلنا: عن عبد الرحمن بن صخر أن النبي ﷺ قال: كذا وكذا، يمكن أن كثيرًا من الناس، لا يدري من هو، لكن إذا قلت: عن أبي هريرة، فكلنا يعرفه.

٣ - وفي الآية الكريمة دليل على: أن الأعمال تتفاضل عند الله؛ لقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أبلغ في العدل، ووجه ذلك: أن هذا الرجل الدَّعِي، كوننا ننسبه إلى غير أبيه فهو باعتبار أبيه ظلم، كيف تنسبه إلى شخص ما أتى من صلبه، وتحرم من أتى من صلبه من دعوته إليه؟! هذا لا شك أنه جور، ولهذا قلنا: إن اسم التفضيل - هنا - ليس في الطرف الآخر منه شيء، لأنه ليس فيه أي عدل في أن تنسب الإنسان إلى غير أبيه، وقلنا: إن فائدة التفضيل هنا: بيان أن هذا الشيء قد بلغ الغاية في العدل، لأن هذا جيء به باسم التفضيل، قال: ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٤ - ويستفاد من الآية الكريمة: نفي الإثم في الخطأ؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾.

٥ - ويستفاد منها أيضًا: نفي الحِنث في الخطأ أيضًا، والحِنث يعني: الحنث في اليمين، فإذا حلف الإنسان ألا يفعل شيئًا، ففعله جاهلًا به مثل: حلف ألا يكلم إنسانًا فكلم شخصًا لا يدري أنه فلان الذي حلف على ترك تكليمه، فإنه ليس عليه حنث، وكذلك أيضًا في الطلاق، فلو علق الطلاق على شيء ففعله جاهلًا أنه الشيء الذي علق الطلاق عليه، فإنه لا حنث عليه، وكذلك لو فَعَلَ مُكَفِّـرًا، جاهلًا أنه مكفر، فإنه لا إثم عليه، ويؤخذ هذا كله من العموم في قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾، من العموم.

ثم إن نفي الإثم لا يستلزم نفي القضاء فيما يجب قضاؤه، وعلى هذا فتكون الآية في باب المحظورات، لا في باب المأمورات، ولهذا لم يعذر النبيُّ ﷺ الجاهِلَ الذي كان يصلي، ولا يطمئن في صلاته حيث جعله يعيد مرةً بعد أخرى حتى يعلمه وبيّن له[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٧)، و مسلم (٣٩٧).

إذن نقول: باب المأمورات لا يؤاخذ الإنسان بتركه إياها جهلاً، لكن لا يلزم من عدم مؤاخذته بتركها جهلًا أن يسقط عنه فعلُها أو فعل بدلها؛ والدليل أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يعذر الجاهل في ترك الطمأنينة، ولكنه سبق لنا أن قلنا: إنه قد يكون الإنسان مفرطًا في ترك السؤال فيلزمه الإثم بتفريطه.

مسألة: هل هذه الآية عامة في حق الله وفي حق الآدمي؟

الجواب: نقول: حتى في حق الآدمي؛ لأن الآية عامة قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لكن لا يلزم من انتفاء الإثم انتفاء الضمان في حق الآدمي، يعني: يُلْزَمُ بضمانه، فلو أن رجلًا أكل طعامَ رجل جاهلًا أنه طعامه فهل عليه إثم؟ لا، لكن يلزمه ضمان الطعام؛ لأنه حق آدمي، لكن الإثم منتفٍ عنه، أما لو علم أنه طعام فلان، فإنه يأثم مع الضمان.

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة** سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ، حيث أسقط الإثم عمن كان مخطئًا وذلك في قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾.

٧- ويستفاد منها: إثبات اسمين كريمين من أسماء الله يؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وما تضمناه من الصفة، وما تضمناه من الحكم أيضًا وهو الأثر؛ لأن الغفور والرحيم متعديان متعلقان بالغير، وقد مرت علينا قاعدة في أسماء الله وصفاته (أنه إذا كان الاسم متعديًا فإنه يلزم الإيمان به اسمًا لله، وبما تضمنه من صفة، وبما يترتب عليه من الحكم وبعضهم يقول الأثر).

٨- ويستفاد من الآية الكريمة: أن مدار الأحكام والمؤاخذ عليها هو القلب، لقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وهذا له شواهد كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، في الآية الأخرى قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ومنها قوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] وبناءً على ذلك، لو أن المُحْرِم قتل صيدًا غير متعمد، فإنه لا يأثم ولا يضمن؛ لأنه حق لله، والله ـ تعالى ـ قد عفى عن حقه، وبه يُعرف ضعفُ قول من قال: إن جزاء الصيد واجب حتى على من قتله خطأً في حال الإحرام، مع أن الآية صريحة قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾.

مسألة: وهل يلحق بذلك لو قص أظفارَه جاهلًا، أو حلق رأسه وهو محرم؟

الجواب: نعم، من باب أولى.

ويلحق به ما لو جامع زوجته، مثلًا لو أن رجلًا في مزدلفة جامع زوجته، وهو في مزدلفة، جاهلًا استنادًا إلى قول النبي ﷺ «**الحَجُّ عَرَفَةُ**» فليس عليه شيء، لا إثم، ولا فساد نسك، ولا قضاء؛ لأنه جاهل وما تعمد.

الخلاصة: أن كل شيء لا يتعمده الإنسان بقلبه فإنه لا إثم عليه، وإذا كان من حق الله سقط عنه الإثم والضمان - إن كان مما يضمن أو مما تجب فيه الكفارة -، وإذا كان في حق آدمي، سقط عنه الإثم ووجب الضمان، إلا أنه يُستثنى من هذا مسألة واحدة؛ وهي (قتل النفس) فإن قتل النفس وإن كان خطأً، تجب فيه الكفارة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] فأوجب الله حقه وحق العباد، وذلك لعظم قتل النفس؛ لأن قتل النفس - والعياذ بالله - عمدًا، ما تَحُلُّه الكفارة ولا ينفع فيه إلا التوبة النصوح مع استيفاء الحقوق.



قال الله تعالى:

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]

التفسير

قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ مبتدأ و﴿أَوْلَىٰ﴾ خبر، وهي اسم تفضيل من الولاية، ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [فيما دعاهم إليه، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه] انظر كيف حَوَّل المؤلف المعنى، يعني: أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا دعاك إلى شيء، ودعتك نفسك إلى خلاف هذا الشيء فإن النبي أولى بك من نفسك، يعني: فأَطِع النبي، وخالف نفسك، وهذا لا شك أنه داخل في الآية، لكن الآية أعم وأشمل، وأدق، يعني إذا كان الإنسان يسأل نفسه بما فيه الخير، فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أولى به من نفسه.

ويشمل عدة وجوه:

الوجه الأول: أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالنسبة للمؤمنين أبلغ من أنفسهم في مراعاة مصالحهم وما ينفعهم، وفي دفع الضرر عنهم؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - «أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»(١) هذه من جملة قوله الداخلة في قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثانيًا: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، في تقديمه على أنفسهم، ولهذا لا يتم الإيمان حتى يكون

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٧١)، و مسلم (١٦١٩).

النبيُّ ﷺ أحب إليك من نفسك، كما قال عمر: «وَالله يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَر؟ قَالَ: وَمِنْ نَفْسِي، قَالَ الآنَ يَا عُمَر»[1]، فيجب على كل مؤمن أن يحب النبي ﷺ أكثر من محبته لنفسه.

ثالثًا: ما أشار إليه المؤلف من أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى بك من نفسك فيما يدعوك إليه، وتدعوك نفسك إليه، فإذا دعتك نفسك إلى شيء يخالف ما دعاك إليه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن النبي ﷺ أولى بك من نفسك.

إذن ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ كلمة عامة تشمل كل ما فيه ولاية وتولي، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أما غير المؤمنين فإن هذا الوصف لا ينطبق عليهم، بالنسبة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، انظر إلى الفرق في التعبير فما قال: (النبي أب للمؤمنين، وأزواجه أمهاتهم) لكن قال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فهي أشد من الأب، فأبوك ليس أولى بك من نفسك، لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى بك من نفسك، فهذا أعظم من قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾، ومن أجل هذه الولاية، التي هو أولى بك من نفسك، كانت أزواجه أمهات لنا، أمهات لنا من قِبَلِهِمْ أم من قبلنا؟ أي: هل هن ينظرن إلينا كالنظر إلى الأبناء، أو نحن ننظر إليهن كنظر الأمهات أو الأمرين؟

الجواب: نقول الأمرين؛ فنحن نعلم أن أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ بالنسبة لأمّة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أمّة الإجابة، ينظرن إلى هذه الأمّة كما تنظر الأم إلى أولادها، ونحن يجب علينا أن ننظر إليهن كما ننظر إلى الأمهات؛ لأنهن زوجات من هو أولى بنا من أنفسنا؛ أي: النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلا جرم أن يكنَّ بمنزلة الأمهات في الاحترام والتقدير والدفاع عنهن، وعدم التعرض لما وقع مما وقع، إن وقع شيء في مخالفتهن، بغَيْرَة أو غيرها؛ لأن النساء معلوم أنه يكون بينهن غَيْرة، فقد تخطئ المرأة خطأً تحملها عليه الغيرةُ، والغيرة أمر يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان، كما أن الغضب يملك الإنسان ولا يملكه، فما وقع في مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التحريم:٤] مثل هذا يجب علينا أن ندافع بقدر ما نستطيع، مَنِ اتخذوا مِنْ مثل هذه القضية اتخذوا منفذًا للطعن في زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا ريب أن من طعن في زوجات النبي ﷺ، لا يقتصر طعنه عليهم، بل يشمل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فلو أن رجلًا اتخذ من فواسق النساء زوجات له، هل هذا مدح له أو قدح؟ إنه قدحٌ بلا شك،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢)، و أحمد في «مسنده» (١٧٥٨٦).

فمن قدح في واحدة من أمهات المؤمنين، فإن قدحه يتعدى إلى النبي ﷺ بلا شك ولا سيما إذا كان القدح فيما يتعلق بالشرف والنزاهة؛ ولهذا الصحيح من أقوال أهل العلم: أن من رمى بالزنا واحدة من أمهات المؤمنين فإنه يكون كافرًا كفرًا مخرجًا عن الملة، أما عائشة إذا رماها بما برَّأها الله به، فلا شك في كفره؛ لأنه مكذب للقرآن، وأما غيرها؛ فإنه إذا قذف واحدةً بالزنا، فإنه مكذب للقرآن أيضًا من جهة أخرى، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦]، ولا شك أن الزنا - والعياذ بالله - خبث، فأنت إذا وصفت واحدةً من أمهات المؤمنين بالزنا، وإن لم تكن عائشة رضي الله عنها، فقد وصفت النبي ﷺ بالخبث - نسأل الله العافية - وحينئذٍ يكون الإنسان كافرًا بلا شك، فالصواب الذي عليه المحققون من أهل العلم: أن من قذف واحدةً من أمهات المؤمنين فإنه يكون كافرًا كفرًا مخرجًا عن الملة.

وكذلك من قذف غيرهن من زوجات الأنبياء، يكون كافرًا بالآية التي ذكرت ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ إلى آخره، والخبيثات: هن سيئات العمل، والخبث هو الزنا.

إذنْ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ من الناحيتين، يعني أننا لزوجات الرسول ﷺ بمنزلة الأبناء، وأنهن لنا بمنزلة الأمهات، لكن هل هو في المحرمية والنظر والخلوة، أو في الاحترام فقط؟ يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : [في حرمة نكاحهن عليهم] ما يكفي هذا، في حرمة نكاحهن عليهم لا شك أنه لا يحل لأحد أن يتزوج امرأةً بعد وفاة النبي ﷺ من زوجاته، ولكن هذا الاحترام ليس لهن فحسب، بل حتى للرسول - عليه الصلاة والسلام - احترامًا له، ولذلك إذا توفي الرجل عن المرأة ولو كانت لا تحيض تعتد بأربعة أشهر وعشرًا، احترامًا للنكاح الأول، إلا إذا كانت حاملًا فبوضع الحمل.

إذنْ أقول: إنهن أمهات المؤمنين في حرمة النكاح وفي وجوب احترامهن.

فائدة: ذكر بعض أهل العلم أن مَن قَذَفَ غيره بسبب الغَيْرة، فإنه لا يُحد؛ لأن الغَيرة تملك الإنسانَ ولا يملكها.

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في قراءة لبعض السلف قوله: ﴿وَأَزْوَاجُه أُمَّهَاتُهم وَهوَ أَبٌ لَهُم﴾ لكنها قراءة لا تعتبر من القراءات السبعية، إلا أن بعضهم قرأ بها، ولكنك إذا تأملت قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وجدت أنه أعظم من الأب.

وسيأتينا - إن شاء الله - في الفوائد، هل أولادهن إخوة للمؤمنين، وهل إخوانهن أخوال للمؤمنين، وهل آباؤهن آباء للمؤمنين، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ [ذووا القرابات، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الإرث، ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، أي: من الإرث بالإيمان والهجرة الذي كان أول الإسلام فنسخ].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ (أولى) ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، وعلى هذا (فمن) هنا هي الدالة على المفضَّل عليه، إذا قلت: فلان أفضل من فلان فإن مِن فلان من هذه لتعيين المفضل عليه، وهنا ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، وقيل: إن ﴿مِنَ﴾ بيانية، يعني: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، يعني: أولو الأرحام سواءً كانوا مؤمنين فقط، أو مؤمنين مهاجرين، فإن بعضهم أولى ببعض.

ولكن أيهما أعم المعنيين إذا قلنا: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في الإرث من المؤمنين والمهاجرين، أو قلنا: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين، صار المعنى الأخير أعم وأشمل؟ الأخير صار أعم وأشمل.

وعلى كل حال الآية فيها قولان للمفسرين:

القول الأول: أن هذه ناسخة للإرث الثابت في أول الإسلام بين المؤمنين من الأنصار والمهاجرين من المسلمين، فكان بالأول جعل النبي ﷺ بينهم أخوة يتوارثون بها حتى أنزل الله آية الإرث، وجعل ذوي الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الرأي الثاني: أولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض، وعلى هذا فتكون الآية محكمة ليس فيها نسخ، وتكون أعم من الإرث أي: أولى ببعض في كل شيء، حتى في ولاية النكاح، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أولو بمعنى: أصحاب، والأرحام: جمع رحم؛ وهو القرابة، ولهذا قال المؤلف: [من ذوي القرابات] وأما ما اشتهر عندنا في عُرْفِنا أن الأرحام أقارب الزوجة، فهذا غير صحيح؛ فأقارب الزوجة يُسَمَّوْنَ أصهارًا، ومن أجل هذا الخطأ في المعنى صار بعض الناس يقول: أنتم تقولون: إن أسباب الإرث ثلاثة: رحم ونكاح وولد، أين الثالث؟ فالرحم والنكاح واحد عند هؤلاء، فيقولون أين الثالث؟ نقول: إن فهمكم للرَّحِم فهم خاطئ، وهذا هو ما يرمي إليه الشرع في تسمية الأشياء بأسمائها الشرعية حتى لا يحصل الخطأ، فالآن عند العامة، كلمة العَمّ تطلق على زوج الأم.

فكل هذه الأشياء ينبغي لنا أن نصحح كلام الناس فيها؛ حتى لا يقع الخطأ.

ثم قال الله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾، قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: مكتوبه، فهو فعال بمعنى: مفعول.

وهل المراد في كتاب الله أي: في الوحي أو في كتاب الله أي: في فرض الله؛ لأن الكَتْبَ يطلق بمعنى الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]؟ نقول: يحتمل هذا وهذا، ولكن الأقرب أنه في كتاب الله، أي: في مكتوبه، يعني: فيما كتبه الله - عز وجل - لكن كيف فيما كتبه؟ نقول: إن كان المراد من كتاب الله في اللوح المحفوظ، فالأمر ظاهر؛ لأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، وإن كان المراد من كتاب الله هذا القرآن، فإنه مكتوب بأيدي الملائكة، ومكتوب بأيدي المؤمنين من بني آدم.

وتقدير المؤلف ﴿إِلَّآ﴾ بـ(لكن)؛ لأن الاستثناء هنا منقطع، وإذا كان الاستثناء منقطعًا، فإنه يقدر (إلا) بـ(لكن)، والانقطاع كما يكون في الذوات يكون في المعاني أيضًا، فقول النحويين: «**جاء القوم إلا حمارًا**»، هذا استثناء منقطع باعتبار الذوات. القوم يعني: ذواتهم إلا حمارًا، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾، استثناء منقطع بالمعاني.

وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١- ٣] هذا متصل؛ لأن الذين آمنوا من الإنسان، لكن ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾، هذا ما يدخل في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ لأن أولياءنا هؤلاء ليسوا من ذوي الأرحام، بل بيننا وبينهم موالاة، ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ ماذا بعدها؟ بوصية، فجائز، إلى أوليائكم جمع ولي والمراد بالولي هنا: من كان بينك وبينه موالاة ومناصرة، كالذي حصل بين المهاجرين والأنصار في أول الهجرة، فإذا كان بينك وبينه معروف تفعل فيه معروفًا، فإن هذا جائز.

قال المؤلف: [بوصية]، وقد خصَّ المعروف بالوصية؛ لأن الكلام الآن في التوارث؛ والتوارث ما يكون إلا بعد الموت، كذلك الوصية لا تكون إلا بعد الموت.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: [نسخ الإرث بالإيمان، والهجرة بإرث ذوي الأرحام] ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، [وأريد بالكتاب في الموضعين، اللوح المحفوظ]، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه: كون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين.

وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، على كلام المؤلف، وهو ظاهر في الأخيرة؛ لأن ﴿كَانَ﴾ يدل على الماضي، وهذا يدل على أن الذي في الكتاب المحفوظ، أن الإرث يكون لذوي الأرحام لكنه كان بالموالاة، في زمن غير طويل، فأول ما قدم المهاجرون إلى المدينة، صاروا يتعاقدون أخوة بينهم، يثبت بها الإرث لكن هذا ليس هو الذي كتبه الله مستقرًّا على عباده؛ وإنما حصل ذلك لعارض، وهو ثبوت الأخوة التامة بين المهاجرين والأنصار، وإلا فإن الفرض المستقر، هو ما في الكتاب المحفوظ، من أن الإرث إنما يكون بالرحم.

وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ﴿مَسْطُورًا﴾ خبر كان واسمها ذا.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب تقديم محبة النبي ﷺ على النفس؛ لقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فهو أولى بك من نفسك.

٢- **ومنها:** عظم شفقة النبي ﷺ على أمته لكونه أولى بهم من أنفسهم.

٣ - **ومنها:** وجوب طاعة النبي ﷺ وتقديمها على طاعة النفس؛ لقوله: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يدخل في هذه المسألة، أنه إذا أمرك بالشيء، ودعتك نفسك إلى ضده، فقدم ما أمر به النبي ﷺ، فصار النبي أولى بهم من أنفسهم، بالنسبة لك، وبالنسبة له، أولًا بالنسبة لك، لابد أن تقدم محبته، وطاعته على محبة نفسك وطاعتها، وبالنسبه له؛ هو أرفق بك وأشفق عليك من نفسك.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾، قلنا: أمهات المؤمنين، ما قلنا إنهن أمهات الأمة كلها؛ لأنه قال ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقد استدل بعض العلماء على أن من أبغض عائشة، فليس بمؤمن؛ لأن الله قال: ﴿أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي: المؤمنين، ولا يمكن أن يبغض الإنسان أمه فإذا أبغضها فليس بمؤمن؛ لأنه لو كان مؤمنًا لكانت أمًّا له، ولو كانت أمًّا له ما أبغضها ولا سبَّها، وهذا استنباط جيد.

مسألة: اختلف العلماء هل يسمى أقاربُ زوجات الرسول - عليه الصلاة والسلام - بما يقتضيه النسب، فيسمى إخوة زوجات الرسول أخوالًا للمؤمنين، أم لا، وهل يسمى أيضًا آباؤهن آباءً للمؤمنين، وأبناؤهن إخوة للمؤمنين؟

والصحيح: أنه لا يسمى هؤلاء بما يسمى نظيرهم في النسب؛ لأن هذه الأمومة خاصة بعلاقتهن بالنبي ﷺ، وأقاربهن ليس لهم علاقة برسول الله ﷺ، فلا يسمى أحد من إخوانهن بأخوال المؤمنين، ولا أحد من آبائهن بأبٍ للمؤمنين، ولا أحد من أبنائهن بأخ للمؤمنين.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - منزلته بالنسبة للمؤمنين أعلى من منزلة الأبوة؛ لأنه قال: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، وعلى هذا فلا حاجة للقراءة التي قرأ بها بعض السلف، وهو قوله: ﴿وَهُوَ أَبٌ لَهُم﴾ بل هو أعلى من الأبوة مستفادة من قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾.

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** تحريم نكاح زوجات النبي ﷺ بعده؛ لكونهن أمهات المؤمنين، وسيأتي في هذه السورة ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهذا من حماية الله لفراش النبي ﷺ، حتى بعد موته فلا أحد يتزوج واحدة من نسائه.

٧ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** نسخ التوارث بالموالاة؛ لقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ على أحد التفسيرين على أن (مِن) داخلة على المفضل عليه، أما إذا جعلنا (من) بيانية؛ لقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، فإنها لا تدل على ذلك، وقد تدل عليه من باب اللزوم، لا من باب دلالة المطابقة اللفظية.

مسألة: إذا لم يوجد أحد من ذوي الأرحام، هل يعود الإرث بالموالاة والمناصرة؟ **الجواب:** أكثر أهل العلم على أنه لا يعود، وأن أسباب الإرث تنحصر في ثلاثة فقط وهي : النكاح والنسب والولد، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يجوِّز إذا لم توجد الأسباب الثلاثة المجمَع عليها التوارث بالموالاة، والمناصرة، يقول: لأنه لما عُدِم الأرحام، زال السبب المانع من التوارث بالموالاة والمناصرة، لكن أكثر أهل العلم على خلاف هذا.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن صلة الرحم كما تكون في الحياة، تكون بعد الموت؛ لأن هذه الأولوية تكون في الحياة وفي الموت.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من كان أقرب من ذوي الأرحام فهو أحق بالإرث،؛ ووجْهُه: أنه إذا عُلِّق الحكم على وصف، فكل ما كان الوصف في شيء أقوى، كان الحكم فيه أولى، فما دام أولو الأرحام أولى؛ لأنهم ذوو أرحام، فمن كانت رَحِمه أقوى فهو أولى؛ ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ، فَلِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرٍ**»[1].

فمثلاً : لو قلت لك: إذا رأيتَ فاسقًا فاجلده، فهل هذا الأمر بالجلد يختلف باختلاف الفاسقين، أو أفسقهم، وأقلهم على حدٍّ سواء؟ يختلف؛ لأن القاعدة التي ذكرناها أنه إذا علق الحكم بوصف فإنه متى كان هذا الوصف في محل أقوى كان ذلك المحل في الحكم أولى.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الهجرة، وتؤخذ من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ لأن المهاجر مؤمن، تخصيصه بالعطف يدل على شرفه وفضله، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] فلروح جبريل، وتخصيصه بالعطف، وهو من الملائكة دليل على شرفه وتكريمه.

١١- **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** ثبوت الإرث لذوي الأرحام، وذوو الأرحام في اصطلاح الفرضيين: كل قريب ليس بذي فرض ولا عصبة.

١٢ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** جواز الوصية لمن بينك وبينهم موالاة؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ وظاهر الآية الإطلاق لكنه مقيد بالنصوص الدالة على أن الوصية لا تزيد على الثلث، ومنه حديث سعد بن أبي وقاص، حين عاده النبي ﷺ من وجع كان به، فلما رآه النبي ـ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، و مسلم (١٦١٥).

عليه الصلاة والسلام ـ استغل الفرصة ـ أعني سعدًا ـ وَقَالَ: «يَا رَسُوْلَ الله، إِنِّي ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي» ومُرَادُه: لَا يَرِثُنِي من صُلْبِي، وَإِلَّا فإنَّ له بني عم وعصبة، «أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لا، قَالَ فَالشطر؟ قال: لا، قَالَ فَالثُّلُث؟ قال: الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ».

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإحسان من المعروف؛ لقوله: ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾ يعني: إحسانًا بالوصية، وعلى هذا إذا أمرتَ بالمعروف فإنه يشمل الأمر بالإحسان، ولا شك أن الإحسان معروف عند الله، وعند الخلق.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: بلاغة القرآن في الاحتراز في موضع الإيهام، تؤخذ من قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾، فقد يتوهم الإنسان أن من بينه وبينهم موالاة، لا يمكن أن ينتفعوا بشيء من ماله، فاحترز بقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾، ولهذا أمثلة مرت علينا كثيرًا، مثل ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

١٥ ـ ويستفاد من هذه الآية: أن اللوح المحفوظ قد كتبت فيه الأشياء مستقرة؛ لقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ وهو أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض.

وقد اختلف أهل العلم في الصحف التي في أيدي الملائكة، هل تغير وتبدل بالزيادة والنقص والتغيير؟

والصواب: أن ذلك ممكن؛ ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩] أصل الكتاب عند الله ما فيه تغيير ولا تبديل، لكن الصحف التي بأيدي الملائكة يمكن أن يقع فيها التغيير والتبديل، مثال ذلك: رجل فعل سيئة، تكتب، فإذا استغفر مُحيت، أو إنسان فعل حسنة ـ كصدقة مثلًا ـ ثم مَنَّ بها، فهي تمحى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] وهذا ما قرره شيخ الإسلام وغيره من المحققين، من أن ما في أُمِّ الكتاب ثابت لا يتغير؛ لأنه قد كُتب فيه استقرار الأشياء في الأزل إلى الأبد، وأما الذي في أيدي الملائكة، فهو الذي يمكن أن يقع فيه المحو والإثبات.

١٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تمام عناية الله عز وجل بشرعه وتقديره، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾، يعني: ليس الأمر ارتجاليًّا، بل كله مكتوب محكم عند الله عز وجل، لا الأمور الشرعية، ولا الأمور القدرية، وهذا من تمام حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ أن كل شيء، فإنه مُحصىً عنده مرتب منظم لا تغيير فيه ولا تبديل.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف: [واذكر إذ]، وعلى هذا فتكون إذ: مفعولًا لفعل محذوف تقديره: اذكر، وهذا كثير في القرآن، تأتي (إذ) مفعولًا لفعل محذوف، مقدر بـ(اذكر)، اذكر للناس إذ أخذنا، أو اذكر لنفسك مُذَكِّرًا إياها.

وقوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، قال المؤلف: [ميثاقهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر، جمع ذرة، وهي أصغر النمل]؛ لأن الله ـ تعالى ـ استخرج من آدم ذريته أمثال الذَّر، وأخذ عليهم العهد والميثاق: أن يؤمنوا به، جاءت في ذلك أحاديث، بعضها صحيح وبعضها حسن، لكن كونه استخرجهم، وقال: «هَؤُلَاءِ إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ إِلَى الجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي»، هذا صحيح، إنما أخذ الميثاق والإشهاد عليهم، هذا هو الذي اختلف العلماء في صحته، وعلى كل حال، فهذا موضع بحثه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، وقد بسط البحث فيه شارح الطحاوية، فمن أراد أن يرجع إليه فليرجع، أما في هذه الآية، فلا يتعين أن يكون الميثاق ما أخذه الله ـ تعالى ـ على بني آدم حين استخرجهم من صلبه، بل إن الميثاق عهد بين الإنسان وبين ربه في كل نعمة أنعم الله بها عليه أن يؤدي هذه النعمة على ما أمره به ربه؛ لأن هذا من شكرها، فإذا أنعم الله عليك بالعلم صار الواجب عليك، عهد بينك وبين الله أن تبينه قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وإذا أنعم الله على إنسان بنبوة، والنبوة بعد محمد ﷺ متعذرة، لكن إذا أنعم الله على عبده بنبوة، وجب عليه أن يبلغ.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وفي أهل العلم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ولم يقل ميثاقًا غليظًا؛ لأن الميثاق على الأنبياء أعظم، وأغلظ، أمَّا قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾، ﴿وَمِنكَ﴾ عطفًا على ﴿النَّبِيِّينَ﴾ بإعادة الجار ومنك، وإنما أعيد الجار، إما لأن الضمير متصل ولابد فيه من أن يظهر الجار، ويظهر العامل؛ لأن الضمير المتصل لابد له أن يكون عامله ظاهرًا، ولا يأتي منفصلًا عن

العامل إلا شذوذًا بعد إلَّا، ويقال من حيث المعنى: أعيد حرف الجر للتأكيد بالنسبة لهؤلاء الخمسة. وتخصيصهم بالذكر بعد العموم، يدل على فضلهم ولا شك فيهم.

وقوله: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ وبين محمد ﷺ ونوح، أنبياء آخرون من أولي العزم، ولكنه - سبحانه وتعالى - بدأ بآخر واحدٍ منهم، وأول واحد، فبدأ بالطرفين ثم جاء بالوسط، ونوح هو أول رسول أرسله الله - تعالى - إلى أهل الأرض، أو أول نبي ورسول؛ لأن الصحيح أن آدم نبي، لكنه ليس برسول، فأول الرسل نوح - عليه الصلاة والسلام -، كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وفي حديث الشفاعة الطويل «**أن الناس يأتون إلى نوح، فيقولون أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»، وليس نوح أفضل من إبراهيم، ولا من موسى ولكن كما قلت: قدمه ليتلاقى الطرفان الآخر والأول.

وقوله: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾فذكر إبراهيم ولم يذكر أباه، وموسى ولم يذكر أباه، وعيسى وذكر أمه؛ لبيان الآية والمعجزة في عيسى - عليه الصلاة والسلام - أنه خلق من أم بلا أب وخلقت حواء من أب بلا أم، وخلق آدم من غير أم ولا أب وخلق الناس من أب وأم، كل هذا يستفاد منه أو يستدل به على أن الطبيعة لا شأن لها في التكوين والخلق، وإلا لكانت على وتيرة واحدة.

قال: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، [شديدًا بالوفاء بما حملوه وهو اليمين بالله تعالى، ثم أخذ الميثاق] أي: العهد، لكن المؤلف يقول: [هو اليمين بالله]، كأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١]، ولكن هذا فيه نظر، والصواب: أن العهد الذي أُخِذَ على الرسل هو أن يبلغوا الرسالة، ويقوم أيضًا بالإيمان بما يجب الإيمان به من باب أولى؛ لأنهم إذا أرسلوا إلى غيرهم، فلأنفسهم أولى، فيكون قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾، فردًا من أفراد هذا العهد والميثاق، وفي الآية التي معنا قدَّم الرسول محمدًا ﷺ ؛ لأنه ﷺ أشرف الرسل، وإبراهيم أشرف من نوح وجاء بالثاني، لمراعاة الطرفين، والأشرفية بالنسبة لمحمد - عليه الصلاة والسلام -.

قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، [شديدًا بالوفاء بما حملوه، وهو اليمين بالله سبحانه وتعالى]، قوله: هو اليمين، هو تفسيرٌ للميثاق الغليظ، وهل هذا الميثاق هو الأول، أو غيره؟

اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: إنه هو الميثاق الأول، وإنما أعيد من أجل الوصف، وهو قوله: غليظًا، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، وقال آخرون: إنه غير الأول؛ لأن القاعدة أن

الاسم إذا تكرر، فإن كان بلفظ المعرفة فالغالب أن الثاني هو الأول، وإن كان بلفظ النكرة فالغالب أن الثاني غير الأول، هذا الغالب وليس دائمًا، فإنك ترى قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] جاء معرفًا بـ(أل) والإحسان الثاني قطعًا غير الإحسان الأول، لكن الأكثر أنه إذا أُعِيدَ الاسم مُنكَّرًا، صار غير الأول وإن أعيد منعطفًا، صار الأول، فهنا أعيد الميثاق منكرًا، قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، فيكون الميثاق الثاني غير الميثاق الأول، ما وجه المغايرة؟ يقول: إن الميثاق الأول: هو الميثاق الذي أخذ على جميع بني آدم، والميثاق الثاني: هو الميثاق الخاص بالرسل بما حُملوه من القيام في عبادة الله - عز وجل - وتبليغ شريعته والدعوة إليه.

وأما إذا قلنا: إن الميثاق الثاني هو الأول، فتكون فائدة إعادته هو وصفه بالغلظ، يعني: أنه ميثاق شديد، أشد من الميثاق الذي أُخذ على غيرهم، وهذا هو الميثاق العام، ولكنه ذكره من باب التنويه به بالنسبة لهؤلاء الأنبياء، ولهذا عقبه بقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يقول: [ثم أخذ الميثاق ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾].

قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ اللام: للتعليل، من حيث المعنى، وهي من حيث الإعراب: حرف جر، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة جوازًا، بعد لام الجر، وقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ السائل: هو الله، والضمير هنا ضمير غيبة، وإذ أخذنا ضمير متكلم، ويكون فيه التفات من التكلم إلى الغيبة.

والالتفات أسلوب من أساليب اللغة البلاغية، ويختلف، فقد يكون من غيبة إلى حضور، ومن حضور إلى غيبة، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، (هذا التفات من الغَيْبة إلى الحضور)، ولقد أخذ الله، ثم قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، وهنا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، ثم قال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، ولم يقل: (لنسأل)، فهو التفات.

وما فائدة الالتفات؟

الجواب: فائدة الالتفات العامة في كل موضع: هو التنبيه؛ تنبيه القارئ والمخاطب، وجه ذلك أن الكلام إذا كان على أسلوب واحد، فإن الإنسان يسير معه من غير أن يكون هناك شيء يوجب انتباهه، فإذا تغير الأسلوب، حصل حينئذٍ توقف؛ لأنه انتقل من هذا إلى هذا، فيكون في هذا تنبيه، للقارئ والمخاطب، هذه فائدة عامة في كل الالتفات، ثم إن هناك فوائد خاصة، تكون بحسب السياق والقرينة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس:١-٣]، ما قال: وما يدريه، موافقة لعبس، ولا قال: عبستَ، موافقة ليدريك، عللوا ذلك؟ بأن الله - عز وجل - كره أن يخاطِبَ نَبِيَّهُ بوصفٍ يقتضي الذم، وهو العبوس والتولي، فقال: ﴿عَبَسَ﴾، كأن التحدث عن غير الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا

﴿يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، خاطبه بذلك، ليتبين أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس عنده علم من الغيب، وهذا ليس فيه قدح في الرسول - عليه الصلاة والسلام - ألَّا يكون عالمًا للغيب؛ لأن هذا هو شأن جميع البشر.

والحاصل: أن الالتفات الفائدة العامة منه هو: التنبيه، ثم يكون في كل موضع فائدة خاصة بهذا موضع.

وفائدته هنا - والله أعلم - أنه لما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ وكان ميثاق الأنبياء دائرًا بين أمرٍ يقومون به، وأمر يُوَاجَهُون به من البشر، وكلا الأمرين يكون صدقًا، ويكون غير صدق، أمَّا غير الصدق في جانب الأنبياء مستحيل، لكن غير الصدق في جانب المدعوين ممكن، قال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾؛ كراهية أن ينسب السؤال لنفسه - عز وجل -، مع أنه يدخل في علمه الأنبياء؛ لأن الخطاب أو التحدث بضمير الحضور، (لنسأل) أقوى في النفس من أن يكون التحدث بضمير الغيبة.

يقول - عز وجل -: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ قال المؤلف: [الله]، تفسير للضمير المستتر، ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال المؤلف: [في تبليغ الرسالة]، وهذا بناءً على ما يراه في تفسير الآية، أن السؤال للأنبياء فقط، فالصواب: أن السؤال لهم، ولمن دعوا، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف:٦] وكل منهما يُسْأَل.

والصواب: أنه ليسأل الصادقين عن صدقهم، في تبليغ الرسالة بالنسبة للأنبياء، وفي قبول ذلك بالنسبة للمدعوين.

قال: [تبكيتًا للكافرين بهم]، تبكيتًا، هذا تعليل لسؤال الأنبياء، يقول المؤلف: إن الله يسأل الأنبياء، لا لأنهم يمكن ألَّا يقوموا بالواجب؛ ولكن تبكيتًا للكافرين بهم، يعني: تقريعًا ولومًا، للكافرين بهم؛ لأنه لو سأل الرسل، هل بلغتم الرسالة، أمام المدعوين، سيقولون: نعم، فيكون في هذا تبكيت لهؤلاء الكافرين، وسؤال الغير لتبكيت غيره جاء به القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨، ٩] الموؤدة: هي الطفلة، أو بلفظ أعم: هي الأنثى التي توؤد. وكان من طريق بعض الكفار، أنهم يئدون البنات، يدفنونهن أحياء؛ خوفًا من العار - من أن يُعَيَّر - فيقال هذا رجل ما عنده إلا بنت، أو هذا الرجل جاءته بنت، ولهذا إذا بشر بالأنثى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل:٥٨، ٥٩] أي: يستتر، ويخاف أن يُعَيَّر، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ - أعوذ بالله -، ثم يقول في نفسه: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾؟! ما يعدوا هذا، لا يمكن أن يمسكه على عِزٍّ وكرامة، أبدًا إذنْ، - على رأي المؤلف -، يكون المراد بسؤال النبيين عن تبليغ الرسالة تبكيت هؤلاء الكافرين بهم وتقريعهم.

قال: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾أي: مؤلمًا، قوله (يسأل، وأعد)، قد يقول قائل: بين

المعطوف والمعطوف عليه تنافر؛ لأنه لو كان بينهما ائتلاف، لكانت العبارة (ليسأل الصادقين عن صدقهم ويعد للكافرين)، لكنه قال وأعد، فكيف نقول فيها؟ يقول المؤلف: [مؤلمًا هو عطف على أخذنا] قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يعني: (وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا، وأعد للكافرين) - وعلى رأي المؤلف - يكون فيها أيضًا التفات من الحضور إلى الغيب، ويمكن أن نقول: إنه معطوف على قوله: (ليسأل)، لكنه جاء بلفظ الماضي، تحقيقًا لوقوعه؛ لأنه أمرٌ ثابت.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، (أليمًا) أي: المؤلم، يعني: موجع فعيل، بمعنى: مُفْعِل تأتي في اللغة العربية، وإن كان الأكثر أن فعيلًا بمعنى فاعل، ففعيل بمعنى فاعل كثيرة جدًّا، مثل سميع، بصير، عزيز، عندنا أمثلة كثيرة، لكن فعيل بمعنى مُفْعِل: قليل، ومنه هذه الآية، أليم بمعنى مؤلم، وقول الشاعر:

أَمِنَ الرَّيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

(السميع) يعني: المسمِع.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** عِظَمُ المسئولية على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وجه ذلك: أن الله خصصهم بأخذ الميثاق، ويستفاد منها - فرعًا على هذه القاعدة - عظم المسؤلية على أهل العلم؛ لأنهم ورثة الأنبياء.

٢- **ويستفاد منها:** أن من أنعم الله عليه بنعمة، فإن لله عليها شكرًا خاصًا، غير النعمة العامة؛ لقوله: ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾، فإن الإضافة هنا: تدل على التخصيص، أي: الميثاق الخاص بهم، كل من أنعم الله عليه نعمة، فإن لله عليه فيها عهدًا أن يقوم بهذه النعمة.

وبهذا التقرير نَسْلَمُ مما ذكره المؤلف، من أن الميثاق هنا، يراد به: الميثاق الذي أخذ عليهم من ظهر أبيهم آدم، فإذا أنعم الله عليك بنعمة، فإن هذا عهد أعطاك الله إياه قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة:٤٠].

وكذلك هذا العهد الذي ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [المائدة:١٢] صورة العقد قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ [المائدة:١٢] هذا عهد وميثاق.

إذنْ عهد النبيين - عليهم الصلاة والسلام -، مسؤلية عظيمة، وهي تبليغ الرسالة والعمل

والدعوة.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة هؤلاء الأنبياء الكرام الخمسة، - عليهم السلام - وجه الدلالة: تخصيصهم بالذكر، فإن تخصيص أفراد العام بالذِّكر يدل على شرف ذلك المخصص.

٤- ومن فوائدها: أن محمدًا ﷺ أفضل هؤلاء الخمسة، وجهه تقديمه عليهم ذِكرًا مع أنه متأخر عنهم زمنًا، وكان مقتضى الحال لو كانوا متساوين في الفضيلة أن يذكروا بحسب الترتيب الزمني.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن ترتيب هؤلاء في الفضيلة: محمد، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى - عليهم السلام - هل يستفاد هذا من هذه الآية أم لا؟

الجواب: الظاهر لي: أنه لا يستفاد من هذه الآية؛ لأننا لا نعلم أن إبراهيم أفضل من نوح إلا بدليل خارجي، صحيح أن محمدًا - عليه الصلاة والسلام -، نعلم أنه أفضلهم؛ لأنه لو كان المقصود هو الترتيب الذِّكْري، لكان هو آخرهم، لكن جاءت الآية بعد ذكر محمد - عليه الصلاة والسلام -، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فهذا الترتيب زمني، ما يدل على الترتيب الفضلي.

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل، عيسى أم نوح؟ بعد اتفاقهم على أن محمدًا ﷺ أفضل، ثم إبراهيم ثم موسى، فقال بعضهم: إن نوحًا أفضل؛ لأنه أول رسول أرسله الله؛ ولأنه كابد من قومه ما لم يكابده غيره؛ لأنه بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، لا يزيدهم دعاؤه إياهم إلا فرارًا، - والعياذ بالله -، وسخرية.

وقال بعضهم: بل إن عيسى أفضل؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - أوذي أيضًا، حتى إنه هُدِّدَ بالقتل، حتى قيل: إنه قُتِلَ، فإن اليهود يرون أنهم شفوا أنفسهم حين قَتَلُوا مَن ألقى الله شبه عيسى عليه، وقالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧].

وعندي في هذا التوقف؛ لأن لكل واحد منهما مزية يكون فيها أفضل من الثاني.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: تغليظ المسؤلية على الأنبياء لقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

٧- ومن فوائدها: عظمة الرب - عز وجل - ذلك بالتحدث عن نفسه بضمير العظمة، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ والله - تعالى - يتحدث عن نفسه تارةً بضمير العظمة، وتارةً بضمير الإفراد، وهو كثير في القرآن، ولا حاجة لذكر الأمثلة؛ لأنه واضح.

٨ - ومن فوائد الآية: أنها تدل على أن مسئولية أولي العزم، أعظم من مسئولية غيرهم، ومن أجل أن مسئوليتهم أعظم، وأنهم قاموا بها سُمُّو أولو العزم.

فوائد قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

من فوائد هذه الآية:

١ـ **ومنها:** إثبات البعث؛ لأن هذا السؤال ما كان في الدنيا، وليس هناك إلا دنيا وأخرى، فكان من لازم ذلك ثبوت الآخرة.

٢- **ومن فوائدها:** أن السؤال ليس سؤالًا خاصًا بالكافرين والمعاندين، حتى الصادق يُسْأَل عن صدقه؛ لقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، فيتفرع على هذه الفائدة، وجوب الحذر، ووجوب الاستعداد لهذا السؤال، ما دام الصادق يسأل فما بال الكاذب، فالكاذب جزاؤه قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأن الكافرين ما يسألون سؤالًا يحاسبون عليه كمحاسبة أهل الخير.

والسؤال هنا هل قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ خاص بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أو هو عام؟ قلنا: إنه عام؛ لأن النبيين الذين ذكروا رسل، وكل رسول لابد من مرسل إليه؛ والرسول لا شك أنه صادق. فبقي التقسيم إلى صادق، وغير صادق، محله المرسل إليهم.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلفظ الماضي، والإعداد بمعنى التهيئة، والنصوص في وجود النار الآن، ووجود الجنة، النصوص في هذا من القرآن والسنة كثيرة، فهما الآن موجودتان، وهما لا تفنيان، على معتقد أهل السنة، وإن كان ذُكِرَ خلاف عن السلف، في أبدية النار، هل هي مؤبدة أم لا، والصحيح أنها مؤبدة، بلا شك، فالعصاة هم الذين يخرجون منها، وهي باقية، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١].

والصواب بلا شك: أن النار مؤبدة، وفي ذلك ثلاث آيات من كتاب الله، آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن، فأما آية النساء فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩]، وأما في الأحزاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وأما في سورة الجن، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وإذا كان هؤلاء خالدين فيها أبدًا، فإنه يلزم من تأبيد الخالد، تأبيد المكان الذي هو فيه حتى في الجنة أيضًا، يعني هذا أنه: كائنًا بمشيئة الله.

٥ ـ **وفي الآية دليل على** أن أهل النار يذوقون العذاب ويتألمون منه لقوله: ﴿أَلِيمًا﴾ فيكون في هذه الآية رد على قول من يقول: إن أهل النار يكونون جهنميين، فلا يحسون بعذاب ـ والعياذ

بالله -، ومعنى ذلك أنه إذا كانوا لا يحسون بعذاب، انتفى العذاب، أي: لا يكون هناك عذاب، وقد ذكر الله أن جلودهم تنضج قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]. وأخبر أنها تُحْرِق في قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢].

فبين الله - عز وجل - أن الجلود تنضج ليذوقوا العذاب.

فإن قيل: كيف يصبرون المُدد العظيمة، وهم في حريق، وجلودهم تُبَدَّل والعياذ بالله؟

قلنا: إن الله على كل شيء قدير، وأحوال الآخرة لا يمكن أن تقاس بأحوال الدنيا، ففي حال الدنيا يحترق الجسم، لكن الروح تخرج منه وتدعه ولا تحترق، لكن في الآخرة يبقى الجسم، وإن كان يحترق، وإن كان ينضج، والله - سبحانه - لا نهاية لقدرته، ولا يمكن الإحاطة بها.

٦- وفي الآية الكريمة: التحذير من الكفر؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٧- وفي الآية الكريمة أيضًا: التحذير من خصال الكفر، يعني: وردت في النصوص أعمال، وأقوال، وصفها الشارع بأنها كفر، فيجب الحذر منها.

ومن المؤسف، أن كثيرًا من طلبة العلم يبحثون المسألة أن هذا كفر، وهذا غير كفر، يبحثونها على أنها نظرية، فتجدهم يفرضون الخلاف مع المعتزلة والخوارج، لكن لا يشعرون، ولا يشعرون غيرهم أن مسألة أن كون هذا من الكفر، معناه أنه يعذب على هذه الخصلة عذاب الكافرين، وإن كان لا يخلد، لكن يعذب بحسب ذنبه عذاب الكافرين؛ لأنه فعل الكافرين، فنحن دائمًا، عندما نبحث هذه المسائل نبحثها من الناحية النظرية فقط، هل يكفر أم لا يكفر؟ لكن لا تجدنا، نسأل الله أن يتوب علينا، لا تجدنا نشعر بأن هذا العمل، عمل كفر، فيستحق فاعله جزاء الكفر، في هذه المسألة، وهذه المسألة عظيمة جدًّا، فينبغي لنا أن تكون على بالنا.

٨- وفي الآية الكريمة أيضًا: - بناءً على هذه القاعدة - على أن الذين يعذبون في النار على قدر معاصيهم، يجدون حرها، وألمها وعذابها، خلافًا لمن قال: إنهم لا يجدون ألمًا، الصواب: أنهم يجدون ألمًا، نعم الذين لا يجدون ألمًا، هم الذين يردونها، بناءً على أن الورود في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] هو الدخول، دون المرور على الصراط، والمسألة فيها قولان للمفسرين من السلف والخلف، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ

أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:٩: ١٢]

التفسير

صدَّر الله ـ عز وجل ـ هذا الأمر بالنداء المتصف المنادَى به بالإيمان، فأولًا تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب الانتباه، فلذلك إذا وجدت مثل هذا التعبير فاعلم أن الأمر مهم، ثم إن توجيه النداء والخطاب إلى من اتصفوا بالإيمان يدل على أن هذا من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يوجه الخطاب لموصوف بصفة، إلا أن ذلك من مقتضيات صفته، فإذا قلت: يا رجل افعل كذا وكذا، فمعنى هذا أن هذا الأمر أو أن المأمور به من صفات الرجال، وإذا قلت: يا مؤمن افعل كذا وكذا، فمعنى هذا أن المأمور به من صفات المؤمنين، إذن توجيه النداء إلى من اتصفوا بالإيمان يدل على أن ما يوجه إليهم من مقتضيات إيمانهم.

ثم إن في وصفهم بالإيمان إغراءً لقبول ما وجه إليهم، يعني: إذا قلت يا مؤمن معناه أنني أغريك على أن تقبل، إذ إن الإيمان يقتضي أن تقبل، وفيه إغراء على قبول ما أمر الله به، قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعتَ الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعِها سمعك، يعني: استمع لها، فإما خير تأمر به وإما شر تنهى عنه[1]، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:١٨،١٩]، الخطاب هنا عام موجه لأناس موصوفين بالإيمان، فهل يختص بالمؤمنين في زمن النزول، أو هو عائد إلى كل المؤمنين؟ الجواب: أنه شامل لكل المؤمنين، إذ إن الله تعالى إذا أنعم على سلف الأمة بنعمة، فهي نعمة على الأمة كلها، ولهذا يُذَكِّر الله بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بنعم أنعم الله بها على بني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم طائفة واحدة.

ولا شك أن نعمة الله ـ عز وجل ـ على نبينا محمد ﷺ وعلى أصحابه نعمة علينا، وأن نصر الله له ودفاعه عنه، نصر لنا ودفاع عنا.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عام؛ لأنه مفرد مضاف فيعم، والشاهد على أن المفرد المضاف يعم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] فليس المراد بنعمة الله واحدة، بل نِعَمٌ كثيرة لا تحصى، وقوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إحسانه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

وفضله.

ثم قال: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾ هذا التقييد لا يعني تخصيص النعمة العامة، في قوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ لكنه كالتمثيل لشيء من هذه النعمة.

وقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ (إذ) أي: حين جاءتكم جنود، وهذه النعمة خصها بالذكر؛ لأنها نعمة عظيمة، كما يتبين من تصوير الله - عز وجل - لها.

وكلمة ﴿جُنُودٌ﴾ نكرة لكنها يراد بها التعظيم والتكثير يعني: إذ جاءتكم جنود كثيرة، وهؤلاء الجنود هم الأحزاب من المشركين واليهود، الذين تحزبوا لقتال النبي ﷺ وكانت هذه الغزوة في السنة الخامسة من الهجرة في شوال، على الصحيح المشهور؛ لأنه من المعلوم أن أُحُدًا كانت في السنة الثالثة من الهجرة في شوال، وكانت السنة التي تليها ميعادًا لقريش، لكنهم ما حضروا، ثم في السنة الخامسة، صارت غزوة الأحزاب.

وسببها أن الأشراف من بني النضير - الذين أجلاهم النبي ﷺ من المدينة - لا شك أن قلوبهم امتلأت حقدًا على النبي ﷺ وعداوةً، فلما رأوا انتصار قريش في (أُحُد) أرادوا أن يستغلوا هذا الأمر، فذهبوا إلى قريش، وحرَّضُوهم على قتال النبي ﷺ ووعدوهم أن ينصروهم بكل ما يستطيعون، وأن يتصلوا ببني قريظة، الذين بقوا في المدينة؛ من أجل أن يساعدوهم في قتال النبي ﷺ، فاجتمعت أحزاب عظيمةٌ قُدِّرت بعشرة آلاف مقاتل معهم السلاح والعتاد، وحضروا إلى المدينة، ولما علم بهم النبي - عليه الصلاة والسلام - اهتم لذلك اهتمامًا عظيمًا، لكن اهتمام الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يعني الجبن والخور والضعف، ولكنه يعني: الاستعداد، وأخذ الحذر، أخذًا بتوجيهات الله - عز وجل - ؛ لأن الله تعالى دائمًا يحذر من الأعداء، ويأمر بأن نُعِدَّ لهم ما استطعنا من قوة، فخرج بأصحابه في ثلاثة آلاف مقاتل فقط، وقيل بأقل من ذلك حتى قال بعضهم: إلى سبعمائة مقاتل، ونزلوا عند (سَلْع)، وجعلوه خلف ظهورهم وحفروا الخندق، بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه من الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربية مع ما بهم من الجهد، والتعب، والمشقة، والجوع، والبرد.

وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يحفر معهم حتى إن التراب وارى جلدة بطنه، - عليه الصلاة والسلام -، وكان يردد معهم: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ» ويردد أيضًا، «اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»(١)؛ لأن هذا الإنشاد في هذا الموطن يثير الهمم وينشط، وكان يمد صوته بقوله: (أبينا).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٠٤)، و مسلم (١٨٠٣).

المهم: حصل فيه أشياء كثيرة ليس هذا موضع ذكرها؛ لكنها تدل على محنٍ عظيمة أصابت المسلمين، وهم مع ذلك صابرون.

ولما نزل الأحزاب، نزلوا من الشرق والغرب ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، ثم إن الله ـ عز وجل ـ بحكمته امتحن المسلمين بزيادة البلاء، وهو أن بني النضير اتصلوا ببني قريظة، وطلبوا منهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ، فتلكأت بنو قريظة، وقالوا: كيف ننقض العهد بيننا وبين محمد، وهؤلاء الجنود الذين أتيتم بهم، ليس هذا محل إقامتهم، ولا سكناهم، فإن رأوا نصرًا شاركونا بالغنائم، وإن رأوا هزيمة ذهبوا إلى بلادهم وبقينا نحن تحت سلطة محمد ـ وهذا كلام معقول ـ، لكنه معقول من الناحية الدنيوية فقط، وأبوا أن يشاركوهم، لكن ما زالوا بهم حتى أغروهم ونقضوا العهد، فازداد ذلك في مشقة المسلمين، ولكن الله ـ عز وجل ـ قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وإذا دافع الله عن شخص فلا تسأل عن حاله؛ لأنه في حصن حصين من مدافعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا يُذَكِّر المؤمنين بهذه النعمة.

وقوله: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ التنكير هنا للتعظيم، والكثرة، يعني: جنود كثيرة، لكن بماذا قوبلوا؟ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ سلط الله ـ عز وجل ـ هذه الريح الشرقية، وجعلها الله ـ عز وجل ـ ريحًا شديدةً وباردةً، حتى هدمت خيامهم وأكفأت قدورهم وصارت الحجارة ترميهم كأنما يُرجمون بها رجمًا، حيث بدأت الريح تحمل الحجارة وتضرب بها قدورهم، وتضرب بها خيلهم وإبلهم وأبدانهم أيضًا، وقلقوا قلقًا عظيمًا، والجنود الآخرون الملائكة، تزلزل بهم وتلقي في قلوبهم الرعب، ولم تقاتل؛ لأنه لم يحصل قتال لكنها زلزلت بهم بإذن الله ـ عز وجل ـ.

وقصة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في تلك الليلة العصيبة لما هبت الرياح طلب النبي ﷺ من أصحابه أن ينتبذ أحد منهم وتضمَّن أن يرجع سالمًا، وأن يكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ضمن أمرين: السلامة، وأن يكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، لكن الصحابة معهم تعب عظيم، وجوع شديد وبرد شديد فما قام أحد، ثم ذهب النبي ﷺ يصلي ثم رجع فقال هذا الكلام مرة أخرى، فلم يقم أحد، ثم رجع يصلي، ثم رجع فقال هذا الكلام فلم يقم أحد، فنص على حذيفة رضي الله عنه، فقال: «قُمْ يَا حُذَيفَةَ»، يقول: فلما ذكرني، لم يكن لي بُدٌّ من طاعة الله ورسوله، فقام رضي الله عنه، وأوصاه النبي ﷺ أن يذهب إلى القوم، وينظر خبرهم، وألا يُحْدِث شيئًا أبدًا، يقول: لما انصرفت من عند الرسول ﷺ، صرت كأنما أنا في حِمام، لا أحس بريح ولا ببرد حتى وصلت إلى القوم، جعلتُ أشاهد أبا سفيان ـ لأنه رئيس قريش ـ وهو يَصْطَلي على النار؛ من شدة البرد ويؤذن بالرحيل، يأمرهم بأن يرحلوا، ووضع سهمًا في قوسه يريد أن يرميهم؛ لأنه قريب منه، لكنه رضي الله عنه، تذكر قول النبي ﷺ: «لَا تُحْدِث شَيْئًا» فامتنع، يقول: «فقال أبو سفيان: لِيَنْظُرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ

جَلِيْسِه»، خَافَ من الجواسيس والعيون، فأمسكتُ برجل بجنبي فقلت: من أنت؟ ابتدأ بها قبل أن يُسأل هو، قال: فلان بن فلان، المُهِمُّ أنه أخذ الخَبَر، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النبيِّ ﷺ، كَأَنَّمَا هُو فِي حمام، لَا هواء وَلَا بَرْد، لَكِنْ لَمَّا وَصَل إِلَى الرَّسُوْلِ واسْتَقَرَّ، أَحَسَّ بالبرد، فلما أحس بالبرد وضع النبي ﷺ عليه لباسًا كان معه ليدفأ به ونام، والنبي ﷺ يصلي ويتهجد، يقول: فلما أصبح الصبح، أيقظني وقال: «يا نَوْمَان قُمْ، قُمْ يا نومان»[(١)].

فالحاصل: أن هذه الريح كانت شديدةً جدًّا وأرهقتهم حتى انصرفوا مع ما ألقت الملائكة في قلوبهم من الرعب، ولهذا قال: ﴿رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ لماذا لا نراها؟ لأن الله حجب الملائكة عن أعين الناس؛ لأن الملائكة تحضر مجالس الذكر، والملائكة يتعاقبون في بني آدم بالليل والنهار، والملائكة عن اليمين والشمال قعيد، ومع ذلك لا نراهم، لأن الله ـ تعالى ـ حجبهم، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد، أن في هذا دلالة بينة على ضعف بني آدم، ملائكة موجودة محسوسة بين أيديهم، بل عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومع ذلك لا يرونها، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، قال: [بالتاء من حفر الخندق، وبالياء من تحذير المشركين]، يعني: فيها قراءتان، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، هي الريح الشرقية، ولهذا جاء في الحديث: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُوْر»[(٢)].

يقول المؤلف: [﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من حفر الخندق] ولكن هذا التخصيص للآية لا ينبغي؛ لأننا إذا خصصنا العموم في الآية قصرنا معنى اللفظ، أو قصرنا اللفظ على بعض معناه، والصواب أن ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق وغيره من كل ما عملتم في هذه الغزوة.

وقوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عليم، أو ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] يعني: الجنود، ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، فالله تعالى بما يعملون بصير، من التحزب على النبي ﷺ، والقدوم على بلده ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أجل القضاء عليه، على زعمهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

قوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قال: [من أعلى الوادي وأسفله، من المشرق والمغرب]؛ حيث جاءت قريش من الناحية الشمالية الشرقية، وجاءت غطفان ويهود بني قريظة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨٨)، و أحمد في «مسنده» (٢٢٨٢٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣٥)، و مسلم (٩٠٠).

من الناحية الجنوبية الغربية، فجاءوا من فوق المسلمين، ومن أسفل منهم؛ وكما قلنا: إن الخندق من الحرَّة الشرقية إلى الحرَّة الغربية؛ ليكونوا كفكيْ الأسد، حتى يطبقوا على المدينة هذا تخطيطهم، ولكن الله بما يعملون محيط.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، زاغ الشيء بمعنى: مَالَ، ومنه: زاغت الشمس، إذا مالت للزوال، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي: ما مال.

وقوله: ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (أل)هنا، للعهد الذهني، يعني: زاغت الأبصار منكم، يقول المؤلف في تفسيرها: [مالت عن كل شيء إلى عدوها من كل جانب] يعني أن الأبصار ما صار لها نظر إلا هذا العدو، كل شيء أُغفلت النظر إليه إلا هذا العدو.

وقد فسر بعض المفسرين ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بمعنى: مالت عن استقرارها، أي: شَخَصَت، من قوة الرعب، فصار الإنسان لا ينظر إلا إلى هذا الذي أمامه، يراقبه ويخشى منه، وهذا شيء مشاهد بطبيعة البشر أن الإنسان إذا خاف من شيء يتجه بصره إلى ناحية هذا الشيء، وتجد البصر كما يقول العامة: لا يغضي أبدًا، منفتح يخشى من المباغتة، فالأبصار زاغت.

وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ القلوب يعني: منكم قلوبكم، ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾ قال: [جمع حنجرة، وهي منتهى الحُلْقُوم من شدة الخوف]، وقوله: [من شدة الخوف] تعليل لقوله: ﴿زَاغَتِ﴾ و﴿وَبَلَغَتِ﴾.

وهل هذا حقيقة أي: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾؟ قال بعضهم: إنها حقيقة، وأن الخائف إذا اشتد خوفه، انتفخت رئته، فإذا انتفخت ضيقت على القلب، فيخرج ويرتفع؛ ولهذا يقال في الجبان أو الخائف: انتفخ سَحَرُه، يعني: رئته، والأصل حمل الشيء على حقيقته، ويجوز أن يكون هذا تصويرًا عن شدة الرعب، يعني: حتى إنها من شدة الرعب زالت القلوب عن أماكنها، فلا تتنفس طبيعيًّا، ولا تنبض طبيعيًّا؛ لأنها زالت عن أماكنها.

ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [المختلفة بالنصر واليأس] ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: أنتم بالله.

وقوله: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، بالألف للإطلاق، والظنون هذه جمع ظن، والمصدر لا يجمع إلا إذا كان أنواعًا، أما إذا كان نوعًا واحدًا فلا يمكن جمعه وإن كثر، لكن إذا كان أنواعًا صح جمعه، فهنا جمع الظن، وهو مصدر لتنوعه، يعني ظنون تدور في أفهامهم، أو في أفكارهم مختلفة، طولًا وعرضًا، هل سيزول هؤلاء الأحزاب؟ هل سيقضون علينا؟ هل سننتصر؟ ومعلوم مقام الخوف ماذا يحدث للإنسان من الظنون والتفكيرات القريبة والبعيدة.

فمنهم من ظن اليأس، أو أيس، فقال: ما بعد هذا شيء، ومنهم من ظن النصر، مع أن المقام حالك جدًّا؛ لأنه يؤمن أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ويقول:

نحن على حق، فإذا كنا على حق وصبرنا، فإن النصر مضمون، فلذلك يُظن النصر، ومنهم أصحاب المادة والظواهر الحسية، يظنون الهلاك وييأسون من النصر؛ لأنهم ليس لهم رصيد من الإيمان يعتمدون عليه، ولا شك أن في الذين خرجوا لهذا فيهم منافقون كما سيُذْكَر في القصة، المهم: أن الله قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ وأطلق ذلك وأتى به بالجمع، لأجل أن يذهب الإنسان في تصور هذا الظن كل مذهب، فهي ظنون كثيرة مختلفة ومتضاربة.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة، إلى المكان أو إلى الزمان أو إليهما جميعًا؟ هنالك تصلح للمكان وللزمان، لكن الأصل أنها للمكان، وتأتي للزمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥] أي: في ذلك الزمان خسر الكافرون، فـ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا صالحة للزمان، والمكان، و(اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: اختُبِروا، والذي ابتلاهم هو الله - عز وجل -، اختبرهم بما حصل لهم، من هذا الضيق العظيم، الذي لا يمكن أن نعبر عنه بالنطق، ولا يمكن أن يحس به إلا من وقع فيه، فنحن هنا نعجز عن تصور تلك الحال، ونعجز عن تصويرها، لكن الذي وقع فيها، يدري عنها.

قوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول المؤلف: [اختُبروا ليتبين المخلص من غيره، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ حركوا ﴿زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، من شدة الفزع].

هذا ابتلاء عظيم، وزلزال عظيم ابتلوا به، هذا الزلزال الذي ابتلوا به ليس زلزال الأرض، إنما هو زلزال النفوس، فالنفوس تزلزلت وحصل عليها شيء عظيم؛ لأنه اجتمع في هذه الغزوة الأحزاب من العرب، ونقض بني قريظة، والجوع والتعب والإعياء والبرد، هذه خمسة أشياء، واحدة منها تكفي في زلزلة النفس، فكيف إذا اجتمعت أمور صعبة؟ وكان النبي ﷺ في ذلك المكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع، فكيف تتصور الحال، ما يمكن الإنسان أن يعبر عنها في الواقع، ولهذا قال: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي قويًّا، زَلْـزَلَ نفوسهم، لتجمع هذه الابتلاءات عليهم رضي الله عنهم.

ولهذا بزغ النفاق، وتكلم المنافقون، ورأوا أن في هذا فرصة للكلام؛ لأن النبي ﷺ يَعِدُهم النصر، حتى في تلك الغزوة يعدهم النصر، وقصة الصخرة التي عجزوا عنها، وتكسرت الفئوس، وتعبوا حتى جاءوا للنبي - عليه الصلاة والسلام -، قالوا: يا رسول الله أنت خططت لنا؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام -، خط لهم مكان الخندق بقدمه، فمن حكمة الله - عز وجل - أن جاء الخط على هذه الصخرة التي عجزوا عنها، لكن لشدة امتثالهم رضي الله عنهم ما قالوا: نعطفه يمينًا أو يسارًا، لكنهم جاءوا إلى النبي ﷺ، وأخبروه، فنزل من عريشه الذي قد كان بُني

له، على تلٍّ هنالك، يشرف على القوم، وأخذ المعول، فضربها ضربةً، يقول ابن إسحاق لما ضربها ضربةً، أضاءت إضاءةً عظيمةً كأنما نحن في نهار، واندك منها ما اندك، فكَبَّر النبي ﷺ، ثم ضربها الثانية فأضاءت، وكبر تكبيرة الفتح تكبيرةً عظيمةً، ثم ضربها الثالثة وَكَبَّرَ، فقالوا: يا رسول الله، لماذا فعلت هذا؟ قال: «رَأَيْتُ فِي التَّكْبِيرَةِ الأُولَى قُصُورَ الرُّوم، وَفِي الثَّانِيَةِ قُصُورَ كِسْرَى، وَفِي الثَّالِثَةِ قُصُورَ صَنْعَاءَ فِي اليَمَنِ، وَأَنَّهَا سَتُفْتَح»، وهذه بشارة للمؤمنين، وتقوية[1].

لكن المنافقون ـ والعياذ بالله ـ الذين لا يثقون في وعد الله ووعد رسوله، قالوا: كيف هذا؟ فالإنسان منا ما يستطيع أن يذهب إلى الغائط، ليقضي حاجته، فكيف نملك قصور كسرى، وقيصر، وتُبَّع، هذا ما هو صحيح؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: [ضعف اعتقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بالنصر]، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ نعوذ بالله كيف ينطق البشر بمثل هذا الكلام؟ لكن ـ والعياذ بالله ـ ما دامت قلوبهم منطوية على الكفر، أو على الشك؛ لأن الذين في قلوبهم مرض عندهم شك، وضعف اعتقاد، والمنافقون عندهم كفر، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ ـ سبحان الله العظيم ـ الله ورسوله يعدهم غرورًا، ويكذب عليهم ويخدعهم، هذا لا يمكن، بل ما وعد الله ورسوله إلا حقًّا، لكن لا يمكن أن تجني العسل إلا بعد ذوق شوك النحل، لابد من تعب، ولابد من صبر ومصابرةٍ؛ لأنه لولا هذا ما عُرِفَ الصادق من الكاذب، ولا عرف المؤمن من الكافر، فلابد من ابتلاء.

ولهذا بالمناسبة طلبة العلم قد يواجِهُون بعض المصاعب، في الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ، قد يواجهون ذلك حتى في أنفسهم، لكن عليهم أن يصبروا، وأن يتحملوا في الدعوة إلى الله، لأنهم ليسوا يدعون إلى سبيل فلان وفلان ـ من سبل الطاغوت ـ لكن يدعون إلى سبيل الله التي توصلهم إلى الله عز وجل، فعليهم أن يصبروا ليس بمجرد أن يقال لهم: أنت طَوِّع، أو: أنت متشدد، أنت فيك كذا وكذا، ينحسر ويدع، هذا ما هو صحيح، لابد أن يصبر ويصابر، ويعمل بالحكمة وليس بالعنف، ولكل شيء من الحالات منزلته.

والحاصل: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد وَعَد أصحابَه بالنصر، فآمن بذلك المؤمنون. وتكلم المنافقون، والذين في قلوبهم مرض بهذا الكلام ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وكذبوا، والله ما وعدهم الله ورسوله إلا الحق والصدق، وقد صار والحمد لله، فإن هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ بما خلفه لها النبي ﷺ من العلم والهدى، وبما قام به خلفاؤه رضي الله عنهم ففتحوا قصور قيصر، وكسرى، واليمن، وأنفقت كنوز كسرى، وقيصر في سبيل الله، وجيء بتاج كسرى من المدائن إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه، وتحقق ما وَعَد الله ورسوله، وإن كان النبي ﷺ توفي

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٧٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٠) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان».

قبل أن يحصل له، لكن في الحقيقة هو الذي فتح هذا، ولم يفتح هذا إلا بشريعة الله، فبشريعة الله فتحوها، فصار ذلك نصرًا للنبي ﷺ؛ لأن النصر، كما نقول كثيرًا ليس انتصار الإنسان بشخصه، بل انتصاره بما جاء به ودعا إليه، ولو كان ذلك على أيدي أتباعه، ولو كان ذلك من بعد موته، والله أعلم.

الفوائد:

يستفاد من الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾:

١- بيان منَّة الله - عز وجل - على هذه الأمة، أولها وآخرها بهذا الدفاع عن المؤمنين، وجهه: أن الله أمرنا أن نذكر هذه النعمة.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن نعمة الله عز وجل، إما إيجاد محبوب، وإما دفع مكروه، والذي في الآية من باب دفع المكروه.

٣- **ومن فوائدها:** بيان شدة عداوة الكفار للمؤمنين؛ لأنهم تحزبوا ضدهم، وقد تكون هذه القبائل ليس بينها رابطة، ولكن من أجل أنها اتفقت في عداوتها للإسلام، فلذلك اجتمعت.

٤- **ويستفاد منها:** أن اليهود لا عهد لهم، وأنهم أهل غدرٍ وخيانة، ووجهه: نَقْضُ بني قريظة للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، وكل من القبائل الثلاث من اليهود عاهدت النبي ﷺ، حين قدم المدينة ومع ذلك، فإنهم نقضوا العهد وهم: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير؛ لأن اليهود من أشد الناس غدرًا وكذبًا.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - وهذا يؤخذ من قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾.

٦- **ويستفاد منها:** ما ذكره أهل العلم، من أن الريح إذا جاءت مفردةً، فإنها تكون في العذاب، وإذا جاءت مجموعةً: فإنها تكون في الرحمة، إلا أنها قد تأتي مفردةً في الرحمة إذا وصفت بما يدل على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الملائكة جنود لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فإذا قلت: هنا ما أضيفت إلى الله - عز وجل - فكيف تقول: إنهم جنود الله؟ نقول: لأنه يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أضاف إرسالهم إليه، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر:٣١] فإن قلت: هل الرب عز وجل، محتاج إلى جنود؟ نقول: بالطبع لا، لكن لماذا سُمُّوا جنودًا مع أنه لا حاجة به إليهم؟

نقول: لأنهم يقومون بأمره، ويدافعون عن أوليائه، فهم بمنزلة الجنود، وإلا فالله - عز وجل -

لا يحتاج إليهم، ولا إلى غيرهم فإنه غني عن كل أحد.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأصل أن الناس لا يرون الملائكة؛ لقوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهو كذلك، لكن قد يرونها، مثل ما رأى الناسُ جبريلَ حين جاء إلى النبي ﷺ، يسأله عن الإسلام، والإيمان والإحسان، والساعة وأماراتها[1].

٩- **ويستفاد من الآية الكريمة:** عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل ما نعمل، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وهل يشمل هذا عمل القلب؟

نقول: نعم يشمله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] وهو عمل القلب، أما عمل الجوارح فظاهر.

١٠- **ويستفاد من الآية الكريمة:** الترهيب والترغيب، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، لأن هذا فيه بالنسبة للعمل الصالح ترغيب، وأن هذا العمل لن يُهدر؛ لأنه معلوم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولابد أن يجازِيَ عليه، وترهيب لكل من عَمِلَ سيئة، فعندما تحدثك نفسُك يومًا من الأيام بأن تعمل سيئة؛ لأنه لا يطلع عليها أحدٌ من الخلق، فاذكر أن الله يطلع عليك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»، ليس معك في مكانك؛ ولكنه معك وهو على عرشه سبحانه محيط بك.

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾. **هذه خمسة أشياء ذَكَّرَهُم اللهُ بها، ليتبين وجه النعمة.**

١- **يستفاد من هاتين الآيتين:** أنه ينبغي لمن ذُكِّر أن يُذْكَر له وجه ما ذُكِّر به، فالإجمال ليس كالتفصيل، إذنْ نأخذ من هذا: أنه ينبغي للمُذَكِّر أن يفصل فيما ذَكَّر به؛ ليكون ذلك أبلغ في تذكر المخاطب.

٢- **ومنها:** أن الحال التي وقعت للمسلمين حال عظيمة رهيبة، وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم، وبهذا يتبين وجه نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم؛ لأن الأعداء يحيطون بهم، ولأن أبصارهم زاغت، وقلوبهم بلغت الحناجر، والأوهام والأفكار التي عندهم قد تكون دوَّختهم من هنا ومن هناك؛ لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

٣- **ومنها:** أن المخاوف ترجف الإنسان حتى في تصوراته، لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإن الإنسان المستقر، لا تكون عنده ظنون متباينة، متعارضة؛ لأنه مستقر، لكن عندما يحصل الفزع والخوف، تأتي الظنون من كل وجه.

٤- ومنها: أن خوف الإنسان - الخوف الطبيعي - من المخلوق، لا يعدُّ شِرْكًا، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ فإن هذا من شدة الخوف، وهو خوف من مخلوق، لكن الباعث عليه الأمر الطبيعي، وإذا كان الأمر الطبيعي، فإنه لا يؤاخذ به الإنسان، ولهذا وصفت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بل وصف به أولو العزم من الرسل، قال الله عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١] ولما كلفه الله بالرسالة، قال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣] فهذا خوف طبيعي لا يُلام عليه الإنسان.

٥- ومنها: أن الصحابة - رضوان الله عليهم - على ما هم عليه من المرتبة العالية، قد تعترضهم الظنون بسبب الضيق؛ لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وهو يخاطب المؤمنين، فهم لشدة الضيق، قد تعتريهم مثل هذه الوساوس، لكنها في الحقيقة سحابة صيف، عندما يرجع الإنسان إلى وعد الله - عز وجل - يزول عنه هذا كله ويتبدل ولهذا سيأتينا في سياق الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أنهم يرون هذه الأحزاب العظيمة ثم يُطَمْئِنون أنفسهم؛ لأن هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله؛ لأن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب، فهم لما رأوا هذه الأحزاب العظيمة، وما يترتب على وجودهم من الشدة والضيق، عرفوا أن النصر قريب؛ لأن الله - عز وجل - قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، ﴿نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في مثل هذه الحال ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾، إذا طبّقت هذه على حال المؤمنين في (سورة الأحزاب) وجدت أنها تنطبق، وآخر آية سورة البقرة: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

إذنْ صدق عليهم أن هذا ما وعده الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في قرب النصر، والحاصل أن في مثل هذه الأمور التي تأتي عارضة ما تؤثر على مرتبة الإنسان، وعلى حاله؛ لأنها تزول.

٦- ومنها: أن الإنسان إذا غلبته الحال حتى وردت عليه مثل هذه الظنون، فإنه لا يحط من مرتبته، لكن إذا استقرت به الحال، وهدأت هذه الظنون، عرف الحق.

٧- ومنها: تصوير الحال التي كان عليها المؤمنون في تلك اللحظة، وهو الابتلاء العظيم، وهذا ابتلاء بالنسبة لما حصل من الأحزاب، وبالنسبة لنفوسهم هل هي مستقرة؟

نقول: لا ؛ لقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، فاجتمع عليهم الابتلاء الظاهري الذي يُشاهد

بالعيان، والابتلاء الباطني وهو زلزلة النفوس، وعدم استقرارها، ولهذا قال: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

٨- **ومنها**: بيان القاعدة العامة، وهي: أن الله تعالى يَذْكُر النِّعم مضافة إليه، ويَذْكُر النِّقم غالبًا للبناء للمجهول؛ لأنه هنا قال: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ﴾، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ ذلك وقع من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكنه في مقام الخير يضيفه الله إلى نفسه تمدحًا، وفي مقام خلاف ذلك تأتي الأفعال مبنيةً للمجهول.

وانظر إلى قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] ففي الشر، قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، وفي الرشد أضافوه إلى الله ـ عز وجل ـ ؛ لأن الشر لا يضاف إلى الله، كما قال النبي ﷺ: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فلا يجوز للإنسان أن يضيف الشر إلى الله أبدًا، فالشر يكون في المفعولات، لا في الفعل؛ لأن مفعولات الله ـ عز وجل ـ لها جهتان:

الأولى: جهة باعتبارها فعلًا لله.

الثانية: باعتبار ذاتها.

أما باعتبار ذاتها ـ باعتبار المفعولات ـ ففيها خير وشر بذاتها مثل قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١،٢]، وأما باعتبارها فعلًا لله، فليس فيها شر، وباعتبار ذاتها ففيها خير وشر.

باعتبار الفعل ليس فيها شر؛ لأن الله ما قدرها إلا لحكمة، ثم لو تأملت الأشياء التي هي شر، لوجدت أنها تتضمن خيرًا، ولو كانت شرًّا، أما الفساد في البر والبحر من الجدب والفقر وغير ذلك شر، لكن مآله الخير قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: بيان أن المنافقين ينتهزون الفرص، ووجهه: أنهم في هذه الفرصة وحالهم الحال الضيقة الحالكة، بدأوا نشاطهم وانتهزوا الفرصة، وقالوا: أين الوعد؟ ففيه دليل على: أن المنافق على اسمه منافق، إن لم يجد فرصةً سكت، وصانع وداهن، وإن وجد فرصةً نطق وتكلم، وهذا دأبهم، قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤].

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة**: الحذر من المنافقين؛ لأنهم لا يألون المؤمنين خبالًا، كلما وجدوا مطعنًا ـ أي: مكانًا للطعن ـ هجموا، نسأل الله أن يعيذنا منهم.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن القلوب تنقسم إلى صحيحة، ومريضة، لقوله:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وكذلك الأبدان تنقسم إلى صحيحة ومريضة، وانظر إلى حال الناس اليوم، هل هم أشد على مداواة القلوب من مداواة الأبدان، أو على مداواة الأبدان من مداواة القلوب؟ الصحيح: الأخير إلا ما شاء الله.

فأكثر الناس اليوم حريصون على مداواة الأبدان التي مآلها أن تكون جيفة يأكلها الديدان، دون القلوب التي عليها مدار سعادة الدنيا والآخرة، فتجد الإنسان يُمرض قلبُه، وربما يصل إلى درجة الاحتراق، ولكنه لا يبالي به، فإذا أُصيب بشوكة في بدنه هرع إلى الأطباء، ولو حصل في ذلك مشقة وتعب، ولكن العاقل المؤمن هو الذي يكون دائمًا في نظرٍ إلى قلبه ومرضه وصحته، وسلامته وعطبه، وهذا هو المؤمن حقًّا.

ولا شك أنه إذا صح القلب صح البدن، ولست أقول: صح البدن أن المؤمن لا يُمرض، لكن المؤمن لو مُرض يرى أن في هذا المرض منفعة له ومصلحة، وبهذا يكون مرض بدنه صحة لقلبه، لما يحصل عنده من الصبر، والرضا بالله - عز وجل - وانتظار الفرج، وفعل الأسباب التي جعلها الله أسبابًا، فيعتمد على الله - تعالى - بما جعله سببًا.

فالحاصل: أن مرض القلب أخطر من مرض البدن بكثير، والعاقل يعتني بهذا عنايةً أشد.

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الله تعالى ورسوله قد وعدا المؤمنين بالنصر، لقوله: ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، والوعد مذكور في القرآن والسُّنة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، فانظر للوعد العظيم، ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾، وهذا نصر للمؤمنين مؤكد، والملتزم بهذا هو الرب - عز وجل - الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، لكن مع الأسف الشديد، أن كثيرًا من المؤمنين، لا يلاحظون هذه الأشياء مع أن الله تكفل بهذا.

وفي السنة يقول النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيْرَةَ شَهْرٍ**»(١) ونَصرُهُ ﷺ ليس نصرًا لذاته، ولكنه نصرٌ لما جاء به، فيكون النصر له ولأمته من بعده.

٥- ويستفاد من الآية الكريمة: بيان أن المنافق نظره قاصر، وكذلك مَن في قلبه مرض، وجهه: أنهم ما نظروا إلا إلى الساعة الحاضرة، وما فكَّرُوا في العاقبة، ومثل هذه الأمور التي تَرِد، فهذه أمور عوارض، لكن العاقبة للمتقين، فالأمور العوارض لا يُبْنِي عليها أحد إلا ضعيف البصيرة، حتى في أمور الدنيا أيضًا، لا تنظر إلى الأمور العارضة، فإنه كما قيل: (دوام الحال من المحال)، ولكن ما دُمْتَ واثقًا بوعد الله، فثق أنه يتحقق، لكن تعتريه عوارض لحكمة من حكم الله - عز وجل.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، و مسلم (٥٢١).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٣-١٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَت﴾ هذه معطوفة على ما سبق ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يعني: واذكر هذه القولة المنكرة.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ الطائفة الجماعة من الناس، و ﴿مِّنْهُمْ﴾ الضمير يعود على المنافقين، كما قال المؤلف.

وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ قال: [هي أرض المدينة] وقيل: هي المدينة نفسها، وأهل العلم بالتاريخ اختلفوا هل يثرب اسم للمكان والمنطقة - التي فيها المدينة - أو أن يثرب هي نفس المدينة، وظاهر الآية: أن يثرب هي المدينة؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ قال: [هي أرض المدينة، ولم تصرف للعَلَمِيَّة ووزن الفعل]، يعني: أنها ممنوعة من الصرف لهاتين العلتين: العَلَمِيَّة، ووزن الفعل، ويدل على أنها ممنوعة من الصرف: أنها جُرَّت بالفتحة؛ لأنه مضاف إليها، وحق المضاف إليه أن يكون مجرورًا، وهنا الكلمة مفتوحة؛ لأنها تُجر بالفتحة كسائر الأسماء التي لا تنصرف.

وقول المؤلف: [للعَلَمِيَّة ووزن الفعل]؛ لأن يثرب التي هي اسم على وزن يثرب الذي هو فعله، ولها علة أخرى غير وزن الفعل، وهي التأنيث؛ لأنه اسم لبقعة، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [للعلمية ووزن الفعل]؛ ليشير إلى أن هذه الكلمة (يثرب) مأخوذة من التثريب، وهو اللوم والتوبيخ، وما أشبه ذلك من الكلمات التي فيها عَتْبٌ، ولهذا قال النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبَ، وَهِيَ المَدِينَةُ**»(١)، وهذا دليل على أن النبي ﷺ كره أن تُسمَّى يثرب، وهذا أحد القولين في المسألة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٧١)، و مسلم (١٣٨٢).

وأما الحديث الذي روي «مَنْ سَمَّى المَدِيْنَةَ يَثْرِبْ فَلْيَسْتَغْفِر اللهَ»(١) فهو ضعيف، لكن يكفي عنه هذا الحديث الذي في «الصحيحين» «يَقُولُونَ: يَثْرِبَ وَهِيَ المدِينةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ».

الحاصل: أن قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾، كأن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ اختار أن يقول: [للعلمية ووزن الفعل]، لهذا السبب.

وقوله:﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [بضم الميم وفتحها أي: لا إقامة ولا مكانة] (مقام) بضم الميم وفتحها، ومعنى كلام المؤلف: [لا إقامة ولا مكانة]: لا إقامة تفسير للضَّم؛ مُقام، لأنه من الرباعي، والرباعي يقال في مصدره الميمي: مُقام. ومَقام؛ لا مكانة، على أنها اسم مكان، واسم المكان بفتح الميم.

والمعنى: لا موضع للإقامة، على أنها اسم مكان، أو لا إقامة لكم، لماذا يقولون: :﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ لأنهم يريدون الفرار، ولا يريدون البقاء مع النبي ﷺ في القتال، إذ إنهم منافقون، والمنافق ليس صبورًا على القتال، بل لا يريد القتال، ولو كان الأمر في يده لقاتل المسلمين.

وفي قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ إشارة واضحة إلى القومية والعصبية؛ لأنه دعاهم باسم الوطن، فما قال: يا إخوتنا، ولا قال: يا أيها المسلمون، إنما قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾؛ لأنه ليس عنده دين يقاتل من أجله، وإنما هو قومي، يريد الحمية فقط.

وقوله: ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ إلى أين؟ يقول المؤلف: [إلى منازلكم من المدينة، وكانوا خرجوا مع النبي ﷺ، إلى سَلْع ـ جبل خارج المدينة ـ للقتال].

وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ حسب ما يعرف في اللغة العربية، أنه نفي عام؛ لأن (لا) النافية للجنس تفيد العموم، يعني: ما فيها أي مقام، على أي حال من الأحوال ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾، ومثل هذا التعبير، إذا قيل لقوم ليس في قلوبهم إيمان، لا يُبْقِي منهم أحدًا لابد أن يرجعوا.

ثم قال الله ـ عز وجل ـ بناءً على هذا الأمر، وأنه لا مقام لهم ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ هؤلاء أهون من الأولين؛ لأن الأولين دعوا إلى الفرار بدون استئذان، حيث قالوا: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾، أما هؤلاء فهم يستأذنون النبي ﷺ، لكن استئذانهم للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس كاستئذان المؤمنين الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، لكنهم يستأذنون خداعًا، وتمويهًا، ولهذا يقول: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: من المنافقين إلى الرجوع، والاستئذان يقولون: استئذن بمعنى، اطلب الإذن؛ لأن استفعل تأتي كثيرًا بمعنى طلب الشيء، فمن استغفر طلب المغفرة، ومن استعتب طلب العُتب.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٦٣٥).

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ الجملة إما أنها حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ يعني: حال كونهم يقولون، وإما أن تكون عطف بيان، أو بدلًا من قوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾، وكلاهما له وجه؛ أما على قولنا: إنها حال، فلأن النكرة هنا وصفت، والنكرة إذا وصفت تخصصت فجاز وقوع الحال منها، وأما على قولنا: بأنها بدل أو عطف بيان، فعلى حد قول ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَيُبْدَلُ الفِعْلُ مِنَ الفِعْلِ كَمَنْ يَصِلْ إِلَيْنَا يَسْتَعِنْ بِنَا يُعَنْ

إذنْ يجوز فيها وجهان: أن تكون بدلًا من قوله: ﴿يستأذن﴾، وأن تكون حالًا من فاعل ﴿يستأذن﴾.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قال: [غير حصينة، يخشى عليها] يقولون للرسول - عليه الصلاة والسلام - يبررون الاستئذان: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، ونخشى عليها من العدو، والعورة هنا يعني: غير حصينة؛ لأن الحصن يحميها ويسترها، كما يستر الثوبُ عَورةَ الرَّجُل، هذا معنى قولهم: إنها عورة، يعني: مكشوفة، لا نأمن هجوم العدو عليها، وفي قراءة لكنها غير سبعية ﴿عَوِرَةٌ﴾ بكسر الواو، أي: معيبة.

قال الله تعالى مبطلًا دعواهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ هنا ينبغي الوقوف على قوله: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ لأنك لو وصلت، لأوهم أن قوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ من قول المنافقين، فيكون في ذلك تناقض، وفساد للمعنى، فتقف عند قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ثم تستأنف القراءة، وتقول: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ قال المؤلف: ﴿إِن﴾، قال: [ما]، يعني تفسير لـ (إن) هنا على أنها نافية؛ لأنها فسرت بـ(ما)، وما نافية، ويدل لذلك إتيان ﴿إِلَّا﴾ بعدها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، فهذا دليل على أنها نافية.

و(إن) تأتي نافية كما قلت، وتأتي شرطية، مثل قوله: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾، وتأتي مخففةً من الثقيلة، مثل قوله: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، وتأتي زائدةً، ومثال ذلك من كلام العرب:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبُ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

هنا إن زائدة؛ لأن (ما إن أنتم) أي: ما أنتم.

إذنْ ما الذي يعيِّن هذه المعاني؟ السياق، وهذا باتفاق العلماء، أي: أن وجود الألفاظ المشتركة التي تتعين بالسياق ثابت في اللغة العربية، لكنهم اختلفوا في مسألة الحقيقة، والمجاز؛ فمنهم من أثبت ذلك، ومنهم من نفى، وقال: إن المجاز والحقيقة كالاشتراك في المعنى، وهذا هو القول

الراجح - كما سبق عدة مرات - أن الصحيح: أنه لا مجاز في اللغة العربية (١).

يقول: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ يعني: ما يريدون إلا فرارًا، وهذه الجملة جملة حصرية، يعني: تفيد الحصر، يعني: أن هؤلاء ما لهم إرادة إلا الفرار من القتال، فالبيوت محصَّنة، ولا يُخشى عليها أكثر مما يخشى على المدينة، وليس لهم أي عذرٍ، إلا عذرًا واحدًا؛ وهو الفرار من القتال؛ لأنهم لا يريدون مواجهة العدو؛ بل هم العدو كما قال الله عنهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ [لو] هذه شرطية، وفعل الشرط فيها: ﴿دُخِلَتْ﴾، وجواب الشرط ﴿لَآتَوْهَا﴾. الفاعل: فسره المؤلف: بالمدينة، يعني: لو دخلت عليهم المدينة من أقطارها، وتفسيره إياها بالمدينة يؤيده قوله في أول الآية: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ وفسرها بعضهم: بالبيوت، أي: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ البيوت من أقطارها، ويؤيد هذا التفسير قوله: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، لكن يرجح الأول بأنها المدينة قوله: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ لأن الغالب أن كلمة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ لا تأتي للبيوت؛ لأن البيوت صغيرة، فجهاتها لا يطلق عليها قطر، وإنما الأقطار تكون للشيء الكبير، ولهذا قال: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ [قال: نواحيها].

يعني: لو دخل العدو المدينة من نواحيها كلها، أو من أي ناحية منها، قال: [﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي: سألهم الداخلون ﴿الْفِتْنَةَ﴾ الشرك، ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد والقصر، أي: أعطوها، وفعلوها].

قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ نائب الفاعل: المنافقون، لكن من السائل؟ الفاعل في المعنى، وهو الداخل المدينة من أقطارها، فلو سألهم هذا الداخِلُ الفتنةَ، يقول المؤلف عن الفتنة: [الشرك]، والدليل على أن الفتنة بمعنى الشرك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يكون شرك، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنةُ: الشرك.

هؤلاء لو دُخلتْ عليهم المدينة، لم يكن عندهم إخلاص في الإسلام وبقاء عليه، بمجرد ما يسألهم الداخلون الكفر يوافقون عليه؛ لأنهم قوم لا يريدون إلا الدنيا فقط، يريدون أن يعيشوا في الدنيا، ولو عيشة الحمار، أما أن يعيشوا عيشة المؤمنين، فإنهم لا يريدون هذا، لذلك يقول: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾.

وقوله: ﴿لَآتَوْهَا﴾ هذا المد، والفرق بينهما، أن (أتى) بمعنى جاء، و(آتى) بمعنى أعطى، وتفسير القراءتين، أو مجموع التفسير يدل على أنهم يعطون ما سئلوا ويأتون إليه بانقياد، يعني:

---

(١) وهذا القول غير متفق عليه بين العلماء؛ لأن المجاز فن من فنون البلاغة العربية التي وضع أسسها العرب، وظلت حتى الآن تستمد لها شواهد من القرآن والسنة وشعر العرب قديمًا وحديثًا.

أتى الشيء، جاء باختياره، وآتاه بمعنى: أعطاه ولو عن كُره، ولكن مع ذلك هؤلاء القوم يعطون ما سُئلوا عن اختيار؛ ولهذا في القراءة الثانية: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ أي: لجاءوها، فصار هؤلاء القوم الذين يعتذرون أو يستأذنون النبي ﷺ بحجة أن بيوتهم عورة، صار الأمر بخلاف ما قالوا؛ لأن الله أخبر عنهم، وهو سبحانه أعلم بما في قلوبهم، وهذا من اطلاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما في القلوب أخبر عن أمر مستقبل لم يقع يصدر من قوم لا نعلم نحن ما في قلوبهم، ولكن الله يعلم، والله يعلم ماذا يحدث من عبده لو حصل له ما يحصل به هذا القصد، بل إنه ـ سبحانه ـ يعلم أبلغ من ذلك، قال عن الذين يقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعملوا صالحًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما في قلب الإنسان.

وقوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ ﴿تَلَبَّثُوا﴾ بمعنى: تريثوا، يعني: لا يتريثون في إعطاء الفتنة وقبولها إلا يسيرًا، وقوله: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾، قيل: إن هذا بمعنى إلا عدمًا؛ لأن اليسير والقليل قد يُراد به العدم، وقال بعضهم: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: إلا قليلًا على وجه الحقيقة، وهذا الزمن اليسير، هو ما بين السؤال والجواب، أي: ما بين أن يُسْأَلوا ثم يجيبوا، وهذه المسافة من المدة قصيرة جدًّا، وهي كالمسافة التي بين قول القائل: بِعْتُك هذا الشيء، فيقول المشتري: قبلت، يعني: أنهم ـ والعياذ بالله ـ لا يتريثون أبدًا، بل يقبلون فورًا، ليس بين قبولهم وسؤال الفتنة إلا ما بين مدتي السؤال والجواب.

وفي الحقيقة: أن هذه المدة قصيرة كالعدم، ولهذا فُسِّرَ قوله: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ يعني: إلا عدمًا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾، الجملة هذه مؤكَّدة باللام، وقد، والقسم المقدَّر، فكلما جاء مثل هذا التعبير في القرآن، فإنه مؤكد بالمؤكدات الثلاثة، يعني: والله لقد كانوا عاهدوا الله من قبل.

القَسَم تقدم لنا أن الله يقسم على الشيء، لا في جانب الإنكار، ولكن في جانب الأهمية، وقد يقسم عليه في جانب الإنكار مثل قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، هنا أكد الله تعالى هذا العهد منهم، أنهم عاهدوا الله من قبل لا يولُّون الأدبار، وهذا العهد بينهم وبين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والمعاهدة مع النبي ﷺ معاهدة مع الله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، فهم عاهدوا الرسول ﷺ ألا يفروا، ولا يولون الأدبار، ولكنهم نقضوا العهد؛ لأن نقض العهد والخيانة والكذب من خصال المنافقين، وتلك سجية فيهم ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ما محل قوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ من الإعراب؟

قال بعضهم: لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب لقوله: ﴿عَاهَدُوا﴾.

وقال بعضهم: إنها بيان للمعاهدة، يعني: أن المعاهدة التي وقعت أنهم لا يولون الأدبار، وكلمة ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ تحتاج إلى مفعولين: المفعول الأول: ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: لا يولون عدوهم أدبارهم، أو تولية الدُّبُر معناه: الانصراف والانحراف، فبدل من أن تكون وجوههم نحو العدو تكون أدبارهم نحو العدو، فهم أقسموا بالأول، وعاهدوا أنهم لا يولون الأدبار عند ملاقاة الأعداء، ولكنهم نقضوا العهد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ قال المؤلف: [عن الوفاء به].

فعلى هذا لا تكون المسئولية ما هي عن العهد نفسه فقط، بل عن الوفاء به، فالعهد مسئول عن الوفاء به، والسؤال عن الوفاء به سؤال عن وقوعه أيضًا، فيقال مثلًا: أليس بيني وبينك عهد؟ ألم تنقض العهد؟ فيكون السؤال عن نفس العهد، وعن الوفاء به.

هل هذه المسئولية تكون في الدنيا، أم في الآخرة؟

الجواب: أما المسئولية التي تكون بين العبد وبين ربه فتكون في الآخرة، وأما التي تكون بينه وبين الناس فهي في الدنيا، يطالب بالوفاء بالعهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله: ﴿لَّن﴾ تفيد لن ثلاثة أشياء: النفي، والنصب، والاستقبال، يعني: أن الفعل المضارع محتمل لأن يكون للحال أو للاستقبال، فإذا دَخَلَتْ عليه (لن) تعين أن يكون للاستقبال. وهل (لن) للنفي المؤبد، يعني: تستلزم وتقتضي النفي المؤبد؟

الجواب: تكون للتأبيد ولغير التأبيد، ومثالها للتأبيد قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٤]، والآية التي معنا قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، وتأتي لغير التأبيد كما في قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١] هل هم قد يضرون المؤمنين بغير أذى؟ لا بل لن يضروهم إلا أذى، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة:٧] نعم هم يتمنون الموت وهم في النار، ولكن في الدنيا لا يتمنون الموت.

والصحيح: أنها لا تستلزم التأبيد، ولكن قد تفيده كما قال ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا   فَقَوْلَهُ ارْدُدْ..............

فما يمكن أن تأتي للتأبيد أبدًا، يعني معناه: لا تستلزم التأبيد، وإلا قد تفيده.

ولهذا قال أهل السنة: إن قول الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣] لا يستلزم أنه لا يرى الله لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وأما المعتزلة، ومنكرو نعمة الله ـ تعالى ـ فإنهم يقولون: إن (لن) تفيد التأبيد، فتفيد أن الله لا يُرَى أبدًا.

وقوله: ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: فإن لم تفروا من الموت أو القتل، نفعكم الفرار؟

الجواب: لا؛ لأن هذا القيد لبيان الواقع؛ لأنه لا فرار إلا إذا فروا، فهو لا ينفعهم أي شيء من الموت أو القتل، قال: ﴿وَإِذًا﴾، لو فرض أنكم فررتم من الموت أو القتل، [﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بقية آجالكم]، يعني: على فرض أنكم فررتم من الموت أو من القتل فهل ستبقون في الحياة؟

الجواب: لا، إن فروا ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو بقية آجالهم، هذا على تقدير فرارهم، وحينئذٍ ما الفائدة من أن يدع الإنسان القتال المفروض عليه ويولي الدبر لأمرٍ قد ينفعه، وقد لا ينفعه، قد يموت في حالة توليه، وقد يبقى ويعمر، لكن لو بقي وعمِّر، هل سيبقى أبدًا؟ لا، لا يمتع إلا قليلًا، مهما طال الأمد به، فإنه قليل، ولهذا الدنيا كلها بالنسبة للآخرة ليست بشيء، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦،١٧]، وأخبر النبي ﷺ: «أَنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ الإِنْسَانِ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فالمتاع في الدنيا في الحقيقة ليس بشيء بالنسبة لوقت الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثم هناك شيء آخر، فلو قُتلوا في سبيل الله، فإنهم قتلوا ولكنهم أحياء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، هذا القول باللسان نهينا عنه، وحتى الظن بالقلب نهينا عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، فلا يجوز القول ولا الحسبان بأن من قُتل في سبيل الله يكون ميتًا، بل هو ميت البدن، لكنه حي الروح؛ حياة برزخية، وليست كحياة الدنيا، ولو كانت كحياة الدنيا ما جاز أن يدفن هؤلاء، لأنا لو دفناهم وهم أحياء الحياة الدنيوية، لكنَّا قد قتلناهم وأهلكناهم.

وبهذا نعرف ضلال من قالوا: إنهم أحياء يسألون لك إذا سألتهم أن يدعوا الله، ويجيبونك، ويتوصلون بهذا الشيء إلى الإشراك بهم وبالأنبياء، وبمن يزعمونهم أولياء.

مسألة: هل قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] خاصة بالشهداء فقط؟

الجواب: هي خاصة بالشهداء ومن هو أفضل منهم هذا هو الظاهر، ويحتمل أن يكون هذا خاص بالشهداء فقط؛ لأن الشهداء تعرضوا للموت؛ ابتغاء وجه الله، فبعض أهل العلم يقول: إذا ثبت هذا للشهداء ـ الحياة البرزخية ـ فلمن هو أفضل منهم أثبت، مثل الصديقين والأنبياء،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، و مسلم (١٨٨١).

ولكن عندي أن فيه احتمالًا بأن هذا خاص بالشهداء، وذلك لأن الشهيد ليس كغيره، فالشهيد عرض نفسه للموت وباع نفسه، فيُجازى أن يكون حيًّا [1]، لكن المشهور أن من هو أعلى من الشهداء له ذلك الحكم، والأنبياء لهم خصيصة أخرى أيضًا ما هي لغيرهم، وهي أن الأرض لا تأكل أجسادهم.

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مثل هذا التعبير ذكر فيه المفسرون أنه يراد به العدم يعني: لا يؤمنون أبدًا.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان إرجاف المنافقين للمؤمنين، والإرجاف هو: أن يُذْكَر للإنسان ما يكون به الخوف والقلق، وفي باب القتال: مرجِف، ومُخَذِّل، والفرق بينهما: أن المرجِف: من يخوف، والمخذِّل: من يقلل الرغبة في الخير، فالمرجف يرهبك، والمخذل يثبط عزيمتك، فبينهما فرق، فهل هؤلاء مرجفون أم مخذِّلون؟ هم مرجفون قالوا: لا يوجد مقام هنا، لأنه خطر عليكم، ولهذا قالوا: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيستفاد منه: أن المنافقين من شأنهم الإرجاف بالمؤمنين.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الاعتزاز بالوطن من صفات المنافقين؛ لقولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾، وقصدهم بذلك إحماء حميتهم الوطنية، وأما الحديث الذي يُروى «**حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ**» فإنه كذب على الرسول ﷺ، وليس من الإيمان.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تسمية المدينة بـ(يثرب)، هكذا استدل به بعضهم، ووجه قول هذا القائل: أن الله تعالى حكاه عنهم وأقره، ولكن بعض أهل العلم، قال: لا يدل على ذلك، بل إنما يدل على العكس، وأن تسميتها بيثرب، إنما يكون من المنافقين؛ لأن الله تعالى يحكي الكفر عن الكافرين، - يحكي كل ما يقول هؤلاء الكفار من المنافقين وغيرهم -، وهل ما حكاه عنهم من الكفر إقرار له؟

الجواب: لا، إذنْ يستفاد من الآية: أن تسمية المدينة بـ(يثرب) من شأن المنافقين، ولهذا قال النبي ﷺ: «**يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ المَدِينَةُ**»، وهذا واضح؛ لأن الرسول ﷺ لم يرتض هذه التسمية، ويتفرع على هذه الفائدة: بيان ما كان عليه أولئك المؤرخين، - لا نقول العرب - بل الإسلاميين الذين هم إمعة، جاء المستشرقون، فكانوا يتحدثون باسم محمد فقط، قال محمد كما قال الكفار في عهد النبي ﷺ، ويتحدثون عن المدينة بأنها يثرب، فجاء هؤلاء المساكين يقلدون هؤلاء

(١) وقد قيل: إن الشهيد باع الحياة فجُوزي بالحياة.

المستشرقين، فصاروا يعبرون عن الرسول بكلمة محمد، ويعبرون عن المدينة بكلمة يثرب، وكأن هذا هو الفخر والرقي.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك المرجفين، لم يقتصروا على الإرجاف، بل ضلَّلوا الناس بقولهم: ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾، فيستفاد منه فائدة تتفرع على هذا: أن كل من دعا إلى الرجوع عن الحق ففيه شبه بالمنافقين؛ لقولهم: ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ هؤلاء أرجفوا أولًا، ثم دَعوا إلى الترك.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان مكر المنافقين؛ حيث جاءوا يستأذنون النبي ﷺ تمويهًا، وإلا ليس في نيتهم البقاء، لكن يموهون ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾، ففيه دليل على: تمويه المنافق، وإظهار حاله بحال المؤمن المنقاد الذي لا ينصرف إلا بعد الاستئذان، مع أن الاستئذان في مثل هذه الحال من شأن المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من شأن المنافقين الكذب؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾، وهم كاذبون في ذلك.

٧- **ومن فوائدها:** بيان إحاطة علم الله - تعالى - بما في القلوب؛ لقوله: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾، أما قوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾، فهذا قد يُعلم، لأنه ظاهر أن البيوت حصينة، ولا عليها أحدٌ من العدو، لكن ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾، والإرادة في القلب لا يعلمها إلا الله - عز وجل - أو صاحبها، أو من أطلعه الله تعالى عليها.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب تكذيب الناطق بالباطل، وهل يصح التعبير بكلمة وجوب أو نقول: مشروعية؟ هو إن نظرنا إلى أن الباطل يجب إبطاله، قلنا: يجب، لكن الكلام على هذا هل يؤخذ من الآية؟ نقول: الآية فيها مشروعية ذلك، أي: إبطال قول الناطق بالباطل؛ لأن الله - تعالى - أبطله في قوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن المنافقين أشد الناس ذُعرًا؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا﴾؛ لأن عندهم ذعرًا من هؤلاء الذين دخلوا عليهم من أقطارها.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** قرب المنافقين من الكفر والشرك؛ لقوله: ﴿سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا﴾ مبادرين، فلا يتريثون ويقولون: ننظر في الأمر.

مسألة: وهل يستفاد من هذه الآية أنه لا حكم للإكراه، وأن الإنسان إذا كفر مُكرهًا، فإنه يترتب على كفره حكم الكافر، أم لا؟

الجواب: لا يستفاد، لأن هؤلاء سُئلوا ما أُكرهوا، فبمجرد السؤال وافقوا، فليس فيه معارضة لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦]، فإنه لا يعارض هذه الآية.

٣ـ ويستفاد من الآية الكريمة: بيان أن المنافق، حياته حياة مادية يريد أن يعيش سواءً كان كافرًا أو غير كافر، لأن هؤلاء إذا سُئلوا الفتنة، أتوها؛ إذنْ فإيمانهم ليس إيمانًا حقيقيًا، إلا المؤمن الحقيقي، فإنه إذا سئل الشرك ما أشرك.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن المنافقين أصحاب غدرٍ وخيانة، لقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ وهم الآن يحاولون الإدبار، لكنهم يموِّهون بسؤال النبي ﷺ واستئذانه.

إذنْ يتفرع على هذه الفائدة: أن كل من نقض العهد ففيه شبه من المنافقين واليهود، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ **«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ»**[1] ومنها: **«إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»**، يتفرع على ذلك: أنه إذا كان الغدر من صفات المنافقين، فالواجب على المؤمن البعد عنه، ولو لم يكن من الغدر إلا أنه من صفات المنافقين، لكان ذلك كافيًا في وجوب البُعد والحذر منه.

٢- ويستفاد من الآية الكريمة: استهانة المنافق بحق الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني: نقض العهد مع الإنسان مثله، قد يكون أهون، لكن نقض العهد مع الله ـ عز وجل ـ أشد وأعظم.

٣- ويستفاد من الآية الكريمة: تحريم تولية الأدبار عند ملاقاة العدو، ووجه ذلك: أن الله ـ تعالى ـ ذَكَرَ هذا عن المنافقين؛ تحذيرًا منه، وقد دلت الآية الكريمة في سورة الأنفال، على أنه من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الأنفال:١٥، ١٦]، وجاءت الأحاديث في عد ذلك من الموبقات، يعني: المهلكات؛ لأنه من الكبائر[2].

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: إثبات الحساب:لقوله:﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾، فكل ما بينك وبين الله ـ عز وجل ـ من الحقوق، فإنك مسئول عنه يوم القيامة، قال تبارك تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦،٧].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣)، و مسلم (٥٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، و مسلم (٨٩).

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

١ - **في الآية هذه دليل على:** أنه لا فرار من قدر الله، لقوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ وهل قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، متعلق بـ ﴿فَرَرْتُم﴾ أم بالفرار؟ بالفرار ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ﴾ الفرار ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ إن فررتم، فتكون الجملة الشرطية: ﴿إِن فَرَرْتُم﴾ جملة معترضة، وهذا أوضح في المعنى، فيستفاد: أنه لا فرار من قدر الله.

وهل يستفاد من الآية إبطال الأسباب، لأن الإنسان لو رأى نارًا تلتهم الشَّجر مقبلة عليه، هل يهرب أم لا؟ يهرب؛ ربما ينجو.

ولو قال قائل: هذه الآية تنفي العمل بالسبب.

فالجواب على ذلك أن نقول: إذا كان العمل بالسبب مبطل لحكم شرعي، فإنه لا يجوز، كهذه الآية، أو كهذه الحال.

فإبطال الأسباب القَدَرِيَّة بانتهاك الأحكام الشرعية، هذا لا يجوز، يعني: كون الإنسان يترك الحكم الشرعي الواجب؛ خوفًا من آثاره، فهذا ليس بجائز، لكن إذا كان سببًا حقيقيًّا مأذونًا فيه شرعًا، فلتفعلْه، لا نقول للرجل: إذا رأيت النار مقبلةً عليك فقف، فإن الفرار لا ينفعك، فهذا غير صحيح، بل نقول في هذه الحال: فِرَّ؛ لأن هذا سبب مباح، مأذون فيه شرعًا، وسبب حقيقي، لكن أن نجعل الأسباب معطلة للأحكام الشرعية هذا لا يجوز.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** بيان نفوذ حكم الله ـ عز وجل ـ الشرعي والقدري، أما القدري: فلا إرادة لك فيه، وأما الشرعي: فلك فيه إرادة، ولهذا نقول في الحكم الشرعي: وجوب تنفيذ حكم الله الشرعي؛ لأن الله تعالى عاب هؤلاء الفارِّين، لكون فرارهم يتضمن إسقاط حكم شرعي.

٤- **ومن الفوائد:** أن البقاء في الدنيا ـ وإن طال ـ فهو قليل؛ لقوله: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

٥- **ومن فوائد الآية:** توبيخ هؤلاء الذين فرُّوا؛ للإبقاء على حياتهم، هذا يؤخذ من أمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، ولهذا لا شك أنه على سبيل التوبيخ لهم، ولهذا قال: ﴿وَإِذًا﴾ أي: لو فررتم، ونجوتم من هذه الحادثة، لا تنجون من الموت؛ لأنه ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧-١٩]

❁ التفسير ❁

قال الله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

قال المؤلف في معنى ﴿يَعْصِمُكُم﴾ [يجيركم] ولكن الصواب أن المراد بها: يمنعكم؛ لأن العصمة هي المنع، ومنه المعصوم، يعني: الممنوع من الخطأ، فالصواب أن ﴿يَعْصِمُكُم﴾ أي: يمنعكم من الله.

وقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي﴾ ﴿ذَا﴾ اختُلف في إعرابها على وجهين: الأول: أنها اسم إشارة، والآخر قال: إنها ملغاة، والصواب: أنها ملغاة؛ لأنها إذا جاء بعدها اسم موصول، فإنها تكون ملغاة، مثل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ﴾.

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ الاستفهام هنا يراد به النفي، أي: لا أحد يعصمكم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام، فإنه أبلغ من النفي المجرد، لأنه يكون نفيًا مُشربًا بالتحدي، كأنه يقول: أخبروني أيعصمكم أحد من الله إن أراد بكم سوءًا؟! هذه قاعدة في كل ما يكون فيه الاستفهام بمعنى النفي، أن نقول: عُدل عن النفي المحض إلى الاستفهام؛ ليكون مُشربًا معنى التحدي.

وقوله: ﴿يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾؟ الجواب: لا أحد.

يقول: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ قال: [هلاكًا و هزيمة]، هلاكًا إذا لم يكن هناك قتال، أو كان قتال فقُتلتم، أو هزيمة إذا غلبتم، وبقيتم، وكل ذلك سوء، لكنه سوء بالنسبة للمكلَّف، أما بالنسبة لفعل الله ـ عز وجل ـ فإنه خيرٌ؛ لأنه لحكمة، قال المؤلف: [﴿أَوْ﴾ يصيبكم بسوءٍ إن أراد الله بكم رحمة].

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قدَّر هذه الجملة؛ لأنه ذكيٌّ جدًّا، قال: [أو يصيبكم بسوءٍ]، يصيبكم معطوفة على يعصمكم، يعني: أو من ذا الذي يصيبكم بسوء، إن أراد الله بكم رحمة، خيرًا؟ والجواب ـ

أيضًا - كالسابق، لا أحد، وإنما قدم المؤلف: أو يصيبكم بسوء، على خلاف ظاهر السياق؛ لأن الرحمة لا تعد مصيبة حتى تحتاج إلى العصمة، فإنه إذا أراد الله للإنسان رحمة، ما يقال من ذا الذي يعصمه منها؛ لأن الرحمة مطلوبة، لا يتطلب الإنسان فيها أحدًا يعصمه منها، فلهذا قدر قوله: أو يصيبكم بسوء يعني: أو يصيبكم أحد بسوء، إن أراد الله بكم رحمةً.

ولكن الصحيح أنه لا حاجة إلى هذا التقدير، إذا جعلنا العصمة بمعنى المنع، فالمعنى: من الذي يمنعكم من الله إن أراد بكم سوءًا، ومن الذي يمنعكم من رحمته، إن أراد بكم رحمة، فالفرار لا يمنعكم من السوء الذي أراد الله بكم، والبقاء لا يجلب لكم الرحمة التي أراد الله بكم، فالكل بيد الله - عز وجل - لا ينفعكم الفرار ولا البقاء.

وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ قال المؤلف: [خيرًا] وإذا كنا فسرنا الأول بالهلاك والهزيمة، فالمراد بالخير هنا النصر والبقاء.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: [أي: من غيره ﴿وَلِيًّا﴾ ينفعهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم].

قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ أي: هؤلاء الذين فروا من القتال، لن يجدوا أحدًا ينفعهم، أو يجلب لهم الخير، أو يدفع عنهم الضرر، والولي هو الذي يتولى أمرك، ويعتني بك، فهؤلاء لا يجدون أحدًا سوى الله.

وقوله: ﴿وَلِيًّا﴾، يعني: بالولاية العامة؛ لأن عناية الله - سبحانه وتعالى - تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة، تشمل، كل أحد، وولاية خاصة للمؤمنين فقط، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]، أما بالمعنى العام، فمثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، فإن هذه، الولاية العامة؛ لأن الله - تعالى - وليٌّ على كل أحد بالمعنى العام، الذي هو التدبير، والملك، والسلطان.

وقوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ النصير

هو الذي ينصرك عند ملاقاة الأعداء، فهؤلاء ليس لهم أحد يتولاهم بجلب الخير لهم، ولا ينصرهم بدفع الضرر عنهم؛ لأن الأمر كله لله.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال المؤلف: [﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين ﴿مِنكُمْ﴾ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾] قوله: ﴿قَدْ﴾ هنا، للتحقيق، والأصل: أنها إذا دخلت على الفعل المضارع، فتكون للتقليل، يقال: قد يجود البخيل، لكن هي هنا للتحقيق؛ لأن علم الله - عز وجل - محقق وليس للتقليل، وإنما جاءت

قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ دون قد علم، ليفيد أن علم الله ـ تعالى ـ مستمر بهم، من ذلك الوقت إلى يوم القيامة؛ لأن الله ـ تعالى ـ عالم بهم وبأحوالهم وتقلباتهم.

وقوله: ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ قال المؤلف: [المثبطين]؛ لأن المثبِّط يعوق الإنسان، أي: يحول دونه ودون مراده، وهو ما يسمى عند الفقهاء بالمخذِّل، والفقهاء يقولون في باب الجهاد: يجب على الإمام أن يمنع المخذِّل والمرجِف، فالمخذل الذي يثبط العزائم، يقول: ما يوجد داعٍ للجهاد، وليس عندنا استعداد، وما أشبه ذلك، والمرجِف هو الذي يُرهب من الأعداء ويخوِّفُ منهم، يقول: الأعداء كثيرون، وأسلحتهم قوية، وما أشبه ذلك.

يقول تعالى: ﴿الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ والصحابة، فُهِم أنه موجود في الصحابة من يعوِّق.

وقوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ﴾ قال: [تعالوا ﴿إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وسمعةً].

قوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ﴾ معطوفة على ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾، يعني: ويعلم القائلين لإخوانهم هلم إلينا، وهذا غير التعويق، لأن المعوق هو الذي يعرض الشيء، ولكن لا يدعوه، لكن هؤلاء يقولون لإخوانهم، فهو أبلغ من التعويق، وقول القائلين لإخوانهم هذه غير المعوقين، فليس عطف صفة، ولكنه عطف ذات، والأصل في التعاطف أن يكون لتغير الذوات، وقد يكون لتغير الصفات، وقد يكون لتغير اللفظ.

وقوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ هذا في المنافقين، وسمُّوا إخوانهم في النسب، وليسوا إخوانهم في الدين، اللهم إلا أن يراد الأخوة الظاهرة، فإن هؤلاء يتظاهرون بأنهم مؤمنون.

وقوله: ﴿هَلُمَّ﴾ تعالوا إلينا، هل هي فعل أمر أم اسم فعل أمر؟ ﴿هَلُمَّ﴾ اسم فعل أمر، لأنه ليس كل ما دل على الطلب، فهو فعل أمر، فالمصدر قد يدل على الطلب، كما لو قلت: ضربًا زيدًا، لكن ما دل على الطلب بذاته يعني: بغير أداة خارجية، فإما أن يقبل علامة فعل الأمر أو لا، فإن قبلها فهو فعل أمر، وإن لم يقبل فهو اسم فعل أمر، أو قد يكون مصدرًا نائبًا عن الأمر، وقولنا: بغير أداة خارجية؛ احترازًا من المضارع المقرون بلام الأمر، فالمضارع المقرون بلام الأمر، يدل على الأمر، لكن لا بذاته، بل بأداة أخرى خارجية، وهي لام الأمر، فـ ﴿هَلُمَّ﴾ هنا: اسم فعل أمر، لأن عيسى مثلًا، نقول له: هلم إلى الدرس، وهلم إلينا، وأحمد وعيسى نقول لهما: هلم إلينا، ونضم إليهما سيدًا ونقول لهم جميعًا: هلم إلى الدرس، فهو لم يتغير وظل مفردًا سواء كان: مثنًى، جمعًا، أما إذا كنا نخاطب واحدًا، فنقول: هلم إلينا، وإذا كنا نخاطب اثنين، فنقول: هلما إلينا، ونخاطب ثلاثة فنقول: هلموا إلينا، لكان فعل أمر، ولهذا نقول: قم، وقوما، وقوموا.

فهي إذنْ اسم فعل أمر تخاطب بها الواحد، والاثنين، والجماعة، ولا تتغير، هذا على لغة

الحجاز، أما بنو تميم فإنها عندهم فعل أمر، ولهذا يقولون للواحد: هلم إلينا، وللاثنين: هلما إلينا، وللجماعة: هلموا إلينا، هذا يدلنا على أنها اسم فعل أمر؛ لأنها لو كانت فعل أمر، لقال: هلموا إلينا، أي: تعالوا إلينا، يدعون غيرهم لترك القتال.

قال: [﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ القتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾]، والقليل هنا قد يراد به العدم، وقد يكون المراد به: الشيء اليسير ـ القلة ـ ويمكن أن يراد به العدم بالنسبة لقوم، والقلة بالنسبة لآخرين من المنافقين؛ لأن من المنافقين من لا يحضر القتال أصلًا، ومنهم من يحضر قليلًا للرياء والسُّمعة، ومعلوم أن من يلاحظ الرياء والسمعة، فإنه إذا كان في محل يجد الرياء والسمعة حضر، وإذا كان في محل لا يجد رياء ولا سمعة لم يحضر، فما الفرق بين الرياء والسمعة؟

نقول: الرياء يعود إلى الأفعال، والسمعة، تعود إلى الأقوال؛ لأن الأفعال تُرى، والأقوال تُسمع، ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ رَاءَىْ، رَاءَىْ اللهَ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ**»(١) فإذا تكلم شخص بذكر، ورفع صوته ليُسمع، فيثنى عليه به، فنصف فعله بأنه سُمعة، وإذا قام يصلي ليراه الناس، فهو رياء، وقد يطلق الرياء عليهما جميعًا، لكن عندما يجتمعان، يكون الرياء في الأفعال، والسُّمعة في الأقوال.

يقول الله: [﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة، جمع شحيح، وهو حال من ضمير ﴿يَأْتُونَ﴾]، قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، والشحيح: هو المانع مع الحرص، والبخيل: هو المانع بدون حرص، فإذا كان الإنسان مَنوعًا جموعًا يعني: مع الحرص، يسمى ذلك شحيحًا، وإن كان بخيلًا، لكنه ليس ذات الرجل الذي يكون حريصًا على جمع المال مثلًا، فإنه يسمى: بخيلًا، ولهذا قال النبي ﷺ، محذرًا من الشُّح: «**اتَّقُوا الشُّحَ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(٢).

يقول: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ نصبت على الحال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾، يعني: لا يأتون إلا قليلًا، ومع ذلك يأتون أشحة عليكم، يعني: وهم أشحاء عليكم، لا يريدون أن تصلوا إلى خير، بل يحبون أن يمنعوا كل خير عنكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخوف ليس ذاتًا تأتي، لكنه معنىً يأتي، والمجيء يكون للمعاني، ويكون للذوات، فتقول: جاءه المرض، وتقول: جاء زيد، فالمجيء هنا أسند إلى معنىً، جاء الخوف ممن؟ هو عام، إذا جاء الخوف سواءً كان من الأعداء الذين حضروا إلى المدينة، أو الخوف من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين يطلع على أحوالهم، يخافون من أن يفضحهم الله ـ تعالى ـ بأفعالهم، أو أن يسلط عليهم رسوله.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

يقول: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخطاب هنا: هل هو للرسول ﷺ، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب؟ نقول: يحتمل أن يكون للرسول ﷺ، وهو الأقرب، ويحتمل أن يكون لكل من يوجه إليه الخطاب.

وقوله: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الرؤية هنا بصرية، وعلى هذا فلا تنصب إلا مفعولًا واحدًا، وهو الهاء، وتكون جملة: ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالًا من الهاء.

وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ لأن الخائف غالبًا يركز على جهة الخوف، سواء كان شخصًا، أو أشخاصًا عند الجهة التي هي مصدر الخوف، وتدور عينه على غير نظر سليم، يعني: كأنها تدور بغير اختياره من شدة الخوف، ثم شبه حالهم بعدما شبه أبصارهم، قال: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، قال المؤلف: [كنظر أو كدوران]، فإن كانت ﴿كَالَّذِي﴾ عائدة على ﴿يَنظُرُونَ﴾، قدَّرنا نظر، وإن كانت عائدة على الذين تدور أعينهم قدَّرنا كدوران، ولكن الذي يناسب القرآن الأول: نظر، كما قال تعالى في سورة القتال: ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠] وربما نقول: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ليس عائدًا على النظر، وإنما هو عائد على حاله، يعني: كالإنسان المغشي عليه من الموت لا يستطيع أن يتكلم، لأن أرياقهم يبست، ودماءهم غارت، بسبب الخوف، إذا جاء الخوف، فإنه تتغير أبصارهم وتتغير أحوالهم أيضًا.

وقوله: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ الذي يغشى عليه من الموت، لا شك أنه يصفر وجهه، ولا يستطيع أن ينطق في الغالب، ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ قال المؤلف: [أي: سكراته] ﴿مِنَ﴾ هنا: للسببية، وهل من تأتي للسببية؟ نعم تأتي في مواضع كثيرة، والأصل فيها أنها للابتداء، حتى زعم بعض النحويين أنها في كل مكان تكون للابتداء، حتى حين إذا جاءت سببية، قال: لأنها ابتداء السبب، لكن الصحيح ما ذهب إليه ابن مالك وغيره من النحويين أنها تأتي بمعانٍ كثيرة قال:

بَعِّضْ وَبَيِّنْ، وَابْتَدِئ في الْأَمْكِنَة ... بِمَنْ وقد تأتي ببدء الأزمنة

قال ابن مالك:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَر ... نِكِرَةً كما لِبَاغٍ مِن مَفَر

قال: [﴿مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ آذوكم أو ضربوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: الغنيمة يطلبونها، ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ حقيقةً ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾]، إذا ذهب الخوف صار هؤلاء الذين كانوا حين الخوف كالمغشي عليه من الموت، ينطقون بطلاقة.

قوله: ﴿سَلَقُوكُم﴾ يعني: أصابوكم بشدة ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: شديدة قوية، والمراد

بالألسنة هنا الكلام، لأن الكلام يعبر عنه باللسان، والمعنى: أنهم يُجادلون ويناظرون، ويقولون: نحن معكم، ونحن نساعد، نحن خرجنا، وما أشبه ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١] وعادوا في غلبتهم للمسلمين؛ لأنه لا شك أن الإنسان قد يغلب خصمه في الكلام، كما قال الله عن قصة داوود: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أي: غلبني، والإنسان اللَّسن، الذي عنده بيان، وعنده فصاحة قد يغلب، ولو كان على باطل، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، فَأَقْضِي لَهُ بِنَحوِ مِمَّا أَسْمَعُ» يعني: ولو كان على باطل، فالإنسان قد يغلب ببيانه الحق، ولهذا كما تعلمون، في الحديث الصحيح «إِنَّ مِنْ البَيَانِ لَسِحْرًا»(١) هؤلاء المنافقون الذين في حال الخوف، التي صورها الله ـ عز وجل ـ ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، لكن إذا ذهب الخوف، واطمأنوا ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، يعني: أصابوكم بشدة بهذه الألسنة الحداد.

وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ هذه حال من الواو في قوله ﴿سَلَقُوكُم﴾، ما المراد بالخير هنا؟ يقول المؤلف: أي: الغنيمة يطلبونها التي أصابها المسلمون بانتصارهم، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾، [حقيقةً]، ولو آمنوا، ما فعلوا هذا الفعل، ما كانوا يخافون من البأس، ولا كانوا يدَّعون ما لا يستحقون، فيما إذا انتهت المعركة.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أحبطها، يعني: أبطلها حتى لا ينتفعوا بها، وكان ذلك الإحباط على الله يسيرًا، [بإرادته]، لأنه سبحانه لا يخشى من أحد، كما قال في قوم صالح: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤] ما يخاف سبحانه من عاقبتها، بخلاف المخلوق، المخلوق قد ينكِّل بشخص، ويعاقبه، ولكنه يخشى من عاقبته، يخشى من قبيلته يخشى من الغدر به، وما أشبه ذلك، أما الرب ـ عز وجل ـ فإن كل أمر يسير عليه، ولا يخاف من أحد حين ينتقم منه.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن حكم الله نافذ في الخلق، لا يمنعه أحد، وجه ذلك قوله: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والاستفهام هنا ـ كما سبق ـ بمعنى النفي.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** الرد على بعض طوائف القدرية الذين يقولون: إن الله لا يريد السوء، فهو

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٥١٤٦)، وأبو داود (٥٠٠٧).

يريد الخير، ولكن لا يريد السوء، وفي الآية إشكال، وهو: أن ظاهرها أن الله يريد السوء، مع النبي ﷺ، يقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١) فما هو الجواب؟

الجواب: أن السوء بالنسبة للمفعولات، أما بالنسبة لفعل الله نفسه، الذي هو فعله فليس بسوء، فالمرض - مثلًا - سوء بالنسبة للعبد، يسوؤه ولا يسره، لكنه بالنسبة لتقدير الله له، خير وحكمة، كما أشرنا إلى هذا كثيرًا.

إذنْ نقول في الجواب على هذا الإشكال: إن السوء عائد إلى المفعول، لا إلى الفعل الذي هو تقدير الله، ونظير ذلك لو أن أبًا شفيقًا رحيمًا، أصيب ولده داءٌ فكواه بالنار - بالحديدة المحماة على النار - لكان هذا ولا شك يسوء الولد؛ لأنه يؤلمه ويوجعه، لكنه إساءة إليه أم لا؟ لا، هو بالنسبة لفعل الأب ليس إساءة بل هو خير، وإن كان يؤلم الطفل.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع؛ لقوله: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾، فلا أحد يمنع ما أعطاه الله، ولا أحد يعطي ما منعه الله، وعلى هذا قوله - عليه الصلاة والسلام -: **«اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»**(٢).

٥- **ومن فوائدها:** أن فيها حثًّا على تعلق الإنسان بالله - سبحانه - دون غيره، لقوله: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾، فإذا كان الأمر كله بيد الله فإن الإنسان يتعلق بربه، دون غيره.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك الكفار لن يجدوا أحدًا ينصرهم أو يتولاهم من الله، لقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، فيترتب على ذلك قطع كل عُلْقة تكون بين المشركين، وبين أصنامهم، وأن أصنامهم لا تنفعهم مهما كان الأمر، ولكنه يَرد على هذا إشكال وهو: أن هؤلاء الذين يدعون الأصنام قد يحصل لهم ما دعوا به هذه الأصنام، فكيف نقول: إنها لا تنفعهم؟

الجواب: أن هذا قد يقع ابتلاءً وامتحانًا من الله - عز وجل -، ونحن نعلم أن هذا لم يحصل بهذه الأصنام، أو بدعاء هذه الأصنام، وإنما حصل عندها، وما حصل يكون عند الشيء، ليس كالذي حصل في الشيء، فإن قلت: نحن لا نقبل مثل هذا، أنه حصل لا بدعائهم، فما دام الرجل دعا ثم حصل بدعائه، كيف تقول: إنه من أمر خارج ليس من دعائهم! فما هو الجواب؟

نقول مثلًا: رجل ذهب إلى القبر وقال: يا سيدي يا مولاي أنا فقير أريد مالًا، وفي نفس اليوم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، وأبو داود (٧٦٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

مات له قريب فخلف له ملايين، فما الجواب؟ الجواب: أنه ابتلاءٌ، وفتنةٌ، وامتحانٌ؛ لأن الله - عز وجل - قطع كل تعلق بغيره قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، لنعلم بالآية الكريمة أن هذا لا يستجيب لك إلى يوم القيامة، وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤] وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، هذه آيات واضحة جدًّا، أنه ما يمكن أن يستجيب، إذا لم يمكن أن يستجيب له، فنعلم علم اليقين أن هذا الذي حصل ليس بدعاء هذا الولي، لأن الله نفى أن يستجيب له.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى آخره.

١-يستفاد من الآية: إحاطة علم الله سبحانه بكل شيء؛ لأن هذه المسألة جزئية من العالم، فقول هؤلاء: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، وتعويقهم فرد من أفراد العالم جزء بسيط، لا ينسب إلى العالم، ومع ذلك يعلمه الله، والعالم بالدقيق، عالم بالجليل من باب أولى، ففيها إثبات إحاطة علم الله بكل شيء جملةً وتفصيلًا.

٢- ومن فوائدها: ثبوت علم الله في المستقبل؛ لأن ﴿يَعْلَمُ﴾ جاءت بصيغة المضارع.

٣- ومن فوائدها: التهديد والتحذير من التعويق عن القتال، لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾، وهذا من أجل تهديدهم حتى لا يفعلوا ذلك.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تعاون المنافقين بعضهم مع بعضهم، لقوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾، وإذا كان كذلك، فإن ﴿وَالْقَائِلِينَ﴾ تكون عطفًا على ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾، من باب عطف الصفات، وذكرنا في التفسير، أنه محتمل أن تكون عطف الصفات أو عطف الذوات، فإن كان عطف الصفات، صار المعوقون هم القائلين، وإن كان عطف ذوات، فهو قسمين: معوق، وقائل، فالمعوِّق قد يدعو، وقد لا يدعو، ولكن على كل حال هي في المنافقين، لأن آخر الآية يُبطل الاحتمال الذي ذكرناه أن تكون في أحد من المؤمنين.

٥-ويستفاد من الآية الكريمة: أن أولئك المعوقين لغيرهم، هم بأنفسهم جبناء، لقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فهم جبناء ومخذِّلون مرجِفون.

٦- ومن فوائدها: أن كل إنسان يصاحب غيره ويمتزج به؛ لقوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾، فإن هذه أخوة في الشر، وليست في الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

١- **في هذه الآية دليل على:** بخل المنافقين بما ينفع المؤمنين، وأنهم لا يأتونهم إلا عن كراهية، كالشحيح بدين ما، لقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

٢- **ومنها:** جبن المنافقين، وأنهم في غاية الجبن، لقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، إلى آخره، وبهذا نعرف أنهم أحق الناس بما وصفوا به النبي ﷺ، وأصحابه، قالوا: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء**»، فنقول: إن هذه الأوصاف أنتم أحق الناس بها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** شدة فزع المنافقين عند الخوف؛ لأن تصويرهم بهذه الصورة يدل على الفزع العظيم الذي ينالهم عند الخوف.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** شدة محبة المنافقين للحياة؛ لأنهم لما بلغوا هذا المبلغ من الخوف، حرصًا على الحياة، وذلك خوفًا من الموت بالقتال.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** قوة تصوير القرآن للأحوال الواقعة؛ لأن هذه الصورة التي ذكرها الله صورة مدهشة، تجعل الإنسان يتخيل شدة فزعهم، كأنها رأي عين.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن للموت سكرات، لقوله: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، وهذا بالنسبة للموت العادي، أما الموت المباغت، قد لا يكون فيه سكرات، فقد يموت الإنسان بغتةً، كالذي يحدث في الحوادث وسكتات القلوب، وما أشبه ذلك.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الجبناء من المنافقين، إذا ذهب الخوف عنهم رأيتهم حين الخوف كالأموات، أو كالذي يغشى عليه من الموت، إذا ذهب صاروا أبطال الكلام وأمراء الفصاحة، والتسلط؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾، يعني: إذا ذهب الخوف بدأوا يتكلمون.

٨- **ومن فوائدها:** شدة حنق المنافقين على المؤمنين، وأنهم عليهم أشداء غلاظ لقوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن المنافقين كما قال الشاعر:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوْبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيْرِ الصَّافِرِ

فهم على المؤمنين أسود بالباطل، وعند الكفار نعامة، والنعامة جبنها شديد، إذا رأت الصياد، قالت: هذا يقتلني ثم تتراجع إلى الوراء.

١٠- **ومن فوائدها:** علم الله - سبحانه وتعالى - بما في القلوب؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ لأن الظاهر لنا أنهم مؤمنون، لكن في الواقع هم غير مؤمنين.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من هذه الصفات التي يتصف بها المنافق، حتى وإن كان الإنسان مؤمنًا، لأنها صفات غير المؤمنين، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾، والمؤمن منهي عن الاتصاف بصفات غير المؤمنين.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفر محبط للعمل، سواءٌ كان ظاهرًا أم باطنًا لقوله: ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وهذه الجملة من هذه الآية فيها إشكال، لأن الإحباط فرع عن قيام الشيء، وهم منافقون، أعمالهم باطلة من الأصل، فكيف نجيب عن هذا؟

الجواب أن يقال: إن الإحباط، نوعان: إحباط ما تم، وإحباط ما لم يتم، فإحباط ما تم ظاهر، وإحباط ما لم يتم أن يكون من الأصل حابطًا، ومنه قول بعض الفقهاء: إذا لم يكبر تكبيرة الإحرام بطلت صلاته، نحن نقول: ما صلى حتى تبطل، لكن هذا بطلان ما لم يتم، أو جواب ثانٍ أن نقول: إن أعمالهم ظاهرة في الصحة، لأنهم من قوم يدعون الإسلام، ويفعلونها على ظاهر الشرع، لكنها في الواقع باطلة، لعدم الأساس.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أهمية الإخلاص لله - عز وجل -، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ﴾، فجعل الإحباط فرعًا عن عدم الإيمان، وهذا يدل على أن الركيزة الأصلية للأعمال هي الإيمان.

مسألة: هل يؤخذ من الآية الكريمة: أن الأعمال تزداد قوة بقوة الإيمان؟

الجواب: نعم؛ لأنه لما حبط العمل لعدم الإيمان، دل هذا على أنه يقوى بقوة الإيمان، ولهذا قال النبي ﷺ في الصحابة «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[(١)] العمل واحد، لكن العامل مختلف، ففرق بين من يعمل بإيمان راسخ قوي كأنما يشاهد الثواب له بعينه، وبين شخص ليس على هذه الحال.

فإذنْ تفاضل الأعمال يكون مبنيًّا على تفاضل ما في القلوب، ويُذكر عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: والله ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكنه سبقهم بما وقر في قلبه، رضي الله عنه، ولا يقال: إن هذا فتح بابًا للعاصي، الذي إذا قيل له: اتق الله، اترك المعصية، اتق الله أقم الواجب، قال: التقوى ها هنا، ثم ضرب على صدره ضربةً ينخرق بها، ماذا نقول له؟

نقول له: لو اتقى ما هاهنا[(٢)] لاتقى ما هاهنا[(١)]، لقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - «لَوْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).
(٢) إشارة إلى القلب.

صَلَحَتْ لَصَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه»(٢) فلو صلح الباطن لصلح الظاهر.

فالحاصل: أن هذه الآية الدليل فيها واضح على أن الأعمال تتفاضل بحسب ما في القلوب من الإيمان، وأتيت بشاهد من الحديث، وهو قوله ﷺ عن الصحابة: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا...» مد أحدهم من الذهب أم من الطعام؟ قالوا: من الذهب، ويحتمل مد أحدهم من الطعام؛ لأنه هو الذي جرت العادة أن يكال، يعني: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد واحد منهم من التمر، لأنه هو الذي يُكال عادة، وبعضهم يقول: ما بلغ مد أحدهم من الذهب، لأن التفاضل بين الطعام والذهب بعيد، لكن التفاضل يكون بين الذهب القليل والذهب الكثير.



قال الله تعالى:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٠، ٢١]

التفسير

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ بمعنى: يظنون، وهي تنصب مفعولين، أصلهما المبتدأ والخبر، والمفعول الأول هنا قوله: ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾، والمفعول الثاني جملة: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ يعني: يظن هؤلاء المنافقون أن الأحزاب لم يذهبوا وهذا يدل على جبنهم، وخوفهم، وذعرهم؛ لأنه حتى بعد ذهاب الأحزاب وتفريقهم، يظن هؤلاء المنافقون أنهم لم يذهبوا.

قال المؤلف: [﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ إلى مكة، لخوفهم منهم، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرةً أخرى ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يتمنوا، ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: كائنون في البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أخباركم مع الكفار].

قوله: ﴿وَإِن يَأْتِ﴾ هذا على سبيل الفرد، والتقليل.

وقوله: ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾، جمع حزب، وهي الطوائف التي تحزّبت على النبي ﷺ من قريش وغطفان وأسد، وغيرهم، والمعنى: لو أتى هؤلاء الأحزاب مرةً أخرى، لود هؤلاء المنافقون

---

(١) إشارة إلى الجوارح.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).

﴿أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾، البادي: هو الساكن البادية، ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يَبِعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ»[1] فبادٍ هذه اسم فاعل، ومعناها: ساكن البادية، فيود هؤلاء لو أنهم بادون في الأعراب أي: ساكنون البادية، لماذا يودون أنهم ساكنون البادية؟ من أجل النجاة من هؤلاء الأحزاب.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ جملة حالية من الفاعل في قوله: ﴿بَادُونَ﴾ يعني: يود هؤلاء المنافقون لو أنهم في البادية، ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ ولا يشاركونكم في القتال، فبين الله - تعالى - ذُعر هؤلاء المنافقين من وجهين:

الوجه الأول: أنهم يظنون أن الأحزاب ما زالوا باقين، مع أن الأحزاب قد انصرفوا.

الثاني: أنه لو فرض أن الأحزاب رجعوا فإنهم يتمنون أنهم في البادية، لا يلحقهم مناوشات ولا قتال، وإنما يسألون عن أنبائكم.

إذنْ فجملة: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ نقول: إنها في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿بَادُونَ﴾.

قال الله تعالى: [﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكرة، ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفًا من التعيير].

قوله: ﴿لو﴾ هذه شرطية، وجوابها هنا مقرون بما، وإذا كانت (لو) الشرطية مقرونة بما، فإن الأكثر ألا يقترن الجواب باللام، لأن (ما) للنفي، واللام للتوكيد، واجتماع حَرْفٍ يدل على التوكيد، معحرف يدل على النفي، فيه شيء من التعارض والتناقض، فتقول: لو جاء زيد ما كلمتك، ولا تقول: لو جاء زيد لما كلمتك، لكن إذا كان جوابها مثبتًا، فإن الكثير أن تقترن به اللام، تقول: لو جاء زيد لكلمتك، هذا هو الأكثر، ويجوز، لو جاء زيد كلمتك، قال الله تبارك وتعالى في سورة الواقعة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، أما (ما) فلا تقترن بها اللام، لكن قد تقترن بها اللام قليلًا، ومنه قول الشاعر:

وَلَـوْ نُعْطَـى الخِيَـارَ لَـمَـا افْتَرَقْنَـا ... وَلَكِـنْ لَا خِيَـارَ مَـعَ اللَيَـالِي

الشاهد قوله: (ما افترقنا).

يقول الله - عز وجل -: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ هنا بمعنى عدمًا، أو هي على ظاهرها، أنهم مقاتلون، ولكن قتالًا قليلًا هذا هو الأقرب؛ لأن الأصل إبقاء الكلام على ظاهره، إلا أن يقوم دليل على أن ظاهره غير مراد، فهؤلاء لو كانوا فينا، حينما يأتي الأحزاب، لوجدتهم من جبنهم لا يقاتلون إلا قليلًا، وفسر المؤلف هذه القلة: بأنها من أجل الرياء وخوف التعيير، يعني: يراءن الناس بأنهم يقاتلون في سبيل الله، ويخافون من تعيير الناس لهم، فهم لا يقاتلون من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا من أهم ما يكون - أعني: إخلاص الإنسان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٥٩)، و مسلم (٤٤٩٧).

عبادته لله تعالى ـ، هذا من أهم ما يكون، ومن أشد ما يكون علاجًا على النفس؛ لأن الأعمال الظاهرة، كل أحد يستطيع أن يجعلها على أحسن ما يرى، فكل أحد يستطيع أنه يقوم ويصلي بقراءة متأنية، وبركوعٍ متأنٍ، وبسجودٍ متأنٍ، وبقيام متأنٍ، لكن إصلاح القلب، هو الصعب، ولهذا كان صلاح القلب موجبًا لصلاح البدن، ولا عكس، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه وإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

فهؤلاء المنافقون، ليس لديهم رغبةٌ حقيقية في القتال الذي يرجون به إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما الظفر والسعادة، لكنهم إنما يقاتلون، رياءً وخوفًا من التعيير فقط، ومن كانت هذه نيته، فإنه لم يقاتل القتال الذي ينبغي أن يكون، وسيكون فاترًا، بخلاف الإنسان صاحب النية الخالصة لله ـ عز وجل ـ فسيكون لديه دافع قوي يحدوه إلى العمل، لما يرى أنه من طاعة الله سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾

قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: [بكسر الهمزة وضمها].

اللام موطئة للقسم، و(قد) للتحقيق وعلى هذا فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام، وقد.

وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﴿كَانَ﴾ هذا فعل ماض وكيف يتوجه أن يكون فعلًا ماضيًا، والتأسي بالنبي ﷺ مستمر دائمًا والمعروف أن الفعل الماضي قد انقضى زمنه؟

فيقال ـ والله أعلم ـ: قد كان لكم في علم الله وفي شرع الله ـ عز وجل ـ أسوة حسنة، وقوله: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل في محمد أو في النبي، إشارة إلى أن الأسوة فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛لأنه رسول الله، فهذا الوصف يفيد العلية، أي أن علة الأسوة كونه رسول الله ﷺ، وإلا ما كان علينا أن نتأسى به؛ لأنه رجل من الناس؛ لكنه لأنه رسول الله كان لنا فيه أسوة حسنة.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ﴾ [بكسر الهمزة وضمها]، قراءتان سبعيتان؛ لأن طريق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، إذا عبر بهذا التعبير، فالقراءتان سبعيتان متساويتان، أما إذا قال: قرئ، فالقراءة الثانية شاذة، إذنْ يجوز أن أقول: ﴿إِسْوَةٌ﴾، و ﴿أُسْوَةٌ﴾.

وهل الأفضل أن أقتصر على قراءة واحدة من القراءات أم أقرأ بهذه تارةً وبهذه تارةً أخرى؟

الجواب: سبق لنا أن الأفضل لمن علم القراءة وتأكدها أن يقرأ بهذه تارةً وبهذه أخرى، لكن لا عند العامة، فلو قرأنا بهذه القراءات عند العامة، حصل بذلك تشويش، ورد فعل، إذ يقولون:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).

كيف يبدل هذا في القرآن ويحرف؟ لكن فيما بين الإنسان، وبين نفسه إذا كان يعرف أن هناك قراءتين، فإن الأفضل أن يقرأ بهذه مرة و بهذه أخرى؛ لأن كلتا القراءتين ثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا ينبغي أن نقتصر على واحدة فقط؛ لأننا إذا اقتصرنا على واحدة فقط هجرنا البقية.

وقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ [اقتداء به في القتال والثبات في مواطنه] هذا التفسير من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه نظر، أنه خصصه بالقتال، والصحيح: أنه فيه أسوة حسنة في كل ما يفعله، كل ما كان من سنته، فإن لنا فيه أسوة حسنة.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: أن التأسي بالرسول ﷺ كله حسن؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ في التشريع، فكل التأسي به فهو حسن، بخلاف التأسي بغيره، فقد يكون حسنًا، وقد يكون غير حسن.

والمعنى الثاني: باعتبار تأسينا به، لا باعتبار ما هو عليه، والأسوة الحسنة باعتبار تأسينا به، هو أن نكون موافقين له في القول والفعل والقصد الذي هو العقيدة، فمن وافقه في قوله دون فعله، لم يتأسَ به أسوة حسنة، ومن وافقه في فعله دون قوله لم يتأس به أسوة حسنة، ومن تأسى به في قوله وفعله دون عقيدته وقصده، لم يتأس به أسوة حسنة، ويدخل في الأسوة الحسنة الدعوة إلى دين الله، فإن النبي ﷺ لا شك أنه يدعو إلى دين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وبهذا نعرف أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون حركيًا في مجتمعه، لا نسخة كتاب فقط، بمعنى أن يكون محركًا لضمائر الناس، ومشاعرهم، وتوجيهاتهم، ويكون لديه عزيمة في إصلاح الخلق، حتى لا يكون مجرد نسخة، ومجرد النسخة ما الفائدة منه؟! يقول ـ مثلًا ـ أنا حفظت بلوغ المرام، وحفظت المنتقى، وما أشبه ذلك، لكن ليس هناك عمل فما الفائدة إذنْ؟ أو تقول أجلس في بيتي إن جاء أحد علمته وإلا لا، ولكن يجب أن نبث الوعي بين المسلمين، ولاسيما في هذا الوقت؛ لأن الناس بدأوا يتحركون سئموا الحياة السابقة، وصاروا يتحركون، ولكن يحتاجون إلى هداية ودلالة؛ لأنهم قد يتحركون إلى شيءٍ سيئ، إنما إذا تولى طلبة العلم ـ الذين وهبهم الله تعالى العلم ـ توجيه الناس في هذه الأمور، حصل في هذا خير كثير، كما كان نبينا ﷺ يفعل، فالأسوة الحسنة في الرسول يدخل فيها الدعوة إلى دين الله ـ عز وجل ـ.

قال: ﴿كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ صار الحسنة في ذاتها، وفي تطبيقها، في ذاتها بمعنى أن التأسي به حسن، ولم يكن ﷺ شيئًا من أفعاله، غير موصوف بالحسن، وحسنة في تطبيق هذا التأسي في العقيدة، والقول والفعل.

لكن قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، ﴿لِّمَن﴾ قال المؤلف: [بدلًا من ﴿لَكُمْ﴾]،

لكن ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ﴾، فهو بدل بعض من كل بإعادة العامل.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب يشمل من يرجو الله واليوم الآخر ومن لا يرجوه، ﴿لِّمَن كَانَ﴾، يخص من كان يرجو الله، واليوم الآخر، فهو بدل بعض من كل، وهل هو بدل من كل في الذات، أو في المعنى والصفات؟

إذا قلت: أكرم القوم بعضهم، هذا بدل بعض من كل في الذات، لكن هنا في الصفات: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، وقولنا بإعادة العامل، وهو اللام ـ حرف الجر ـ وإنها موجودة في البدل، والمبدل منه، في المبدل منه في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ وفي البدل في قوله: ﴿لِّمَن كَانَ﴾.

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ﴾ قال المؤلف: [يخاف الله]، ولعل قائلًا يقول: كيف يفسر الرجاء بالخوف؛ لأن الرجاء: هو طلب مكانة قريبة الحصول، فكيف يفسره بالخوف؟ **يقال**: إن الرجاء يطلق على الخوف ويطلق على الأمل، فالرجاء في المحبوب، والخوف في المكروه، ولا يلزم أن يُفسر بها فسر به المؤلف، بأن المراد بالرجاء الخوف؛ لأن رجاء الله واليوم الآخر ثابت أيضًا، الذي هو تمني حصول المطلوب، فإن ما عند الله من الثواب لمن تأسى بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوجب الرجاء، وما في اليوم الآخر ـ أيضًا ـ من السعادة، يوجب الرجاء أيضًا.

فالذي يظهر: أن المراد بالرجاء هنا، معناه الحقيقي، الذي هو أن يأمل الإنسان ما فيه مصلحة له، وخير له.

وقوله: ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ المراد به: يوم القيامة، وسمي يومًا آخر؛ لأنه لا يوم بعده؛ لأن هذا اليوم هو آخر مراحل الخلق؛ لأن للإنسان في هذه الدنيا، أربع مراحل: مرحلة في بطن أمه ومرحلة في الدنيا، ومرحلة في البرزخ، ومرحلة رابعة: وهي يوم القيامة.

يقرن الله ـ تعالى ـ دائمًا الإيمان به باليوم الآخر كثيرًا في القرآن قال تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:٣٩]؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل؛ لأنك إذا آمنت أن هناك يومًا تُجازى فيه على عملك، فسوف تعمل لذلك اليوم، بخلاف الإنسان المنكر له، فالمنكر له لا يعمل؛ لأنه يعتقد أن ما هناك إلا دنيا فقط، أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء، لكن إذا آمن الإنسان باليوم الآخر أوجب له ذلك أن يعمل.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [بخلاف من ليس كذلك] الواو هنا حرف عطف، ﴿وَذَكَرَ﴾ معطوفة على كان؛ لأن الفعل الماضي يعطف على الفعل الماضي، وأيضًا إذا جعلته معطوفًا على ﴿كَانَ﴾، ظهر المعنى أكثر.

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ﴾، هذا عمل قلبي، و﴿وَذَكَرَ اللَّهَ﴾ عمل الجوارح فقال: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿كَثِيرًا﴾ هذه مفعول مطلق، أي: ذكرًا كثيرًا، وذكر الله ـ عز وجل ـ يكون بالقلب

وباللسان وبالجوارح؛ يكون بالقلب بأن يتفكر الإنسان في آيات الله، وفي أسمائه وصفاته، هذا ذكر بالقلب، ويكون بالجوارح باللسان: كالتسبيح والتهليل، والتحميد، وما أشبه ذلك، ويكون بالجوارح بغير اللسان: مثل الصلاة، ففيها ركوع، وسجود، وقيام، وقعود وهي ذكر.

فالذكر إذنْ يكون في القلب، وفي اللسان، وفي الجوارح، والإنسان العاقل الحازم المؤمن لا يزال يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأن في كل شيء من مخلوقاته آية تدل على وحدانيته ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته، فأي شيء تُشاهد من هذا الكون، سيذكِّرك بالله ـ عز وجل ـ كذلك بالنسبة لأعمالك، إذا كنت حازمًا، فإنك تستطيع ألا تعمل عملًا إلا عبادة، فالإنسان الحازم يجعل من العادات عبادات، والإنسان الغافل يجعل من العبادات عادات، فإذا كان الإنسان حازمًا، فإنه لا يضيع عليه لحظة من عمره، ولابد أن يستغلها في ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

مسألة: هل من ذكر الله الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟

الجواب: نعم من ذكر الله، وقراءة القرآن من ذكر الله، فكل قول أو فعل يقرب إلى الله ـ عز وجل ـ فإنه من ذكر الله ـ عز وجل ـ.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

١ ـ **يستفاد من هذه الآية:** قوة جبن هؤلاء المنافقين؛ حيث يظنون أن العدو باقٍ وهو قد ذهب، فإن قلت: هل لهذا شاهد؟ قلت: نعم، لو أن إنسانًا جبانًا رأى أسدًا في مغارة، وذهب الأسد من هذه المغارة وأُخرج، فقلت لهذا الرجل الجبان: اذهب من عند المغارة هذه، ماذا يقول؟ يقول: لا، إن فيها أسدًا؛ لأنه جبان، فالجبان يظن أن عدوه لم يبرح مكانه، ويخشى حتى من ظلِّه.

٢ ـ **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** أن هؤلاء المنافقين لو عاد الأحزاب مرةً أخرى لودوا أنهم في الأعراب لا في المدن، لقوله: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾، وأيهما أحسن عيشًا، عيش البادية أم عيش المدن؟ عيش المدن، لكن لجبنهم يتمنون أن يذهبوا إلى الأعراب ـ إلى البادية ـ ولا يحضروا هؤلاء الأحزاب.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المنافقين لا يريدون أن يشاركوا المؤمنين في معاركهم، لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾، فهم يحبون أن يكونوا بعيدين عن المعارك لا يتحسسون إلا الأخبار فقط.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المنافق لو شارك المؤمنين في القتال، فإنه لا يقاتل إلا قليلًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مسألة: هل يجوز لنا أن نشرك المنافقين في قتالنا، إذا عرفنا أنهم منافقون؟

نقول: لا نشركهم؛ لأن ضررهم علينا أكثر بكثير من نفعهم، أما من لا نعلم حاله فإن الأصل أن يؤاخذ الإنسان بظاهر حاله.

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة:٧٥]، ورد في تفسير هذه الآية خبر ضعيف وهو مشهور عند العامة الآن يتحدث به كل من يعظ الناس كذب، وما هو بصحيح، وهو أن رجلًا يدعى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه أن يخرج عن المدينة لغُنيمة له، فالنبي ﷺ، منعه، فأصر وخرج وصار يتخلف؛ لأنه قد عاهد الله لئن آتاه من فضله أن يتصدق، ويكون من الصالحين، ثم إن الرجل ندم، وجاء إلى الرسول تائبًا، لكنه لم يقبل توبته، ثم جاء إلى أبي بكر تائبًا، ولم يقبل توبته، ثم جاء إلى عمر تائبًا ولم يقبل توبته. وهذه مشهورة عند العامة، وابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على تفسير «الزمخشري»، عند تخريج هذا الحديث، يقول: إن السند واهٍ جدًّا، وهناك أحد الإخوان من الجامعة الإسلامية كتب تحقيقًا في هذا، وبيّن أن هذه القصة كذب، وباطل، وكيف يعقل أن الرجل يأتي تائبًا ثم لا يقبل النبي ﷺ توبته؟!!

ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب التأسي بالنبي ﷺ، يؤخذ هذا من قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾؛ لأن رجاء الله واليوم الآخر واجب.

٢ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن محمدًا رسول الله، لقوله: ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

٣ - **ويستفاد منها:** أن جميع طريق النبي ﷺ حسن ليس فيها سيئ؛ لقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٤ - **ويستفاد منها:** أن الواجب علينا أن يكون تأسينا بالنبي ﷺ تأسيًا حسنًا، لا غلو فيه ولا تفريط، لقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ لأن الغلو زيادة، والتفريط نقصان، ودين الله - عز وجل - بين الغالي فيه، والمفرِّط فيه.

٥ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب رجاء الله - عز وجل - واليوم الآخر؛ لأن هذا من تمام الإيمان بالرسول، نتأسى به رجاء الله، واليوم الآخر.

٦ - **ويستفاد منها:** الإيمان بالله واليوم الآخر، وسمي باليوم الآخر؛ لأنه آخر أيام الدنيا.

٧ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** مشروعية كثرة الذكر، لقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وقد بين الله - تعالى - في سورة آل عمران، عن أولي الألباب، أنهم يذكرون الله، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، والإنسان: إما قائم، أو قاعد، أو على جنب، وهم يذكرون الله في كل هذه الأحوال.



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٧]

التفسير

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قال: [من الابتلاء والنصر ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الوعد ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا بوعد الله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره].

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ (لما) هذه: شرطية، لكنها لا تجزم، وفعل الشرط في الآية: ﴿رَءَا﴾، وجوابه: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾.

وقد مر علينا أن (لما) في اللغة العربية تأتي على عدة وجوه: منها الشرطية كما في هذه الآية، ومنها الجازمة كما في قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، هذه جازمة، ومنها: أن تكون بمعنى إلا: كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] يعني: إلا عليها حافظ.

وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ والمراد بالأحزاب هنا: الأحزاب الذين تألفوا على النبي ﷺ من قريش وغطفان، وبني أسد، وغيرهم، لما رأوهم رؤية بصرية ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، كيف وعدنا الله ورسوله؟ أين الوعد من الله ورسوله أن هؤلاء الأحزاب سيأتون؟! قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ

﴿اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، فإن الله ـ تعالى ـ بَيَّنَ في هذه الآية أنهم لا يمكن أن يدخلوا الجنة، إلا بعد هذه الأمور، فيكون متضمنًا لوعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم أن يروا مثل هذه الأشياء التي تزلزلهم، يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، وهذا دليل على ثباتهم، وإيمانهم، وصدق نواياهم، لكن الكفار تقدم أنهم هم المنافقون، وأنهم يهزأون بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ضرب الحجر الذي اعترضهم في حفر الخندق، وقال: إنه رأى مدائن كسرى، وقصور قيصر، واليمن، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، هذا كذب وليس بصحيح؛ حيث قالوا: من هذا الذي يملك الشام واليمن ونحن الآن نغلق عليه الطريق؟!

لكن المؤمنين، قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ عكس هؤلاء المنافقين، والصدق هو الإخبار بالواقع على حسب ما هو واقع، وإن شئت فقل: هو الإخبار المطابق للواقع، هذا الصدق، وضده الكذب، ويقال: صَدَقَنِي الحديث، وصَدَّقَنِي الحديث، وبينهما فرق، صدَقَني الحديث يعني: أخبرني بالصدق، وصدَّقني الحديث يعني: قال: إن ما حدثته به صدق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران:١٥٢] معنى ﴿صَدَقَكُمُ﴾ أخبركم بالصدق، وبَيَّنَ لكم أن ما وعدكم به صدق، حين حسستموهم.

يقول: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في هذه الجملة سيق هذا الكلام على سبيل المدح، لا على سبيل الذم.

لكن قد يشكل علينا، كيف قُرِن وعد رسول الله بوعد الله بالواو، وقُرِن أيضًا صدق رسول الله، بصدق الله بالواو، وقد قال النبي ﷺ لرجل حينما قال: ما شاء الله وشئت، قال له: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟» فكيف نجمع بين هذا، وبين ما في هذه الآية؟

والجواب أن يقال: ما كان من أمور الشرع، فلا بأس أن يُضاف إلى الله ورسوله بالواو؛ لأن ما شرعه النبي ﷺ، فهو من شرع الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وأما ما كان من أمور القدر، فإنه لا يجوز أن يضاف إلى الله، ورسوله بالواو، بل لابد من أن يكون بـ (ثم)، وذلك؛ لأن مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله وقدرته، فمثلًا تقول لرجل سألك: ما حكم صلاة الجماعة؟ وأنت لا تدري حكمها، فتقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن هذا حكم شرعي، وأما ما كان من أمورٍ قدرية، فإنه لا يمكن أن يشرَّك غير الله بالله بالواو؛ وذلك لأن مشيئة غير الله وقدرة غير الله تابعة لمشيئة الله، فلا يمكن أن تكون مساوية لها.

وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ يعود على رؤية هؤلاء الأحزاب وتحزبهم على رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾، يقول المؤلف: [تصديقًا بوعد الله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره]، إيمانًا بالقلب وتسليمًا بالجوارح؛ لأن الإيمان محله القلب والتسليم، والانقياد محله الجوارح، والإنسان لا يتم دينه إلا بهذين الأمرين: الإيمان والتسليم، فمن استسلم

ولم يؤمن فهو منافق، ومن آمن ولم يستسلم، فهو مستكبر، فإذا اجتمع للإنسان الإيمان والتسليم صار مؤمنًا حقًّا، عابدًا حقًّا.

قال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿إِيمَٰنًا﴾ هذه مفعول ثانٍ، والمفعول الأول: الهاء، فـ (زاد) تنصب مفعولين: أولهما: الهاء، والثاني: ﴿إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ قال: [من الثبات مع النبي ﷺ].

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ الجملة هذه مكونة من مبتدأ وخبر، الخبر مقدم، والمبتدأ مؤخر، المبتدأ قوله: ﴿رِجَالٌ﴾، والخبر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمبتدأ نكرة وليس بجمع فهل هذا جائز؟

والجواب: أن ابن مالك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِره مَا لَمْ تُفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِره

والآية التي معنا مثل هذا المثال: (عند زيد نمرة) المسوغ للابتداء بالنكرة هنا: تأخير المبتدأ، وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ المسوغ: تأخير المبتدأ، كما أن في الآية - أيضًا - مسوغًا آخر، وهو وصف هذا النكرة؛ لأن وصف النكرة يخصصها ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض؛ لأنها تقدَّر ببعض.

واختلف النحويون في (من التبعيضية)، فقال بعضهم: إنها اسم، وهي بحسب العوامل، لكن لا يظهر عليها عمل العامل؛ لأنها حرف، فينتقل العمل إلى ما بعدها.

ومنهم من قال: إنها حرف جر، ولكن معناها التبعيض، وهذا هو الذي عليه أكثر أهل النحو.

وقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ معنى ﴿صَدَقُوا۟﴾ أي: قاموا به، كما تقول: صدق لي بالوعد، أي: وفَّى لي به، فهم وفوا بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع النبي ﷺ، مثل أبو بكر، وعثمان، وعمر، ومصعب، وعلي رضي الله عنهم وكثير من هذا.

يقول الله - عز وجل -: [﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ مات، أو قتل في سبيل الله، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلك، ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ في العهد، وهم بخلاف حال المنافقين].

فقسم هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلى قسمين: قسم قضى نحبه، أي قضى حياته، وقتل في سبيل الله، كحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فإنه قتل شهيدًا كبقية شهداء أُحُد، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي: ينتظر القتال في سبيل الله؛ لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهم ينتظرون أن يستشهدوا، ولكن هل يحصل لهم ذلك أم لا؟

الجواب: قد يحصل، وقد لا يحصل، ولهذا يقال: إن خالد بن الوليد رضي الله عنه تأسف في حال مرضه أنه لم يقتل شهيدًا في سبيل الله، فما ترك معركةً إلا خاضها، يقول: وَهَا أنا أموت على فراشي

كما يموت الحمار، لأنهم يريدون أن يستشهدوا في سبيل الله.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ المعطوف عليه ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، أي: ومنهم رجال ما بدلوا تبديلًا، يقول المؤلف: [في العهد]، والتبديل في العهد يشمل: نقضه بالكلية، ويشمل الإخلال بشيء من شروطه.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ يعني: ما حصل منهم تبديل، لا بالنقض بالكلية، ولا بالتغيير، ولهذا قال: ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ والتبديل يكون بالترك كلية، ويكون بالتغيير بالنقص، أو بالزيادة ولهذا قال: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ يقول المؤلف: [وهم بخلاف حال المنافقين]، فإن حال المنافقين على العكس، يعاهدون الله، ولا يوفون. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥، ٧٦] أما المؤمن فإنه يفي بما عاهد الله عليه.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ اللام هذه للتعليل، يعني: أن الأمر وقع كذلك على الوفاء وعلى النقض على الوفاء من المؤمنين، وعلى النقض من المنافقين، وقع هذا ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾، ولولا اختلاف الناس في الأعمال ما اختلفوا في الجزاء، ولو لم يختلفوا في الجزاء، ما كان لخلق الجنة والنار فائدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩] فالله ـ عز وجل ـ حكيم، خلق الجنة وخلق لها سُكَّانًا، وخلق النار وخلق لها سكانًا، وسكان هذه وهذه لا بد أن يكون لهم أعمال يقومون بها، حتى يستحقوا أن يكونوا من أهلها.

وقوله: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ الباء هنا للسببية، وليست للعِوضِ؛ لأن الجزاء على الأعمال ليس من باب المعاوضة، ولكنه من باب قرن المسبب بسببه، لقول النبي ﷺ، **«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»**(1)، فالأعمال الصالحة أسباب، وإلا فلو أن الله ـ عز وجل ـ أراد أن يعاوضنا على أعمالنا معاوضة ـ بمعنى المعاوضة ـ لكان لو قابلنا بنعمة واحدة علينا، ما قابلتها كل أعمالنا، ولكن الأعمال سبب.

وقوله: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ إذا كان الجزاء بالصدق، فسيكون على حسب ذلك الصدق، فالذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يكون جزاؤهم على صدقهم بحسب ما قاموا به، فإذا كانوا أطوع لله ـ عز وجل ـ وأشد تنفيذًا لأوامره، وأكثر فعلًا لطاعته، صار جزاؤهم أكثر، والعكس بالعكس.

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ المنافق هو الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر، مأخوذ

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، و مسلم (٢٨١٦).

من النافقاء، وهي نافقاء اليربوع، التي يجعلها في جُحره، حتى إذا أتاه أحد من بابه، خرج من هذه النافقاء.

وقوله: [﴿إِن شَآءَ﴾ بأن يميتهم على نفاقهم]، أشار المؤلف في قوله: [بأن يميتهم على نفاقهم] إلى أن تعذيب المنافقين المعلق بالمشيئة هنا، ليس المعنى أنه إن شاء عذبهم وإن شاء لم يعذبهم إذا ماتوا على النفاق، فإن الله أخبرنا أنهم في الدرك الأسفل من النار، وليسوا تحت المشيئة، فيكون قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ بأن يبقوا على نفاقهم حتى يموتوا، فإذا بقوا على نفاقهم إلى الموت، علمنا أن الله قد شاء تعذيبهم، أما إن هداهم الله، فإن المنافقين قد اهتدوا، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة.

والصواب: كما مر علينا كثيرًا أن المنافق تصح توبته، وهي نص في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦] فقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يمن عليهم بالتوبة فيتوبوا وحينئذٍ لا يعذبون.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفور هذه اسم فاعل، على صيغة المبالغة، يعني: كثير المغفرة، فتجوز أن تكون صفة مشبَّهة، أي: ذو مغفرة، والصفة المشبهة أبلغ من اسم الفاعل؛ لأن اسم الفاعل يدل على الفعل، والصفة المشبهة تدل على الوصف، أي: على اتصاف من هي وصفه بها دائمًا.

وقوله: [﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب] فيه شيء من النظر؛ لأن الله يغفر حتى لمن لم يتب، ممن هو تحت المشيئة، كفاعل المعاصي، ولو أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبقاها على إطلاقها لكان أسلم له، حين يقول ﴿غَفُورًا﴾ أي: كثير المغفرة، أو ذو مغفرة متصفٌ بها دائمًا، وهذا أقرب كما قلت؛ لأنه يدل على الوصف الدائم، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ يقول: [به] أي: بمن تاب، والصواب: أنه رحيم بمن تاب وبغيره، وأن رحمة الله ـ عز وجل ـ بالمعنى العام تشمل المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، وكل أحد، هذا بالمعنى العام، وبالمعنى الخاص: فإن الرحمة تختص بالمؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ ردهم: أي أرجعهم على أدبارهم خائبين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الأحزاب من قريش وغيرهم.

وقوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ الباء هنا: للملابسة، أي: متلبسين بالغيظ، فالجار والمجرور في موضع

نصب على الحال، يعنى أنهم رجعوا مغتاظين غاية الغيظ، ووجه اغتياظهم: أنهم جاءوا بهذا الجمع الكثير، الذي لم يشهد له نظير في ذلك الوقت، يريدون القضاء على النبي ﷺ، ومع ذلك حصل لهم التعب، والعنت، والجوع، والبلاء، وآخر الأمر رجعوا هاربين، ولا شك أن مثل هذا سوف يعكر على الإنسان ويملأُ قلبه غيظًا، وحسرة، وندمًا، كيف يأتي بهذا الجيش، الذي جمع له وأبدى فيه وأعاد وآخر الأمر أن ينقلب ولا تكون معركة؟! ولهذا قال: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾.

وقوله: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ لا من أمر الدنيا ولا من أمر الآخرة، أما أمر الآخرة فإنهم لن ينالوا خيرًا بقتالهم للنبي ﷺ على كل حال، وأما أمر الدنيا الذي يرونه هم خيرًا لأنفسهم، فهل نالوه؟ لا، فهم لم ينالوا خيرًا، لا في الدين ولا في الدنيا ـ ولله الحمد ـ حتى ما يظنونه خيرًا من هزيمة النبي ﷺ، والقضاء عليه، وعلى أصحابه، ما حصل لهم ذلك.

وقوله: ﴿خَيْرًا﴾ نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، يعني: ما نالوا أي خير، لا قليلًا ولا كثيرًا، وهذه من نعمة الله ـ عز وجل ـ، وأضاف الله الرد إلى نفسه، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأن رجوعهم ليس بحول النبي ﷺ ولا بقوته، ولا بحول أصحابه، ولا قوتهم، ولكنه بحول الله ـ تعالى ـ وقوته، ولهذا قال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

يقول المؤلف: [﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ مرادهم من الظفر بالمؤمنين].

وقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ يعني: أراح الله المؤمنين من القتال، فلم يقاتلوا، وأما ما حصل من المناوشات التي حصلت لبعض الصحابة مع بعض المشركين، فهذا لا يُعد قتالًا؛ لأن الكلام على الجيش كله جمعاء، فإنه لم يحصل فيه قتال.

وقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ونعم الحسب والكفيل، ـ سبحانه وتعالى ـ قال: [بالريح والملائكة]، الريح سبق أن قلنا إن الله ـ تعالى ـ أرسل عليهم الريح الشرقية الباردة الشديدة، فأكفأت قدورهم، وزلزلت خيامهم ورمتهم بالحجارة التي تحملها مع البرد الشديد، حتى إنهم كانوا يصطلون بالنار، ويقولون: النجاء النجاء، هذه الريح.

أما الملائكة، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سلط الملائكة عليهم بأن تلقي في قلوبهم الرعب، والفزع، والخوف، وتدفعهم حتى ينصرفوا من المكان، وهذا من نصر الله ـ عز وجل ـ للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ [على إيجاد ما يريده، ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على أمره].

والقوة صفة يتمكن بها القوي من فعل ما يريد بدون ضعف، وهو أعلى من القدرة؛ لأن القدرة صفة يتمكن بها القادر من فعل ما يريد بدون عجز، فالقوة أعلى، وانظر إلى رجلين حملا صخرةً، أحدهما حملها، لكن مع نوع من المشقة، فنقول: هذا قادر، ولكن ليس بقوي، والآخر

حملها وكأنها شيء بسيط، نقول: هذا قوي، وقوة الله - عز وجل - لا منتهى لها، ولا مقياس لها، بل هي فوق ما يتصوره الإنسان، لما قالت عادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله - عز وجل - ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

وأما قوله: ﴿عَزِيزًا﴾ يقول: [غالبًا على أمره]، فالعزيز من أسماء الله تعالى له ثلاث معانٍ: عزيز القَدْر، وعزيز القهر، وعزيز الامتناع، أما عزيز الامتناع، فمعناه أنه يمتنع أن يصيبه - سبحانه وتعالى - سوء أو نقص في جميع صفاته وجميع أفعاله، وأما عزة القدر فمعناه: أنه ذو قدر عظيم رفيع، مثلما تقول: فلان عزيز النفس، يعني: له عزة وترفع عن الدنايا، وأما عزة القهر التي معناها الغلبة، فمعناها: أنه غالب على كل شيء، حتى في الجاهلية يقول الشاعر:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

فالله - عز وجل - هو الغالب على أمره، وهو غالب على كل شيء، فلا شيء يكون أمام غلبته، فصار العزيز له ثلاثة معانٍ: عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع، وكلها ثابتة لله - عز وجل -.

قال: [﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: قريظة، ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم، جمع صيصة، وهو ما يتحصن به، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾] [الحشر:٢].

قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أنزل: الضمير يعود على الله.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: أعانوهم وساعدوهم، والمظاهرة بمعنى: المساعدة، وتظاهر على كذا، أي: تساند وتساعد عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [التحريم: ٤] وقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] يعني: مساعدًا ومعينًا.

فقوله: ﴿ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: أعانوهم وساعدوهم.

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، لكن المراد بهم هنا في الآية طائفة من اليهود وهم بنو قريظة، وسبق أن بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع، ثلاث قبائل من اليهود، قدِم النبي ﷺ من المدينة، وهم ساكنون فيها، فأجرى بينه وبينهم عهدًا، ولكنهم نقضوا ذلك العهد، ولم يبق إلا بنو قريظة، ثم إن بني قريظة نقضوا العهد، لمساعدتهم الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولما رجع النبي ﷺ من الأحزاب، ودخل بيته واغتسل، جاءه جبريل، وقال له: اخرج إلى هؤلاء - يشير إلى بني قريظة -؛ فإنهم نقضوا العهد، فأمر النبي ﷺ، أصحابه

بالخروج، وقال: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»(١) فما تأخر الصحابة رضي الله عنهم مع ما هم فيه من التعب، والضعف، فخرجوا فحاصروا بني قريظة لمدة نحو عشرين يومًا، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه(٢).

يقول الله - عز وجل - هنا: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) يعني: أنزل هؤلاء ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من مآمنهم، والأصل في صياصي حظائر البقر؛ لأنها تؤمن فيها، فـ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: من مآمنهم، وحصونهم التي تحصنوا فيها، ولكن ذلك لم يغنهم من الله شيئًا.

وقوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ قذف بمعنى: رمى، وهو أشد وقعًا من قوله وضع، يعني: لو قال وضع في قلوبهم الرعب أفاد أن الرعب صار في القلوب، لكن إذا قال: قذف صار أشد، و﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بمعنى الخوف، وإذا وقع الخوف في القلب، فلا تسأل عن الخائف، يظن أن الشجر نفرًا، فلا يتصور الأمور على حقائقها، حتى لو ناداه أحد من أصحابه، ظن أنه عدوه يريد أن يقتله، ولا أشد من سلاح يفتك بالعدو من الرعب، ولهذا قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيْرَةَ شَهْرٍ»(٣)، أما إذا ثبت القلب واطمأن، فإن المقاتل سيثبت، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، وذكر الله - تعالى - تقوية للقلوب، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وأخبر الله - عز وجل - أنه أنزل على أهل بدر المطر؛ ليثبت به الأقدام، وتكون به السكينة، والحاصل: أن الرعب من أشد الأسلحة فتكًا بالعدو.

وقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ قال المؤلف: [﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ منهم، وهم المقاتلة، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ منهم أي الذراري].

فهم لما طال بهم الحصار، ونزلوا على حكم الرسول - عليه الصلاة والسلام - خيَّرهم من تريدون أن تنزلون على حكمه؟ قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ حليفًا لهم، فظنوا أنه سيفعل مثل فعل عبد الله بن أبي لحلفائه من اليهود، حين شفع فيهم إلى رسول الله ﷺ، وتركهم، لكن سعدًا رضي الله عنه لما جاء وكان في خيمة له في المسجد؛ لأنه أصيب في الأحزاب بأكحله، وضرب له النبي ﷺ خيمة في المسجد، ليعوده من قريب؛ لأنه سيد قومه - وهم الأوس - جاء على حمار إلى النبي ﷺ، إلى مكان الحصار.

فأخبره النبي ﷺ، أنهم حكَّموه، فقال: حكمي نافذ عليهم؟ ويشير إلى النبي ﷺ، وإليهم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٤٦)، و مسلم (١٧٧٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، و مسلم (١٧٦٨).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، و مسلم (٥٢١).

أيضًا، فقالوا: نعم، كلهم رضوا؛ النبي ﷺ واليهود رضوا، فقال: «آنَ لِسَعْدٍ، أَلَّا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ»، هذا مقام محنة عظيمة، فحكم فيهم رضي الله عنه بحكم عظيم، حكم صواب مطابق للحق، قال: أحكم بأن تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذريتهم، وتُجمع أموالهم، فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»(١).

ثم أمر النبي ﷺ بأن تقتل مقاتلتهم، وهم الكبار البالغون، وأما الذراري من النساء والرجال غير البالغين، فإنها تُسبى، والأموال تجمع، فقتلوا في المدينة ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة قتلوا في يوم واحد بناءً على حكم هم الذين رضوا به، فهذا هو معنى قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هنا قدم المفعول في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وأخر المفعول في قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فهل الفائدة في ذلك مراعاة الفواصل فقط، فتكون الفائدة لفظية، أم هناك فائدة معنوية؟

الجواب: الأمران، هذا هو الظاهر؛ لأن الحكم الأول أشد وأبلغ، فلهذا قُدم مفعوله، ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، والثاني دون ذلك، لأن الأسير ربما يمن عليه بإطلاقه، فقال: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هذا مع مراعاة اللفظ، الذي هو مراعاة فواصل الآيات، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠] لما كان التكذيب للرسل شديدًا: قدم فيه المفعول، كما قدم المفعول في قتله.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ قال: [بعد؛ وهي خيبر، وأُخذت بعد قريظة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾].

قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾، هذه تنصب مفعولين، المفعول الأول: الكاف، والثاني: أرضهم، ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾، كيف الأرض والديار، أبينهما فرق؟

نقول: الديار: جمع دار، وهي المساكن والأحياء، أما الأرض: فهي أعم من ذلك، والأموال هي الأمتعة والدراهم والدنانير، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ يعني: ما وطأتموها بعد حتى الآن، ولكنكم سترثونها، وهي أرض خيبر؛ لأن النبي ﷺ فتحها بعد ذلك في السنة السادسة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، فلا يعجزه شيء، وقدم المفعول لتحقق وقوع الفعل به، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، ولا تقل كما يقول بعض الناس: إنه على ما يشاء قدير، لأنك إذا قلت: على ما يشاء، خصصت قدرته بما يشاء، مع أن القدرة تتعلق بالذي شاءه، والذي لم يشأه، حتى الذي لم يشأه فهو قادر عليه.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، و مسلم (١٧٦٨).

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

١ - من فوائد هذه الآية: تصديق المؤمنين بما أخبر الله به ورسوله، وكان مقتضى الحال، أن يلحق بهم الخوف والذعر، كما حصل للمنافقين.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال تصديقهم لله ورسوله، وذلك في قولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهم شاهدوا ما وعد الله، وأظهروا الإيقان بذلك بألسنتهم، بقولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

استدل بعض الجهال بهذه الآية على مشروعية ختم القرآن بقولهم: صدق الله، وقالوا: كيف تنكرون علينا إذا أتممنا القراءة وقلنا: صدق الله العظيم، مع أن الله يقول: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ويقول: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥] ماذا نقول في جواب على هذه الشبهة؟

نقول: نحن لا ننكر أن يقول أحد: صدق الله ورسوله، لما نراه من الإيمان، بأن يقول الإنسان: صدق الله ورسوله، وأن من لم تكن عقيدته هذه فهو كافر، لكننا ننكر أن نجعل هذا الثناء على الله - عز وجل - عند الانتهاء من التلاوة، مع أنه لم يرد، فهل نحن أعلم بشريعة الله من رسول الله؟! وهل نحن أحرص منه على تطبيق شريعة الله؟! أبدًا، فإذا لم يكن كذلك، فإن الواجب علينا أن نحذو حذوه، وإذا كان يقول عند انتهاء تلاوته صدق الله، فإننا نقولها على العين والرأس، وإذا كان لا يقولها، فلا نقولها، ونقول لهم: إذا كنتم تعتقدون مشروعية ذلك، فقولوها - أيضًا - في الصلاة، إذا انتهيتم من القراءة في الصلاة، قبل أن تكبروا قولوا: صدق الله؛ لأن التلاوة في الصلاة أفضل من التلاوة خارج الصلاة، المهم: أنه لا دليل لهؤلاء في مثل هذه الآية.

٣- ومن فوائد الآية: أن المؤمن يزداد إيمانًا عند رؤية الآيات الكونية والشرعية، لقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

٤- ومن فوائدها: صحة مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص، وقد ذكرنا أن زيادة الإيمان باعتبارات، باعتبار قوة اليقين، وباعتبار قوة العمل، وباعتبار الإخلاص فيه، وباعتبار المتابعة للرسول ﷺ، وباعتبار العامل نفسه، كل هذه الاعتبارات يزيد بها الإيمان:

أولًا: اعتبار قوة اليقين، فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] فليس الخبر كالمعاينة، فلو أخبرك من تثق به تمام الثقة عن وجود شيء آمنت به، لكنك إذا رأيته بعينك، صار ذلك أقوى

إيمانًا.

ثانيًا: باعتبار كثرة العمل، فكلما كان الإنسان أكثر عملًا كان ذلك أزيد في الإيمان.

ثالثًا: بحسب الإخلاص في العبادة، فكلما كان الإنسان في العبادة أخلص لله، كان زيادة الإيمان بها أكمل وأقوى، ولهذا تجد الفرق إذا عبدت الله - عز وجل - بإخلاص، وإذا عبدته بغفلة، تجد الفرق العظيم في تأثر قلبك، مع أن العبادة واحدة، فكيف إذا عبدت الله برياء وسُمعة، - نسأل الله أن يعافينا وإياكم من ذلك - تكون أشد وأشد في عدم تأثر القلب بهذه العبادة.

رابعًا: باعتبار متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام، فكلما ازداد الإنسان اتباعًا للرسول - عليه الصلاة والسلام - في عبادته، ازداد إيمانه بذلك؛ لأنه عندما يزداد اتباعًا للرسول - عليه الصلاة والسلام - يشعر كأن الرسول ﷺ أمامه، يتابع أثره، وهذا لا شك أنه يزيد في الإيمان.

خامسًا: باعتبار حال العامل، فالنبي ﷺ يقول عن الصحابة: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه**»[1] رضي الله عنهم؛ لأنهم أقوى إيمانًا ممن بعدهم وأشد ثباتًا.

سادسًا: ترك المعاصي خوفًا من الله؛ لأن الإيمان يزداد به، وسيأتينا - إن شاء الله - في «كتاب التوحيد»، شرح ذلك على وجه أكمل.

المهم: أن أهل السنة والجماعة يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص، وقالت المرجئة: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الإيمان في القلب، فالأعمال الصالحة ما لها دخل في الإيمان، وما في القلب لا يتفاوت، فنحن الآن نؤمن بالشمس جميعًا فإيماننا على حدٍّ سواء لا يتفاوت، فالناس عندهم كما قال ابن القيم عنهم:

النَّاسُ فِي الإِيْمَانِ شَيْءٌ وَاحِدُ ... كَالمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الأَسْنَانِ

وهذا القول، لا شك أنه خطأ يرده الواقع والشرع.

وقالت الخوارج والمعتزلة: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، إما أن يوجد جملةً كاملًا، وإما أن يعدم بالكلية؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة خارج عن الإيمان، فهو إما كافر، وإما في منزلةٍ بين منزلتين، فالخوارج يقولون: فاعل الكبيرة كافر، ليس عنده إيمان أبدًا، والمعتزلة يقولون: لا إيمان عنده، لكن لا نقول: إنه كافر، بل هو في منزلة بين منزلتين، ومن لم يكن فاعل كبيرة، فالناس في الإيمان، كلهم على حدٍّ سواء، فالذين لا يرون زيادة الإيمان ولا نقصانه طائفتان: إما مرجئة، أو وعيدية، وهم الخوارج والمعتزلة.

وقال بعض أهل السنة، كمالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الإيمان يزيد ولا نقول ينقص؛ لأن زيادة الإيمان في القرآن والسنة كثيرة، ولكن لا يوجد ذكر نقص الإيمان، لكن قوله رَحِمَهُ اللَّهُ ضعيف؛ لأن في السنة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ»[1].

والإيمان - لا شك - أنه من الدين، فيكون داخلة في هذا الحديث، وأيضًا فإن الزيادة، والنقصان من الأمور المتقاربة، التي إذا وجد أحدها انتفى الآخر، ولا يعقل وجود أحدهما، إلا بوجود الآخر، فمثل الزيادة لا تعقل إلا بنقص، فالصواب: أن الإيمان يزيد وينقص، وأسباب الزيادة والنقصان، كما شرحنا من قبل.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس يختلفون في الانقياد والتسليم، كما يختلفون في الإيمان، زيادة ونقصًا، لقوله: ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾؛ لأن عامة المؤمنين، كلهم منقادين للشرع، لكن منهم من ينقاد بطمأنينة، وانشراح، وقبول، ومحبة، ومنهم من يسلِّم على وجهٍ دون ذلك، ومنهم من يأتي للصلاة - مثلًا - وهو يرى أنها نعمة من الله - عز وجل - يأتي إليها مقبلًا غير مُدبر، نشطًا، منشرح الصدر، محبًّا لها، ينتظر الصلاة، بعد الصلاة بفارغ الصبر، ومنهم أناس بالعكس يأتون إلى الصلاة، لا يتخلفون، لكن ببطء، وتثاقل وعدم انقياد تام، إذنْ الناس يختلفون في التسليم، ولهذا قال: ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التأمل في الآيات، ووضوح الآيات للعبد، تزيد في إيمانه وتسليمه، لقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ﴾ أي: ما رأوه من الأحزاب، ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسۡلِيمًا﴾ لشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الثناء على أولئك المؤمنين الذين عاهدوا الله فصدقوه، وجه ذلك السياق، لقوله: ﴿رِجَالٞ﴾؛ لأن ﴿رِجَالٞ﴾ نكرة للتعظيم، يعني: رجال عظماء صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٢- **ومن فوائدها:** أن أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله، منهم من توفي واستشهد، ومنهم من بقي، ومن الذين استشهدوا: أنس بن النضر رضي الله عنه، فإنه استشهد في أُحد، ووجد فيه بضع وثمانون ضربة.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله أثنى على هؤلاء أنهم أتوا بما عاهدوا الله عليه على وجه الكمال بدون نقص ولا تغيير، لقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

٤- **ومن فوائد الآية:** أن من مات سابقًا، ومن مات لاحقًا، إذا كانا سواءً فيما قاما به مما يجب، فإنه لا فرق بين المتقدم والمتأخر؛ لأنه قال: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ فجعل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

الثناء عليهم واحدًا، لكن في الأعمال الأخرى، من تأخر موته فازداد عملًا صالحًا، فإنه أكمل من الأول، لكنه بالنسبة لما اتفقا فيه من العمل الصالح، لا فرق بين الأول والآخر.

ثم قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

١- يستفاد من هذه الآية: بيان حكمة الله تعالى في المجازاة على العمل؛ لقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

٢- ويستفاد من هذه الآية: أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾، فإن الباء للسببية، والمسبَّب مربوط بالسبب، يقوى بقوته ويضعف بضعفه، ويزداد بزيادته وينقص بنقصانه.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على الصادقين؛ لأنهم أهل للثناء الحسن، لقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ الصادقين في العقيدة، وفي القول، وفي العمل، وقد أمر الله بالصدق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال النبي ﷺ، حاثًّا على الصدق: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُوْرِ وَإِنَّ الفُجُوْرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

والصدق كما أنه محل ثناء من الله عز وجل، ومحل ثواب جزيل، فإنه محل ثناء من الخلق ولهذا تجد الصادقين تنشر آثارهم، وتؤثر أقوالهم، ويثنى عليهم في المجالس حتى بعد موتهم، بخلاف أهل الكذب - والعياذ بالله -، والنفاق، فإنهم على العكس من ذلك، فعليك بالصدق ولا تظن أن الصادق يخيب أبدًا، كما يصور الشيطان أحيانًا أنه لو صدق لكان في ذلك ضرر عليه، فهذا من وساوس الشيطان، فالصدق منجاة، ولهذا قال أحدهم: رأيت في الكذب نجاة، فقال الثاني له: الصدق أنجى، وصدق.

واعلم أن الصادق، وإن كان الأمر يكون مرًّا عليه في أول أمره، لكنه تكون العاقبة له في النهاية، وإن أردت مثلًا على ذلك، فانظر إلى حال الثلاثة الذين خُلفوا في غزوة تبوك كيف كان أول أمرهم؟ كانوا في تلك المرارة العظيمة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليم أنفسهم، وتنكرت الأرض لهم، حتى قال كعب بن مالك: حتى الناس الذين على الأرض كأنهم

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأبو داود (٤٩٨٩).

ليسوا بالناس الذين أعرفهم، ضاقت عليهم الأرض، والنتيجة: أنهم نزلت فيهم آيات تتلى إلى يوم القيامة، ولولا هذا الصدق ما بقيت هذه الآيات، حتى قيل للناس: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] عندما ذكرت قصتهم، هذه نهاية عظيمة جدًّا للصادقين، فأنت اصدق وإن حصل عليك ضرر في أول أمرك، لكن العاقبة لك، لا تعوِّد نفسك الكذب.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: ذم النفاق وأنه سبب للعذاب؛ لقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾

٥- ويستفاد منها: أن المنافق له توبة؛ لقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ إن شاء أن يعذبهم إذا ماتوا على النفاق، أما إذا تابوا فقد شاء ألا يعذبهم، ولكن توبة المنافق ذكر فيه شروط، لابد من مراعاتها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦] لابد أن تظهر هذه الأمور على المنافق، وإلا فإن توبته لا تقبل في الدنيا، أما في الآخرة، فأمره إلى الله، لكن في الدنيا لا نقبلها، إلا إذا ظهرت عليه هذه الأوصاف التي اشترطها الله عز وجل.

٦- ويستفاد من الآية: ترغيب المنافقين في التوبة؛ لقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ منافق، خادع، غادر، ماكر، ومع ذلك يقال له: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دليل على أن الله عز وجل رحمته سبقت غضبه، ولهذا الذين يعذبون أولياءه، ويحرقونهم بالنار يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، وكذلك الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، عرض الله عليهم التوبة، كل هذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يحب العفو أكثر من الانتقام.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغفور والرحيم، وما تضمناه أيضًا من الصفتين، وهما المغفرة والرحمة، وما يتعلق بهما من حكم وأثر، وهو أنه يغفر ويرحم، فالاسمان الكريمان: الغفور والرحيم، من الأسماء المتعدية التي لا يتم الإيمان بها إلا بأمور ثلاثة، لأن أسماء الله عز وجل نوعان: متعدٍّ، ولازم، فالمتعدي لا يتم الإيمان به إلا بأمور ثلاثة، وهي:

أ- أن تؤمن بأنه اسم لله.

ب- وأن تؤمن بما تضمنه من صفة.

جـ- وأن تؤمن بما تضمنه من الحكم والأثر.

فالغفور تؤمن بأنه اسم من أسماء الله، وأنه تعالى ذو مغفرة، والثالث: أنه يغفر.

النوع الثاني، وهو إذا كان غير متعدٍّ، فلا يتم الإيمان به إلا بأمرين:

أ- الإيمان بأنه اسم من أسماء الله.

ب- الإيمان بما تضمنه من الصفة، مثل: العلي، والكريم، والعظيم، وما أشبه ذلك، وربما نقول: إن الكريم من الاسم الأول.

مسألة: في الآية إشكال وهو كيف نجيب عن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأن كان في الماضي؟

نقول: إن كان يراد بها أحيانًا: اتصاف اسمها بخبرها، بقطع النظر عن الزمن، وهي ما تعرف بمسلوبة الزمن، يعني ما يراد بها الزمن إطلاقًا، بل يراد بها تحقق هذا الوصف، فكان يعني: ثبت، فكان الله غفورًا رحيمًا، يعني أنه عز وجل لم يزل ولا يزال كذلك غفورًا رحيمًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحان وتعالى؛ حيث ردَّ هذه الأحزاب الكثيرة العظيمة مع ما في قلوبهم من الغيظ والحمق الشديد على النبي ﷺ وأصحابه، ردهم الله عز وجل بغيظهم، ما اشتفوا ولا نالوا مرادهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾؛ ولهذا أثنى النبي ﷺ على ربه في هزيمة الأحزاب فقال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَنجزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[1].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الأحزاب قد امتلأت قلوبهم غيظًا على رسول الله ﷺ، لقوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ فإن الباء للمصاحبة، والملابسة.

٣- ومن فوائدها: أنهم - أي الأحزاب - لم ينالوا مع هذا التعب الشديد خيرًا لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فما نالوا خيرًا في الدنيا من غنائم وغيرها، ولا نالوا خيرًا في الآخرة من الأجور والثواب.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله عز وجل كفى المؤمنين القتال بعد هذه الغزوة؛ ولهذا لم يقاتل النبي ﷺ أحدًا من المشركين بعد تلك الغزوة، حتى قال النبي ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**»[2]؛ لأن الله قال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ في هذه الغزوة وما بعدها، فإن العرب لم يقوموا بغزوٍ لرسول الله بعد هذه الغزوة.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله عز وجل يدافع عن المؤمنين؛ لقوله ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ووجه اختصاص ذلك بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فخصه بالمؤمنين، يدل هذا على أنه كفاهم القتال لإيمانهم، فالمؤمنون يكفيهم الله عز وجل، ما أهمهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٠٩)، وأحمد (١٧٨٤٤).

ويدافع عنهم بإيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزُّمَر:٦١].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القوة والعزة لله؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾.

٧- **وفيها:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله تعالى، وهما: القوي والعزيز.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** منة أخرى على المؤمنين: وهي إنزال هؤلاء الذين غدروا من اليهود من بني قريظة من حصونهم التي تحصَّنوا بها؛ لقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن اليهود والنصارى أعداء للمسلمين، موالون للمشركين؛ لأن بني قريظة والوا الأحزاب، وظاهروهم على النبي ﷺ، مع ما عليه من العهد والميثاق الذي بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن إلقاء الرعب في القلوب من أعظم الهزيمة؛ لقوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى انحطاط هؤلاء اليهود وذلهم، ونزولهم من الأعلى إلى الأسفل، لقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾، وفعلًا فإنهم حصل لهم مع خروجهم من حصونهم من الذل والعار والخزي، ما هو باقٍ إلى يوم القيامة.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ أباح للمؤمنين هؤلاء اليهود، قتلًا وأسرًا، لقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المؤمنين إذا فتحوا بلدًا ملكوا الأرض، لقوله: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾، وإذا ملكوا الأرض، فهل تقسم بين الغانمين، أو تُوقف لبيت المال أو توزع على المؤمنين بخراج؟

الجواب: فيه خلاف بين أهل العلم، والصحيح: أنه يجب على ولي الأمر أن ينظر إلى ما هو الأصلح، إن رأى أن يوزعها على الغانمين فعل، كما فعل النبي ﷺ في خيبر، وإن رأى أن يبقيها في مصالح المسلمين أبقاها، وإن رأى أن يوزعها على المسلمين بخراج يضرب عليها فعل مثلما فعل عمر رضي الله عنه فيقول مثلًا: نحن نقسمها عليكم على أن يكون على كل مائة متر كذا وكذا دراهم،

وتكون هذه الدراهم للمسلمين ينتفعون بها.

المهم: أن أرض الكفار إذا فتحت عنوة، فهي للمسلمين، لقوله ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾.

٢- **ومنها أيضًا:** حل أموال الكفار للمسلمين، لقوله: ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾، فإن الغنائم تحل للمسلمين، وهي من خصائص هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكَانَ النبيُّ يُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[1].

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** البشارة بأن المسلمين سيستولون على أراضي أخرى للكفار، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، وهي خيبر، وغيرها من بلاد الكفار، إنما فيه بشارة بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيورث المسلمين أراضي الكافرين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات قدرة الله تعالى على كل شيء، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فكل شيء، فإن الله قادر عليه، لا يعجزه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فمهما ظننت من بُعد وقوع الشيء، فلا تستبعده على قدرة الله، فإن الأمر عليه هين، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فالكل عليه هين ولكن هذا أهون.

فالحاصل: أن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، وقد قال المؤلف صاحب «**تفسير الجلالين**»، في سورة المائدة، لما قال ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: [وخص العقل ذاته، فليس عليها بقادر] أي: أن الله لا يقدر على ذاته، والذي خصص هذا العموم هو العقل على زعمه، فيقال: ما هذا العقل الذي يخصص هذا العموم، وكيف لا يكون الله قادرًا على ذاته؟! بل إن الله سبحانه قادر على كل شيء، حتى على ذاته، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يستوي على العرش، وينزل إلى السماء الدنيا، ويأتي للفصل بين عباده، ويفعل ما يشاء، وهذه قدرة على الذات، أما إن أراد أنه غير قادر على ذاته، فلا يعدمها مثلًا، فيقال: إن هذا شيء مستحيل، والمستحيل لا تتعلق به القدرة أصلًا، فهو غير وارد ولا داخل في الآية من الأصل.

٥- **ويستفاد منها:** إثبات غدر اليهود وأنهم أهل غدر وخيانة، وهذا شيء معلوم من اليهود من حالهم، منذ كان فيهم نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، وهم أشد الناس غدرًا ومكرًا وخيانة.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٨-٣١]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

لم يخاطب الله نبيه محمدًا ﷺ إلا بوصف النبوة والرسالة، بينما كان يخاطب غيره من الأنبياء كثيرًا بأسمائهم مثل: يا موسى يا عيسى، يا نوح، يا إبراهيم، وما أشبه ذلك، وأما النبي ﷺ في القرآن فلم يخاطبه الله - تعالى - باسمه، يعني لم يقل: يا محمد، وإن كان جاء ذلك في الأحاديث، لكن في القرآن لا.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ والنبي مسهَّل من النبيء بالهمزة، وقيل: إنه غير مسهل، وأصل هذا الخلاف هو: هل النبي من النبأ أم من النَّبْوة؟ إذا قلنا: من النبوة، لم يكن فيه تسهيل؛ لأن الياء أصلية، وإذا قلنا: من النبأ، فإن فيه تسهيل، وأصله النبيء فسهلت الهمزة إلى ياء، والصحيح: أنه مشتق من المعنيين جميعًا، فإن النبيء مشتق من النبأ؛ لأنه مُنبأ منبِئ، ومشتق - أيضًا - من النبوة؛ لعلو مرتبة النبيين.

وقوله: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الأزواج جمع زوج، وزوج في اللغة العربية يطلق على الأنثى والذكر، وفيه لغة لكنها قليلة رديئة، تقول للمرأة زوجة، ولكن هذه اللغة الرديئة، هي التي استخدمها الفرضيون، فيقول زوج: للذكر، وزوجة: للأنثى، من أجل البيان والإيضاح، وهذا أمر لابد منه في باب الفرائض.

قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ قال: [وهن تسع] خمس منهن قرشيات، وأربع غير قرشيات، [وطلبن منه من زينة الدنيا، ما ليس عنده]، فطلبن منه نفقة وكسوة، وغير ذلك مما تريده النساء من الرجال من الأموال، والنبي ﷺ - كما نعلم جميعًا - كان قليل ذات اليد؛ لأنه كان ينفق ما عنده، فطلبن منه النفقة، وضيقن عليه، وآلى منهن شهرًا كاملًا، اعتزلهن، ثم نزل في آخر الشهر، فأنزل

الله عليه هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ إلى آخره.

وقوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إن شرطية، وفعل الشرط ﴿كُنتُنَّ﴾، وجواب الشرط: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: متعها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما فيها من الأموال، والقصور، والمراتب، وما أشبه ذلك، ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هذا فعل أمر؛ لأنه تلحقه العلامات، فإذا كان تلحقه العلامات فهو فعل أمر، ولهذا يقال: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ ويقال: تعالوا، بخلاف هلمَّ، فإنها لا تلحقها العلامات فهي اسم فعل.

وقوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ يعني: أقبلن إلي، ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ هذه جواب الأمر، جواب الطلب في قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أعطيكن متاعًا تتمتعن به، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، أطلِّقكن؛ لأن التسريح ضد التقييد، وهذا من الآداب العالية التي أمر الله بها نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإلا كان مقتضى الحال أن يقول: إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أطلقكن، ولا خير فيمن لا تريد إلا الدنيا، ولكن من كمال الرعاية، ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، أعطيكن مالًا تتمتعن به، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، أطلقكن، ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، يعني: ليس فيه عداوة، ولا بغضاء، وليس فيه حجر بعد ذلك، ولهذا لو أن هذا وقع، لكان يحل لهن أن يتزوجن بغيره؛ لأن هذا من السراح الجميل، إذ لا فائدة من كونها تتسرح من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم تبقى محبوسة، ولكن الأمر لم يقع.

ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ قال: [أي: الجنة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ﴾ بإرادة الآخرة، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: الجنة]، وإنما بدأ بالدنيا؛ لأنهن كن يطالبنه بالنفقة، وهي مما يتعلق بالدنيا، ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وهذا هو الحال الثانية لهن، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ﴾، ولم يقل: لكُنَّ بل قال: ﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ﴾، فأظهر في موضع الإضمار، ليتبين أن هذه الإرادة إحسان، وأنهن إذا أردن الله ورسوله والدار الآخرة من الإحسان، وأن الله أعد للمحسنات منهن أجرًا عظيمًا.

و(من) هنا ليست للتبعيض، ولكن للبيان، فتشمل ما لو أردن كلهن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله يعد لهن جميعًا أجرًا عظيمًا، فبدأ أول ما بدأ بأحب نسائه إليه، وهي عائشة رضي الله عنها وقال لها: لا عليك ألا تستعجلي، فتستأمري أبويْك، خاف من أنها شابة صغيرة، أنها تتعجل وتقول: أريد الدنيا، فطلب منها ألا تتعجل حتى تستأمر أبويها، أي: تستأذنهما، ومعلوم أن أبويها لا يريدان لها أن تختار الدنيا وزينتها على الله ورسوله، والدار الآخرة، ولكنها رضي الله عنها على صغر سنها كانت لها نظرة بعيدة، فقالت: يا رسول الله أفي هذا أستأمر أبوي؟! يعني: أفي هذا أشاور

أبوي، لا، إنما أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولكن لا تخبر نساءك بما قلت، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّرًا لَا مُتَعَنِّتًا ولا معنتًا[1] وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَسْأَلُنِي فَسَأُخْبِرُهَا».

لكن كل نساءه ما سألن، فكل امرأة تقول: إنها تريد الله ورسوله والدار الآخرة، فصرن على الحال الكاملة - رضي الله عنهن - على ما كان عليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - من ضيق العيش، وقلة ذات اليد، ومع هذا وفقهن الله ومنَّ عليهن، وهذا ولا شك من عناية الله برسوله، أن يختار له مثل هؤلاء النساء، فكان جزاؤهن أن الله قال له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فهؤلاء النسوة اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد أن خُيرن، كان لهن مع جزاء الآخرة، هذا الجزاء الدنيوي: أن الرسول مُنع من أن يتزوج بأحد من النساء، أو يبدل واحدةً بامرأة جديدة ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

وقوله: ﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قال: [بفتح الياء وكسرها] - ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾ و﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ -، [أي: بُينت أو هي بينة، ﴿يُضَٰعَفْ﴾، وفي قراءة، بالتشديد ﴿يُضعَّفُ﴾، وفي أخرى ﴿نُضعِّفُ﴾، بالنون معه، أي: مع التشديد، ونصب العذاب].

فقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ فيها إذنْ ثلاث قراءات: [يضاعف- يضعَّف- نضعِّف] فعلى القراءتين الأوليين يكون العذاب بالرفع، ﴿يُضَٰعَفْ﴾ أو ﴿يضعَّف﴾، وعلى القراءة الثالثة: ﴿نُضعِّف﴾، يكون العذاب بالنصب على أنه مفعول به.

يقول: [﴿لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفيْ عذاب غيرهن - أي مثليه -، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾].

وقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾ النداء من الله - عز وجل - موجَّهًا إلى زوجات الرسول ﷺ، وذلك لأهمية ما سيوجه إليهن، ولتنبيههن على ما سيُلقى إليهن.

وقوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ ﴿مَن﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط: ﴿يَأْتِ﴾، و﴿يُضَٰعَفْ﴾ جواب الشرط، وما المراد الفاحشة، هل المراد بالفاحشة الزنا، أو المراد بالفاحشة الكلام البذيء والمتطاول فيه على الرسول ﷺ، والخارج عن المروءة، أو المراد هذا وهذا؟

قال بعض أهل العلم: المراد الأخير، ولا يراد به الزنا، مع أن الفاحشة تأتي في القرآن مرادًا بها الزنا، وتأتي مرادًا بها بذاءة اللسان، والتطاول، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥]، المراد بالفاحشة هنا: الزنا، وقال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١]

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧٨).

والمراد بالفاحشة هنا: بذاءة اللسان وسلاطته، فإذا كانت بذيئة اللسان سليطته، تأتي بكلمات خارجة عن المروءة، فلزوجها أن يخرجها من البيت، أثناء العدة.

هذه الآية إن قلنا بأنها تشمل الفاحشة التي هي الزنا، والفاحشة التي هي بذاءة اللسان، فإن ذلك لا يعني أنه يقع منهن؛ لأن الشرط لا يلزم وقوعه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزُّخرُف:٨١] وهل يمكن ذلك؟ لا، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] هل يمكن ذلك؟ لا يمكن، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] لا يمكن هذا أيضًا، فالإتيان بالشيء معلقًا بالشرط لا يلزم منه جواز وقوع الشرط، وعلى هذا فلتكن الآية: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ شاملة للزنا، لكن هذا شيء محال.

أما إذا قلنا: المراد بالفاحشة سلاطة اللسان، والخروج بالقول عن المألوف والمروءة، فهذا قد يقع من النساء حتى من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - ولا عيب عليهن في ذلك؛ لأنه من طبيعة النساء الغَيْرة، وعدم حفظ اللسان، وعدم التأني في الأمور، وأيًّا كان، فإن الله - عز وجل - يقول: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وذلك لشرفها، وعلو منزلها، فكان الذنب منها أعظم من الذنب من غيرها، ولهذا إذا زنت الحرة؛ تجلد أو ترجم، وإذا زنت الأمة، فليس عليها إلا نصف ما على المحصنات من العذاب؛ لشرف الأولى وانحطاط مرتبة الثانية.

فزوجات الرسول ﷺ لهن من المقام الرفيع، والحصن المنيع، ما يقتضي أن يضاعف العذاب عليهن، إن أتين بفاحشة مبينة، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، فإذا كان جزاء سيئةٍ سيئة مثلها، فجزاء السيئة التي ذكر الله هنا، وهي الفاحشة المبينة، بالنسبة لزوجات الرسول سيئتان، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يكرر عليهم مرتين.

وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فالمشار إليه هو تضعيف العذاب، كان ذلك يسيرًا على الله، أي: ليس صعبًا عليه.

مسألة: لماذا قال: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾؟

الجواب: لئلا يظن ظان أن هذا أمر صعب على الله؛ لكون الأمر يتعلق بزوجات نبيه ﷺ، فبيَّن الله - عز وجل - أن هذا أمر يسيرٌ عليه؛ لأنه - سبحانه وتعالى - ليس بينه وبين خلقه نسب، فأكرم الخلق عنده أتقاهم له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ هذا عكس الأول،

لما كنَّ إذا أتين بفاحشة مبينة ضُوعف العذاب عليهن جزاهم الله بالعدل من جهة أخرى، فقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿يَقْنُتْ﴾ أي: يطع، ولكن القنوت لله تعالى غير القنوت للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالقنوت لله قنوت عبادة وتذلل، وتعظيم، والقنوت للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قنوت طاعة زوج، وليس هو كقنوتهن لله ـ عز وجل ـ فقوله: ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، لله بالطاعة والعبادة، وللرسول ﷺ في أداء حقوقه التي تجب للزوج على زوجته.

وقوله: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: تعمل عملًا صالحًا، والعمل الصالح ما كان خالصًا صوابًا، والخالص الصواب، يعني أنه جمع بين الشرطين الأساسين في كل عبادة، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فكل عبادة لابد فيها من هذين الشرطين، فمن اتبع الرسول ولم يخلص لله، فعبادته باطلة، لأنها رياء، ومن صلى لله ولم يتبع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصلاته باطلة، وعبادته باطلة، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»[1].

إذنْ الشرطان الأساسيان لقبول الأعمال هما: الإخلاص والمتابعة، وهكذا كلما ذكر الله ـ عز وجل ـ عملًا صالحًا، فالمراد بالعمل الصالح: ما تضمن هذين الشرطين الأساسين.

قال الله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ لم يقل: نؤتيها، بالياء؛ لأن جواب الشرط يكون مجزومًا، والفعل هنا مجزوم بحذف حرف العلة، وأصلها: (نؤتيها)، فلما جُزم حذف حرف العلة، ومعنى ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أي: نعطها، ولهذا نصبت مفعولين، المفعول الأول: الهاء، والمفعول الثاني: ﴿أَجْرَهَا﴾.

قال: [﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مثليْ ثواب غيرهن من النساء، وفي قراءةٍ بالتحتانية في ﴿تعمل﴾] فتكون: ﴿وَيَعْمَلْ﴾ [وفي ﴿نُّؤْتِهَآ﴾] يعني: ﴿يؤتها﴾، والقراءة هذه سبعية، حسب اصطلاح المؤلف، و﴿يؤتها﴾ أي: الله، و﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أي: نحن، والفوقانية تعود على الله، ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، كما أنها إذا أتت بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، فإذا قنتت لله ورسوله وعملت صالحًا، آتاها الله تعالى أجرها مرتين، وإيتاء الأجر مرتين ليس بغريب، فقد أثبت الله الأجر مرتين في عدة النساء، مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٤] وأخبر النبي ﷺ، أن الرجل من أهل الكتاب إذا آمن برسوله، ثم آمن بمحمد ﷺ، فإن الله يؤتيه أجره مرتين.

وقال كثير من أهل العلم: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]، إن هذا أجر هذه الأمة، يضاعف على غيرها مرتين، والمهم: أن فضل الله تعالى واسع، قد يثيب العامل أجره مرتين، لسبب من الأسباب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، و مسلم (١٧١٨).

يقول: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أي: هيأنا لها، ﴿رِزْقًا﴾: عطاءً، ﴿كَرِيمًا﴾ حسنًا وكثيرًا؛ لأن الكرم في كل موطن بحسبه، فالكريمة من الشاء: الحسنة الجميلة الكثيرة اللبن، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم»(١) فهنا، المراد بالرزق الكريم: العطاء الكثير الحسن الجميل، وهذا إنما يكون كما قال المؤلف: [في الجنة زيادة].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب تخيير النبي ﷺ زوجاته لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** حماية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ﷺ، ودفاعه عنه، حيث أمره أن يخير أزواجه هذا التخيير لما ضيقن عليه، وطلبن منه النفقة.

٣- **ومن فوائدها:** بيان فضائل أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله، والدار الآخرة.

٤- **ومن فوائدها:** كمال خُلق النبي ﷺ، حيث أمره الله أن يقول: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ لأنه كان مقتضى الحال، أن يوبخن على ذلك، وأن يؤنبن عليه؛ لكن قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** حل زوجات النبي ﷺ لغيره لو اخترنا الحياة الدنيا وزينتها، لقوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، من الإحسان، لقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النية لها أثر عظيم في زيادة الثواب؛ لأنه رتب هذا الثواب على هذه الإرادة والنية الطيبة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن الذنب من المقربين، أشد من الذنب من غير المقرَّبين، يؤخذ من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، و مسلم (١٩).

قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾.

٢- ومن فوائدها: حماية فراش النبي ﷺ الحماية التامة؛ لكون المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة من زوجاته، فإن الله يضاعف لها العذاب، كل ذلك من أجل حماية فراش النبي ﷺ، وسواء قلنا: إن المراد بالفاحشة الزنا، أو المراد بها بذاءة اللسان.

٣- ومن فوائدها: أن الله -عز وجل- له أن يفعل ما يشاء في مضاعفة الثواب، والعقاب وأن هذا الأمر عليه هين، لقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: مزية عظيمة لزوجات النبي ﷺ، حيث كانت المرأة إذا عملت عملًا صالحًا، وأطاعت الله ورسوله، آتاها الله أجرها مرتين.

٢- ويستفاد منها: كمال عدل الله -سبحانه وتعالى- لما ضوعف لها العذاب، ضوعف لها الثواب، ولهذا قال: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أن الله أعد لهؤلاء المؤمنات من أزواج النبي ﷺ أجرًا كريمًا، أي: كثيرًا جميلًا حسنًا.



قال الله تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢]

التفسير

قوله عز وجل: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ الخطاب هنا وجهه الله -بعد أن وجهه لرسوله- إلى نسائه قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا بعد التخيير، يدل على أن الزوجية استقرت لزوجات النبي ﷺ، ولهذا خاطبهم بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ ﴿لَسۡتُنَّ﴾ أصلها: ليس، لكنه لما سُكنت السين حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وحرف اللين عند التقاء الساكنين يحذف، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَق   وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

وقوله: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ﴾ يعني أن زوجات الرسول ﷺ لسن كأحدٍ يقول المؤلف: [كجماعة

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾]، وهذا القول فيه نظر؛ لأن (أحد) تطلق على الفرد، يعني: ليس هناك أحد من النساء مثلكن، أي: لا تشبهن أحدًا.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: سواكن، ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ [الله فإنكن أعظم]، يعني: لستن كأحد من النساء إن اتقيتن، والمراد بالشرط: هو الحث والإغراء على التقوى، يعني: إن كنتن متقيات لله حقيقة، فلا تقسن أنفسكن بغيركن، فلستن كأحد من النساء، لما لهن من المزية بالاتصال برسول الله ﷺ، فكان عليهن من حماية فراشه، أعظم مما على غيرهن من حماية فراش أزواجهن، لعظم حق النبي ﷺ، وعلوِّ مرتبته، فقوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ المراد بالشرط هنا: الحث والإغراء على تقوى الله ـ عز وجل ـ حتى لا يقسن أنفسهن بغيرهن، فالفرق عظيم بين فراش النبي ﷺ، وفراش غيره؛ ولهذا من قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ، بالزنا كان كافرًا، ومن قذف زوجة غيره لم يكن كافرًا؛ لأن قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ معناه الطعن في رسول الله ﷺ وأنه ـ والعياذ بالله ـ خبيث؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾[النور:٢٦]

فعلى هذا: تكون حماية فراش النبي ﷺ أعظم وجوبًا من حماية فراش غيره، ولهذا قال: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ قال: [للرجال]، والخضوع: بمعنى التطامن والذل والخنوع، فالمعنى لا تَتَطامَنَّ، ولا تذَلَّلْن ولا تخنعن لأحد من الرجال بالقول، يعني: لا يكن قولكن في مخاطبة الرجال رقيقًا وضيعًا هيِّنًا؛ لأن المرأة فتنة، فإذا خضعت بالقول دب الشيطان بينها وبين الرجل الذي تخاطبه، فمهما كان للإنسان من شرف ونزاهة، فإن المرأة إذا خاطبته بصوت خاضع، فإنها قد تغريه، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(١)، فالرجل الحازم الفطن الكيس، لا أحد يذهب بعقله مثل ما تذهبه المرأة، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، بل يجب على المرأة أن تكون عند مخاطبة الرجال من أبعد ما يكون عن الخضوع بالقول، ولين القول، وظرافته، بحيث تؤدي إلى هذا الأمر العظيم، وهو قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ يطمع في ماذا؟ يطمع فيكن، إما بفعل الفاحشة، أو بالتمتع، والتلذذ بِخِطَابِكُن، فإن الإنسان الذي في قلبه مرض، إذا خضعت له امرأة بالقول، فإنه يستمر معها في مخاطبتها، حتى يغريَه الشيطان، وربما يحصل بعد ذلك موعد ولقاء وفاحشة، كما يوجد عند كثير من السفهاء الآن، تجد ـ والعياذ بالله ـ ولاسيما بعد وجود هذه الهواتف ـ تجده يفتح مثلًا ـ أي رقم هاتف، فإذا خاطبته امرأة، بدأ معها بالكلام اللين الخاضع حتى يغريه الشيطان بها، ويغريها به، ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ قال المؤلف: [نفاق].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

والصواب: أن المراد بالمرض هنا: مرض الشهوة والتمتع، لا مرض النفاق؛ لأن بعض المنافقين قد لا يكون في نفوسهم هذا الشيء، كما أن بعض المؤمنين قد يكون في قلوبهم هذا الشيء، فالمراد بالمرض هنا: مرض التمتع والتلذذ، بصوت المرأة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿قلن﴾ فعل أمر مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة.

مع أنك لو قلت: النساء قلن كذا وكذا، صار فعلًا ماضيًا، لكن إذا وجهت الأمر إليهن، فقلت: قلن قولًا معروفًا صار فعل أمر، ونجد في الآية أن الله عز وجل لما نهاهن - سبحانه وتعالى - عن الخضوع بالقول، أمرهن بأن يقلن قولًا معروفًا؛ لئلا يظن ظانٌّ أن المرأة لا تكلم الرجل مطلقًا، وليس كذلك، بل المرأة مخاطبتها للرجال جائزة، لكن بالقول المعروف.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال: [من غير خضوع]، والمراد بالمعروف هل هو المتعارف عليه بين الناس، من مخاطبة الرجال والنساء، أو المراد بالمعروف ما ليس بمنكر؟ المراد: الأخير؛ لأن الأول، لو قلنا: أنه ما يتعارف عليه الناس من الخطاب بين الرجل والمرأة، لكان هذا خاضعًا لاختلاف الأعراف، فيوجد مثلًا من الناس من عرفهم أن المرأة تخاطب الرجل وتضحك إليه وتمازحه كما يوجد الآن مع الأسف في كثير من بلاد المسلمين، المرأة مع الرجل الأجنبي لا تعرفه تجدها تقف معه وتمازحه وتضحك كأنها تخاطب زوجها - والعياذ بالله -، وهذا لا شك أنه حرام وأنه دعوة إلى الفجور.

إذنْ المراد بالمعروف: ما ليس بمنكر، يعني: ما عرفه الشرع وأقره من الكلام الذي يكون بعيدًا عن الخضوع بالقول، وعن التمتع والتلذذ به، وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قولًا هذه: مصدر، ومعروفًا: صفته، فهي مبينة لنوع هذا القول، وهو أنه القول المعروف، لا القول المنكر، فالمعروف مثل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فالقول المعروف، ما أقره الشارع، وعرفه.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** الميزة والخصيصة لنساء النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾.

فإن قلت: ما الحكمة في أنهن لسن كأحد من النساء؟

فالجواب: لأنهن تحت النبي ﷺ الذي هو أطيب الطيبين من الخلق، وقال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يَشرف بشرف من اتصل به، تؤخذ من شرف أمهات المؤمنين، لاتصالهن بالنبي ﷺ، ولهذا حث النبي ﷺ على الجليس الصالح، وقال: «إِنَّ مَثَلَ

الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً»[1]، وحذر من جليس السوء، يعني: أن الإنسان ـ بلا شك ـ يشرف بشرف من يتصل به، وينزل بنزول من يتصل به.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب التقوى، حتى على زوجات النبي ﷺ لقوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** تحريم خضوع المرأة في مخاطبة الرجال، لقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، فإن قلت: أفلا يكون هذا خاصًّا بزوجات الرسول ﷺ لما لهن من المكانة والشرف، حتى يُبعدن عن مواضع الفتن، إن قلت هذا، فما الجواب؟

الجواب: أنه إذا كان نساء الرسول ﷺ، وهن أطهر النساء، وأبعدهن عن الفتنة منهيات عن الخضوع بالقول، معللًا ذلك النهي بخوف طمع الذي في قلبه مرض، فإن الحكم يدور مع علته، وجودًا وعدمًا، فإذا كان هذا في النساء الطاهرات المبرَّءات فغيرهن من باب أولى، وإذا كانت العلة خوف طمع من في قلبه مرض، فهذه العلة لا تختص بزوجات الرسول ﷺ وعلى هذا يحرم خضوع المرأة بالقول لأي أحد من الناس، اللهم إلا لمحارمها مع أمن الفتنة أيضًا، حتى مع المحارم؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فربما مع خضوعها بالقول تحصل الفتنة، ولاسيما المحارم في الرضاع والمصاهرة؛ لأن نفور الطبيعة عن المحارم من الرضاع والمصاهرة، أقل من نفورها عن محارم النسب والقرابة، وهذا أمر مشاهد، ولهذا يجب التحرز من المحارم في الرضاع والمصاهرة، أكثر من التحرز عن المحارم بالنسب.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا بأس من مخاطبة النساء للرجال، لكن بالمعروف، هذا يؤخذ من قوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن صوت المرأة ليس بعورة، خلافًا لمن قال: إنه عورة، من أهل العلم، والصواب: أن صوت المرأة ليس بعورة؛ ولهذا كان النساء يأتين إلى رسول الله ﷺ يسألنه، وحوله أصحابه، ولا ينهاهن عن ذلك، ولو كان صوت المرأة عورة، لنهاهن النبي ﷺ عن الكلام مع حضور الرجال.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على الإنسان أن يكون متبعًا لما جاء به الشرع في أحواله وأقواله، لقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن فتنة النساء مرض في القلب، يحتاج فيه الإنسان إلى معالجة، وإلى مداواة، لقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، وهذا المرض مرض فتاك ـ نسأل الله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

السلامة منه - مرض في القلب، كمرض السرطان في البدن، إذا لم يتدارك الله العبد بعفوه، وتوفيقه، وتسديده، فإنه يهلك، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ**»[1]، فالواجب الحذر من هذا الأمر، وألا يملي الإنسان لنفسه، ويمهلها في هذا الباب.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من كان صحيح القلب، فإنه أبعد الناس عن مواضع الفتن، لقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من جعل الله قلبه صحيحًا فإن المرأة، لا تغريه، بما تفعله من أسباب الفتنة؛ لأنه قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، ولم يقل فلا تخضعن بالقول فيطمع الناس، بل قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، لكن مع ذلك، لو كان الإنسان صحيح القلب سليمًا ثم أحس في نفسه بشيء من الفتنة، فالواجب عليه البعد عن ذلك، لا يقل: إني سليم، إني والحمد لله لا يهمني هذا الأمر، لا يقل هكذا، فإن الإنسان قد يرى نفسه متحصنًا بحصن التقوى، ولكن الشيطان يخدعه في مواطن الفتن، ولهذا أمر النبي ﷺ أن من سمع بالدَّجَّال أن ينأى عنه، يعني: يبعد، فإن الإنسان يأتيه، وهو يرى أنه مؤمن، فلا يزال يقف له بالشبهات حتى يتبعه.



قال الله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأحزاب:٣٣، ٣٤]

التفسير

قوله: ﴿وَقَرْنَ﴾ [بكسر القاف وفتحها]، وهو من القرار، وهو البقاء مع السكون والاستقرار، وهو أبلغ من قوله: وابقين في بيوتكن؛ لأن القرار بقاء وزيادة مع سكون، ولهذا قال: [﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ من القرار، وأصله: اقرِرْن، بكسر الراء، وفتحها]، اقررن، واقرَرْن، من قررت، بفتح الراء وكسرها، قرَرت وقرِرت [نقلت حركة الراء إلى القاف، وحذفت مع همزة الوصل]، فأصل قرن: اقرَرْن، أو اقرِرن، فالذي حدث نقلت فتحة الراء إلى القاف الساكنة، فصارت هي ساكنة،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

وصارت القاف مفتوحة أو مكسورة، ثم حذفت همزة الوصل، فصارت: ﴿وَقَرْنَ﴾.

وقوله: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ هنا للإضافة، ويحتمل أنها للتمليك وأن بيوت زوجات النبي ﷺ ملك لهن، ويحتمل أنها للاختصاص، وأن البيوت ملك لرسول الله ﷺ، فأيهما أقرب؟

الأقرب: أنه للتمليك، بدليل أن النبي ﷺ لما توفي بقيت هذه البيوت لزوجاته، وإن كانت البيوت لرسول الله ﷺ لا تُورث من بعده؛ لأن الأنبياء لا يورثون، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّا مَعشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»(١)، والرافضة يقولون: إن لفظ الحديث، «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً**» لئلا يقولوا: إن الذي تركوه غير صدقة يورث، وإن أبا بكر، وعمر، وبقية الصحابة ظلموا ورثة النبي ﷺ؛ حيث لم يورثوهم.

لكن أهل السنة والجماعة يقولون: كذبتم أيها الرافضة، بل إن لفظ الحديث: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَث**» انتهت الجملة الأولى، ثم قال مبينًا ماذا يكون مآل المال بعدهم، قال:«**ما تركناه صدقةٌ**»، والمعنى الذي ذهبت إليه الرافضة باطل؛ لأن ما تُرِك صدقة، لا يورث حتى في غير الأنبياء، فهم محرفون في الحديث لفظًا ومعنىً، يقولون: إنا لا نورث الذي تركناه صدقة، معناه مثلًا: إذا وقَّفنا شيئًا، وجعلناه في سبيل الله، فإننا لا نورث هذا الشيء، إنما نورث الأملاك الأخرى.

وهل هذا خاص بالرسل؟ لا ليس خاصًّا بهم، إذنْ قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، الأقرب أن الإضافة للتمليك.

وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ قال: [بترك إحدى التاءين من أصله]، ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ هل هي فعل مضارع أم فعل ماض؟ فعل مضارع؛ لأن لا الناهية لا تدخل إلا على الفعل المضارع، وإلا فإن كلمة تبرج، والنساء تبرجن، هذه فعل ماض، لكن في الآية:﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ هذا فعل مضارع، يقول المؤلف: [بترك إحدى التاءين] وأصلها: تتبرجن، هذا أصلها، وحذف إحدى التاءين في المضارع كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أي: تتلظى إذنْ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة في محل جزم بلا الناهية.

وقوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [أي: ما قبل الإسلام]، والتبرج في الأصل مأخوذ من التعالي والترفع، ومنه البُرج: وهو الحصن الرفيع المنيع، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، وكما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١] أي: جعل فيها كتلًا عظيمة من النجوم، كالبروج المشيدة.

يقول: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي: تتعالين، وتترفعن باللباس وغيره، وقوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٣٦)، ومسلم (١٧٥٨).

ٱلْأُولَىٰ﴾ هذا مصدر مبين للنوع بالإضافة إلى الجاهلية، ومعلوم أن المصدر يكون لبيان العدد، والنوع، والتوكيد، وغير ذلك مما ذكره أهل العلم بالنحو.

وقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أضافه إلى الجاهلية؛ لأنه مبني على الجهل والسَّفه؛ لأن المرأة إذا تبرجت، فإن ذلك يعتبر جهلًا منها وسفهًا، ولهذا أضيف إلى الجاهلية، ثم أضيف إلى الأولى، وهل المراد الأولى زمنًا، أو الأولى مرتبة، أو كلاهما، يعني: هل المعنى الجاهلية الأولى الأعظم جهلًا من نوعها؟

نقول: كلاهما في الواقع، فهي جاهلية من الطراز الأول من الجهل، وهي جاهلية أولى؛ لأنها سبقت الإسلام، ولا يعني بذلك أنها الجاهلية المباشرة للإسلام؛ لأن الجاهلية المباشرة للإسلام امتداد لجاهلية سبقت منذ زمن بعيد، فالجاهلية الأولى استمرت إلى أن محاها الإسلام بالعلم والتقوى والحمد لله، ولهذا قال: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، والمراد بالإضافة هنا بيان النوع، وما أقبح نوعًا يكون جهلًا.

وعلى هذا فالمراد به التقبيح، أي: تقبيح هذا التبرج، وأنه تبرج مبني على الجهل والسفه، والبعد عن الإيمان والعلم والرشد.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: [ما قبل الإسلام، من إظهار النساء محاسنهن للرجال] ففي الجاهلية كانت تتبرج المرأة، وتخرج بأحسن ما عندها من اللباس والحلي، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، هذا التبرج يكون بنوع اللباس، ويكون بالطيب، ويكون بتحسين البدن بالحناء، والتحمير، وتسويد العين بالكُحل، وما يسمى عندنا في الوقت الحاضر بالمكياج، وما يسمى بمنكر المناكير، وعلى هذا فقس، كل هذا من التبرج الذي يعتبر من تبرج الجاهلية الأولى، ولهذا يقول المؤلف: [من إظهار النساء محاسنهن للرجال، والإظهار بعد الإسلام مذكور في آية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١]].

رحم الله المؤلف، فإن هذا ليس بصواب منه، فليس في الإسلام إظهار للزينة أبدًا، إلا في نوعين: النوع الأول: الإظهار العام لكل أحد، والنوع الثاني: الإظهار الخاص للبعولة والمحارم.

أمَّا الإظهار العام: فقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١] المراد بما ظهر منها: ما جرت العادة أنه لابد من ظهوره، كالجلباب، والعباءة، وما أشبه، ذلك كما فسره بذلك ابن مسعود رضي الله عنه وعلى هذا يكون الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ استثناءً منقطعًا، وليس متصلًا؛ لأن ما ظهر ليس من الزينة، فما ظهر وما جرت العادة بظهوره ولابد منه، هذا أمر ليس من الزينة، حتى لو سُمي زينة ولباسًا، فإنه لابد من ظهوره.

أما الزينة الأخرى التي خصها الله بقوم معينين، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وهذه هي الزينة الباطنة، كالثياب التي تكون داخل الجلباب والعباءة، وما أشبه ذلك، وذلك في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى آخره.

والحاصل: أن التبرج لم يأذن الله فيه أبدًا، فالتبرج النهي عنه عام، أما التزين للزوج فهذا أمر مطلوب، فعلى المرأة أن تتجمل لزوجها، لما في ذلك من تأكيد الحكمة التي من أجلها شرع الزواج، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، ولا شك أن المرأة إذا تجملت لزوجها بأنواع الجمال، فإن ذلك يوجب سكونه إليها ومودته لها، فيكون هذا من باب تأكيد الحكمة التي من أجلها شُرع الزواج، ولهذا تؤمر المرأة بأن تتجمل لزوجها، كما أن الزوج أيضًا - كما قال بعض السلف -: من حقها عليَّ أن أتجمل لها، كما أن من حقي عليها أن تتجمل لي - أما أن يأتي الزوج لزوجته لابس الخيشة، وما أشبه ذلك، ويريد منها أن تلائمه، يقول لها: لماذا ما تتجملين لي؟ وهو يلبس أردأ اللباس، هذا من غير العدل، فالإنسان يجب عليه أن يراعي العدل، في كل معاملاته.

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ايتين بها مستقيمة، وذلك بفعل شروطها، وأركانها، وواجباتها، ومستحباتها، لكن الإتيان في الثلاثة الأُوْلَى على سبيل الوجوب، وبالرابع على سبيل الكمال والاستحباب، وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يشمل الفريضة والنافلة.

وقوله: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطينها، والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، وفي الشرع: مال مقدر مخصوص في مال مخصوص، يعني: جزء من أموال مخصوصة، يُدفع لمستحقه.

وقوله: ﴿وَءَاتِينَ﴾ تنصب مفعولين؛ لأنها من باب كسا وأعطى، فالمفعول الأول: الزكاة، والمفعول الثاني: محذوف، أي: مستحقها، أي: آتين الزكاة لمستحقها؛ لأن إيتاء الزكاة لغير أهلها لا ينفع، كما لو صلى الإنسان في غير الوقت.

وقوله: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعد الأمر بإقامة الصلاة، فيه دليل على تأكد الزكاة، وهل يلزم منه: أن أمهات المؤمنين، عندهن مال يزكينه؟

إذا قلنا: لا يلزم، صار توجيه الخطاب إليهن بإيتاء الزكاة من باب اللغو، لأنهن سيقلن: ما عندنا مال، أو يقال: أُمرنَ بإيتاء الزكاة، إما التزامًا، وإما إعطاءً بالفعل؛ التزامًا إذا لم يكن عندهن شيء، وإعطاءً بالفعل: إذا كان عندهن شيء، ولا شك أن عندهن ما تجب الزكاة فيه، أو عند بعضهم من الحلي، كما في حديث أم سلمة أنها كانت تلبس أوضاحًا من ذهب فقالت: يا رسول الله: أكنزٌ هو؟ قال: «إِذَا أَدَّيْتِ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»(١) فهن عندهن ما يزكين به، قد لا يكون دراهم

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (١٥٦٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥٥٩) بالشواهد.

ودنانير، ولكن من الحلي.

وقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الطاعة، قال العلماء: هي موافقة الأمر، يعني: عدم المعصية توافق أمر المطَاع إن كان مطلوبًا بالفعل، وإن كان منهيًّا عنه بالترك.

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عطف طاعة رسوله على طاعة الله بالواو؛ لأن طاعة الرسول ﷺ، من طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقد سبق لنا أن قلنا مرارًا وتكرارًا: إن المسائل الشرعية يجوز أن يقرن فيها بين الله وبين الرسول ﷺ؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ من المسائل الشرعية هو مما أمر الله به.

فقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هل المراد به هنا طاعة التعبد، أو المراد بها عدم المخالفة، أما بالنسبة لطاعة الله فهي طاعة التعبد، والتذلل، ورجاء الثواب، والخوف من العقاب، وأما طاعة الرسول ﷺ فإنها طاعة بمعنى: موافقة الأمر سواء كان فيما يأمر به من الشرع، أو فيما يأمر به من حوائجه الخاصة؛ لأن الرسول ﷺ يوجه الأمر إلى أهله، إما على سبيل العبادة مما أمره الله به، وإما على سبيل الأمور الخاصة المتعلقة به.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ قال: [﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: نساء النبي ﷺ].

قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر يقول العلماء: معناه إثبات الحكم بالمذكور، ونفيه عما سواه، والحصر هنا: حقيقي إضافي.

والحصر أربعة أقسام: إضافي أو حقيقي أو إضافي حقيقي، أو لا إضافي ولا حقيقي.

الإضافي: هو الذي لا يكون محصورًا بحسب الواقع في هذا الشيء، والحقيقي: هو الذي يكون محصورًا في هذا الشيء بحسب الواقع، فإذا قلت: لا طالب يلتفت إلا خالد، هل هذا حصر حقيقي أم إضافي؟ ننظر إن لم يلتفت غيره فهو حقيقي، وإن التفت غيره فهو إضافي، وفائدة الإضافي: كأن هذا الرجل لكثرة التفاته، لا يلتفت أحد سواه، كما لو قلت: لا شجاع إلا خالد، فهذا الحصر إضافي؛ لأنه يوجد شجعان كثيرون غير خالد بن الوليد رضي الله عنه أما أن تقول: لا خاتم للأنبياء إلا محمد ﷺ، فهذا حصر حقيقي.

إذنْ هنا قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ هل الله - عز وجل - لا يريد بأهل البيت إلا ذلك؟

الجواب: لا، يريد الله ليذهب عنهم الرجس، ويطهرهم، وأن ينعم عليهم، وأن يغدق عليهم الفضل إلى آخره.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإرادة هنا كونية لا شرعية، وهذه هي

الفائدة من اختصاص أهل البيت بذلك، أما إرادة عدم الرجس فهي لكل أحد من الناحية الشرعية، والإرادة كما سبق لنا نوعان: إرادة شرعية وكونية، وهل هما متلازمان؟ لا، قد توجد إحداهما بدون الأخرى، وقد تجتمعان.

فما الفرق بينهما حتى نعرف اجتماعهما وافتراقهما؟

أولًا: الإرادة الكونية تتعلق فيما يحبه الله وفيما لا يحبه، والإرادة الشرعية: فيما يحبه الله فقط، فإذا قلت: يريد شرعًا، فمعناها: يحب.

ثانيًا: الإرادة الكونية: يلزم فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية: لا يلزم فيها وقوع المراد.

إذنْ الفرق من وجهين، ننظر الآن، قد تجتمع الإرادتان في شيء، وقد تنتفيان جميعًا، وقد توجد إحداهما دون الأخرى، فإذا سألنا: ما تقول في إيمان أبي بكر؟ أهو مراد لله شرعًا أم كونًا؟

الجواب:كونًا وشرعًا، كونًا؛ لأنه وقع، وشرعًا؛ لأن الله يحبه.

أما إيمان أبي لهب فهو غير مراد كونًا، ومراد شرعًا، فالله يريد منه أن يسلم.

ونقول في كفر أبي بكر: غير مراد كونًا ولا شرعًا، غير مراد كونًا: لأنه لم يقع، وغير مراد شرعًا؛ لأن الله لا يحبه.

أما كفر أبي لهب فهو غير مراد شرعًا، مراد كونًا، وأي إنسان يكفر، فقد أراد الله كفره كونًا، والأمثلة من القرآن كثيرة، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] من أي الإرادتين هذه الآية؟ من الإرادة الشرعية، لأن الله تعالى قد يعسر على الإنسان، فلو كانت إرادة كونية، لكان في الواقع تكذيب للآية، إذنْ ﴿يُرِيدُ﴾ هنا بمعنى: يحب الله بكم اليسر ولا يحب العسر، وأما كونًا فإن الله ـ تعالى ـ يريد بنا العسر، قال تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]، وقال الله ـ تعالى ـ عن هود: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، إن كان يريد الله أن يغويكم، هذه إرادة كونية؛ لأن الله تعالى لا يحب الإغواء، والدليل أنه لا يحب الإغواء قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ اللام هنا: فيها إشكال، يريد لكذا؛ لأن المعروف أن أراد تتعدى بنفسها، لكن هنا جاءت في مفعول يريد، فهل نقول: أردت كذا، أم أردت لكذا؟ الأصوب: أردت كذا.

إذنْ فاللام هنا زائدة من حيث الإعراب، والتقدير: إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس، فاللام يقول النحويون: إنها زائدة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ يقول المؤلف: [الإثم]، والصواب: أن الرجس هو النجاسة؛ لأن الرجس في الأصل النَّجس، سواء كان نجاسة معنوية، أو نجاسة حسية، فمن الرجس بالمعنى الحسي: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] هذا حسي، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، هذا رجس معنوي، هنا قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ من الرجس المعنوي طبعًا؛ لأن الرجس الحسي، ما أراد الله أن يذهبه عنهم، بل هو موجود فيهم، فهم يبولون ويتغوطون، وبولهم نجس، وغائطهم نجس، إذنْ المراد بالرجس الذي أراد الله أن يذهبه عن أهل البيت هو الرجس المعنوي، وهو السافل من الأخلاق والأعمال، قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] الرجس هنا معنوي، فكل خلق، أو عمل سافل، فإنه نجس. وقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أفادنا المؤلف، في قوله: [يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾]، أن ﴿أَهْلَ﴾ منصوب على النداء، حُذف منه حرف النداء.

وقوله: يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ لا شك أن المراد بأهل البيت نساء الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأن الآيات كلها في سياق الرسول ﷺ

وهل ينافي ذلك ما ثبت عن النبي ﷺ، من أنه وضع الكساء على عليٍّ وفاطمة، والحسن والحسين، وقال: «**هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**»؟

نقول: لا ينافيه؛ لأن هؤلاء أهل البيت، من حيث القرابة، وهؤلاء أهل البيت من حيث الزوجية، فكلهم أهل البيت بلا شك، لا آل علي فقط، بل إن آل البيت أعم من هؤلاء الأربعة؛ لأن آل البيت تشمل كل من تَحرم عليه الصدقة من بني هاشم، فدخل فيهم آل علي، وآل جعفر، وآل العباس، وآل الحارث بن عبد المطلب، وكل من كان من ذرية هاشم، فالرسول ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فكل من كان من آل هاشم، فإنه من آل البيت، لا تحل له الصدقة.

وعلى هذا نقول: إن تفسيرنا لآل البيت بأنهن زوجات الرسول ﷺ، الذي يعينه السياق؛ خلافًا للرافضة الذين أخرجوا الكلام عن سياقه، وجعلوا كلام الله - عز وجل - عضين متفرقًا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ يريد بهم: آل البيت الأربعة فقط، وأما زوجات الرسول ﷺ، فإن الله لا يريد أن يذهب عنهم الرجس، ولهذا يرمون عائشة بالفاحشة، - والعياذ بالله - ولا يبالون بذلك.

أقول: إن قوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ هنا وفي أصحاب الكساء الأربعة، وفي آل البيت الذين لا تحل

لهم الصدقة، كلها لا ينافي بعضها بعضًا، ولذلك كان القول الراجح أن زوجات الرسول ﷺ لا تحل لهن الصدقة، لقول الرسول ﷺ، «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ»[1]، وزوجاته بلا شك من آله، كما في هذا الحديث، وعلى هذا فإننا نقول: إنه لا تعارض بين الأدلة.

ونظير ذلك أن الرسول ﷺ سُئل: ما هو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال: «مَسْجِدِي هَذَا»[2] مع أن المسجد الذي أسس من التقوى على أول يوم هو مسجد قُباء أيضًا، فكل منهما أسس التقوى من أول يوم، فإن الرسول ﷺ أسس مسجده من أول يوم قَدِمَ، وكان الصحابة رضي الله عنهم كل واحدٍ يقول: النزول عندي النزول عندي، فيقول:«دَعُوْهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ» يعني: ناقته، فلما وصلت إلى مكان مسجده بركت، فزجرها النبي ﷺ فقامت ثم التفتت يمينًا وشمالًا، ثم رجعت إلى مكانها الأول فبركت، فقال النبي ﷺ:«الْمَنْزِلُ هَهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ» ثُمَّ نَزَلَ، وكان أقرب البيوت إليه بيت أبي أيوب الأنصاري، فذهب إليه، ومن حين أول يوم نزل، وهو شارع في تخطيط المسجد، ولهذا ينبغي للمسؤلين في البلديات، وفي الأوقاف، أن يجعلوا أكبر همهم في المخططات الجديدة وضع المساجد، فيُعتنى بها قبل أي شيء.

على كل حال إني أقول: إن وصف الشيء بصفة، ووصف غيره بصفة، لا يقتضي أن يكون ذلك تناقضًا، فلكل منهما له نصيب من هذا الوصف.

وقوله:﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ (أل) هنا للعهد الذهني، يعني: أهل البيت المعهود المعروف، وهو هذا البيت الطاهر بيت رسول الله ﷺ.

قال: [﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ منه]، أي: من الرجس ﴿تَطْهِيرًا﴾، و﴿تَطْهِيرًا﴾ هنا مصدر للفعل السابق، والمراد به التوكيد، كما في قوله تعالى:﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] والتطهير من الرجس أبلغ من ذهاب الرجس؛ لأنه بعد ذهاب الرجس قد يكون له أثر فإذا قال: يذهبه ويطهركم، صار ذلك أبلغ؛ لأنه يَذهبُ ذلك الرجس، ويُطَهَّر مكانه بحيث لا يبقى له أثر، ولا ريب أن بيت الرسول ﷺ أبعد البيوت عن الرجس، وأطهر البيوت من الرجس، وهذا لا يشك فيه مؤمن أبدًا، وكل من قَدَحَ في بيت الرسول ﷺ - في زوجاته - فإنه يعتبر قادحًا في الرسول ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُولَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

ونحن نعلم علم اليقين أن الله - عز وجل - ما كان ليختار لنبيه إلا أفضل نساء العالمين، بلا شك، وقد ثبت في كتاب الله براءة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم ممن انخدعوا من المسلمين - عفا الله عنهم -.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٧٢)، وأبو داود (٢٩٨٥)، والنسائي (٢٦٠٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٩٨)، والترمذي (٣٠٩٩)، والنسائي (٦٩٧).

وقد قال الله - عز وجل - في حادثة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٥، ١٦] يعني: هلا إذ سمعتموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يعني: يمتنع غاية الامتناع ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦] انظر كيف قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أين التنزيه في هذا الأمر؟ يعني: ننزهك يا ربنا أن يقع ذلك في إحدى أمهات المؤمنين - زوجات خاتم النبيين - ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني: تنزيهًا لك أن يقع مثل هذا في زوجات نبيك، - عليه الصلاة والسلام - هذا التأكيد العظيم، نرى الآن ممن ينتسبون إلى الإسلام، وهم بريئون منه، والإسلام منهم براء، يقولون: إن عائشة، - والعياذ بالله - بغي، ومع ذلك قد برأها الله - تعالى - في القرآن الكريم.

فمن قذف واحدةً من زوجات الرسول ﷺ عائشة أو غيرها، فهو كافر بلا شك، ويجب أن يقتل ولو تاب، وإن تاب توبة نصوحًا، فبينه وبين الله، لكن نحن علينا أن نَغار على رسول الله ﷺ، وأن نقتل هذا الذي قذف واحدةً من أمهات المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ الأمر هنا للإرشاد، وبيان المنة، والفضل من الله تعالى عليهن، ويحتمل أن يكون المراد به: تذَكَّرْن وتدبرن هذا الأمر، واعرفن ما فيه من فضل الله عليكن.

وقوله: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ ﴿يُتْلَىٰ﴾ بمعنى: يُقرأ، والتلاوة نوعان: تلاوة لفظية، وتلاوة معنوية، فإذا قلت: تلا كتاب الله حتى أكمله، فالمعنى: اللفظية، وإذا قلت: سجدة التلاوة، فهي التلاوة اللفظية، أما التلاوة المعنوية فهي اتباع القرآن، فتلاه يتلوه، إذا اتبعه، فالتلاوة المعنوية بمعنى: اتباع القرآن في عقائده، وفي أخلاقه، وفي أعماله، هذه التلاوة، فأيهما المقصود الأعظم؟

المقصود الأعظم: هو التلاوة المعنوية، والتلاوة اللفظية لا شك أنها مقصودة، وأن من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به عشر حسنات، لكن المهم هو التلاوة المعنوية فقد قال الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ آيات الله لا شك أنها القرآن، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فالآيات، آيات الله هي القرآن، والآيات هنا المراد بها الشرعية، فإن آيات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وهي ما خلقه الله تعالى ويخلقه في هذا الكون، فإن كله آيات علامات على خالقه - عز وجل - لما فيه من بديع الصنعة والنظام الحكيم البالغ، الذي لا يتناقض ولا يتنافر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وإذا ذهب كل إله بما خلق، لم يكن الكون منتظمًا؛ لأن كل إله يخلق على ما يريد، ثم لابد من علو

أحدهما على الآخر؛ لأنهما إن تمانعا، وعجز كل واحد منهما عن الآخر، لم يصح أن يكونا إلهين، وإن غلب أحدهما الآخر، فالمغلوب لا يصح أن يكون إلهًا، وحينئذٍ، تكون الدلالة العقلية على أنه لابد من إله واحد فقط، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

المهم: أن الآيات الكونية، هي كل ما يخلق الله في الكون، أما الآيات الشرعية فهي ما جاء به الرسل من الوحي، وسميت آيات؛ لأنها علامات على مشرِّعها ومنزلها، لما فيها من انتظام المصالح، وانتفاء المفاسد، فإن الشرع كله تحصيل للمصالح، وتقليل للمفاسد، ولذلك ما من شيء يتضمن مصلحة راجحة أو خالصة إلا أَمر به الشرع، وما من شيء يتضمن مفسدة خالصة، أو راجحة، إلا نهى عنه الشرع، لكن من المصالح، ما ندركه بعقولنا، ومنها ما لا ندركه، لكننا نعلم علم اليقين أن مقتضى حكمة الله ـ عز وجل ـ، والذي من أسمائه الحكيم، أنه لا يمكن أن يأمر إلا بما فيه مصلحة، إما خالصة، وإما راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة، إما خالصة وإما راجحة، ولهذا سميت الكتب النازلة من السماء آياتٍ؛ لأنها علامات على من شرعها ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى من أنزلها، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ما يجدوا الاختلاف فيه مرة، أو مرتين، أو ثلاثًا، بل اختلافًا كثيرًا وتناقضًا كثيرًا.

وهنا مسألة خارجة عن الموضوع بدأ الناس يفعلونها، وهي أنهم يقسمون بآيات الله، فيقولون: قسمًا بآيات الله ما كان كذا وكذا، أو قسمًا بآيات الله لأفعلن كذا وكذا، فماذا في هذا القسم؟

نقول: فيه تفصيل، فإن قصد الآيات الكونية، فهو حرام؛ لأنه حلف بغير الله، إذا حلف بالمخلوقات، وإن أراد بذلك الآيات الشرعية، فهو حلف بكلمات الله، والحلف بكلمات الله جائز؛ لأن كلمات الله من صفاته، فما هو الغالب على العامة حين يقسمون هذا القسم؟

الغالب فيما أظن: أنها الآيات الشرعية، فإنهم لا يريدون قسمًا بآيات الله، قسمًا بالشمس، وبالقمر، وبالنجوم وبالنهار، هم لا يقصدون هذا، بل يريدون بذلك القرآن، وحينئذٍ يكون هذا القسم جائزًا باعتبار الدلالة العُرفية على المراد به، أما لو نظرنا إلى لفظه فلابد من التفصيل.

والحكمة التي ذُكرت في الآية قال المؤلف: [السنة]، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، والأصل في العطف المغايرة، وإلا فلقائل أن يقول: إن القرآن الكريم، قد تضمن الحكمة، فيكون تعليم القرآن، تعليم الأحكام، وتعليم حكم الأحكام؛ لأن معرفة أحكام الشريعة أمر عظيم جدًّا، فالإنسان إذا عرف الأحكام الشرعية، يستنير قلبه أكثر، ويقتنع بالأحكام الشرعية أكثر، ويعرف من صفات الله ـ عز وجل ـ وحِكمه ما هو أكثر، ويستطيع أيضًا أن يقنع

الخصم؛ لأن الخصوم، لو قلت لهم مثلًا: هذا حرام؛ لأن القرآن حرمه، فهو قد لا يكون ممن يؤمن بالقرآن أو يطمئن إليه، لكن إذا كان لديك معرفة بحِكَم الشريعة، أمكنك أن تقنع هذا الشخص.

ولهذا فمعرفة الحكمة ـ أي: حكمة الشرع ـ مهمة جدًّا، بل إن غالب القياس إنما جاء من معرفة الحكمة؛ لأنه إلحاق فرع بأصلٍ في حكم لعلةٍ جامعة.

وعلى هذا فربما يقول قائل: إن المراد بالحكمة: ما يعلم من أسرار أحكام الشريعة، وحكمها. ولكن أهل العلم من السلف وأئمة الخلف، فسروا الحكمة بأنها السنة.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ ﴿لَطِيفًا﴾ قال المؤلف: [بأوليائه، ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه]، واللطيف فسره أهل الباطل بأنه الذي لا يُدرَك لصغره، وكذبوا، وفسره أهل السنة فقالوا: إن اللطيف جاء في كتاب الله معدًى باللام، ومعدًى بالباء، فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ عُدِّي الباء [الشورى: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] عدي باللام.

وعلى هذا يكون اللطيف له معنيان:

أحدهما: اللطف للعبد، وهو أن الله ـ عز وجل ـ يقدر له مواقع الإحسان بمعنى: أنه يلطف به فييسر له الأمر، ويسهله عليه.

الثاني: اللطيف به أي: بالعبد فهو بمعنى إدراك الأمور الخفية؛ لأن اللطيف معناها: الذي يدرك ما لَطُفَ، فمعنى ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: مدرك لما خفي من أمورهم، ولهذا جمع الله بينهما فقال: ﴿لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ والخبير، قال العلماء: هو العالم ببواطن الأمور، يقول ابن القيم في «**النونية**»، وهي من أحسن ما نُظم في التوحيد وأجمعه:

وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِحِكْمَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ

فهذا معنى اللطيف، فصار اللطيف له معنيان: اللطيف للعبد، واللطيف به، واللطيف به بمعنى الخبير ببواطن أموره، وما لطف من أمره والذي يقدر له من أسرار حكمته، أو من أسرار إحسانه وفضله، ما لا يدركه بعقله.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

١ ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: وجوب قرار المرأة في بيتها، أو نقول مشروعية القرار؛ لأن وجوب القرار، يخالفه ما جاء في السنة من الإذن للنساء بالخروج، لكن بدون تبرج،

وعلى هذا فنقول مشروعيته؛ لأن كلمة مشروعية تتسع للواجب والمستحب.

٢- **ومن فوائد الآية**: أن بيوت أزواج النبي ﷺ مُلك لهن، لقوله: ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾.

فإن قال قائل:الإضافة هنا للاختصاص وليست للتمليك، كما تقول: السرج للدابة، والمِقْود للبعير، وهل هي تملكه؟ لا، إذن فبيوت النبي له ﷺ.

نقول: إن الواقع يخالف ذلك؛ لأن هذه البيوت لو كانت للرسول ﷺ، ما بقيت مع أمهات المؤمنين بعد موته، إذ إن النبي ﷺ لا يُورث.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الفائدة المأخوذة من الإضافة في قوله: ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، فإن فيها الإغراء على لزوم البيت؛ لأنه بيتها وسترها، يعني: كلمة ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، أبلغ من كلمة وقرن في البيوت، فكأنه يقول: هذا البيت ما بني إلا سترًا لكِ وصونًا، فالزمي هذا البيت الذي من أجلك بُني.

٤- **ومن فوائدها**: تحريم تبرج الجاهلية، لقوله:﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: جواز التبرج إذا كان مبنيًّا على العلم والسُّنة؛ لأن المنهي عنه هو تبرج الجاهلية، ولهذا يجوز للمرأة أن تتبرج في بعض المواضع، وليس حرامًا عليها كلُّ تبرج.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ذم الجهل، لقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، فإن نسبة هذا إلى الجهل، لا شك أنه يراد به التنبيه.

٧- **ومن فوائدها**: مدح ما كان مبنيًّا على العلم؛ لأن ذمَّ الضد يدل على مدح ضده، كما قيل: (وبضدها تتبين الأشياء)، فإذا كان التبرج مبنيًّا على الجهل كان مذمومًا؛ لأن ما بني على العلم ليس بمذموم.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي عند الإغراء أو التحذير، أن يذكر كل وصفٍ يستلزم الإغراء والتحذير، لقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. والأولى كما قلنا هي الأولى نوعًا.

٩- **ومن فوائدها**: وجوب إقامة الصلاة على النساء، كما هو واجب على الرجال، لقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ووجوب الزكاة؛ لقوله: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، من الموانع عن المحرمات؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾، فدل هذا على أن من أسباب عدم التبرج إقامة الصلاة، ولا ريب في هذا؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ويقول تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، تؤخذ من الأمر بهذا، ثم قال بعد ذلك:﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وطاعة الله ورسوله يدخل فيها إقام الصلاة وإيتاء

الزكاة، فالنص على بعض أفراد العام، يدل على العناية به، سواء تقدم الخاص، أو تأخر، فمثلًا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [الحج: ٧٧]، هذا تقدم الخاص على العام، وقوله: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ ثم قال: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾. وقوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] هذا من باب تقدم العام على الخاص، وسواء تقدم العام على الخاص أو تأخر، فإنه يدل على العناية بالخاص، ولهذا نص عليه من بين أفراد العام.

١٢- **ومن فوائدها:** وجوب طاعة الله ورسوله، لقوله: ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١٣- **ومن فوائدها:** أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، للعطف بالواو الدالة على الاشتراك، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

١٤- **ومن فوائدها:** أن الله ـ عز وجل ـ أراد بحكمته البالغة، أن يُذهب الرجس عن آل البيت، لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخضوع بالقول، وتبرج الجاهلية من الرجس، وأن القرار في البيوت، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، من أسباب زوال الرجس؛ لأن ما تقدم أوامر ونواهٍ، بيَّن الله أنه إنما أمر بها ونهى عنها من أجل أن يُذهب عن هذا البيت الرجس.

١٦- **ومن فوائدها:** أن زوجات الإنسان من آل بيته، فإذا قال: هذا وقف على آل بيتي، شمل النساء، وإذا قال: في الأضحية: اللهم هذا عني وعن أهل بيتي، شمل النساء؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل زوجات الرسول ﷺ، من آل بيته.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تفخيم هذا البيت، وتعظيمه، لقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ لأن (ألـ) للعهد الذهني، كأن هذا البيت معهود معلوم بأذهان الناس، لا يغيب عنها، لما لهذا البيت من المكانة الرفيعة، والخصلة الحميدة.

١٨- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله أراد أن يذهب الرجس، وأثر الرجس أيضًا، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾، وهذا فوق ذهاب الرجس؛ لأننا لو ضربنا هذا بمثال حسي وقلنا: إن هذا الثوب تلطخ بنجاسة، فحككنا هذه النجاسة حتى زالت عينها، فهذا يسمى إذهاب الرجس، فإذا صببنا الماء، حتى نظف المكان تمامًا، وزال الأثر، صار ذلك تطهيرًا، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، في دعاء الاستفتاح «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ**

بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ»[1] فذكر المباعدة، أولًا قبل التلبس بالخطيئة، ثم ذكر التنقية من الخطيئة بعد التلبس بها، ثم ذكر أبلغ من ذلك، وهو الغَسْلُ، أي: غسل هذه الخطيئة وآثارها بالماء، والثلج والبرد.

والحاصل أننا نقول: إن قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هذا فوق إذهاب الرجس.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

٢٠ - ومن فوائدها: أن البيت المطهر من الرجس، سواء كان بيت الرسول ﷺ، أو غيره من البيوت يعتبر من أفضل البيوت، ويعتبر تطهيره من أكبر النعم عليه، وهذا يؤخذ من أن الله امتن بذلك على آل بيت الرسول ﷺ، وهذا شيء معلوم في الناس، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فمن الناس معدن خبيث، ومن الناس معدن طيب، ولهذا لو أن أحدًا تلبَّس برجس من الأرجاس، وهو من حمولة طيبة، من قبيلة طيبة مثلًا، فالناس يستغربونه، ويستنكرونه، ويرون هذا أشد، لكن لو أن هناك أحدًا تلبس برجس من الأرجاس، وهو من قبيلة معروفة بذلك، فالناس لا يستغربون، بل يقولون: إن الغصن من الشجرة، وما هو بغريب أن يفعل هذا الفعل؛ لأن آباءه، وإخوانه، وأعمامه، وما أشبه ذلك فعلوا مثله، ولا شك أن الله إذا منَّ على آل بيت من البيوت بالتطهير والكرم، والنظافة والنزاهة، فإن ذلك من نعمة الله عليه.

واعلم أن الله قد يجعل على يد الشخص الواحد طهارة كل قبيلته، كما هو مشاهد، يخرج رجل واحد صالح مصلح ينذر عشيرته الأقربين، ويحرص على دعوتهم إلى الحق، فيصلح الله تعالى على يديه كل قبيلته، إذا جاء ذلك بإخلاص، وامتثال لأمره ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولكن! الإنسان الآن لا يتفقد أهله الذين في بيته، ولا يتفقد قرابته الذين هم خارج بيته، هذا هو الواقع؛ لأن الناس الآن غاية ما يتواصلون به ـ إن تواصلوا ـ في الأمور الدنيوية، لكن هدايا الدين، ما أقلهم، وإن كان ـ والحمد لله ـ يوجد ـ من إذا رأى في بيت أقرابه ما يكره، ينصحهم ويرشدهم، ويبين لهم ذلك، وربما بعض الناس يهجرهم، فما يذهب إليهم، كل هذا من أجل الحرص على تقويمهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

١ - يستفاد من هذه الآية: تذكير أمهات المؤمنين بهذه النعمة العظيمة، لقوله:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن مَنْ أعطاه الله علمًا، كان طلب الاستقامة منه أوكد وأوثق، إذا أتى الله الإنسان علمًا، فإنه يطلب منه من الاستقامة أكثر ممن لم يؤت علمًا؛ لأنه قال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى﴾، فليس عليكن قاصر في العلم، بل إن العلم يُتلى في بيوتكن.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن البيت الذي يُتلى فيه كتاب الله خير من البيت الذي لا يتلى في كتاب الله، لقوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»[1] يعني: لا تجعلوها مثل القبور، وفي الحديث: «أَفضلُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةَ»[2]، وكان من هدي الصحابة رضي الله عنهم أنه يسمع لبيوتهم من تلاوة كتاب الله دويٌّ كدوي النحل، من قراءة كتاب الله تعالى في البيوت.

٤- ومن فوائدها: أن القرآن من آيات الله، لقوله: ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، وقد سبق في التفسير بيان كونه من آيات الله - عز وجل - لما يتضمن عليه من المصالح، والحِكَم والأسرار.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا قرنت الحكمة بالكتاب، فالمراد بها السنة؛ لأن السنة - أيضًا - تتضمن الحكمة، والله - عز وجل - لم يصف السنُّة بالحكمة؛ لأن القرآن ليس فيه حكمة، ولكن لما كان القرآن من عند الله، وهو وكلام الله، فإن احتمال ألا يتضمن الحكمة بعيد جدًا، لكن لما كانت السنة من كلام الرسول ﷺ، فإن كلام البشر قد يردُ عليه احتمال ألا يكون مشتملًا على الحكمة، فبيَّن الله - عز وجل - أن السنة حكمة، وإن كانت من كلام الرسول ﷺ، أو من فعله، فإنها حكمة؛ لأنها موافقة للصواب.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: اللطيف والخبير.

٧- ومن فوائدها: أن ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ مسلوبة الدلالة على الزمان، وإنما يراد بها: اتصاف المبتدأ، أو الاسم بالخبر، بقطع النظر عن الزمان، إذنْ الفائدة منها: تحقق الاتصاف بهذا الوصف، يعني: قد تحقق ذلك في حقه، وهو أنه - سبحانه وتعالى - لطيف خبير.

٨- ومن فوائدها: ما تضمنه هذان الاسمان من صفات الله - عز وجل - من اللطف والخِبرة.

٩- ومن فوائدها: أن فيها ردًّا على هؤلاء الذين ينكرون السنة، ويقولون: إننا نأخذ بالكتاب فقط، وفيه رد على آخرين يقابلونهم، يأخذون بالسنة، ولا يأخذون بالقرآن، لأنه يوجد أناس الآن يعتنون بالسنة، اعتناءً عظيمًا، حتى إنهم يغوصون على أشياء قد لا تكون صحيحة، ويأتون بها،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، و صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

لكن لو تخاطبهم في القرآن لا يعرفون شيئًا في القرآن، لا في تفسيره، ولا في إعرابه، ولا في شيء منه أبدًا ، بينما هم في السنة، يذهبون ليلهم ونهارهم في ذلك، وهذا خطأ، لأنه أول ما يجب، أن نتعلم القرآن، ثم بعد ذلك السنة؛ لأن القرآن هو الأصل.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]

التفسير

إن القرآن الكريم في غالب ما يتحدث عن الأحكام الجزائية، والأحكام العملية، أكثر مما يتحدث مخاطبًا الرجال؛ لأن الرجال أشرف من النساء، ولأن الرجال قوامون على النساء، فإذا صلح الرجال، صلحت النساء؛ ولأنه إذا اجتمع جنسان، فإنه يغلب أشرفهما وأعلاهما، فلهذا أكثر الخطابات الواردة في القرآن، توجه إلى الرجال، لهذه الأسباب الثلاثة ولغيرها، لكن في بعض الآيات تذكر الأحكام للرجال والنساء، إما على سبيل التفصيل، والتوفيق وإما على سبيل الإجمال، مثال الأول قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ومثال الثاني، قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فإن في هذا إجمالًا: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾.

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن الله تعالى إذا تكلم إنما يتكلم عن الرجال، ولا يذكر النساء، فأنزل الله هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ هذه «إن» التوكيدية، التي تنصب المبتدأ وترفع الخبر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تقديم الذكور يدل على شرف الذكور، وهذا أمر لا يمتري فيه عاقل، لكن لما جاء الغرب الخبيث القبيح المقلوب فطرة، ودينًا، وصار يقدم النساء من أجل إثارة الفتنة بهن، وتشريفهن على الرجال، تبعه الذين يتبعون صيحة كل ناعق، وصاروا يقدمون النساء على الرجال، حتى كانوا لا يُطلقون على النساء إلا كلمة السيدات، يعني: أنهن سيدات للرجال، فقلبوا الحقائق والأوضاع؛ لأن الله - تعالى - قد قلَب فِطَرَهم، فعبدوا المادة دون خالقهم، وكذلك تصرفوا في تصرفاتهم هذه، فيجب على المسلمين الحذر والتنبه من مغالطات أولئك الكفرة، لا في هذا ولا في غيره، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ودينهم - والحمد لله - قد بيَّن الله في هذا الكتاب كل شيء.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الإسلام في أعمال الجوارح الظاهرة، لأنه يراد به أن يستسلم الإنسان لله ظاهرًا بجوارحه، بلسانه، بيديه، برجليه، بعينيه، بأذنيه، هذا الاستسلام الظاهر يسمى إسلامًا، وقد يقع من غير المؤمن، فقد يقع من المنافق، وقد يقع من ضعيف الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وهذا الإسلام مرتبته دون الإيمان؛ لأنه يقع من المؤمن حقًا، ومن المنافق، ومن ضعيف الإيمان، لأن الاستسلام لله بالجوارح الظاهرة.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا الاستسلام لله يكون باطنًا، وذلك بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ولسنا بحاجة إلى تفسير أحد للإيمان بعد أن فسره النبي ﷺ، حين سأله جبريل: «مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وأَنْ تُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وتفاصيل هذه الجملة قد تكلمنا عليها مرارًا، وليس هذا موضع بسطه.

إذنْ فالإيمان هو الاستسلام لله باطنًا، بحيث يؤمن الإنسان بما يجب الإيمان به، وهو الإيمان بالله وملائكته... إلى آخره، والإيمان أعلى من الإسلام، لأن الإيمان يستلزم الإسلام، ولا عكس، فكل مؤمن، لابد أن يكون مسلمًا، لأنه إذا صَلَح القلب، صلحت الأعضاء، كما قال النبي ﷺ: **«أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْب»**(٢).

لكن بعض الناس يعمل المعاصي، ويحتج بقول الرسول ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وإذا قلت له:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).

يا أخي اتق الله، صَلِّ، اتق الله، لا تحلق اللحية، اتق الله، اترك الغيبة، وما أشبه ذلك، يقول لك التقوى هاهنا، فكيف نرد عليه؟ نقول له: لو اتقى ما هاهنا لاتقى ما هاهنا، يعني لو اتقى الباطن، لاتقى الظاهر، لأن الرسول ﷺ، يقول: «إذا صَلَحَتْ صَلَحَ»، فجعل الأمر جملةً شرطيةً، والمعروف في اللغة، والعرف، والشرع: أن الجملة الشرطية، يتحقق فيها المشروط، إذا تحقق الشرط.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لم يشرحها المؤلف.

وقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ يقول المؤلف: [المطيعات]، الله يغفر له، كان عليه أن يقول: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المطيعين، وسيُعلم بمقتضى الفهم أن القانتات أيضًا مطيعات.

والقنوت: ليس مطلق الطاعة، كما يفهم من كلام المؤلف، ولكنه الطاعة بدوام، وذل وسكون، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ولما نزلت هذه الآية، أُمروا بالسكوت، ونُهوا عن الكلام، فدل هذا على أن القنوت ليس مجرد فعل الطاعة، بل هو طاعة مع ذل وخضوع ودوام.

والقنوت أعلى مما سبقه، لأن القانت معه الإيمان والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

قال الله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [في الإيمان]، والصدق هو الإخبار بما يطابق الواقع، هذا الأصل في معنى الصدق، مثل أن أقول لك: إن هذه المروحة تعمل ـ هذا صدق ـ؛ لأنه إخبار بما يطابق الواقع، ولو قلت: إن هذه المروحة لا تعمل، لم يكن صدقًا، لأنه إخبار بما يخالف الواقع، ولكن الصدق، هل هو في القول فقط، أو يكون الصدق في القول والعمل والعقيدة؟

الجواب: الأخير، يكون الصدق في القول، والعمل، والعقيدة، يكون الصدق في العقيدة: بأن يكون الإنسان صادق الإخلاص لله ـ عز وجل ـ في كل أعماله، صادق العقيدة، بحيث تكون مطابقة لما جاء به الشرع، ويكون الصدق كذلك في الأقوال: بألا يقول إلا صدقًا، وإن كان الأمر عليه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وانظر إلى نتيجة الصدق في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا عن تبوك، والمنافقون كانوا يأتون للرسول، ويقولون لنا عذر، ولنا عذر، فيستغفر لهم، ويَكِل سرائرهم إلى الله، لكن هؤلاء صدقوا، فخلفوا عن الحكم عليهم بما حكم على المنافقين، وليس المراد أنهم خُلفوا عن الغزوة، ولو كان كذلك لقال: الذين تخلفوا، وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، هؤلاء صدقوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأشد من تكلم، وأبين من تكلم من هؤلاء الثلاثة كعب بن مالك، لأنه أشدهم رضي الله عنه، تكلم كلامًا عجيبًا،

ويحسن مراجعة قصتهم[1]، لأنها في الحقيقة تزيد في الإيمان؛ لأن هؤلاء صدقوا فكانت نتيجة صدقهم، أن الله أنزل فيهم كتابًا، يتلى إلى يوم القيامة في مدحهم، والثناء عليهم، حتى قال الله للناس كلهم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أما الآخرون، قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥]، انظر الفرق بين الأمرين، هؤلاء كذبوا، فأُرجسوا - والعياذ بالله - وهؤلاء صدقوا فرفعوا، «**فَعَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**».

فالمهم: أنَ الصادقين، والصادقات نقول: في الإيمان، والقول، والعمل، والصدق في العمل أن يكون مطابقًا للباطن، فلا تعمل رياءً ولا سُمعةً، ولا مصانعة، ولا مجاملة، ولا لأجل شيء من الدنيا، مثال ذلك: رجل أخرج من جيبه ألف درهم وتصدق بها؛ لأن الناس يشاهدونه، فقال: أريد أن يقول الناس ما أكرم فلان، هل صدق في فعله؟ والظاهر في فعله أنه لله، صادق، لكن حقيقة أمره العكس فكان كاذبًا.

ومن الصدق في الأعمال: متابعة الرسول ﷺ، فإنها دليل على صدق محبة الإنسان لله، ورسوله قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فصار الصدق في العقيدة، وفي القول، والعمل، وما هو الصدق في الأصل؟ إذا قال لك إنسان قد طلع الفجر، فنظرت فإذا الفجر طالع، فقال لك آخر: إن الفجر لم يطلع، فنظرت فإذا هو طالع، إذنْ ما هو الصدق والكذب؟ الصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، والصدق في العقيدة: هو الإخلاص لله، وأن يكون ما يعتقده مطابقًا لما جاء به الشرع، والصدق في القول: هو الإخبار بما يطابق الواقع، ولو كان على نفسك، يقول واحد: إن الكذب منجا، فإذا فعلت جريمة، وسألك أحدٌ، فقلت: ما فعلت، تنجو، قال له الثاني: لكن الصدق أنجى، فأيهما أصح؟ الأخير، أنت إذا كذبت، وقُدر أنك نجوت، فإن العاقبة وخيمة، لكن إذا صدقت، وقُدر أنك عوقبت، فإن العاقبة حميدة. والصدق في العمل: أن يكون مطابقًا لما في الباطن في القلب، بحيث يتطابق الظاهر والباطن.

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ لما كان الصدق قد يترتب عليه من مجاهدة النفس ما يترتب؛ لأن إخبار الإنسان بالصدق، ولاسيما عن نفسه أمر صعب، أعقبه بذكر الصبر، كأنه يقول: اصدق واصبر على صدقك، والصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: وُكل صبرًا يعني: حبسًا، وفي الشرع: حبس النفس عن الكراهة لحكم الله - عز وجل -، والتضجر منه، فقولنا:

(١) والقصة أخرجها البخاري (٤٤١٨)، و مسلم (٢٧٦٩).

(لحكم الله) يشمل الحكم الكوني، والحكم الشرعي، وهذا التعريف يشمل أنواع الصبر الثلاثة التي تكلم عليها أهل العلم، حيث قالوا: إن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عَنْ معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فنحن إذا قلنا حبس النفس التسخط والكراهة لحكم الله، يشمل الأنواع الثلاثة.

ونقول: إن الكوني يتعلق بالصبر على أقدار الله، والشرعي يتعلق بالصبر على طاعة الله، وعن معصيته. والصبر على طاعة الله، هو أعلى أنواع الصبر؛ لأنه صبر النفس على عمل وحركة وتعب، والصبر عن معصية الله دونه في المرتبة؛ لأن فيه حبسًا للنفس عما تشتهيه، من أجل أنه معصية لله - عز وجل -، لكن هل فيه عمل كالصبر على طاعة الله؟ ليس فيه عمل، ما فيه إلا كف النفس عن هذا المحرم، وبهذا تميز الصبر على طاعة الله عن الصبر عن معصيته؛ لأن في كل منهما جهادًا للنفس، لكن الصبر على الطاعة فيه تكليف النفس بالعمل، وهذا ليس فيه تكليف للنفس على العمل، ولكن فيه الكف عن معصية الله؛ ولهذا كان دون الأول في المرتبة، ولكننا نحن نقول دون الأول في المرتبة، باعتبار نفس النوع، لا باعتبار الصابرين، لأن بعض الصابرين يعاني من المشقة من الصبر على معصية الله، أكثر مما يعاني من الصبر على طاعة الله.

فلو فرضنا أن رجلًا تساوره نفسه، وتدعوه إلى فعل الفاحشة بضغط شديد، ولكنه عندما يصلي، يجد نفسه مستريحًا دون معاناة، ولا مشقة، لا شك أن معاناته الأولى أشد، ولكن نحن نتكلم عن أنواع الصبر من حيث هي نوع، بقطع النظر عن الصابر، وما يتعلق بحاله.

أما القسم الثالث: فهو صبر على أقدار الله المؤلمة، وهذا أدنى أنواع الصبر، لأنه صبر على ما لا فعل للإنسان فيه، صبر على فعل ليس من فعله، ولا من مقدوره، لكن الصبر على الطاعة، وعن المعصية من مقدوره، لكن الصبر على أقدار الله ليس من مقدوره، فهو صبر على أمر ليس بمقدوره، لهذا كان أدنى منه، ولهذا قال بعض أهل السلف في المصاب: (إِمَّا أَنْ يَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامْ، أَوْ يَسْلُوْ سُلُوَّ البَهَائِمِ)، وهذا صحيح، من منا لم يصب ببدنه، أو أهله أو ماله، ثم تكون المصيبة عظيمة جدًّا، وبعد مضي مدة من الزمان ينساها، كأنها ليس بشيء، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى**»(١) هذا حقيقة الصبر، أما بعد ذلك تبرد النفس، وتتلهى بما يحدث لها من شئونها بحياتها، حتى تتسلى، وكأن شيئًا لم يحدث.

إذنْ الصبر ثلاثة، الأول: على طاعة الله، والثاني: عن معصية الله، والثالث: على أقدار الله، فصبر أيوب عليه السلام على ما مسه من الضر من باب الصبر على أقدار الله، وصبر يوسف عن فعل الفاحشة في امرأة العزيز صبر عن معصية الله، وصبر يوسف على ما ناله من ألم السجن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٨٣)، و مسلم (٩٢٦).

وأذيته، صبر على أقدار الله المؤلمة، لكن هل ليوسف صبر على طاعة الله؟ نعم دعوته لأهل السجن إلى عبادة الله، وإلى توحيده، من الصبر على طاعة الله، فاجتمع في حقه أنواع الصبر الثلاثة، وهكذا تكون أنواع الصبر الثلاثة لكثير من عباد الله، فالرسول ﷺ صبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره، وهذا شيء كثير.

إذنْ الصبر هل هو واجب أو مستحب؟ الصبر واجب، لأننا قلنا: الصبر حبس النفس عن التسخط والكراهة لأحكام الله، ما قلنا لشريعة الله، فالصبر إذنْ واجب، وفيه أجرٌ كثير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ولهذا قال الله في الصوم: «كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلاَّ الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(١)؛ لأن الصوم حقيقةً اجتمع فيه أنواع الصبر الثلاثة، فهو صبر على طاعة الله، وصبر عن معصيته، وصبر على أقداره المؤلمة، صبر على طاعة الله؛ لأنه صبر على الصوم، وحبس نفسه على الرضا به فصام، وصبر عن معصية الله، لأن الصائم مأمور أن يجتنب أشياء كثيرة، فاجتنب، وصبر على أقدار الله، لأنك إذا صمت جعت وعطشت وتألمت من هذا الجوع والعطش؛ إذنْ ففيه صبر على أقدار الله المؤلمة، وبذلك يكون الصوم يشمل أنواع الصبر الثلاثة.

قال المؤلف: [﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الطاعات]، أقول في هذا نقص، والصواب: الصابرين على الطاعات وعن المعاصي، وعن أقدار الله المؤلمة، لأن حكم الله عام أعم مما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لطيفة: من يقول: أنا صابر، ثم لا يصبر، فإنه لا ينال تلك المرتبة، ولهذا كان الرسول ﷺ يناله من أقدار الله المؤلمة أكثر من غيره، كما ثبت: «إِنَّهُ يُوْعَكُ كَمَا يُوْعَكُ الرَّجُلَانِ»(٢)، بمعنى أنه يصاب بالحمى، كما يصاب الرَّجلان، وفي سَكَرَاتِ الموت شُدِّد عليه، من أجل أن تتم له مرتبة الصابرين، حتى ينال أعلاها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ يقول المؤلف: [المتواضعين]، فالخاشع المتواضع المتطامن، وضده المتعال المستكبر، فالخُشوع إذنْ: تطامن وخضوع، وتواضع، وهو من أعلى مراتب الإيمان، ومن أكمل أحوال القلب، والخشوع له مواضع منها: الخشوع في الصلاة، وفسره العلماء بأنه: سكون في القلب يتبين على الجوارح.

وبعضهم قال: معنىً في النفس، يظهر منه خشوع الأطراف، فهو في القلب، ويظهر أثره على الجوارح، ولهذا يروى عن عمر، أنه رأى رجلًا يعبث بلحيته، وهو يصلي، فقال: (لو سكن قلب هذا، لسكنت جوارحه)، وقد روي مرفوعًا ولا يصح، وإنما هو عن عمر، على ما فيه من ضعف عنه، فالخشوع في الصلاة: هو سكون القلب الذي يظهر أثره على الجوارح، أو معنى يقوم في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٠٤)، و مسلم (١١٥١).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، و مسلم (٢٥٧١).

النفس، يظهر منه سكون الأطراف، وهناك - أيضًا - خشوع في بقية الطاعات، بأن يؤديها الإنسان، وهو متواضع متطامن لله - عز وجل -.

ومنه ما حصل لرسول الله ﷺ حين فتح مكة، وانتصر على أهلها، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يدخل دخول العال المستكبر، وإنما دخل مطأطأً رأسه، خاضعًا لله - تبارك وتعالى -.

ومنه أيضًا: الخشوع في الحج والعمرة، حيث يؤديها الإنسان بتطامن وذل، وهو يعتقد أنه يعبد الله، فأنت إذا دخلت في العمرة أو الحج، فاعتقد أنك في عبادة، من حين أن تقول: لبيك اللهم لبيك إلى أن تنتهي، ولكننا مع الأسف الشديد لا نشعر بهذا، فتجد الإنسان يتلبس بمحظورات الإحرام، وبغيرها من المحرمات، وليس عنده ذلك إلا من شاء الله.

إذنْ الخشوع يشمل جميع الطاعات، بأن يؤديها الإنسان بتواضع، وذل، وتطامن، ليس في قلبه استكبار، ولا عُجب.

ولا فرق في هذا بين أن يكون الخشوع أثناء فعل العبادة، أو بعد فعل العبادة - أيضًا -؛ لأن من الناس من يخشع في العبادة، لكن إذا انتهى منها رأى نفسه في درجة عالية، وأنه مرتفع، وأنه نال درجة ما نالها غيره، وهذا من الإعجاب بالنفس وبالعمل، فالإنسان ينبغي له إذا أدى العبادة، أن يكون كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، إن نظروا إلى تقصيرهم خافوا، وإن نظروا إلى فضل الله طمعوا.

وقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ﴾ المتصدقين: أي الباذلين للصدقة، والصدقة هي بذل المال تقربًا إلى الله - عز وجل -، ويشمل الزكاة، فإنها أعلى الصدقات، ويشمل بذل التطوع، كصدقة التطوع، وكالإنفاق على الضيف، وعلى الأهل، وعلى النفس، كل هذا من الصدقة، فما يجعله الإنسان في فم امرأته من الصدقة، وما يأكله من الصدقة، كل شيء من المال تبذله لله - عز وجل - فهو من الصدقة.

وقد يقال: إن المتصدقين أعم من الباذلين لمالهم فيما يرضي الله - عز وجل -، فيشمل فعلَ كل خير؛ لأن الرسول ﷺ، يقول: «**كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، أَوْ تَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَحْمِلُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»(١)، فإذا أخذنا بهذا العموم صار المتصدقون والمتصدقات، يشمل من قام بأي طاعة من طاعات الله - عز وجل -، ولكنه من المعروف: أن المتصدقين، والمتصدقات يتبادر إلى الذهن أنهم الباذلون لمالهم فيما يرضي الله - عز وجل -.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، و أبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).

وقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ لا حاجة بنا إلى التطويل في تفصيل الصدقات، وما ينبغي للإنسان أن يتصدق به، وهل يجوز أن يتصدق بكل ماله، ويدع عائلته فُقَرَاء، أو لا يجوز، فإن هذا له موضع آخر، المهم: أن الله أثنى على المتصدقين، والمتصدقات.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ في الصدقة بذل، وفي الصيام إمساك، والصائمون: هم الذين قاموا بالتعبد لله تعالى بالصيام، والصيام: هو التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهو أنواع:

منه ما هو ركن من أركان الإسلام.

ومنه ما هو واجب وليس بركن.

ومنه ما هو سنة معينة مقيدة.

ومنه ما هو سنة مطلقة.

فالواجب الذي هو فرض من فروض الإسلام، هو صيام رمضان، والواجب الذي ليس من أركان الإسلام وهو صيام الكفّارات، ومنه ما هو سنة معينة مقيدة بوقت معين، مثل صيام عاشوراء، وتسع من ذي الحجة، ويوم عرفة، ومنه ما هو مطلق، مثل أن يصوم الإنسان لله ـ تعالى ـ يومًا من الأيام، إلا أنه يُكره أن يصوم الإنسان يوم الجمعة منفردًا، بل إما أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده.

والصائمون والصائمات ممسكون عن ملذاتهم وشهواتهم عن الأكل والشرب، والجماع، وما أشبه ذلك، لكن هذه هي الأساسيات في الملاذ، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي في الصائم: « يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي»[1]، والصيام أَلَا يدخل في الصبر؟ بلى، ولكنه عبادة مستقلة بنفسه، متضمن للصبر.

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ قال المؤلف: [عن الحرام]، وهي كلمة جامعة، تشمل حفظ الفرج عن الزنا، وحفظ الفرج عن النظر، وحفظ الفرج عن العمل المحرم الذي هو دون الزنا، وقد بين الله ـ عز وجل ـ من يُحفظ عنه الفرج ومن لا يحفظ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ـ ٧]، فأعلى شيء يحفظ عنه الفرج، هو الزنا، وهو فعل الفاحشة في قُبُل أو دبر، إلا أنه إذا تعلق بذكر سمي لُواطًا، واللواط: أعظم من الزنا، ـ والعياذ بالله ـ، لأن اللواط عقوبته الإعدام بكل حال، بل الأصح أن عقوبته القتل بكل حال، سواء كان الفاعل محصنًا، أو غير محصن، لكن بشرط أن يكون مكلفًا ـ أي: بالغًا عاقلًا ـ فإذا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٢)، و مسلم (١١٥١).

تلوط ذكر بآخر، وهما بالغان عاقلان، وجب قتلهما، وإن لم يكونا محصنين، لكن كيف يقتلان؟

الجواب: اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - ومن بعدهم، فقيل: يُرجمان بالحجارة، كالزاني المحصَن، وقيل: يُلقيان من أعلى مكان في البلد، ويُتبعان بالحجارة، وقيل: يحرقان بالنار، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، حين كتب إلى خالد بن الوليد، لما قال له إن عنده رجلًا يُنكح كما تُنكح المرأة، فكتب إليه أبو بكر أن يحرقه، مبالغة في عقوبته؛ إذنْ أشد ما يكون الخطأ من الفرج، هو الزنا.

كذلك النظر، فيجب أن يحفظ الإنسان فرجه عن النظر، حتى الجنس مع جنسه، لهذا قال النبي ﷺ: «لَا تَنْظُرُ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ وَلَا الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ»[1]، فيجب حفظ العورة عن النظر إلا على الزوجة وما ملكت يمينك.

كذلك حفظ الفرج عن الأفعال المحرمة غير الزنا، واللواط والنظر، كالاستمناء مثلًا، وهو ما يعرف عند الناس: بالعادة السرية، ويكون في الرجال، ويكون في الإناث أيضًا، حتى الإناث يستعملن ذلك! هذه أيضًا محرمة، لا تحل، وذلك لأنها ليس فيها حفظ للفرج، فإن الإنسان الذي يبتغي نيل شهوته بغير امرأته، وما ملكت يمينه، يدخل في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]، فهو حرام بالقرآن، وبالسنة أيضًا، السنة ذكرنا أن من أدلتها قول الرسول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاء»، ووجه الدلالة أن الرسول ﷺ أرشد إلى الصوم، وهو أشق من هذه الفعلة، لو كانت هذه الفعلة جائزة، لأرشد إليها الرسول ﷺ، لأنها أسهل وأيسر، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (ما خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْن إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا)[2]، فلما لم يختر هذا الأيسر، عُلم أنه إثم محرم.

وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ ختم الآية الكريمة بهذا الوصف العظيم، وهو ذكر الله - عز وجل -، وهو شامل لكل عبادة، فكل عبادة ذكر لله - عز وجل -، حتى دراسة العلم هي من ذكر الله - عز وجل -، ولهذا تسمى حِلَق العلم، أو مجالس الذكر، فكل عبادة فهي من ذكر الله، وذكر الله - عز وجل - يكون بالقلب ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، فبالقلب التفكر، وباللسان النطق، وفي الجوارح: الفعل والعمل، وأيها أفضل، ذكر الله باللسان، أم ذكر الله بالقلب، أم ذكر الله بالجوارح؟

الجواب: ليس هناك شك أن الجمع أفضل، فالقلب وحده لا يكفي، واللسان وحده لا يكفي، والجوارح وحدها لا تكفي، يعني: لو أن إنسانًا قال: أتفكر في آيات الله - عز وجل -، وفي أسمائه،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٣٨).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، و مسلم (٢٣٢٧).

وصفاته، ولكنه لا يقول: لا إله إلا الله هل يكون مسلمًا؟ لا، لابد أن يقول: لا إله إلا الله، وكذلك بالنسبة للجوارح، لكن لا شك أن اختلال الذكر بالقلب له أثر عظيم جدًّا، لأن المدار على القلب، ولا شك ـ أيضًا ـ أن تأثير ذكر الله بالقلب أبلغ في تقوية الإيمان، وفي التقرب إلى الله ـ عز وجل ـ من الذكر بالجوارح، لأن المدار كلَّه على سلامة القلب، لا بالنسبة للأعمال وقوام الأعمال، ولا بالنسبة للجزاء، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

وذكر الله ـ عز وجل ـ يكون مطلقًا في كل وقت، ويكون مقيَّدًا بأحوال، ويكون مقيدًا بأماكن، ويكون مقيدًا بأزمان، فهو إذنْ أربعة أنواع.

أما المطلق، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، هذا في كل وقت وفي كل حال، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] كما في هذه الآية في قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أما المقيد بزمن مثل: أدبار الصلوات، وكذلك الدعاء والذكر في أول النهار وفي آخره، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

والمقيد بأمكنة: كدخول المسجد، ودخول المنزل، والخروج منه، ورمي الجمرات.

أما المقيد بحال من الأحوال: فهو أيضًا كثير، عند الهمِّ، والحَزَن، وعند الأكل، والشرب، وما أشبه ذلك فالذكر إما مقيد، وإما مطلق، والله ـ عز وجل ـ شرع لعباده ذلك، من أجل أن يكونوا دائمًا على ذكر الله ـ عز وجل ـ، حتى عند لبس الثوب.

قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿أَعَدَّ﴾ فعل ماض، ولفظ الجلالة، فاعل، والجملة من الفعل والفاعل خبر إن، واسم (إن) المسلمين، وما عطف عليها، وقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء، والميم علامة جمع الذكور، وفيه دلالة واضحة، على تفضيل الرجال على النساء، فلم يقل الله: أعد الله لهم ولهن، ولم يقل أعد الله لهن، وإنما قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَعَدَّ﴾ بمعنى: هيأ، وقوله: ﴿مَغْفِرَةً﴾ المغفرة مأخوذة من الغفر، وهو الستر مع الوقاية، لأن أصلها من المغفَر الذي يوضع على الرأس من أجل اتقاء السهام، والمغفَر الذي يوضع على الرأس؛ لاتقاء السهام يحصل به الستر، والوقاية.

إذنْ المغفرة: هي ستر الذنوب، والتجاوز عنها، ليس هي ستر الذنوب فقط، بل هي ستر مع التجاوز، ستر عن الخلق، وتجاوز عن العقوبة، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يُقَرِّرُه بِذُنُوبِهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْم»[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، و مسلم (٢٧٦٨).

فقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ إذنْ بإعداد المغفرة، يسلمون من الآثام وعواقبها.

وقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا ذا عظمة في نفسه، وهذا الأجر العظيم هو دخول الجنة، وهو أجر لا يمكن أن يحيط به البشر، لأن الله يقول في حديثه القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِيْنَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر»، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، ويقول تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ، هذا الأجر العظيم الذي لا يقدُر قدره إلا الله - عز وجل - يكون لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات، وإذا كان الله تعالى بيَّن هذه الصفات، أو بين القائمين بهذه الصفات، وبين ما أعدَّ لهم من الأجر والثواب، فهل المراد بذلك مجرد إعلام الناس بهذا، أم أن المراد شيء وراء ذلك؟

المراد شيء وراء ذلك، وهو: أن يقوم الناس بهذه الصفات العظيمة، حتى ينالوا ذلك الأجر العظيم والمغفرة.

وقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ كلمة ﴿مَّغْفِرَةً﴾ نكرة، فهل نقول: إنها نكِّرت للتعظيم بدليل عطفه عليها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أم ماذا؟

الظاهر: أنها نكرت للتعظيم، أي: مغفرة عظيمة كما أن لهم أجرًا عظيمًا، يقول: [﴿مَّغْفِرَةً﴾ للمعاصي، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على الطاعات]؛ لأن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ جعل المغفرة في مقابل المعاصي، والأجر في مقابل الطاعات، ولكن هل لترك المعاصي أجر؟ إن قلت لا، أخطأت، وإن قلت نعم، أخطأت، ولكن نقول: تارك المعاصي له ثلاث حالات: إما أن يتركها عجزًا عنها مع فعل الأسباب الموصلة إليها، وإما أن يتركها؛ لأنها لم تطرأ له على بال، وإما أن يتركها مع كونها على باله، لكن تركها لله - عز وجل -.

أما الحالة الأولى: الذي ترك المعصية عجزًا عنها، مع فعل الأسباب الموصلة إليها: فهذا له حكم الفاعل، مثال ذلك: رجل أتى بالسلم ليصعد إلى البيت ليسرق، لكن وهو يصعد سمع صوتًا ونظر إلى حوله فوجد أناسًا، فترك، نقول: هذا له حكم الفاعل عند الله، أما في الدنيا، فلا نقطع يديه، والدليل قول النبي ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ والمَقْتُوْلُ فِيْ النَّار»، قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُوْل؟ قَالَ: «لأَنَّهُ كَانَ حَرِيْصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبه»[1] حريصًا وفاعلًا للسبَب، ملتقٍ مع الآخر بالسيف، فحكم الرسول ﷺ بالنار؛ لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه.

وأما القسم الثاني: من تركها؛ لأنها لم تطرأ له على بال، مثل: رجل ما سرق، ولا زنا ولا شرب الخمر؛ لأن نفسه ما دعته إلى ذلك يومًا من الأيام، فالحكم أن هذا ليس له شيء، وليس عليه شيء، لأنه ما فعل إثمًا، ولا تقرب إلى الله بنية، فلا يكون له شيء، ولا عليه شيء.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١)، و مسلم (٢٨٨٨).

والقسم الثالث: رجل هم بمعصية، وربما فعل أسبابها، ولكنه تركها لله ـ عز وجل ـ، عندما تذكر عظمة الله، خشي الله ـ عز وجل ـ وخافه، فهذا حكمه: أن له أجرًا على الترك، كما جاء في الحديث الصحيح: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى حَسَنَةً كَامِلَةً**»[1]، قال: **لأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّائِي**» أي: من أَجْلِي، فإذا تركتها لله فإنك تؤجر على ذلك، ولو أن الإنسان ترك الهم بالمعصية، وفعل الأسباب وتركها لا لله، ولا لعباد الله، هل يأثم، أو لا يأثم؟ يعني: واحد همَّ بالسرقة، وأتى بالسلم، ولما أراد أن يصعد، رجع لنفسه، وقال لماذا تسرق، ما دام الله مغنيك، وعندك مال، وليس بحاجة إلى السرقة، فتركها؟

نقول: هو ليس عليه إثم السرقة، ولا أجر، لكن يأثم على فعل السبب، وهو الظاهر، وإن كانت الغاية لم يصل إليها، لكن نقول هذا السبب الذي فعلت، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فالأسباب الأولى ما تركها لله، إنما تركها لأنه نظر، أنه ليس بحاجة إلى السرقة، فتركها، فأما السرقة فلا يأثم، وإن كان قد نواها بالأول، لأنه ما فعلها، وأما فعل الأسباب، فإن الأسباب محرمة.

مسألة: رجل ترك المعصية لشرفه، يعني: ترك الزنا مع تيسره؛ لأنه رجل شريف، لا يجب أن يتلوث بهذه الأخلاق السافلة، هل يؤجر أو لا يؤجر؟

الجواب: أما على ترك الزنا، فالظاهر أنه لا يؤجر، لأنه ما تركه لله، وأما على حماية شرفه، فإنه يؤجر؛ لأن الإنسان ينبغي له أن يدافع عن شرفه، حتى إن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لما قال: «**هَذِهِ صَفِيَّةُ**»[2] على كل حال ما هو يدفع التهمة عن نفسه، لأن هذا شيء بعيد، لكن لئلا تقع التهمة في أولئك فيهلكوا، ولهذا قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا**».

فالظاهر لي: أن الإنسان الذي يترك الشيء محافظة على شرفه، وعلى سمعته، فإنه يؤجر على ذلك؛ لأنه صان نفسه، وفي الحديث: «**رَحِمَ اللهُ امرأً كَفَّ الغِيْبَةَ عَنْ نَفْسِهِ**»، ولا أدري عن صحته، لكن الإنسان مأمور بحماية شرفه بلا شك، والذود عن نفسه، وإزالة التهمة عنها، فإذا كانت هذه نيته، فإنه يؤجر، لكنه لا يؤجر أجر من ترك الزنا لله؛ لأن بينهما فرقًا عظيمًا.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** التفصيل في ذكر الرجال والنساء، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، و مسلم (١٣١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، و مسلم (٢١٧٥).

وَالصَّٰٓئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وهذا وإن كان موجودًا في القرآن، لكنه قليل.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإسلام غير الإيمان، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ﴾، **والعطف يقتضي المغايرة، وقد اختلف** الناس، هل الإسلام هو الإيمان أو غيره؟

والصواب في ذلك: التفصيل، فإذا أطلق الإسلام، دخل فيه الإيمان، وإذا أطلق الإيمان، دخل فيه الإسلام، ومعنى أطلق: أنه لم يذكر مفردًا، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] يدخل فيه الإيمان ولا شك، وقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالإيمان هنا يدخل فيه الإسلام ولا شك، وأما إذا ذُكرا جميعًا، فإنهما يختلفان، ولهذا سأل جبريل النبي ﷺ عن الإسلام، فذكر له أشياء، وسأله عن الإيمان، فذكر له أشياء تخالف الأولى، فإذا ذُكرا جميعًا، صار الإيمان في القلب، والإسلام علانية في الجوارح.

لكن الإيمان أكمل، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] ، هذا من القرآن، ومن السنة: أن رجلًا أثنى عند النبي ﷺ على رجل، فقال: إنه مؤمن، فقال النبي ﷺ: «**أَوْ مُسْلِمٌ**»[(١)]، فدل ذلك على أن الإسلام أضعف من الإيمان، لأن الرجل كان يمدحه، فقال مؤمن، قال: « **أَوْ مُسْلِمٌ**»، أظنه كررها، ولهذا نقول: إن الإيمان أعلى من الإسلام، وهو مغاير له إذا ذُكرا جميعًا.

٣- ومن فوائد الآية: فضيلة الإيمان والإسلام، وكل ما ذكر بعد ذلك، فإن قال قائل: إن الفضل جاء لمن اتصفوا بهذه الصفات كلها، قلنا: لكن لما جاء هذا الفضل لها مركبة، أو لها مجموعة، دل على أن كل واحدٍ منها له فضل، وإلا لَمَا كان لذكرها جميعًا فائدة.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة القنوت، لقوله: ﴿وَالْقَٰنِتِينَ وَالْقَٰنِتَٰتِ ﴾.

٥- ومن فوائدها أيضًا: فضيلة الصدق، لقوله: ﴿وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَٰتِ﴾، وإذا كان الصدق فضيلة، كان ضده ـ وهو الكذب ـ رذيلة، فإن النبي ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ والكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[(٢)].

فإن قلت: أفلا يجوز الكذب الأبيض، نقول: ليس هناك كذب أبيض، كل الكذب أسود، وعند العوام الكذب الأبيض: هو الذي لا يستلزم أكل المال، اكذب كما شئت، لكن لا تأكل أموال الناس بالكذب، ولكن هذا خلاف تحذير النبي ﷺ حين قال: «**إِيَّاكُمْ والكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧)، و مسلم (١٥٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأبو داود (٤٩٨٩).

يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ».

مسألة: هل رُخِّص في شيء من الكذب؟

الجواب: نعم في الإصلاح بين الناس، والحرب، وحديث الرجل مع امرأته، والمرأة مع زوجها، لكن بعض أهل العلم يقول: لم يرخص في شيء من الكذب إطلاقًا، وقال: إن المراد بالكذب في هذا الحديث التورية، فالتورية كما هو معلوم: صدق من وجه، وكذب باعتبار وجه آخر، فهي باعتبار نية القائل: صدق، وباعتبار ما فهمه المخاطَب: كذب، فيقولون: إن عمومات الحديث تدل على الكذب، ويُجمع بينها، وبين الحديث الذي فيه الاستثناء، بأن هذا من باب التورية، وقالوا: إن الإصلاح بين الناس إذا بُني على الكذب، فقد تكون النتيجة فيما بعد عكسية، إذا علم المتصالحان فيما بعد أن الأمر ليس على ما ذُكر، فيمكن أن يزيد الشر، وينتقض الصلح.

وقالوا أيضًا: إن الكذب في الحرب، ربما ينتج نتيجة سيئة، حيث يتبين للعدو أن الأمر ليس على ما قيل، مثل أن يقال له: إن عندنا جمعًا كثيرًا، أو ما أشبه ذلك بدون تورية، فهذا خطأ.

قالوا: وأيضًا حديث الرجل لزوجته، وحديث المرأة لزوجها، هذا أيضًا لو أجزنا الكذب، صارت مشاكل عظيمة، فيأتي الرجل يقول: أنا عندي مليون ريالًا، وعندي مائة سيارة، وما عنده إلا ثيابه، فتكون النتيجة سيئة، فتقول له: أنت كذاب، ولا تصلح زوجًا لي، وكذلك بالعكس الزوجة تحدث زوجها، يقول لها: تخرجي للسوق؟ تقول: ما عمري خرجت، ولا أعرف السوق، ولا أعرف الرجال، فإذا الأمر بالعكس، فيه خطورة.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد بذلك التورية، والتورية لا تجوز إلا في حالين، وهما: الحاجة، أو المصلحة.

وعلى كل حال: ظاهر حديث الاستثناء، أن هذا من الكذب الصريح، وأنه لا بأس به، ولكن حتى على القول بأن الاستثناء يعود على الكذب الصريح دون التورية، يجب أن يقال: هذا من المباح، والمباح إذا تضمَّن ضررًا، كان حرامًا ، لأن القاعدة عندنا: كل المباحات يمكن أن تجري فيها الأحكام الخمسة، ولهذا ذهب بعض الأصوليين، إلى أنه ما في الشريعة شيء اسمه مباح؛ لأنه مستوي الطرفين، بل لابد من ترجح، لكن جمهور العلماء أن المباح ثابت في الشريعة.

والحاصل: أنه إذا كان الحديث صريحًا في جواز الكذب في هذه الأمور الثلاثة، فماذا نقول فيه؟ يجب أن يقيد بما إذا لم يتضمن ضررًا، فإن تضمن ضررًا مُنع منه.

٦- ويستفاد من الآية الكريمة: فضيلة الصبر، لقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾، وقد سبق لنا بيان أقسام الصبر.

٧- ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا: الخشوع في العبادات، لقوله: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾، ولاسيما في الصلاة التي نص الله ـ تعالى ـ على الخشوع فيها، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة الصدقة، لقوله: ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، وهو شامل للواجب والمستحب، وهنا نسأل هل الواجب أفضل، أم المستحب أفضل؟

فنقول: الواجب أفضل بالنص والنظر، أي: بدلالة الأثر والنظر، أما الأثر فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُه عَلَيْه**»(١) وهذا صريح، وأما النظر، فنقول: لولا أن الواجب أحب إلى الله ما فرضه الله على العباد، ولجعله تطوعًا لك الخيار فيه، فإيجاب الله له، دليل على محبته له.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة الصوم، لقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾، فرضِه ونفلِه، وأفضل النفل في الصوم: صوم يوم وفطر يوم، وهو صيام داود ـ عليه السلام ـ.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة حفظ الفرج، لقوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾، ويستثنى من ذلك: حفظ الفرج عن الزوجة، وما ملكت اليمين، فإن الإنسان لا يُلام عليه.

١١- ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي اتخاذ الوسائل التي يكون بها حفظ الفرج؛ لأن الثناء على شيء ثناء عليه وعلى وسائله، فكل ما يحصل به حفظ الفرج، فإنه مطلوب ومشروع، ولهذا حرم النظر إلى الأجنبية، وحُرِّم التلذذ بمخاطبتها، والاستماع إلى صوتها، وحرُم أيضًا مصافحة المرأة الأجنبية، وحرمت الخلوة بها، وحرم سفرها بلا محرم، وما أشبه ذلك، مما يكون سببًا في حفظ الفروج.

فإذا كان الله أثنى على الحافظين فروجهم، فإن الوسائل التي تؤدي إلى حفظ الفرج من الأمور المطلوبة.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة كثرة ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾، وجدير بالمرء أن يكون دائمًا ذاكرًا لربه ـ عز وجل ـ؛ لأنه ما نعمة هو فيها، إلا وهي من الله، فإذا كان الله قد أدام عليك النعم، وأكثر عليك النعم، فلماذا لا تديم ذكره؟! وحقيقة الأمر أن الإنسان لو فكر، لوجد أنه لو يستوعب ليله ونهاره في ذكر الله ما كفى، ولهذا قال النبي ﷺ: «**سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٢)، فالإنسان لا يمكن أن يحصي الثناء على الله تعالى مهما كان.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله أعد لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات المغفرة للذنوب، والأجر العظيم على الطاعات، وذلك في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٦)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي (١١٠٠).

والأوصاف التي ذُكرت: المسلمين، والمؤمنين، والقانتين، والصادقين، والصابرين، والخاشعين، والمتصدقين، والصائمين، والحافظين فروجهم، والذاكرين الله كثيرًا، مع المعطوف عليها تكون عشرين، هؤلاء العشرون، كفى عنها ضمير واحد، وهو وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾، ولو جاء يعدد هؤلاء، لكان يقول: أعد الله للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، ولكن هذا من فوائد الضمائر، أنها تختصر الكلام الكثير بضمير واحد.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تفضيل الرجال على النساء، لأنه قدَّم في الذكر الرجال، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

١٥- ومن فوائدها أيضًا: أن التغليب في جانب المذكَّر، لقوله: ﴿لَهُم﴾ ولم يقل لهم ولهن.

١٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي عند ذكر الرجال والنساء أن يقدَّم الرجال، كما في هذه الآية وغيرها من الآيات، وأما من تغرَّبوا، فصاروا يقدمون النساء على الرجال، هؤلاء ولاهم الله ما تولوا من مشابهة الكفار، وقلب الفطرة، وانتكاس الحال، أن يقدموا النساء على الرجال، عندما يقول ـ مثلًا ـ سيداته وساداته، سيداته يقدم النساء على الرجال، بل العجب من ذلك أنهم يسمون النساء سيدات، يقول: السيدة فلانة، والرجل ما يقال السيد فلان، من أين أخذوا ذلك؟ من الغرب الكفار، لأن الرجل في الحقيقة، هو السيد على المرأة، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما المرأة، ما هي سيدة على الرجل أبدًا، لكن هؤلاء كما قلت: قلب الله فطرتهم، بسبب أنهم تابعوا أعداء الله ـ عز وجل ـ، وكثير من المسلمين ـ مع الأسف الآن ـ لا يحسون بهذه المسائل، ولا يرونها شيئًا، سائرين مع العالم، حتى الألفاظ التي قد تكون محرمة، يسيرون فيها.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن جزاء الله أعظم من عمل المرء، لأن هذه الأعمال التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ، جعل الثواب عليها أمرين: مغفرة الذنوب، والأجر العظيم، وهذا الأجر العظيم المبهم هنا، قد بُيِّن في نصوص من الكتاب والسنة، وهي: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وهذا مما يدل على فضل الله سبحانه وتعالى.

ومن العجب: أن فضل الله عليك بالثواب، كفضله عليك بالعمل، فإن فضل الله على الإنسان بالعمل، فضل لا يعدله شيء، ولهذا جعل الله ذلك من إتمام النعمة، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وجعل ذلك من منته، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، انظر إلى أن الله هو الذي منَّ عليك بالعمل، ثم من عليك بالثواب، ثم قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:

٦٠]، مع أنه هو الذي أحسن إليك، وإحسان الله عليك بالعمل، مسبوق بإحسانه عليك بشيء آخر، مثل الهداية والعلم، لأنه لا عمل إلا بعلم، فيكون عمل الإنسان مسبوق بنعمة الله عليه بالعلم، ثم بنعمة الله عليه بالتوفيق، وملحوق بنعمة الله عليه بالقبول والجزاء، فتأمل مثل هذه الأمور، حتى يتضح لك فضل الله عليك.

١٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجنة موجودة الآن، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿أَعَدَّ﴾؛ لأن أعد فعل ماض، فيكون لازم ذلك: أن تكون الجنة موجودة، وهذا أمر معلوم عند أهل السنة والجماعة، ومدعوم بنصوص الكتاب والسنة، أن الجنة والنار موجودتان الآن.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٦-٣٩]

التفسير

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ﴿ما﴾ هذه نافية، و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، وخبرها ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ جار ومجرور، و﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ هذا هو اسمها مؤخر.

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: هذا أمر لا يمكن أن يكون، فهو نفي للإمكان، ولكنه للإمكان الشرعي، دون القدري، إذ إن المؤمن، أو المؤمنة قد يكون لهما الخيرة من أمرهم، فيما قضاه الله ورسوله، ولكن شرعًا لا يكون هذا.

يقول المؤلف: [﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَن يَكُونَ﴾ بالتاء والياء.

﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيار من أمرهم، خلاف أمر الله ورسوله].

وقوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ هو كما سبق فيه ذكر الذكور، والإناث.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ المراد بالقضاء هنا: القضاء الشرعي، إذ إن القضاء الكوني: لا يمكن لأحد أن يختار خلافه، لا مؤمن ولا كافر؛ لأن القضاء الكوني، لابد أن يقع، فالمراد هنا إذا قضى قضاءً شرعيًّا.

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ عطف بالواو، لأن قضاء الرسول ﷺ الشرعي من قضاء الله.

وقوله: ﴿أَمْرًا﴾ هنا: واحد الأمور، أم واحد الأوامر؟ واحد الأمور، أي: إذا قضى شأنًا، سواء كان ذلك الشأن أمرًا أو نهيًا.

قال: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، والقراءة الثانية: ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ﴾، أما على قراءة التاء، فالأمر فيها ظاهر، لأن اسمها مؤنث، فأُنِّث الفعل من أجل قوله: ﴿أن تكون﴾، وأما على قراءة الياء، فإن الفعل يكون مذكَّرًا، مع أن الاسم مؤنث، ولكن هنا لا يجب التأنيث لوجهين:

الوجه الأول: الفصل بين الفعل وفاعله، وهنا بين الفعل واسمه.

والثاني: أن التأنيث في ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾، تأنيث مجازي، وابن مالك يقول:

وَإِنَّمَا تُلزِمُ فِعلَ مُضمَرِ مُتَّصِلِ أو مُفهِم بِنتُ ذَاتَ حِرِّ

وقوله: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ قال: [أي: الاختيار]، أفادنا المؤلف، أن الخيرة هنا: اسم مصدر، بمعنى الاختيار، أو بمعنى التخير، كالطِّيرة بمعنى: التطير، فهي إذنْ اسم مصدر، بمعنى: الاختيار، وإن شئت فقل: بمعنى التخير.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قد يقول قائل: إن المتبادر أن يقول: من أمره، لأن ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ مفرد، فالمتبادر أن يقول: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون له الخيرة من أمره، ولكنه جمع فلماذا؟

نقول: لأن مؤمن ومؤمنة، جاءا نكرة في سياق النفي، فيفيد العموم، فعاد الضمير إليه، باعتبار المعنى، لا باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ معناه: من شأنهم، ويجوز أن يكون من أمرهم، أي: من أمر الله إياهم، فعلى الأول: تكون الإضافة من باب إضافة الشيء إلى فاعله، وعلى الثاني: من باب إضافته إلى مفعوله، وقول المؤلف: [خلاف] هذه بالنصب، مفعول للخيرة بمعنى: [الاختيار]، يعني: ما كان لهم أن يختاروا خلاف أمر الله ورسوله، فتبين الآن معنى الآية، وهو أن الله يقول: لا يمكن لمؤمن ولا مؤمنة شرعًا، إذا قضى الله ورسوله أمرًا، أن يخالفوا أمر الله ورسوله، وأن يختاروا خلاف أمر

الله ورسوله، لأن ما في قلوبهم من الإيمان، يمنعهم من المخالفة، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]؛ لأنه لو كان في قلبه إيمان حين الزنا، ما زنى، وقال: «لَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، فالإيمان إذا وقر في القلب، لا يمكن أن يكون صاحبه مخالفًا لأمر الله ورسوله.

قال المؤلف: [نزلت في «عبد الله بن جحش»، وأخته «زينب» خطبها النبي ﷺ، لزيد بن حارثة، فكرها ذلك حين علما لظنهما قبل أن النبي ﷺ، خطبها لنفسه، ثم رضي للآية] هكذا ذكر المؤلف أنها نزلت فيه، وهذه القصة ضعيفة، لأنها معضلة، ومنقطعة، فهي ضعيفة، ونحن لا يهمنا في الحقيقة سبب النزول، فسبب النزول صحيح أن فيه فائدة، وهو أنه يكشف أحيانًا المعنى ويبينه، ويوضحه، لكن المهم الحُكم، وهو أنه لا يمكن لمؤمن إذا قضى الله ورسوله أمرًا، أن يختار خلافَ أمر الله ورسوله، لأنهم لابد أن يوافقوا أمر الله ورسوله، لما في قلوبهم من الإيمان.

ولهذا كلما همَّ المؤمن بمعصية، ذكَّره إيمانه بالله، فكف عنها، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله قال: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»[2]، وهذه الدعوة كانت في محل خالٍ لا يطلع عليهما أحد سوى الله، لكنه قال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»، فمنعه إيمانه من أن يفعل الفاحشة، مع سهولة أسبابها.

وكذلك أحد الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، حين مكَّنته ابنة عمه من نفسها، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته ـ وأعتقد في هذه الحال أن الرغبة ستكون شديدة وقوية، وأنه لا يفصمها إلا إيمان قوي ـ قالت له: يا هذا اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقام منها، وهي أحب الناس إليه، هذا من الإيمان بلا شك.

إذنْ نحن لا يهمنا أن تكون نزلت في زينب بنت جحش، وأخيها عبد الله، أو في غيرهما، المهم: أن حال المؤمن تمنعه من مخالفة الله ورسوله، وأما ما ذكره المؤلف، فهو يقول: إن النبي ﷺ، خطب زينب بنت جحش، وقد خُطبت كما ذكره غيره، من رجال شرفاء، وذوي جاه، فخطبها النبي ﷺ، فظنوا أنه خطبها لنفسه، ثم بعد ذلك بيَّن لهم أنه خطبها لزيد بن حارثة، وزيد بن حارثة هو مولى رسول الله ﷺ، وكان حسبما ذكره أهل السير عبدًا لخديجة رضي الله عنها، فوهبته للنبي ﷺ، فأعتقه، لما علما أنه خطبها لزيد امتنعا، فلما نزلت الآية رضيا بذلك، وهذا ليس بغريب على الصحابة، لو صح الحديث، أن يقدموا أمر الله ورسوله على ما تهواه أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (من) شرطية، لأن فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، والمعصية: مخالفة الأمر، وإن شئت فقل: المعصية خلاف الطاعة،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

سواء كانت وقوعًا في منهي عنه أو تركًا لمأمور به، لكن إذا قيل: طاعة ومعصية، صارت الطاعة: فعل المأمور، والمعصية: فعل المحظور، أما إذا قيل معصية وحدها، أو طاعة وحدها، فإنها تشمل الأمرين.

قال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواء عصاهما جميعًا، يعني: في أمر من الله، وأمر من رسوله وقع في المعصية، أو عصى اللهَ وحده، أو عصى الرسولَ وحده؛ فإنه قد ضل ضلالًا مبينًا، ومعصيتهما جميعًا مثالها: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ، وقال النبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم»[1]، ولو خالف الإنسان في ذلك، يكون قد خالف الله ورسوله، لأن الأمر هنا من الله، ومن رسوله، وأحيانًا يرد الأمر في القرآن دون السنة، فإذا عصاه الإنسان صار عاصيًا لله، وأحيانًا يرد في السنة دون القرآن، فإذا عصاه الإنسان صار عاصيًا للرسول.

ولكن لتعلم أن معصية الرسول ﷺ معصية لله، لأن الرسول يتكلم عمن أرسله، فإذا عصيته، فقد عصيت من أرسله، فلو أن رجلًا أتاك، وقال: إن رجلًا أرسلني إليك، وقال: ليفعل كذا وكذا، فخالفت الرسول، تكون مخالفًا في الواقع للمرسِل، ولهذا قال الله - عز وجل - ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواء على سبيل الانفراد أو على سبيل الاشتراك.

وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ هذا جواب الشرط، وقُرن بالفاء؛ لأنها اقترنت بـ(قد)، وهناك ضوابط لجواب الشرط الذي يجب اقترانه بالفعل، ذُكرت في بيت، وهو:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

فإذا كان جواب الشرط أحد هذه الأمور السبعة، فإنه يقترن بالفاء وجوبًا، ولا يشذُّ عن هذه القاعدة إلا أمر نادر، كقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ، اللهُ يَشْكُرُهَا

ولم يقل: فالله يشكرها، لكن هذا نادر أو ضرورة، لكن هنا الذي معنا من هذه الأشياء السبعة: (قد) في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قال المؤلف: [بيِّنًا]، ونحن تكلمنا من قبل، أن أبان الرباعية، تكون متعدية، وتكون لازمة، فإذا كانت لازمة، فهي بمعنى: بان، وإذا كانت متعدية، فهي بمعنى أظهر، هنا قال: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، هل تصلح بمعنى أظهر، يعني: بمعنى ضلالًا مظهرًا؟ لا تصلح، إذنْ فهي من أبان اللازم، الذي يكون منه الاسم على

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

بيِّن، لا على مبين، بمعنى: مظهر، إذنْ المبين بمعنى: المظهر مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] هذا من المتعدي يقينًا، لأن القرآن مظهر للحقائق، ولهذا قال بعده: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قال: [فزوجها النبي ﷺ لزيد، ثم وقع بصره عليها بعد حين، فبلغ في نفسه حبها، وفي نفس زيد كراهتها، ثم قال للنبي ﷺ: أريد فراقها، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»[1] كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾].

هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذُكر عن بعض المفسرين من السلف والخلف، لكنه كما قال ابن كثير: أقوال ينبغي أن يضرب الإنسان عنها صفحًا، لأنها أقوال باطلة، لا تليق بمقام النبي ﷺ، لأن القصة إذا قرأها الإنسان، يتصور أن النبي ﷺ كان عاشقًا من العشَّاق، وما أشبه هذه القصة الباطلة بقصة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي ذكروا أن داودَ طلب من أحد جنوده أن يتزوج امرأته، ولكنه أبى، فاحتال عليه بحيلة ـ انظر إلى الكذب ـ فما الحيلة؟ قال: نخرجه مع الجيش، لكي يقتل فأتزوج امرأته، هل هذا يمكن أن يقع من نبي من أنبياء الله؟! أبدًا، هذه لو قال قائل: إنها وقعت من أحد السوقة من الناس، لقيل: ما أظلم هذا الرجل، وما أجهله، فكيف بنبي من أنبياء الله!!

والنبي ﷺ هل يمكن أن يتصور أحد أنه عشق هذه المرأة، لأن بعض الناس حتى بعض المفسرين، ـ والعياذ بالله ـ صار يتلفظ بهذا اللفظ، يقول: الرسول عشق المرأة زينب، ولكن هذا قول باطل، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ في الكلام على تفسير هذه الآية بيان معنى الآية، وأن معناها ناصع واضح، ولم يكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال له أمسك عليك زوجك، واتق الله، وأنه أخفى حبه، لأن الله قال في نفس الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فبين الله أنه سيبدي ما أخفاه في نفسه، ولو كان الذي أخفاه النبي ﷺ الجواب: في نفسه حبًّا، لكان الله يبديه، لكن ما الذي أبدى الله؟

الذي أبدى الله أنه زوجه إياها، فكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخفى في نفسه ما أعلمه الله أنه سيتزوجها، دون أن يكون هناك حب وعلاقة، لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ علم بما أعلمه الله أنه سيتزوجها، فلما جاء هذا الرجل يستشيره، قال له: «اتق الله»، فعاتب الله رسوله، لماذا قال له: «اتق وأمسكها»، وقد علم أن الله ـ تعالى ـ سيزوجه إياها، فالمسألة واضحة، ما فيها أي إشكال.

أما المشكل: أن بعض المفسرين يأخذ عن بعض من غير تمحيص، ومن غير أن يكون هناك تروٍ في المسألة، حتى إن بعض الناس اعتذر، وقال: إن محبة الإنسان للمرأة ولو كانت عند زوج آخر،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، و مسلم (٨٦).

أمر لا ينكر، إنما ينكر إذا حاول التوصل إلى هذه المرأة، بطريق غير شرعي، وأما أن يقع في نفسه محبة امرأة عند زوج، فهذا لا بأس به، وهو أمر قد تدعو إليه الجبلة والطبيعة، هذا وإن كانت المسألة تحتاج إلى نظر في هذا القول، وهو أن محبة الإنسان لزوجة غيره، إما أن تكون مَحبة للجنس، أو مَحبة للشخص، فإن كان محبة للجنس، فهذا أمر جائز - وليس المقصود بالجنس الشهوة - بل هذا الطراز من النساء، هذا المراد بقول إن كان محبة للجنس، يعني أنه يرغب مثل هذه المرأة، فهذا لا بأس به، والإنسان دائمًا إذا سمع مثلًا: عن امرأة رجل، أنها امرأة صالحة قانتة حافظة للغيب بما حفظ الله يحبها، ويحب أن يكون له مثلها.

وأما إذا كان حبًا شخصيًا، فعندي: أن في جواز ذلك نظرًا، وأن الإنسان يجب عليه إذا تعلقت نفسه بامرأة تعلقًا شخصيًا، أو محبة شخصية، يجب عليه أن يحاول التخلص من هذا؛ لأن هذا مشكلة؛ لأن المحبة في الحقيقة جذابة، فإذا تعلق قلبه بامرأة، فإن الغالب أن يحاول الوصول إليها، إن لم تكن متزوجة فيمكن أن يخطبها، وإن كانت متزوجة فهذه مشكلة، كالذي أرى في هذه المسألة، أنه إذا أحبها محبة جنس هذه المرأة، فهذا لا شك أنه ما فيه مانع، ولا يحصل فيه مفسدة، وأما إذا أحبها محبةً شخصيةً، فإن الأمر خطير.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

قوله: ﴿إذ﴾ يقول المؤلف: [منصوب باذكر]، وهي فعل أمر محذوف، أي: (اذكر يا محمد إذ تقول للذي أنعم الله عليه...) اذكر هذا القول لكي تكون مستعدًا لما يلقى إليك من الموعظة، لأن الله - تعالى - وعظه في هذه الآية موعظة عظيمة، حتى قالت عائشة ﵄، لو كان محمد كاتمًا ما أنزل الله إليه لكتم هذه الآية، كما سترون.

وقوله: [﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق] بيّن الله - عز وجل - أن هذا الرجل الذي أُبهم اسمه هنا، ثم أوضحه فيما بعد أن عليه نعمتين: النعمة الأولى لله، والثانية للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهنا قال: ﴿لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، فأتى بالواو الدالة على الاشتراك، مع أن هذا ليس من باب الشرع، أو من باب التشريع، حتى نقول: إنه يجوز إشراك الله مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - بل هو من باب النعمة والعطاء والفضل، فكيف جمع بين إنعام الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإنعام الله بالواو الدالة على التشريك؟

الجواب: أن نقول جمع بينهما بالواو الدالة على التشريك، لأن النعمتين مختلفتان، النعمة الأولى من الله بالإسلام، والثانية من الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالعتق، فلما اختلفت النعمتان، صارت الواو لا تدل على الاشتراك، لامتناع الاشتراك بين شيئين مختلفين.

يقول: [وهو زيد بن حارثة، كان من سبي الجاهلية، اشتراه رسول الله ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبناه].

والمشهور أن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان مملوكًا لخديجة، فوهبته للنبي ﷺ هذا هو المعروف في السير، وأيًا كان، فإن زيد بن حارثة كان مملوكًا للرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم أعتقه وتبناه أيضًا، فرفع معنويته بكونه أضافه إليه ابنًا له، وكان يُدعى زيد بن محمد، حتى أبطل الله ذلك بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] وبقوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤].

وقوله: [﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمر طلاقها].

قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ هنا عُدي الفعل أمسك بعلى، لأنها بمعنى: اضمم عليك زوجك، يعني: اجعلها منضمة عليك ولا تفارقها، و﴿زَوْجَكَ﴾ المراد بها: زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان زيد قد تزوجها بمشورة النبي ﷺ، فجاء يستشيره في طلاقها، فقال له النبي ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»(١) يعني: لا تطلقها وأمره بأن يتقي الله، قال: واتق الله، إغراء له على إمساكها، وإن كان الرجل لم يفعل خطيئة، لأن الطلاق مما يباح للرجال، لكن من باب الإغراء على إمساكها.

وقال بعض المفسرين: إنه - أي: زيد بن حارثة - ذكر زينب بعينها، فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «اتَّقِ اللهَ» يعني: لا تصفها بالعيب، وليس معنى «اتَّقِ اللهَ» أي: لا تطلقها، لأن الأصل في الطلاق أنه مباح.

وقوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الواو حرف عطف، ﴿وَتُخْفِى﴾ معطوفة على قوله: ﴿تَقُولُ﴾ يعني: واذكر أيضًا إذ تخفي في نفسك ما الله مبديه، وأبهم الله - تعالى - ما أخفاه، لكنه بيّن أنه سيبديه، وننظر ماذا أبدى الله - عز وجل -؟ ﴿مَا﴾ هذه اسم موصول في محل نصب مفعول لـ (تخفي)، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿مُبْدِيهِ﴾ خبره، والجملة صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب، يعني: وتخفي في نفسك الذي الله مبديه، وهنا لم يقل: وتخفي في نفسك ما يبديه الله، بل قال: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، كأن هذا أمر لابد منه، لابد أن يبديه الله - عز وجل -، وهذا هو الذي وقع.

ومعنى ﴿مُبْدِيهِ﴾ أي: مظهره، وهو مقابل لقوله: ﴿وَتُخْفِى﴾ إلا أن المقابلة اختلفت، من حيث الصيغة، فالصيغة في الإخفاء جاءت بالمضارع، وأما الصيغة في الإبداء فجاءت بالجملة الاسمية.

قال: [﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مظهره من محبتها، وأن لو فارقها زيد تزوجتها]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (٨٦).

هذا ما زعم المؤلف تبعًا لكثير من المفسرين، أن الذي أخفاه النبي ﷺ، هو محبته لهذه المرأة، فأبدى الله ذلك، ولكنك إذا تأملت الآيات، وجدت أن الذي أخفاه هو نية الزواج بها بأمر الله - عز وجل -، فإن الله تعالى أمره أن يتزوجها بعد زيد بن حارثة، وكأن هذا - والله أعلم - من أجل جَبر قلبها، حيث تزوجت زيد بن حارثة، وهو مولى، وهي من صميم العرب، فأراد الله - عز وجل - أن يكافئها على خضوعها لمشورة النبي ﷺ بأن يتزوجها الرسول - عليه الصلاة والسلام -، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: أمره الله أن يتزوجها، لأجل أن يزول ما كان مشهورًا عندهم في الجاهلية، من أن ابن التبني لا يجوز لمن تبناه أن يتزوج بامرأته، فيكون هذا من باب البيان بالفعل الذي هو أقوى من البيان بالقول.

قال: [﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مظهره من محبتها، وأن لو فارقها زيد لتزوجها]، وإذا نظرنا إلى الذي أبداه الله، وجدنا أنه زواجها، لا أنه يحبها، ما قال الله في القرآن: إنك تحبها أبدًا، ولا تعرض للحب، بل قال: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي: تخاف من قولهم، ومن كلامهم، قال: [أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه]، وهذا عند العرب عيب، فهم يرونه من المنكرات.

قال الله: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ قال: [في كل شيء، وتزوَّجها ولا عليك من قول الناس، ثم طلقها زيد وانقضت عدتها].

قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ من الناس، ولكنه هنا أطلق، قال: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، ولم يذكر المفضل عليه من أجل العموم؛ لأنه دائمًا يكون الحذف مفيدًا للعموم، يعني: أحق أن تخشاه من كل أحد، من الناس ومن الجن ومن غيرهم.

وقوله: ﴿أَنْ تَخْشَاهُ﴾ يعني: أن تخافه، ولكن الخشية، خوف مع علم، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخشية أيضًا خوف مع قوة المخشي وعظمته، فالخوف دون الخشية، لأن الخوف بدون علم، ولأن الخوف يقع من ضعف الخائف لا من قوة المَخوف، فلهذا كانت الخشية أرفع مرتبة وأقوى.

وقوله:﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ قال: [حاجةً ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، فدخل عليها النبي ﷺ، بدون إذنٍ وأشبعَ المسلمين خبزًا ولحمًا].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجة، وهذا دليل على أن زيدًا رضي الله عنه طلقها عن رغبة، وأنه انتهت حاجته منها، ولم يطلقها عن ضغط، وإكراه.

وقوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ شرعًا أم وقدرًا؟ شرعًا، وقدرًا لكن المهم: شرعًا، لأنه لو كان المراد قدرًا فقط، لم يكن بينها وبين أمهات المؤمنين فرق، لأن أمهات المؤمنين - أيضًا - ممن زوجهن الله قدرًا، وكانت هي - أي: زينب - تفتخر على نساء النبي ﷺ، فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني

الله من فوق سبع سماوات، وهذا دليل على أنه تزويج شرعي، ولكنه قدري أيضًا في نفس الوقت.

وقوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ في هذا الفعل ضميران مفعولان متصلان، الضمير الأول: الكاف، والثاني: الهاء، وهو جارٍ على القاعدة، فابن مالك يقول:

وَقَـدِّمِ الأَخَصَّ فِي اتِّصَالِ وَقَـدِّمَنْ مَا شِئْتَ فِي انْفِصَالِ

وضمير المخاطب أخص من ضمير الغائب، ولهذا قال: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

الحكمة من ذلك: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ ﴿لِكَىْ﴾ اللام هنا: للتعليل، و(كي) حرف مصدر؛ لأنها بعد اللام مصدرية محضة، أي: لأن، و﴿لَا﴾: نافية.

وقوله: ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق ومشقة.

وقوله: ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ مَنْ أدعياؤهم؟ أبناؤهم الذين تبنوهم، هؤلاء هم الأدعياء، وهؤلاء الأدعياء ليسوا بأبناء، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤]، وتأمل قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، ولم يقل: أبنائهم الذين تبنوهم، لأن هذه البنوة، منتفية شرعًا، وباطلة شرعًا، ولهذا قال: ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ وبهذا نعرف أن قول من قال في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] أن قوله: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾؛ احتراز من ابن التبني، يتبين لنا أن هذا القول لا وجه له، لأن ابن التبني لم يسمه الله ابنًا أبدًا، بل نفى عنه البنوة، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقال هنا: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، وإذا كان ابن التبني لا يُسمى ابنًا شرعًا، فإنه لا حاجة إلى أن نأتي بصفة تخرجه، لأنه ليس بداخل أصلًا، حتى يخرج بهذه الصفة، ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، ولكنها احتراز من ابن الرضاعة، كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ ﴿إِذَا قَضَوْا۟﴾ الفاعل يعود على الأدعياء.

وفيه إشارة إلى أنه لو كان ذلك بضغط من الأب المدعي، لكان ذلك فيه حرج، بل لابد أن يكونوا قد قضوا منهن وطرًا، وأنهوا رغبتهم فيهن.

قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [مقضيه: ﴿مَفْعُولًا﴾]، أمر الله، أي: الكوني؛ لأن الشرعي، قد يُفعل، وقد لا يفعل، ولكن الأمر الذي لابد أن يفعل، هو أمر الله الكوني، فإذا أمر الله بشيء كونًا فلابد أن يقع.

وخلاصة تفسير هذه الآية: أن نقول: إن الله -عز وجل- ذكَّر نبيه ﷺ بهذا الأمر العظيم، وهو قوله لزيد بن حارثة حين جاء يستشيره في طلاق زوجته: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ**»، مع علم النبي ﷺ بأن الله سوف يزوجه إياها، وكان على النبي ﷺ أن يسكت على الأقل، ويقول: انظر ما يبدو لك في هذا الأمر، ولكنه أشار عليه أن يمسك، لأنه يخشى أن يقول الناس: تزوج

امرأة ابنه الذي تبناه، فكان النبي ﷺ يخاف من هذا الأمر، ولكن الله ـ عز وجل ـ وجَّهه هذا التوجيه السليم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

قوله: ﴿ مَّا ﴾ نافية، و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها: قوله ﴿ حَرَجٍ ﴾ لكن فيها: ﴿مِنْ﴾ الزائدة؛ لإثبات النفي وتوكيده.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا خبر كان مقدم.

وقوله: ﴿مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ ومعنى ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ أي: فيما أحل الله له، أيًا كان، فكل ما أحل الله له فإنه لا حرج عليه عند الله، وإذا كان لا حرج عليه عند الله، فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يتكلم في هذا الذي أحله الله له، ويقول: لم فعل لم صنع؟ وسيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد أن هذا عام للرسول ﷺ ولغيره.

وقوله ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ الفرض تارة يتعدى باللام، وتارة يتعدى بعلى، فيتعدى باللام مثل هذه الآية ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، ويتعدى بعلى مثل: فرض الله علينا كذا وكذا، فإن تعدى بعلى فهو بمعنى: أوجب، وإذا تعدى باللام، فهو بمعنى: أحل؛ لأن الفرض في الأصل بمعنى: التقدير، والمقدر قد يكون واجبًا، وقد يكون محللًا.

قال الله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ قال: [أي: كسنة الله، فنصب بنزع الخافض] يعني: أن الله تعالى نفى عنه الحرج فيما أحل له؛ لأن هذا هو سنة الله فيمن سبق، فسنة الله ـ أي: طريقته ـ، والمعنى: كطريقة الله تعالى فيمن سبق من الأنبياء.

وقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [من الأنبياء، ألا حرج عليهم في ذلك توسعة لهم في النكاح، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فعله ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ مقضيًا].

يقول الله عز وجل: إن الرسول عليه الصلاة والسلام، كغيره من الأنبياء السابقين، فما أحل الله له، فإنه لا حرج عليه فيه، وهكذا الأنبياء السابقون، ليس عليهم حرج فيما فرض الله لهم، يفعلون ما يشاءون مادام الأمر محللًا لهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

قال المؤلف في إعرابها: [﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ نعت للذين قبله] وهي قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الذين يبلغون.

وقوله: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ جمع رسالة، والمراد بها: المرسَل به، فهم يبلغون ما أرسلهم الله به، والتبليغ معناه: الإيصال، ومنه ما جاء في الحديث: «لَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ».

وقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ ذلك لأن الخشية عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عز وجل، هذا في الأصل، مع أن الخشية قد تكون غير عبادة، فقد تكون خوفًا طبيعيًا لا يتعبد به الإنسان للخائف، فيفرق بين خشية الإنسان للناس، وبين خشية الإنسان لله، قال: [فلا يخشون مقالة الناس فيما أحل الله لهم]، وكذلك في غيره.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ قال: [حافظًا لأعمال خلقه، ومحاسبتهم] إعراب ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ الله فاعل ﴿كفى﴾ والباء حرف جر زائد، و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز منصوب؛ وكفى تتعدى بالباء على أنه حرف جر زائد، وهو كثير، وقد تتعدى بنفسها، إلى الفاعل، كقول الشاعر:

كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

فلم يأت بالباء، لكن الأكثر أن يأتي بها.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مقتضى الإيمان ألا يخالف المؤمن أمر الله ورسوله، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه كلما قوي الإيمان قويت الموافقة، لأن الحكم المترتب على وصف، يقوى بقوته ويضعف بضعفه، وعليه فتأتي الفائدة الثالثة:

٣- أنه كلما نقص الإيمان وضعف، كثرت المخالفة، ولهذا قال أهل العلم: الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما قضاه الرسول ﷺ من الأمور الشرعية، فهو كما قضاه الله، لقوله: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخير ـ كل الخير ـ فيما قضاه الله ورسوله، لقوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ يعني: ما يختارون غيره؛ لأنهم يرون أن الخير فيما قضاه الله ورسوله.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعصية ضلال، لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أنه كلما كانت المعصية أكبر أو أكثر، كان الضلال أبينُ وأوضحُ، وجهه: أن الحكم المترتب على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، كمعصية الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ فإذا أتانا آتٍ ونهيناه عن أمر جاء به النهي في

السنة، وقال: هذا ليس في القرآن، ماذا نقول له؟

نقول له: الذي في السنة، كالذي في القرآن، وقد توقع النبي ﷺ ذلك، فقال: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُكُم مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي الكِتَابِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»[(١)]، وهذا الذي توقعه النبي ﷺ وقع، بل صرَّحوا بأنه لا احتجاج إلا بما جاء في القرآن، وكما ترون الآن لكن ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، وقال أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تشريك الله ورسوله بالواو في الأحكام الشرعية، لقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بخلاف الأمور الكونية، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يشارك مع الله بالواو، ولهذا لما قال له الرجل: ما شاء الله وشئت، قال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٢)].

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات رسالة النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ورسالة النبي ﷺ عامة لجميع البشر، منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة، ولهذا قال الله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، والخاتم لا شيء بعده، وكانت شريعة النبي ﷺ، لكونها عامة شاملة إلى يوم القيامة، كانت صالحة لكل زمان ومكان وأمة.

ومعنى كونها صالحة: أن العمل بها لا ينافي المصالح في أي زمان أو مكان، بل هو المصلحة، وعين المصلحة، وليس كما فعله بعض الناس وتصرف في هذه العبارة، حيث زعم أن الدين، أو أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، بمعنى أنه خاضع لكل زمان ومكان، فجعلوا الشرع تابعًا، لا متبوعًا، وقالوا: إن العصر إذا اقتضى ـ في زعمهم ـ المصلحة، فإن الدين لا يعارضه، أو فإن الشرع لا يعارضه، وبنوا على ذلك استحسان ما استحسنوه من الأمور التي لا شك في تحريمها، كتجويز الربا، وأن هذا ينمي الاقتصاد، ويقوي الأمة، وكتجويز التأمينات، التي هي الميسر حقيقة، والتي قرنها الله بالخمر، والأنصاب والأزلام إلى غير ذلك، مما يرونه أنه داخل في مسمى الدين الإسلامي، بحجة أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

نحن نقول صالح، ولا نقول خاضع، فأنت اعمل بالإسلام في أي زمان، أو مكان، أو أمة، وانظر هل ينافي المصالح، أو ينمي المصالح!

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** تذكير النبي ﷺ، بالأمور التي يحسن أن يُوعظ فيها، لقوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ حيث قلنا: إنها منصوبة بفعل محذوف تقديره: اذكر.

٢- **ومن فوائدها:** بيان منة الله على زيد بن حارثة في الإسلام، والتمسك به، حتى إن أباه وأعمامه لما جاءوا يطلبونه، وخيَّره النبي ﷺ بينهم وبينه، فاختار أن يكون مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإعتاق نعمة من المعتق على عتيقه وهو كذلك، والفَرَضيُّون يعبرون بالنعمة عن الإعتاق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز عطف الأمور غير الشرعية بالواو إذا اختلف المعنى، وقلنا: ما يسوى بين الله والرسول في الواو في غير الأمور الشرعية، وهنا عطف نعمة الله على نعمة الرسول بالواو، مع أنها ليست من الأمور الشرعية، لكن الذي سوَّغ ذلك اختلاف النعمتين، فالنعمة الأولى: الإسلام، والنعمة الثانية: العتق.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الزوجة تابعة للزوج، لقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ فكأنه يضمها، ويحرصها ويصونها، وكأنها تابعة له كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:٤].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** استشارة ذوي الرأي، لأن زيدًا استشار النبي ﷺ.

٧- **ومن فوائدها:** أنه يجب على المستَشار أن يبذل ما يراه - ولو باجتهاده - لما يراه هو الأولى؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، أشار على زيد بإمساكها؛ اجتهادًا منه، خوفًا من إثارة المنافقين والمشركين عليه ولكن لا يعني ذلك أن يكون المشير مصيبًا فيما يتصرف فيه. قد يخطئ فيما يتصرف فيه، لكن هو في حال إشارته، يرى أن ذلك هو الصواب.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأفضل للزوج ألا يتعجل في الطلاق، وأن يمسك عليه زوجته، لقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، فأشار عليه بعدم الطلاق، وإن كان للرسول عليه الصلاة والسلام أغراض أخرى، لكن لا يمنع أن تتعدد الأسباب في الأمر بإمساكها، ومعلوم أن الله عز وجل قال في كتابه المبين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

ومن فوائد الآية الكريمة: ثبوت رسالة النبي ﷺ، وأنها رسالة حق، لقوله: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾، فلو كان النبي ﷺ، كاذبًا - وحاشاه من ذلك - لكان يخفي مثل هذه الأشياء؛ لأنها صعبة في حقه.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله عز وجل قد يفعل خلاف ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام عليه، بمعنى: أن اجتهاد النبي ﷺ، قد يكون مخالفًا لما يريده الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فالرسول أخفى في نفسه هذا الأمر، لكن الله خالفه في ذلك، فأبداه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن خوف الناس قد يقع من الأنبياء، ولكنهم لا يُقَرُّون عليه، لقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾.

١١- **ومنها**: وجوب تقديم خشية الله عز وجل على خشية كل أحد، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فالواجب على المرء ألا يخاف في الله لومة لائم، وأن يتقي الله عز وجل في بيان الحق والعمل به، ولا يقول: إن الناس يشمتون بي، إن الناس يسخرون مني، إن الناس يستهزئون بي، وليكن ذلك، فإنه لا يزداد بهذه السخرية والاستهزاء إلا رفعة عند الله سبحانه وتعالى.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يصح التزويج، حتى ينتهي حق الزوج الأول من الزوجة بالكُلِّية، لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فكان التزويج بعد انتهاء زيد منها بالكلية، ولا يرد على ذلك أن يقال: إن ظاهر الآية جواز التزويج بعد الطلاق مباشرة، لأننا نقول: إن الوطر هو الحاجة، ما تنتهي إلا بانتهاء العدة، إذ إن الإنسان إن أراد أن يرجع إلى زوجته في العدة وهي رجعية، لحصل له ذلك.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات العظمة لله عز وجل، والسلطان، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؛ لما له من العظمة والسلطان.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة زينب رضي الله عنها؛ حيث زوَّجها الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، ووجهه: أن غيرها يزوجها أولياؤها، وأهلها، وأما هي فقد تولى الله عز وجل تزويجها، وهذه منقبة عظيمة لها.

١٥- **ومن فوائدها**: أن الله سبحانه وتعالى يثيب عبده أكثر من عمله؛ لأن هذه المرأة - كما سبق - تزوجت زيد بن حارثة، مع أن زيدًا من الموالي، وهي من صميم العرب، وقد يكون في ذلك غض من حقها ومرتبتها، فرفع الله من شأنها؛ حيث زوجها رسوله محمدًا ﷺ، هو بنفسه تبارك وتعالى، ولا شك أن هذا رفعة من شأنها، بعد أن كانت تحت هذا المولى، وهي من صميم العرب، وكان في ذلك شيء من الغضاضة عليها، رفع الله من شأنها في هذا الأمر.

١٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما ثبت في حق النبي ﷺ من أحكام، فهو ثابت في حق الأمة؛ لأن هذا الحكم خُوطب به الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فدل ذلك على أن ما ثبت للرسول عليه الصلاة والسلام، من أحكام فأمته تبع له، إلا ما قام الدليل على تخصيصه.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تزوج الرجل بزوجة مَنْ تبناه، لقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾.

١٨- **ومن فوائدها:** أن ابن التبني لا يُسمى ابنًا، وما سماه الله بالابن، لقوله: ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، وقوله في أول السورة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أن قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] أن هذا القيد ليس لإخراج ابن التبني؛ لأنه ما دخل في الأبناء، حتى يحتاج إلى إخراجه.

١٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أمر الله الكوني لابد أن يقع، لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فلو قال قائل: أمر الله مفرد مضاف، فيعم الأمر الكوني والشرعي، فبماذا نجيبه، ونحن خصصناه الآن بالأمر الكوني نقول: إن الأمر الشرعي ليس مفعولًا لكل أحد؛ بل هناك من لا يفعله.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه لا حرج على النبي ﷺ فيما أحل الله له، وإن كان مخالفًا لما يعتاده الناس؛ لعموم قوله: ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾، وقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول، فكل ما أحل الله للرسول، فلا حرج عليه فيه.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أنه لا حرج على الإنسان غير الرسول فيما أحل الله له؛ لأن ما ثبت في حق النبي ﷺ، ثبت في حق أمته إلا بدليل، ولكن يجب على الإنسان أن يراعي أحوال الناس، وما يستنكر عليه فيهم حتى لا يعرِّض نفسه للذم والقدح، فمراعاة أحوال الناس أمر لابد منه، إلا في الأمور الشرعية، فإن الواجب على المرء إبانتها وإظهارها.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** تكليف النبي ﷺ، وأنه يلحقه الحرج فيما لم يحلّه الله له، لقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾؛ فيستفاد من هذا أن الرسول عليه الصلاة والسلام عبد من عباد الله، لا يخرج عن طاعته وشريعته، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: إن الرسول محمدًا عليه الصلاة والسلام عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب، وهو كذلك.

٤- **ويستفاد منها:** أن البيان بالفعل أبلغ وأقوى من البيان بالقول، يؤخذ من كون الله تعالى زوَّج زينب بنت جحش رسوله ﷺ، فإن هذا أبلغ في الطمأنينة، وثبوت الحكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما شرعه الله لرسوله في هذه الآية؛ فهو مشروع لمن كان قبله، لقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، وربما يُؤخذ منها فائدة أيضًا وهي: أن شرع من قبلنا شرع لنا؛ لأن الله جعل هذا سنة الأولين، وقد يُنازع في ذلك، فيقال: إن الله بيَّن أن ما

شرعه لنبيه، أو ما نفاه عنه من الحرج فيما فرض له، هو سنة مَن قبله، ولا يعني ذلك أن يوافقه.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أمر الله قد كُتب وقُدِّر، لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، وهل المراد بالأمر هنا الكوني أو الشرعي؟ الكوني.

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: الثناء على الرسل السابقين، لقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾.

٢- **ومن فوائدها أيضًا**: الثناء على من بلَّغ شيئًا من شريعة الله من غير الرسل، وجه ذلك: أنه إنما أُثني على الرسل، لكونهم بلَّغوا الرسالة، ولم يخشوا أحدًا، فمن كان مثلهم في ذلك، فهو محل الثناء.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام ألا يخشوا أحدًا في تبليغ الرسالة، وإنما يخشون الله في عدم تبليغها، ولا يخشون الناس في تبليغها، ويخشون الله في عدم تبليغها.

٤- **ومن فوائدها**: أن إبلاغ الرسالة من خشية الله، فإنه لولا خشية الله ما بلغوا رسالته.

٥- **ومن فوائدها**: إثبات الرسالات فيمن سبق، لقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾، واعلم أنه ما من أمة من الأمم، إلا أَرسل الله إليها رسولًا، من أجل أن تنتفي الحجَّة على الله، وتزول المعذرة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن حفظ الله عز وجل في غاية ما يكون من الحفظ، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، هذا إذا جعلنا الحسيب بمعنى: الحفيظ الكافي، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أما إذا جعلنا الحسيب بمعنى: المحاسب، فإنه يدل على كمال، فيؤخذ منها فائدة وهي: كمال محاسبة الله عز وجل لعباده، وأنه لا يفوته شيء.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة**: إثبات علم الله، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، سواء جاء هنا الحسيب بمعنى: المحاسب، أو بمعنى الحفيظ، فإنه لا محاسبة إلا عن علم، ولا حفظ إلا بعلم.



قال الله تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠-٤٤]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

قوله: ﴿مَّا﴾ نافية، وهل هي حجازية، أو غير عاملة؟

الجواب: غير عاملة؛ لأن العمل لـ (كان)، وليس لها.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ يعني: رسول الله ﷺ، ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لم يقل: ما كان رسول الله، بل قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ فتحدث عنه باعتباره شخصًا من الناس، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فأثبت له الرسالة.

وقوله: ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ﴿أَبَآ﴾ بالألف؛ لأنها خبر ﴿كَانَ﴾، قال: [فليس أبا زيد، أي: والده فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب].

وقوله: ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تبنيًا، أو تبنيًا وولادة؟ تبنيًا وولادة؛ لأن أبناء الرسول عليه الصلاة والسلام الثلاثة توفُّوا قبل أن يبلغوا الرجولة، كلهم توفوا وهم صغار، وقال بعض أهل العلم: إن المراد ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تبنيًا؛ لأنه قال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضاف الرجال إليهم، ولم يقل: أبا أحد من الرجال، وعلى هذا فلا يكون في الآية دليل على أنه ليس أبًا لأحد من الرجال نسبًا وتبنيًا، وهذا هو الأقرب: أن المراد: أبا أحد من رجالكم تبنيًا، لأجل أن ينفي ما كان معروفًا عندهم من أن زيد بن حارثة ابن لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مر علينا فيما سبق: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أن بعض السلف قرأ: وهو أب لهم، فكيف يجمع بينه وبين هذه الآية؟

الجمع بينهما أن يقال هنا: ليس أبا أحد من الرجال بالتبني، ولكنه أبٌ للمؤمنين، باعتبار التعليم والتوجيه والإرشاد.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال: [﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾]، أفاد المؤلف: أن ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ منصوبة بفعل محذوف تقديره: كان رسول الله، و﴿رَّسُولَ﴾ بمعنى مرسل، أي: مرسل الله عز وجل لعباده.

وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني: وكان خاتم النبيين، قال المؤلف: [فلا يكون له ابن «رجل» بعده يكون نبيًا]، وهذا التفسير الذي ذهب إليه المؤلف فيه نظر؛ لأنه يقول: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، إذنْ ليس له ولد بعده يكون رجلًا فيكون نبيًّا، وهذا بناءً على أنه يلزم أن يكون ابن النبي بعده نبيًا، وهذا ليس بلازم، فإن بعض الأنبياء ليسوا أولادهم أنبياء، صحيح أن كثيرًا من الأنبياء صار

أولادهم أنبياء، كإبراهيم مثلًا، ولكن لا يعني ذلك أن جميع الأنبياء يلزم من كونهم أنبياء إذا خلَّفوا أولادًا أن يكونوا أنبياء.

ولكن معنى قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنه لا نبي بعده، هذا معنى الآية، ولا يحتمل غيره، ﴿وَخَاتَمَ﴾ فيها قراءتان: إحداهما بالكسر، والثانية بالفتح، وهي عندي بالكسر، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، على أن خاتم اسم فاعل، يعني: الذي يختمهم، [وفي قراءة بفتح التاء، كآلة الختم، أي: به ختموا] والخاتم ما يُختم به الشيء، مثل الخاتم الذي يكون في الأصبع، وكُتب عليه اسم صاحبه، فإذا أراد أن يختم الكتاب، ختمه بهذا الخاتم، والنبي ﷺ، خاتِم وخاتَم، خاتِم: لأنه آخرهم، وخاتَم: كأنه طُبع على الرسالات بعد ذلك، فلا يمكن أن تأتي بعده رسالة، وهذا هو فائدة القراءتين.

وقوله ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هذا في القرآن، وفي السنة أيضًا أدلة كثيرة تدل على أنه خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فلا نبي بعده.

فإن قلت: ألم يثبت أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان وهو نبي؟

الجواب: بلى، ينزل وهو نبي، لكن نبوة عيسى لم تتجدد بعد، بل كان نبيًّا قبل أن يرفع، ولم يتجدد له نبوة بعد نبوة النبي ﷺ، فكان النبي ﷺ خاتم الأنبياء.

وهل يأتي عيسى بشريعة جديدة؟

الجواب: لا، فإن قلت: أليس يضع الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام؟

الجواب: بلى، وهذه الأحكام مخالفة لحكم الشريعة الآن، فهل معنى ذلك: أنه يأتي بأحكام متجددة؟

فالجواب: لا، لأن إخبار النبي ﷺ، بذلك يكون إقرارًا له، فيكون هذا من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه من المعلوم أن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هي قوله وفعله وإقراره، فإذا قال ذلك عن عيسى مقررًا له، صار ذلك من سنته، وحينئذٍ فلم يأت عيسى بنبوة جديدة، ولم يأتِ بتشريع جديد ولا إشكال في ذلك.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كان هنا مسلوبة الزمان، وإنما يؤتى بها لتحقق الصفة، وهي العلم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [منه بألا نبي بعده]، يعني: من العلم الذي علمه الله تعالى ألا نبي بعده، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يشمل حتى أعمال بني آدم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] قبل أن يعمله، قال: [وإذا نزل السيد عيسى يحكم بشريعته]، إذا نزل السيد، هل وصفه الله بالسيد؟ ما وصفه بالسيد، على كل حال أنا أخشى أن هذه الكلمة دخلت

على المؤلف وهي من عبارات النصارى؛ لأنهم دائمًا يقولون: السيد المسيح، ولا شك أنه سيد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه نبي من الأنبياء، يقول: [يحكم بشريعته]، وحينئذٍ لا يأتي بشريعة جديدة، فلا ينافي الآية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقد علمنا أنه يرد على قضية نزول عيسى إيرادان:

أولًا: أنه نبي، فكيف يكون نبيًّا، والرسول هو خاتم الأنبياء.

وثانيًا: أنه يحصل به تغيير لبعض أحكام الشريعة، وأجبنا عن ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

قال ابن مسعود: (إذا سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنه عنه)، وإذا نادى الله تعالى المؤمنين بوصف الإيمان، فإن هذا من باب الإغراء لهم على امتثال الأمر إن كان الموجه إليهم أمرًا، وعلى اجتناب النهي، إن كان الموجه إليهم نهيًا؛ لأنك إذا ذكرت الإنسان بوصف يقتضي الامتثال، فمعنى ذلك أنك تغريه بأن يمتثل، وإذا خاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان، كان ذلك دليلًا على أن ما خُوطبوا به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان.

وإذا صَدر الله الحكم بالنداء كان في ذلك دليل على أهميته والاعتناء به.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ على أي حال؟ الذكر كما سبق، يكون باللسان، ويكون بالقلب ويكون بالجوارح.

وقوله: ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ غير مقيد بمائة، ولا مائتين، ولا ألف، ولا ألفين، والإنسان العاقل: يمكنه أن يذكر الله دائمًا، والإنسان الغافل يغفل عن ذكر الله دائمًا.

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا ذكر خاص بعد عام في العمل وفي الزمن.

أما في **العمل**: فإن التسبيح من الذكر، فهو تخصيص بعد تعميم.

وأما في الزمن: فهنا خصه بالبُكرة والأصيل، وأما الذكر فأطلق، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠].

يقول: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ﴾ التسبيح معناه: التنزيه عن كل نقص وعيب، ومن العيب مشابهة المخلوقين، أو مماثلة المخلوقين، فأنت إذا قلت: سبحان الله، فالمعنى: أنك تنزه الله عن كل نقص وعيب، ومنه - أي من العيوب - مماثلة المخلوقين، فهو منزه عن مماثلة المخلوقين، وعن كل نقص في صفاته، فهو سميع، ومنزه عن نقص السمع، وعليم منزه عن نقص العلم، وهكذا بقية الصفات.

فقوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أول النهار وآخره] يعني: بكرة أول النهار، والأصيل آخر النهار، وعلى هذا فيكون الله عز وجل قد أمرنا أن نسبحه في الصباح وفي المساء.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

قال المؤلف: [﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي: يرحمكم، ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي: يستغفرون لكم].

فسر المؤلف الآن الصلاة بالنسبة إلى الله بالرحمة، وبالنسبة إلى الملائكة بالاستغفار، وهذا فيه نظر، والصواب أن معنى ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُثني عليكم في الملأ الأعلى، والملائكة أيضًا يثنون عليكم، هذا هو معنى الصلاة من الله، ومن الملائكة أيضًا.

وقوله: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فيها إشكال من ناحية الإعراب، ملائكته مرفوعة، وابن مالك يقول:

وَإِنْ عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلِ عَطَفْتَ فافْصِلْ بِالضَّمِيرِ المُنفَصِلِ

وهنا لم يجئ الضمير، فلم يقل: هو الذي يصلي عليكم هو وملائكته، أو فاصلٍ ما، وهذا داخل في قولنا: (أو فاصلٍ) ما هو الفاصل هنا؟ الجار، والمجرور، ولذلك إذا قلت: قمت وزيد، هذا ضعيف، والأرجح أن تقول: قمت وزيدًا، على أنها مفعول معه، أما إذا فصلت فقلت: قمت أنا وزيد، أو قمت في الناس خطيبًا وزيد، وفصلت، فهذا لا بأس به، وهنا فصل بالجار والمجرور.

وقوله: ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أضاف الله الملائكة إليه من باب التشريف لهم؛ لأنهم ملائكته، وهم أيضًا مخلوقون له.

والملائكة كما مر علينا: هم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهل يمكن أن يكونوا من عالم الشهادة؟

الجواب: نعم، كما جاء جبريل عليه السلام إلى مريم، فتمثل لها بشرًا سويًّا، وجاء إلى النبي ﷺ ليسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة[1]، وكما جاء في صورة دحية الكلبي، وغير ذلك، لكن الأصل أنهم عالم غيبي، فهم ولهم أجساد، ولا جسد إلا بروح، لهم أجساد وأرواح، ولهذا سمى الله جبريل روحًا، ورآه النبي ﷺ على خلقته مرتين، وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ للتعليل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤلف: [ليديم إخراجه إياكم]، وإنما صرف اللفظ إلى معنى الإدامة؛ لأنه يخاطب المؤمنين، وإذا كان يخاطب المؤمنين، فإنهم قد أُخرجوا من الظلمات إلى النور من الأصل، ولكن قد يقال: إنه لا حاجة إلى هذا التأويل، وأن معنى قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أي: ليزيدكم علمًا وإيمانًا.

وقوله: [﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: الإيمان]، لا شك أن الكفر ظلمات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ولا شك أيضًا أن الإيمان نور، ولكن الآية أعم مما قال المؤلف، فهو ليخرجكم من ظلمات الجهل، والكفر إلى نور العلم والإيمان، فيكون المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تقاصر في تفسيره للآية، والصواب: أنه يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (كان) يعني: الله عز وجل، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿رَحِيمًا﴾، قُدم عليه للحصر؛ لأن هذه الرحمة رحمة خاصة بالمؤمنين، تقتضي العناية بهم وتوفيقهم وهدايتهم إلى الخير، أما الرحمة العامة: فهي للمؤمنين، وغير المؤمنين، لكن الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين فقط.

ثم قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

قوله:﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ الضمير يعود على المؤمنين، والتحية معناها: الدعاء بالبقاء، فإذا قال: حياك، أي: دعا لك بالبقاء، ثم صارت اسمًا، لما يستقبل به الضيف، أو الداخل أو ما أشبه ذلك، مما يدل على الإكرام، فالتحية إذنْ في الأصل: الدعاء بالبقاء والحياة، ثم نُقلت في العُرف إلى كل ما يُحيًّا به المرء، ويُستقبل به من عبارات التكريم، فتحيتهم أي: تحية المؤمنين، ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يلقون الله، وذلك يوم القيامة، سواء كان في عَرَصَات القيامة، أو كان بعد دخولهم الجنة، فتحيتهم حينئذٍ سلام.

قال المؤلف: [بلسان الملائكة] أي: أن الملائكة هم الذين يسلمون على هؤلاء بأمر الله، فإذا سلَّموا على هؤلاء بأمر الله، صار كأن المسلِّم هو الله، لكن هذا صرف للآية عن ظاهرها، فإن ظاهر الآية أن الذي يسلم هو الله عز وجل، وإذا كان السلام من الله فهو خبر محض، وليس دعاء؛ لأن الله تعالى لا يدعو أحدًا، ولكن يُخبر بالسلام الدائم الذي لا يعتريه أي نقص، أو أي خوف، أما إذا كان من الملائكة، فإنه يحتمل الخبر، ويحتمل الدعاء، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣].

إنما الصواب بلا شك: أن السلام من الله؛ لأنه يقول: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ فالملاقى هو الذي يسلم، وهو الذي يحيي هؤلاء، ولا شك أن الرب عز وجل إذا قال لهم: سلام عليكم، يزول عنهم كل خوف، ولهذا تُسمَّى الجنة دار السلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] ؛ لأنها دار سالمة من كل آفة لا فيها مرض ولا فيها

موت ولا فيها هرم ولا فيها نقص في الرزق، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يقولون: التحلية بعد التخلية، يعني: تحلية الماء بعد أن نخليه من الجراثيم، ومعناه: إلباس الحلي، بعد التخلية، فمثلًا بالنسبة للمرأة التي أريد إلباسها الحلي أن أزيل عنها العيوب والوسخ، وبعد ذلك أحلِّيها، لكن كيف تحليها وكلها أوساخ !!

إذنْ لما قال: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: من الآفات، ذكر بعد ذلك: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ وهذا تحلية بعد تخلية، بعد أن أخبرهم أنهم سالمون من كل آفة، بيَّن أنه أعد لهم أجرًا كريمًا، قال المؤلف: [هو الجنة] والأجر بمعنى: الثواب، وهو ما يُعطى الأجير في مقابلة عمله، ويسمى أجرًا، ويسمى أجرة، ولكن سبق لنا مرات كثيرة أن أجر العاملين على عملهم ليس من باب المعاوضة؛ لأنه لو كان من باب المعاوضة، لكان نعمة واحدة من نعم الله على العبد تستوعب جميع عمله، بل لو كان على سبيل المعاوضة، لكان توفيقك للعمل نعمة تحتاج إلى أجر؛ ولهذا قال بعضهم:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

وثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَنْ يَدخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُوْلَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١).

إذنْ العمل بماذا نصفه إذا لم يكن عوضًا؟ نصفه بأنه سبب، وليس بعوض؛ ولهذا صرَّح الله - تعالى - في عدة آيات، أن الثواب هذا جزاء بما كانوا يعملون، أي: بسبب ما كانوا يعملون، فالباء للسببية في قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] والباء للعوض في قول الرسول ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، وبهذا يجمع بين النصين.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هل الأجر هو الكريم، أم الكريم هو المتفضل بالأجر؟ يجب أن نعلم أن الكريم يطلق على الجواد الباذل للمال، ويطلق على الشيء الحسن، ومنه قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم»(٢) يعني: حَسَنِها، فقوله: ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: حسنًا، فما وجه هذا الثواب، أو هذا الأجر؟ أن الله جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن مدة بقاء الإنسان في الدنيا بالنسبة للآخرة ليس بشيء إطلاقًا، ولا يُنسب،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، و مسلم (١٩).

الرسول ﷺ، يقول: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١)، والمقصود الدنيا التي أنت فيها والتي قبلك، والتي بعدك، والسوط كما تعرفون حوالي متر، خير من الدنيا وما فيها.

إذنْ كرم هذا الثواب، لا ينسب إلى العمل، أو بالأصح، لا ينسب العمل إليه؛ لأنه كرم واسع لا نهاية له، خالدين فيها أبدًا.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: إبطالُ بنوة الأدعياء، لقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهل يستفاد منه أن الرسول ﷺ ليس أبًا لأحد من الرضاع أو لأحد من النسب؟ لا يستفاد؛ لأنه ثبت أن له أبناءً، لكن بعض العلماء يقول: إن أبناءه لم يبلغوا أن يكونوا رجالًا، فالآية عامة، ولكنه تبين لي أن هذا لا يصح أيضًا؛ لأن الرسول ﷺ، له أبناء كانوا رجالًا ولهم ذرية، وهم الحسن والحسين، والرسول ﷺ، قال: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»، فسماه ابنًا، وقد عقَّ النبي ﷺ، عن الحسن والحسين، هو بنفسه.

إذنْ هذه الآية في إبطال بنوة الأدعياء.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ثبوت رسالة النبي ﷺ، لقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائدها**: أن رسول الله ﷺ آخر الأنبياء، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٤- **ومن فوائدها**: أنه أفضل الأنبياء؛ على قراءة ﴿وَخَاتَمَ﴾ بالفتح؛ لأن الخاتم هو الطابع على الشيء، وهو الشيء الذي يكمل به الشيء، ولهذا وصف النبي ﷺ نفسه مع الأنبياء بأنه كقصر مشيد، يطوف فيه الناس ويقولون: ما أجمل هذا القصر، إلا إن فيه موضع لبنة، لم يتم فقال الرسول ﷺ: «أَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ(٢)»، فبه تمت الرسالات، وكَمُلَتْ، ولهذا ـ لاحظوا ـ أن دين الرسول ﷺ شامل لجميع محاسن الأديان، كل محاسن الأديان التي توجد فيها. من نوح إلى محمد ﷺ، فإن دينه شامل لجميع محاسنها، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] فكل هدى الأنبياء قد اقتدى به النبي ﷺ.

إذنْ فما من صلاح في جميع الأديان، وكمال، إلا وجاء به محمد ﷺ.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا نبي ولا رسول بعد محمد ﷺ، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، و مسلم (١٨٨١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، و مسلم (٢٢٨٦).

٦ **ومن فوائدها:** أن من ادعى النبوة بعده فهو كاذب، ولو جاء بما جاء به من الخوارق، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وهذا خبر، وخبر الله صدق، لا يمكن أن يتطرق إليه الكذب بوجه من الوجوه.

٧- **ومن فوائدها:** أن من صدق مدعي النبوة بعد محمد ﷺ، فهو كافر، لأنه مكذِّب للقرآن، والمكذب بالقرآن كافر.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات النبوات السابقة، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمع نبي، وهم كثيرون جدًّا، لكن الرسل منهم: ثلاث مائة وبضعة عشر رجلًا، لم يذكر منهم في القرآن إلا خمسة وعشرون، وكل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهو رسول، حتى وإن لم يوصف بالرسالة، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ [غافر:٧٨]، فدل هذا على أن كل من قص الله علينا نبأه في القرآن فهو رسول، حتى وإن لم يوصف بالرسالة، مثل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وما أشبهها.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علم الله، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن إقرار الله للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتأييده له شاهد لصدق رسالته، لأنه قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، فلو علم الله أن محمدًا غير رسول، ماذا يصنع به؟ قال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤، ٤٦]، والوتين عرق في القلب إذا قُطع مات الإنسان، فكون الله يؤيده، وينصره ويفتح على يديه، وهو يقول: إنه رسول الله، وأنه أذن له في استباحة أموالكم ورقابكم، إذا لم تدخلوا في الإسلام، ولم تؤدوا الجزية، يكون هذا آية من آيات الله له، ولهذا ختم الآية هذه التي أثبتت الرسالة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾.

١١- **ومن فوائدها:** وجوب مراقبة العبد ربَّه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، فأنت إذا علمت أن الله عالم بكل شيء، ومن الشيء: قولك وفعلك، وفكرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، والله لو كان عندنا هذا الإيمان ثابتًا راسخًا، لكان الإنسان تقل معاصيه، ومخالفته، لكن الإنسان في غفلة، إذا علمت أنك إن تحركت علم الله بك، وإن سكنت علم الله بك، وإن نطقت علم الله بك، وإن فكرت علم الله بك، هذا يوجب لك مراقبة الله ـ عز وجل ـ، وألا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على غلاة القدرية، تؤخذ من أنهم أنكروا علم الله بما يصنعه العباد قبل وقوعه منهم، والآية هذه فيها رد عليهم في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة الله ـ عز وجل ـ في كل شيء، في صفاته وفي أسمائه، وفي أفعاله، كما قال الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٣٠] ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾،

تؤخذ من قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فالذي بكل شيء عليم، لا شك أنه واسع.

ثم قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

١- **في الآية الكريمة:** بيان العناية بالذكر؛ لأن الله عند الأمر به صدر الآية بالنداء.

٢- **ومن فوائدها: أن الذكر من الإيمان بالله، ومن مقتضياته، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.**

٣- **ومنها: أن الإيمان يزيد به، وجهه: أن كل ما كان من مقتضيات الشيء فإنه يزداد به.**

٤- **ومن فوائدها: أن نقص الذكر نقص في الإيمان.**

٥- **ومن فوائدها:** مشروعية ذكر الله تعالى بكثرة، لقوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مشروعية التسبيح؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، لكن في الغدو والآصال، ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تنزه الله - تعالى - عن كل نقص وعيب، لقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ فأمرنا بأن ننزهه، لأنه مستحق لذلك.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الذكر حياة للقلب؛ لأن الله تعالى أمر به على وجه الكثرة، فلولا الفائدة العظيمة منه ما أمر به على سبيل الكثرة.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان، وأنه سبب لثناء الله وملائكته على عبده، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الكلام لله - تعالى -، تؤخذ من قوله: ﴿يُصَلِّى﴾؛ لأن الصلاة هي الثناء على العبد في الملأ الأعلى.**

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** محبة الله للمؤمنين، ومحبة الملائكة لهم، تؤخذ من الثناء عليهم، ومن الصلاة عليهم؛ لأن من يحبك يثني عليك، ومن يبغضك يذمك.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لنا بل يجب علينا محبةُ الله - عز وجل -، وملائكته؛ لما لهم علينا من الفضل، والإحسان، فإنهم يصلون علينا، فهذا يقتضي أن نحبهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الملائكة، لقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

٦- **ومنها:** فضيلة الملائكة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، فالإضافة للتشريف والتكريم، ففيه: فضيلة الملائكة؛ لأن الله أضافهم إليه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلل والحِكَم لأفعال الله، لقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الجهل والكفر ظلم، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الجهل ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة المؤمنين، وأن لهم عند الله - تعالى - رحمة خاصة، لقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** الحثُّ على الإيمان، والترغيب فيه، وتؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، فإن الله ما أخبرنا هنا في الآية الكريمة لمجرد أن نعلم أنه رحيم بالمؤمنين، ولكن من أجل أن نتعرض لهذه الرحمة الخاصة، فنكونَ من المؤمنين.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله، لقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٢- **ومن فوائدها أيضًا:** الردُّ على الأشعرية ونحوهم ممن ينكرون وصف الله بالرحمة، لقوله: ﴿وَكَانَ﴾ فالضمير في قوله: (كان) يعود على الله، رحيمًا: خبر مبتدأ، فهو وصفه.

قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

١- **في الآية الكريمة:** إثبات البعث، من قوله: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾.

٢- **وفيها:** إثبات كلام الله، وأنه يتكلم، لقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾، ويؤيده قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] فإنه يتكلم به - سبحانه وتعالى - ويقوله قولًا.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** البشرى العظيمة للمؤمنين، وأن الله نفسه جلّ وعلا يحييهم بهذه التحية، لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، فلو أن ملِكًا من ملوك الدنيا وعدك بهذا، وقال: إنه سيحييك بالسلام، ويقدِّم لك القرى الكريم الحسن، فسيكون فرحك شديد،وهنا الله - عز وجل - يخبر عن نفسه أنه سيحيي المؤمنين، بهذه التحية مع تقديم الأجر العظيم، ولهذا تعتبر الآية هذه فيها البشارة العظمى للمؤمنين، بأن الله يحييهم، ويعد لهم الأجر الكريم.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الآخرة فيها آفات وأذى، يسلم منها مَنْ يسلم، ويعطب فيها من يعطب؛ لقوله: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، أما غيرهم، فلا سلام لهم؛ لأنهم معذَّبون في النار، والعياذ بالله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء، لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الأجر الذي أعدَّه الله للمؤمنين أجرًا حسنًا، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: أحسن شيء.



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٩]

التفسير

قال الله هذا، تشريفًا له، وإظهارًا لنبوته.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ فجمع له بين الوصفين: النبوة والرسالة، على وجه صريح، وإلا فلو وُصف بالرسالة وحدها، لتضمنت وصفه بالنبوة؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، لكن الجمع بين الوصفين أولى على وجه النص والتعيين، وفي حديث البراء بن مالك، فيما يقال من الذكر عند النوم أن النبي ﷺ، علمه إذا أوى إلى فراشه أن يقول: آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فلما أعادها عليه البراء قال: آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت، فقال له: «**وبنبيك الذي أرسلت**»[1]، لماذا؟ قال العلماء: لأن الله أراد أن يجمع له بين وصفي النبوة والرسالة على وجه التعيين؛ لأن دلالة الرسالة على النبوة من باب دلالة الالتزام، وأما دلالة النبوة على النبوة، فهو من باب دلالة النص والتعيين، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أنه إذا قال: «**ورسولك الذي أرسلت**»، لم يكن نصًّا في الإيمان بمحمد ﷺ، إذ قد يجوز أن يقول: أن يراد به الرسول الملكي دون الرسول البشري، هنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، ولم يقل: يا أيها الرسول إنا أرسلناك، لماذا؟ ليجمع له بين وصفي النبوة والرسالة، على سبيل التعيين والنص، لكن انظر إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ثم قال: ﴿بَلِّغْ﴾ لأنه إنما يأمره بالبلاغ، وهذا يناسب الرسالة.

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على من أرسلت إليهم، وكلمة ﴿شَاهِدًا﴾ حال من الكاف في قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، والشاهد يطلق على المخبر وعلى الحاكم، والنبي ﷺ، شاهد مخبر حاكم، فهو مخبر عن الله - عز وجل - بما أرسله به، وكذلك مخبرٌ عمن أرسل إليهم بالقبول أو الرفض،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧)، و مسلم (٢٧١٠).

وكذلك هو حاكم؛ فإن الحكم لله ورسوله.

والدليل على أن الشاهد بمعنى الحاكم، قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]؛ إذنْ شاهد بمعنى: مخبر، وحاكم فهو مخبر عن الله ومخبر عن عباد الله؛ مخبر عن الله بما أوحاه إليه، ومخبر عن عباد الله بالقبول أو الرفض، وكذلك هو شاهد على من سبقه من الأمم في تبليغ رسالات الرسل، وفي تكذيب قومهم لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]؛ إذنْ هو شاهد بما أوحاه الله إليه وحاكم به، وشاهد على من أُرسل إليهم، وشاهد على من سبقه من الأمم.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معطوف على ﴿شَٰهِدًا﴾ يعني: وأرسلناك مبشرًا، والبشارة تقتضي أربعة أمور: مبشِّر، ومبشَّر، ومُبَشَّرْ بِهِ، وسببًا يوصل إلى المبشر به، فإذا كان الرسول ﷺ، مبشِّرًا فلابد أن يكون هناك من يبشره، وهم الذين أرسل إليهم واتبعوه على ما دعا إليه، ولابد أن يكون هناك مبشَّرًا به، وهي الجنة، قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧]، ولابد أن يكون هناك سبب يوصل إلى المبشر به وهي الأعمال الصالحة، فالنبي ﷺ، قد بيَّن، وبلغ الرسالة إلى المبشرين، وبين المبشر به، وما يتضمنه من الثواب وأنواع النعيم، وبيَّن الأسباب الموصلة إلى ذلك وهي الأعمال الصالحة، ولهذا ترك الرسول ﷺ أمته على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ النذير: هو من أتى بالإنذار؛ وهو: الإعلام المقرون بالتخويف، يسمى إنذارًا، وفي حديث جابر رضي الله عنه في صفة خطبة النبي ﷺ، يقول: (كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ)(١).

وقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ نقول فيها كما قلنا في ﴿بَشِيرًا﴾، لابد فيها من أمور أربعة: منذِر، ومنذَر، ومنذَر به، وأسباب توصل إلى ذلك، وكلها قد جاء بها النبي ﷺ، فما هو المنذَر؟ الأمة عمومًا، والمنذر به: النار، وأسبابه: الأعمال السيئة، والمنذِر: هو النبي ﷺ، فقد بيَّن النبي ﷺ كل هذه الأمور لكل المنذرين وأدى إليهم الأمانة.

قال: [﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من صدقك بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ منذرًا من كذبك بالنار، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى طاعته، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره].

هذا الوصف الرابع: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: يدعو الناس إلى الله - عز وجل -، وقول المؤلف: [إلى طاعته]، فيه نظر، بل الأَوْلَى أن تبقى الآية على ظاهرها، وأن النبي ﷺ، يدعو إلى الله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٦٧)، و النسائي (١٥٧٨)، وأبو داود (٢٩٥٤).

ـ عز وجل ـ، إلى الوصول إليه في دار كرامته، ولا وصول إليه في دار كرامته إلا بامتثال أمره، واجتناب نهيه، فهو داع إلى الله تعالى لطاعته واجتناب نهيه.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لم يبين هنا كيفية الدعوة، ولكنه بينها في آية أخرى في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] ، والدعوة لابد فيها من أمور أربعة: داع، ومدعو، ومدعو إليه، وسبب يوصل إلى المدعو إليه، وكل هذا جاء به النبي ﷺ، وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو الناس سرًّا وجهرًا حسبما تقتضيه المصلحة والحاجة، فكان أول دعوته سرًّا؛ لأنه كان يخشى أن تُصادم هذه الدعوة، حتى تدفن، ثم بعد ذلك جهر بالدعوة لما قال له الله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] ، ثم صار يدعو من قرب، ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ثم من بَعُد، على حسب ما تقتضيه الدعوة.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني: لا إلى نفسك، ولهذا كان النبي ﷺ، لا ينتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حُرمات الله ـ عز وجل ـ، فإنه كان أشد الناس غضبًا لله؛ لأنه ليس يدعو إلى نفسه، كما يوجد لدى كثير من الدعاة، يدعون إلى أنفسهم في الواقع يريدون أن يعظمهم الناس، وأن يأخذوا بقولهم، حتى إنهم إذا خولفوا في ذلك، تجد الإنسان يتكدر، لا لأنه خولف أمر الله، ولكن لأنه خولف هو، الذي هذا شأنه أنه يدعو إلى نفسه، وليس يدعو إلى ربه، ففتش عن نفسك، هل فيك شيء من هذا؟ إن كان فيك شيء من هذا فأصلح الأمر، وإن كنت لا تغضب إلا لله، ولا ترضى إلا لله، فهذا هو الداعية حقيقة.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الإذن ـ هنا ـ يشمل الإذن الكوني، والإذن الشرعي، فإن كان المراد به ما يُدعى به، فهو الشرعي، يعني: إن كان المعنى داعيًا إلى الله تعالى بأمره الذي أمرك بالدعوة إليه، فالمراد به إذنُ الشرعي، وإن كان المراد: داعيًا إلى الله تعالى بقدره، يعني: قواك على ذلك، وهيأ لك الأسباب، فهو إذن كوني، والآية تشمل هذا وهذا، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إنما يدعو بقضاء الله وقدره، ويدعو كذلك بدينه وشرعه، فهو داعٍ بالأمرين جميعًا.

الوصف الخامس قال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ قال المؤلف: [أي: مثله في الاهتداء به].

قوله: ﴿وَسِرَاجًا﴾ والسراج ما يُستضاء به، ووصفه بأنه منير، إما لبيان الواقع؛ لأن كل سراج له إنارة، وإما لبيان أن هذا السراج كان له إضاءة قوية، فهو منير لما حوله، وهذا هو الأقرب؛ لأننا عندنا من القواعد المقررة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام تأسيسًا أو توكيدًا، فالأصل أنه تأسيس، لأن التأسيس فيه زيادة معنى بخلاف التوكيد، التوكيد ليس فيه إلا التقوية، لكن التأسيس فيه زيادة معنى.

وعلى هذا فالأظهر: أن هذا وصف للسراج باعتبار قوته، وإضاءته، ولا شك أن النبي ﷺ، عَلَمَ يهتدى به في الظلمات فهو قد فتح على الناس نور العلم، ونور الإيمان، حتى ترك أمته على

المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، هذه الأوصاف الخمسة التي بينها الله لرسوله ﷺ، ممكن أن نضيف إليها وصفًا سادسًا، ووصفًا سابعًا.

الوصف السادس قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، فإن هذا فيه إثبات الرسالة له.

والوصف السابع قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإن فيه - أيضًا - إثباتًا للنبوة.

وعلى هذا فالآية تضمنت للرسول - عليه الصلاة والسلام - سبعة أوصاف: النبوة، والرسالة، والشهادة، والبشارة، والإنذار، والدعوة إلى الله بإذنه، وكونه سراجًا منيرًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا عطف، ولكنه مبين للمبشَّر، في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بشر المؤمنين، ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ والمؤمنون هنا: يراد بهم المؤمنون والمسلمون جميعًا؛ لأنه مر علينا أن الإيمان إذا ذكر وحده شمل الإسلام، والإسلام إذا ذكر وحده شمل الإيمان، وإن ذكرا جميعًا صار الإيمان في القلب، والإسلام في الجوارح.

فقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يقل بشر المسلمين؛ لأن من المسلمين من يكون إسلامهم ظاهرًا، ويكون الإيمان في قلوبهم، إما مفقودًا، وإما ضعيفًا، فالذين هم البشارة المطلقة المؤمنون، الذين وقر الإيمان في قلوبهم وصاروا ينفِّذون مقتضى ذلك الإيمان، ولهذا قال الله - عز وجل - : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤]، فالبشارة المطلقة لا تكون إلا للمؤمنين، وقولنا: المؤمنين، كلما جاءت لفظ المؤمنين، مفردة كما قلت قبل قليل، فإنها تشمل المؤمن والمسلم.

وقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ما الذي نصب ﴿فَضْلًا﴾؟ أن، فهي اسمها مؤخرًا.

وقوله: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ الفضل الكبير هو الجنة، ولا شيء أكبر من فضل الجنة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ولا نعيم أعظم من دخول الجنة، بما يكون في ضمنه بل هو أعلى شيء فيه، وهو النظر إلى وجه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لما كان الناس ينقسمون ثلاثة أقسام: مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وكافر ظاهرًا وباطنًا، ومؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، بين الله هذه الأقسام في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والله تعالى يَقرن بين هؤلاء الأصناف الثلاثة في عدة مواضع من القرآن؛ ففي أول سورة البقرة، ذكر الله الأصناف الثلاثة، وفي سورة الأحزاب لما ذكر الأمانة، وتحملها ذكر الأصناف الثلاثة، وهنا ذكر الأصناف الثلاثة.

وقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الكافر: كل من كفر بالله، سواء كان كفره عن جحود، أو عن استكبار؛ لأن مدار الكفر كله على هذين الأمرين: إما الجحود، وهو التكذيب، وإما

الاستكبار عن الطاعة، فمن كفر بالله، وأعلن كفره فهو من الكافرين، ومن ستر كفره فهو من المنافقين، فالمنافق إذنْ من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهو مأخوذ من نافقاء اليربوع، ونافقاء اليربوع هي بيته؛ لأن اليربوع له حيلة، يحفر في الأرض جُحرًا له، ويجعل له بابًا، ويجعل في أطراف الجُحر قشرة رقيقة، لأجل إذا حجر مع بابه، نفق مع هذه القشرة الرقيقة، فيقال: نافقاء اليربوع، المنافق، هكذا عمله، إذا حُجر فعل ما يتخلص به، لكن نفاقًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وهذا النهي، نهي عما لم يكن لئلا يكون، وليس نهيًا عما كان لئلا يستمر، وبينهما فرق، فإذا قلت لشخص: يا فلان لا تسرق، وهو يسرق، فهو نهي عما كان لئلا يستمر، وإذا قلت لمن لم يسرق، لكنه هم بالسرقة أو لم يهم، فهذا نهي عما لم يكن لئلا يكون.

فقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ ليس المعنى أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يطيعهم ـ حاشاه من ذلك ـ لكنه لأجل ألا يكون أذيتهم له، ومضايقتهم له، وإحراجهم إياه سببًا لأن يتنازل عن شيء مما أُمر به، من أجل دفع أذاهم، وإلا فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لا يمكن أن يطيع الكافرين أو المنافقين في معصية الله.

ولكن النفس البشرية قد تجتهد في أمر من الأمور، وترى أن من المصلحة التنازل عن بعض الأشياء لدفع ما هو أعظم في نظر المكلف، ويكون الأمر ليس كذلك، ولهذا قال: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: إنها مضافة إلى المفعول به، يعني: لا تؤذهم.

وقال بعض المفسرين: إنها مضافة إلى الفاعل، يعني: دع أذيتهم إياك، فلا تلتفت لها، ولا تهتم بها، فأيها أصح الأول أم الثاني؟ الثاني قطعًا؛ لأن الأول غير وارد، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يؤذهم، ولكنه يؤذى منهم، وعلى هذا يكون المصدر هنا مضافًا إلى الفاعل، يعني: دع أذيتهم إياك، وهذا الأمر إما أن يكون للتهديد، وإما أن يكون للتأييد والتقوية، وإما أن يكون لهما جميعًا، إما أن يكون للتهديد يعني: تهديد هؤلاء الكافرين والمنافقين، أي: دع أذيتهم إياك فسوف ينتقم الله منهم، بدليل قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أو أن المعنى: التأييد، يعني: اصبر عليهم، فيكون هذا من باب تأييد الله تعالى لرسوله الله ﷺ، بأن يأمره بأن يدع أذاهم، ولا يهتم به، ولا يبالي به؛ لأن العاقبة تكون للرسول ﷺ، حتى مع هذه الأذية التي قاموا بها بالنسبة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ التوكل، ذكروا في حدِّه أقوالًا متعددة، ولكن أقرب ما يقال فيه: أنه صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة بالله تعالى، وهذا أحسن ما قيل في تفسير التوكل؛ لأن الإنسان إذا اعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار مع الثقة به، صار

ذلك أقوى له، وأكثر طمأنينة لقلبه، ولكن مع هذا فإن التوكل لا ينافي فعل الأسباب الشرعية، التي ثبتت إما عن طريق الشرع، وإما عن طريق الحس، ومن زعم أن هذا ينافي التوكل فقد أخطأ، وذلك لأن الرسول ﷺ، لا شك أنه إمام المتوكلين، وسيد بني آدم، ومع هذا فكان يفعل الأسباب، كان يتقي من الحر، ويتقي من البرد، ويتقي من البأس، فكان يلبس الدروع، كما ظاهر في يوم أُحد بين درعين، ومع هذا فإنه لا يقال: إن النبي ﷺ ضعيف التوكل.

إذنْ فعل الأسباب من تمام التوكل على الله؛ لأن درء ما تخافه يكون بأمرين: أمر من قبلك أنت، وأمر آخر من قِبَل الله، فالأشياء الخفية التي لا تدركها، ولا طاقة لك بها، هذه من قِبَل الله، والأشياء الظاهرة التي لك بها قِبَل، هذه من قبل نفسك، فعليك أن تفعل هذا، وأن تعتمد على الله -تعالى- فيما لا تدركه، ولا يصل إليه ذهنك.

وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (كفى) فعل ماضٍ، والباء حرف جر زائد لتحسين اللفظ، و(الله) لفظ الجلالة: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، مَنَعَ من ظهورها اشتغالُ المحل بحركة حرف الجر الزائد، وكفى: تارة تتعدى بنفسها، يعني: يكون الفاعل فيها بدون الباء، مثل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، وتارةً تتعدى بالباء، متى تتعدى بالباء، ومتى لا تتعدى بالباء؟

الجواب: إذا كان المراد بها معنى التعجب -يعني: ما أبلغ كفايته- فإنها تتعدى بالباء، مثل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وما أشبهها، وإذا كان المراد بيان الكفاية فقط، فإنها تتعدى بدون حرف الجر، مثل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] مثل أن تقول: كفاك الله شرَّ أعدائك، وما أشبهها، وهنا المراد بها التعجب، يعني: معناه أنه ما أشد كفاية الله -تعالى-، وما أبلغ كفايته.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿وكيلًا﴾ هذه حال من فاعل (كفى)، وهي بمعنى حفيظًا وكافيًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، واعلم أن الله أطلق على نفسه الوكيل، وأطلق على نفسه الموكِّل، يعني: وصف نفسه بالموكل، فأما الوكيل فكثير في كتاب الله، ومعناه: الكافي الحافظ، وما أشبه ذلك، وأما وصف الله بالتوكيل أنه موكل، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وهنا قال ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾.

ومناسبة قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أنك إذا توكلت عليه كفاك كل شيء وحفظك، وصار رقيبًا عليك.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تقدم لنا الكلام على تصدير الخطاب بمثل هذا النداء، وأنه يدل

على أهمية الموضوع، وأنه يدل على أن امتثال ما سيأتي من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته من نواقص الإيمان.

وقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المراد بالنكاح هنا: العقد، والنكاح يطلق على العقد وعلى الجماع، وذلك لأن أصله في اللغة العربية الضم والجمع؛ لأن العقد يضم الزوجة إلى زوجها، والزوج إلى زوجته، وهو يطلق بمعنى هذا وهذا؛ ولكنه إذا أضيف إلى أجنبية، فهو بمعنى العقد: وإذا أضيف إلى زوجة، فهو بمعنى: الجماع، فإذا قيل: نكح الرجل زوجته ـ أي جامعها ـ وإذا قيل: نكح فلانة بنت فلان، فالمعنى: عقد عليها، وهي في القرآن كلما جاءت فهي بمعنى العقد، والغريب أن بعض أهل العلم يقول: إنها لم تأتِ بمعنى العقد إلا في هذه الآية، وأنها في القرآن بمعنى الجماع، ولكن هذا ليس بصواب، والصواب العكس: أنها ما جاءت في القرآن إلا بمعنى العقد، ومن الآيات الواردة في هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] المعنى: العقد، وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢] : العقد، ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] العقد: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]: العقد، لكن السنة بينت، أضافت إلى هذا شرطًا آخر، وهو أن يذوق عسيلتها، وأن تذوق عسيلته، وإلا فهو العقد، وقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ أي: اعقدوا لهم.

المهم: كلما جاءت في القرآن فالمراد بها: العقد، حتى في هذه الآية، واضح بمعنى العقد، قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تجامعوهن، العقد، قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ﴾ لا يعقد إلا على زانية أو مشركة، ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، وفي آخر هذه الآية: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإذا كان نكاح الزانية حرامًا، ونكاح الزاني حرامًا، فإذا عقد على زانية ـ وهو حرام ـ فإما أن يعتقد التحريم، فيكون زانيًا؛ لأنه جامعها، وهو يعتقد أنه حرام، وإما ألَّا يعتقد التحريم، ويقول: هذا حلال، فتحليل ما حرم الله شرك، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ هذا هو معنى الآية التي لا تحتمل سواه، وهو الذي ذكره شيخ الإسلام وابن القيم ـ رحمهما الله ـ.

وقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: عقدتم عليهن، من تزوج بامرأة ثم علم أنها زانية هل يجب عليه أن يفارقها؟ لا، ما يجب عليه إلا إذا علم أنها لا تزال على إصرارها، أما إذا تابت فيجوز أن يتزوجها.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بناءً على الأغلب، لأن الأغلب أن المؤمن لا يتزوج إلا مؤمنة، ولكن لو كانت يهودية، أو نصرانية، فالحكم لا يختلف، فيكون هذا من باب الاقتصار، وليس من باب

الاختصار، من باب الاقتصار على أحد الصنفين، وأما الصنف الآخر؛ فلأنه قليل بالنسبة إلى نكاح المؤمنات.

وقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قال: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ولم يقل: وطلقتموهن، أو فطلقتموهن؛ وذلك ليتبين به أنه لو تأخر الطلاق عن العقد مدة طويلة، فالحكم لا يتغير، كما أنه لو طلقها مباشرة، فالحكم لا يتغير أيضًا، فقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: بعد العقد.

والطلاق في اللغة: حلُّ قيد البعير ونحوه، يعني: حل القيد يسمى: طلاقًا، وهو اسم مصدر: طلق، والمصدر من طلق تطليقًا، مثل كلم، والمصدر: تكليمًا، واسم المصدر: كلام، فالطلاق إذنْ حل القيد.

أما في الاصطلاح أو في الشرع: فطلاق المرأة معناه: حل قيد النكاح أو بعضه، فإن كان الطلاق بائنًا، لا تحل به الزوجة، فهو حل لقيد النكاح مطلقًا، وإن كان رجعيًّا: فهو حل لبعضه، إذ إنه يجوز له أن يراجع.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تجامعوهن، وهذا من باب الكناية عما يُستقبح ذكره بما يدل عليه، ولهذا لم يأت الجماع بلفظه الصريح في القرآن الكريم، وإنما كني عنه في كل موضع بما يتناسب المقام، فمرة يعبر عنه بالإتيان، ومرة بالإفضاء، ومرة بالمس، ومرة بالملامسة، وما أشبه ذلك، كل هذا من باب استعمال ما لا تمجه الأسماع من الكلمات.

قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قال: [وفي قراءة: ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾ أي: تجامعوهن].

يقول: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ (ما) هذه نافية، و﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد لمعنى زائد، وقد قلنا: إنه حرف زائد زائد، وهل كلمة زائد الثانية هل هي توكيد أم تأسيس؟ هي تأسيس، فهي حرف جر زائد لفظًا، لكنه يزيد المعنى، وزائد الأولى: من زاد اللازم، وزائد الثانية: من زاد المتعدي، زاد فعل ماضٍ متعدٍ ولازم، فإذا قلت: زاد إيمان الرجل، هذا لازم، وإذا قلت: زادهم إيمانًا، هذا متعد، فنقول: هذا حرف جر زائد من زاد اللازم، زائد من زاد المتعدي، يعني: زائد بنفسه، زائد معنىً في غيره.

المهم: أن قوله: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ من: حرف جر زائد لفظًا لا معنى.

وقوله: ﴿عِدَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ ما هي العدة؟

الجواب: العدة في اللغة: اسم مأخوذ من العدد، ولكنها في الاصطلاح، أو في الشرع: تربص زوجة مفارقة في الحياة، أو في الممات محدود شرعًا.

لو قال لنا قائل: هل يجوز أن نجعل ما، هنا حجازية؟ لا يجوز؛ لأنها خبر مقدم، وابن مالك

يقول:

إِعْـمَالُ لَـيْسَ أُعْمِلَـتْ مَـا دُونَ إِنْ   مَـعَ بَقَـا النَّفْـي وَتَرْتِيـبٍ ذُكِـرْ [1]

وقوله: ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ قال المؤلف: [تحصونها بالأقراء وغيرها]، بالأقراء إن كانت من ذوات الأقراء، كم عدتها؟ ثلاثة قروء، [وغيرها] إن لم تكن من ذوات الأقراء، وهن الحوامل، ومن لا تحيض لصغر، أو إياس، فالحامل عدتها وضع الحمل، ومن لا تحيض، عدتها ثلاثة أشهر.

قال: [﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به، أي: إن لم يسم لهن الصداق، وإلا فلهن نصف المسمى فقط، قاله ابن عباس، وعليه الشافعي].

والفاء: حرف عطف، و(متعوهن) أي: أعطوهن ما يستمتعن به من الدراهم، من الثياب، من المتاع، من العقار من أي شيء، فالله ـ عز وجل ـ أطلقها، ثم إنها مطلقة، من جهة الكمية، كما أنها مطلقة من جهة النوعية، الكمية: إذا أردت أن أعطيها دراهم، كم أعطيها؟ قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦]، حسب حال الزوج.

وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بعد قوله: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ يستثنى من ذلك من سُمي لها مهر، فإن من سمي لها مهرًا، لا يجب لها إلا نصفه، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٣٧] فبين الله أن لهن نصف ما فرضنا، وهذا إذا سُمي لها المهر، سواء قل أو كثر.

وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ قال: [خلوا سبيلهن من غير إضرار]، فأمر الله ـ عز وجل ـ بأمرين: التمتيع، وهو بذل المال، والسراح الجميل هو بذل الخلق، وهو أن تكون المفارقة عن رضىً، وبالقول اللين، الذي يجبر الخاطر؛ لأن المرأة إذا طُلقت بعد أن عقد عليها، ولم يدخل بها، لا شك أنه ينكسر خاطرُها، وأنها تتأثر، وأن الناس سوف يتكلمون، لماذا طلقت قبل أن يدخل بها؟ ما هو السبب؟ هل رأى فيها عيبًا؟ هل سمع عنها بشيء؟ ولا سيما إذا كانت هي راغبة أيضًا في الزوج، ثم طلقها من قبل أن يتصل بها، فإنه لابد أن يكون هناك ردود فعل في نفسها، فأرحم الراحمين ـ سبحانه ـ أمرنا أن نمتعهن بالمال، وأن نسرحهن سراحًا جميلًا بالقول، والمعاملة الطيبة، مثل أن نقول لها: هذا أمر لم يقدّر، وهذا أمر أراده الله ـ عز وجل ـ، وأنا ما فارقتك ـ مثلًا ـ لسوء خلقك، أو لأني سمعت عنك ما يسوء، أو ما أشبه ذلك من الكلام، حتى تنفصل منه، وهي طيبة النفس، منشرحة الصدر، ثم بعد ذلك ما يحصل منها أو من أهلها كلام؛ لأنه ربما إذا طلقها ولم

---

(١) البيت رقم (١٥٨) من ألفية ابن مالك رحمه الله تعالى.

يمتعها، أو متعها بدون ما تستحق، أو سرَّحها سراحًا غير جميل، ربما أن يحصل منها أو من أهلها كلام في الرجل، يتكلمون فيه، وفي عرضه، وفي أهله، وما أشبه ذلك، وهذا من آداب الله ـ عز وجل ـ التي أدب بها عباده، إذا طلق المرأة قبل المسيس، فإن الواجب عليه أمران: التمتيع بالمال، والسراح الجميل بالقول، والفعل، وطلاقة الوجه، وانبساط القلب، وما أشبه ذلك.

قد يقول قائل: كيف يمكن هذا، والرجل لم يطلقها في هذه الحال، إلا وهو كاره لها ولا شك، ولو كان عنده أدنى محبة لدخل بها، وجامعها، ونظر ربما تتغير الأمور؛ لأنه لو زهد فيها بعض الزهد، لكان في قلبه محبة لها، فهل يغامر، ويطلقها قبل أن يجامع؟

نقول: العقل لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن تنتظر، وتجامعها؛ لأنه ربما تتغير الأمور، ومن ثَمَّ نُهي عن الطلاق في الحيض؛ لأن الإنسان إذا كانت امرأته حائضًا فإنه لا يجامعها، لكن يبقى كارهًا لها، ولا يوجد هناك سبب يدعو إلى المحبة، وهو الجماع، هذا من الحكم في النهي عن الطلاق في الحيض، وليست هي الحكمة الوحيدة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

١ـ **من فوائد هذه الآية:** ثبوت رسالة النبي وأنه ﷺ مبشر، وذلك من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، ويتفرع على ذلك: أنه أتى بالأسباب التي توجب البشارة، من الأعمال الصالحة والطاعات.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ جمع بين البشارة والإنذار، لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وفائدة قبل هذا: أنه منذر أيضًا؛ لأن كونه منذرًا، وكونه مبشرًا فائدتان، والجمع بينهما فائدة ثالثة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن رسول الله ﷺ، داعٍ إلى الله؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه يجب على الداعية أن تكون دعوته إلى الله ـ تعالى ـ لا إلى حظِّ نفسه؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن هذا وصف للرسول ﷺ.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن دعوة رسول الله ﷺ، إلى الله كانت بإذنٍ منه، لقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وهذه يتفرع عليها فائدة أخرى وهي: رضا الله عما كان الرسول ﷺ، يدعو إليه؛ لأن الله لا يأذن إلا بما يحبه ويرضاه.

٦ ـ **ومنها:** أن دعوة النبي ﷺ، مبنية على شرع الله في كميتها وفي كيفيتها، وفيما يدعو إليه، لقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، فهو داعٍ إلى الله بإذنه، على حسب أمره، وبشرعه، فيدعو إلى سَبِيلِ الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، وكذلك يدعو إلى شرع الله، ولا يتجاوزه.

٧- **ومنها:** أن النبي ﷺ، لا يمكن أن يشرع من عنده؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، لا بشيء

من عندك.

٨- **ومنها:** أن ما يدعو إليه الرسول ﷺ فهو من الله، فيتفرع على هذه الفائدة: أن طاعة الرسول طاعة لله، ومعصية الرسول معصية لله؛ ولهذا لما جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه وقالت: إنك تقول: إن المتفلجات للحسن ملعونات في كتاب الله، فإنني فتحت المصحف، أو قرأت المصحف، من فاتحته إلى خاتمته فلم أجد ذلك، فقال: بلى، ثم قرأ عليه الحديث، وتلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] (١).

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الإذن لله، الإذن غير الأُذن، وإذن الله تعالى ـ كما سبق ـ في التفسير، تنقسم إلى قسمين: شرعية وكونية.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما جاء به النبي ﷺ، فهو نور كالسراج يضيء الظُّلَم، لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

١٠ـ **ومنها:** أن النبي ﷺ لا ظل له، وهذه الفائدة تحتاج لمناقشة، يعني: لو وقف في الشمس، والشمس مائلة، لا يكون له ظلال، لأنه سراج منير، والسراج يضيء وليس له ظل ـ سراجًا معنويًا ـ وهذا خطأ فالرسول ﷺ له ظل كغيره؛ لأنه بشر.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل مَنْ حكم بشريعة النبي ﷺ محمد، فهو على سراج منير، لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

١٢- **ومنها:** فضيلة النبي ﷺ؛ حيث جمع الله له هذه الأوصاف العظيمة: النبوة، والرسالة، والبشارة، والشهادة، والإنذار، والدعوة إلى الله بإذنه، هذه ستة أوصاف، والسراج المنير سابعها.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه يجب على النبي ﷺ أن يبشر المؤمنين ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿ وَبَشِّرِ﴾، والأمر للوجوب، لاسيما للنبي ﷺ، فإن الأمر للوجوب على كل حال، لأن الله إذا أمر رسوله بشيء، فإنما يأمره أن يفعله، ويبلغه للناس، وتبليغ الرسول ﷺ الرسالة واجب، ولهذا نقول: إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجب عليه أن يبلِّغ حتى السنن، فيجب عليه أن يخبر بالسنة، ويفعلها حتى يحصل البلاغ، ثم بعد ذلك تكون مندوبًا في حقه.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان، وجهه: أن المتصفين به هم أهل البَشارة، لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ﴾.

٣- **ومنها:** ثواب المؤمنين بهذا الفضل الكبير، ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، و مسلم (٢١٢٥).

٤- **ومنها**: بيان منَّة الله - عز وجل - على المؤمنين، وأن الفضل فضلُه، لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لا من غيره، ولهذا قدم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع أنها متعلقة بـ ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء على الإيمان أكثر مما عمله العبد، من قوله: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: يؤخذ من الأمرين، أما وجه أخذه من الأول: فلقوله: ﴿كَبِيرًا﴾، والكبير: إذا وصف الشيء بالكبير فهو كبير جدًّا، وأما الثاني: فلأنه أضاف الفضل إلى الله، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وكما قال المثَل: العطية على قدر معطيها، فإذا كان هذا الفضل من الله، فإنه سيكون فضلًا لا يخطر على البال، ولهذا الحديث الذي علمه النبي ﷺ أبا بكر أن يدعو به في صلاته، قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»(1)، وكونها من عند الله لها مزية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

١- **من فوائد هذه الآية**: تحريم طاعة الكافرين والمنافقين، لكن ليس على إطلاقه، بل طاعتهم فيما يخالف أمر الله، فلو أمروا بشيء لا يخالف أمر الله، فإن طاعتهم ليست حرامًا، كما لو أمرك كافر بأن تُرَكّب على الباب مفتاحًا مثلًا، فهل نقل: حرام عليك أن تطيعه؟ لا، إذنْ لا تطعهم فيما يخالف أمر الله.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القرآن على أكمل ما يكون من البلاغة، فإننا نجده في مواضع يقدم المنافقين على الكافرين، وفي هذه الآية قدَّم الكافرين على المنافقين؛ لأنه في مقام الجزاء، وفي مقام الذم يقدِّم المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠] وقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]؛ لأن ذنب المنافق أعظم من ذنب الكافر الصريح، وأما هنا فالذي يعارض الرسول صراحة: الكافر، ولهذا قدمه على المنافق؛ لأن المنافق لا يأمر بمخالفة الشرع، كما يأمر بها الكافر، إذ إنه يتستر بنفاقه، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فبدأ بهم؛ لأن معارضتهم للشرع أبين وأظهر من المنافقين.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه قد يتوجه النهي عما لم يُفعل، لئلا يُفعل، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما كان يطيعهم، لكنه نُهي أن يطيعهم؛ لئلا يفعل في المستقبل.

٤- **ومنها**: أن النهي قد يرد على الأمور البعيدة، أو المستحيلة، وجهه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فإن هذا بعيد، أو مستحيل على الرسول ﷺ.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تهديد الكافرين والمنافقين، لقوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤)، و مسلم (٢٧٠٥).

٦- **ومنها**: تأييد النبي ﷺ، وتسليته، يؤخذ من قوله أيضًا: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

٧- **ومنها**: أن من طبيعة الكافرين والمنافقين أذية المؤمنين، لقوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

لكن قد يقول قائل: هذا آذى الرسول ﷺ، فهل أذاه ينال المؤمنين؟

فنقول: إن من آذى النبي ﷺ، فإنه مؤذٍ للمؤمنين، وأيضًا فإن من عادى الرسل، فإنه سيعادي أتباعهم، ويؤذيهم.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الصبر على أذى الكافرين والمنافقين؛ لقوله ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، فإن هذا أمر بالصبر على أذيتهم.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب التوكل على الله، لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والأمر للوجوب.

١٠- **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا لغيره من باب أَوْلَى، لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهو مفتقر إلى ربه، مأمور بأن يتوكل عليه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: عِظَمُ كفاية الله - عز وجل - للمتوكلين عليه، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، لأننا ذكرنا - فيما سبق - أن هذا يراد به التعجب من كفاية الله لمن توكل عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أهمية النكاح والطلاق؛ لأن الله صدَّره بالنداء، الذي يُطلب به تنبُّه المنادى لما سيلقى عليه.

٢- **ومنها**: أن التزام أحكام الشريعة في النكاح والطلاق من مقتضيات الإيمان، ووجهه من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإن هذا من مقتضيات إيمانهم أن يمتثلوا ما أمروا به.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا طلاق قبل النكاح، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ﴾، و(ثم) للترتيب، فلا طلاق قبل النكاح، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الطلاق لمعينة، أو على سبيل العموم، فإن قال رجل لامرأة: إن تزوجتك فأنت طالق، ثم تزوجها، فإنها لا تطلق، لأن الطلاق كان قبل النكاح، وكذلك لو قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، فإنه إذا تزوج امرأة، فإنها لا تَطلق؛ لأنه لا طلاق إلا بعد النكاح.

٤- **ومن فوائدها**: أنه لا إيلاء، ولا ظهار، ولا تحريم على امرأة إلا بعد النكاح؛ لأنه إذا كان الطلاق وهو أعظم فرقة من الظهار، والإيلاء وما أشبهه، لا يكون إلا بعد النكاح، فكذلك ما دونه، إلا أن التحريم إذا حرَّم الرجل امرأةً معينةً، ثم تزوجها بعد ذلك، فإن عليه كفارة يمين، وكذلك الظِّهار إذا قصد به التحريم، وظاهر من امرأةٍ قبل أن يتزوجها، فإن عليه كفارة يمين،

وليس عليه كفارة ظهار؛ لأن الظهار لا يصح إلا من زوجة.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز الطلاق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ولم يَلُم الله المؤمنين على الطلاق، ولو كان حرامًا للامهم عليه.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** جواز الطلاق قبل المسيس، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، وهذه فائدة غير فائدة جواز الطلاق مطلقًا، لأن الطلاق قبل المسيس قد يكون فيه شيء من غض حق المرأة، فيقال: هذا الرجل لولا أنه علم أن فيها بلاءً ما طلقها، قبل أن يدخل بها ويمسها؛ لأن العادة أن الإنسان إذا تزوج، فإنما يتزوج عن رغبة، فإذا طلقها قبل أن يمسَّها، فهو دليل على أن فيها شيئًا.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا طلقها، قبل الجماع فلا عدة عليها، وهذا فيه خلاف، فإن بعض أهل العلم ـ وهم الجمهور ـ على أنه إذا خلا بها، فإن عليها العدة، فجعلوا الخلوة بمنزلة الجماع، وهذا هو الذي قضى به الخلفاء الراشدون، وعليه جمهور الصحابة؛ بل جمهور الأمة، ولم يخالف في ذلك إلا نفر قليل منهم الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله الجديد: فإنه رأى أنه إذا لم يجامعها، فلا عدة عليها، ولو خلا بها، ولا شك أن هذا هو ظاهر الآية، لكن الوارد عن الصحابة رضي الله عنهم ولاسيما الخلفاء الراشدون يثبت أن عليها العدة إذا خلا بها.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب المتعة على مَنْ طلق قبل الدخول، لقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾، وهذا مقيد بالآية الأخرى، وهي ما إذا فرض لها فريضة، فإنه إذا فرض لها مهرًا، فليس عليه إلا نصف المهر، لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التكنية عما يُستحيا من ذكره، لقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعتدة من وفاة عليها العدة مطلقًا، وإن لم يدخل بها، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الله هذا الحكم في الطلاق، فيبقى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٤] على إطلاقها، أن المتوفى عنها تجب عليها العدة، وإن لم يدخل بها.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده، وخلقه؛ حيث أوجب المتعة لمن طُلقت قبل الدخول، وجه ذلك: أن فيه جبرًا لخاطرها، وإزالة للهمِّ والغم الذي اعتراها بعد الطلاق.

١٢- **ومن فوائدها:** وجوب التسريح الجميل في المفارقة، لقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العدة حق للزوج، وجهه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾، فهي حق للزوج على المرأة.

١٤- **ومن فوائدها:** أن مما ينبغي أن يحصي الإنسان عدة زوجته، ويعتني بها، ولا يدعها هملًا لا يدري عنها، لقوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ فإن هذا دليل على أن من شأن الأزواج أن يعتدوا عدة أزواجهن، وأن يحصوها ويراقبوها؛ لأنها فراش له ما دامت في العدة إذا كانت رجعية.

مسألة: هل يؤخذ من مفهوم قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أنهم إذا نكحوا الكتابيات تغير الحكم؟

الجواب: لا، لأن هذا قيد أغلبي، وقد ذكر أهل العلم في «**الأصول**» أن ما كان قيدًا أغلبيًا فإنه لا مفهوم له، يؤخذ من قوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ لأن هذا الحكم شامل للمؤمنات وغيرهم.

١٥- **ومن الفوائد:** أنه لا عدة في الطلاق قبل الدخول، ولو طالت المدة، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾.

١٦- **ومن الفوائد:** أن الطلاق بيد الزوج؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا يملك الأب، ولا الجد، ولا العم، ولا الخال، ولا غيرهم أن يطلقوا عن الإنسان.

١٧- **ومنها:** أنه لا عدة لغير المطلقة، كالمفسوخة بخلع أو غيره، ولكن عليها أن تستبرئ بحيضة.

١٨- **وفي الآية أيضًا:** الجمع بين الإحسان المالي والفعلي، لقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ هذا المالي، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ هذا الفعلي.



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٠]

التفسير

قال المؤلف: [﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن]

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ مثل هذه الصيغة تدل على تعظيم المخاطَب، حيث وُجِّه إليه الخطاب بالنداء، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه وصف بالنبوة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ففي ذلك تعظيم وتفخيم لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ﴿أَحْلَلْنَا﴾ أي: جعلناه حلًّا لك، وهل المراد أزواجك اللاتي تريد أن تتزوج بهن، أو المراد أزواجك اللاتي تزوجت بهن؟

في هذا قولان لأهل العلم: فمنهم من قال: إن ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: اللاتي تريد أن تتزوج بهن وتؤتيهن أجورهن، وحجة هؤلاء أننا لو حملناها على من تزوج بهن، لكان ذلك من باب تحصيل الحاصل؛ لأنه إذا كانت الزوجة معه وقد أقره الله عليها فلا حاجة إلى أن يقول: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾؛ لأنهن عنده متزوج بهن.

والقول الثاني: أن المراد أحللنا لك أزواجك اللاتي تزوجت بهن، بدليل قوله ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذا القول الثاني هو الموافق لظاهر الآية، لأن قوله ﴿آتَيْتَ﴾ فعل ماض، وعلى القول الأول يجب أن نؤول الفعل الماضي بالفعل المضارع، يعني: اللاتي تؤتي أجورهن، وهذا خلاف ظاهر الآية، ويُجاب عما أيد به أولئك قولهم: أنه إذا كان المراد الزوجات اللاتي في حباله، فإن ذكر الإحلال من باب تحصيل الحاصل، يجاب: فذكر الإحلال من باب التوكيد، يعني: أن هؤلاء حلال لك ليس فيهن شبهة، وليس فيهن معارضة.

وقوله: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ﴿آتَيْتَ﴾ بمعنى: أعطيت، وأما أتيت، بغير مد فهي بمعنى جئت، إذنْ نقول ﴿آتَيْتَ﴾ أي أعطيت أجورهن، يقول المؤلف: [أي: مهورهن]، وسُمي المهر أجرًا، لأنه عوض عن الانتفاع بالزوجة والاستمتاع بها، وليس عوضًا عن ذاتها، لو كان عوضًا عن ذاتها لسمي ثمنًا، لكنه عوض عن الاستمتاع بها والانتفاع بها، ولهذا سمي أجرة.

وإذا كانت (آتيت) بمعنى أعطيت، فهي تنصب المفعولين، فأين المفعول الأول؟ المفعول الأول: محذوف، وتقديره آتيتهن، (وأجورهن) هو المفعول الثاني، وجائز حذف المفعول مع العلم به.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الواو حرف عطف، ﴿وَمَا﴾ معطوفة على قوله: ﴿أَزْوَاجَكَ﴾ يعني: أحللنا لك ما ملكت يمينك، أي ملكت ذاته، أم الانتفاع به؟ ملكت ذاته، وملك الذات، يستلزم ملك المنافع؛ لأن من ملك شيئًا، ملك منافعه، ومن ملك المنافع لم يلزم أن يملك الأعيان أو الذات.

قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يمينك ويداك وما أشبه ذلك يعبر بها عن الذات؛ لأنها غالبًا وسيلة الأخذ والإعطاء، فقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] أي: بما كسبتم، ﴿مما ملكت يمينك﴾ أي: مما ملكت، لكنه عبر باليمين عن الذات؛ لأن الغالب أن الأخذ والإعطاء باليد، واليمين أشرف من اليسار، فهي التي يؤخذ ويعطى بها.

وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من: هذه بيانية، وما هو المبيَّن؟ المبين الاسم الموصول، واسم الشرط، واسم الاستفهام، كلها من الأشياء المبهمة، فيأتي البيان بعدها، فيقال: من: بيان لـ (ما) في قوله ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال المؤلف: [من الكفار] بالسبي، أفاء: بمعنى: رد، ومنه الفيء، وهو الظل بعد الشمس، لأنه رجع بعد أن نسخته الشمس، فصار ظلًّا كما هو الحال قبل أن تأتيه الشمس.

وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ المراد به هنا: الغنيمة؛ لأن الغنيمة في الحقيقة رد للمال من غير أهله إلى أهله، فإننا ـ نحن المسلمون ـ المستحقون حقًّا لما رزق الله الخلق، والكفار يستمتعون به على وجه الظلم، ولهذا يؤاخذون به، وقد مر علينا أن الكفار يُحاسبون على الأكل والشرب واللباس، وذكرنا في ذلك دليلًا من القرآن، والدليل على أن الكفار يحاسبون على اللباس قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، هذه أيضًا فيها اللباس والأكل، والطيبات من الرزق، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه اللام للإباحة والاستحقاق، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لمن؟ للمؤمنين، أما أولئك فليست لهم، وليست خالصة لهم يوم القيامة، فهي في الدنيا حرام عليهم ويحاسبون عليها يوم القيامة.

إذن ما هي الآية التي فيها الدليل على أن الأكل والشرب حرام على الكفار؟

هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ [المائدة:٩٣] مفهومها: أن الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات عليهم جناح فيما طعموا، إذنْ بهذا يتبين وجه كون الغنيمة فيئًا، والفيء بمعنى: الرجوع والرد، فلهذا يكون المال الذي بأيدي الكفار إذا غنمه المسلمون قد عاد إلى أهله، كأنهم هم يأخذون المال بغير حق، فإذا أخذناه منهم عاد إلى مستحقه.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال: [من الكفار في السبي كصفية، وجويرية] صفية: من جواري خيبر، وجويرية: من سبايا غزوة بني المصطلق، وهما من أمهات المؤمنين.

وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ظاهره أن ما ملكت يمينه من غير ذلك، لا تحل له، ولكنه غير مقصود من الآية بدليل أن مارية القبطية استحلها النبي ﷺ، وأتت منه بولد.

قال المؤلف: [﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ بخلاف من لم يهاجرن].

وأما قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ هؤلاء الأربع هن الحلائل من الأقارب، وما عداهن من الأقارب فحرام كما في سورة النساء، فصارت الأقارب الآن محللات ومحرمات، المحرمات ما ذُكرن في سورة النساء، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] وعددهن سبع، والمحللات من الأقارب أربع، بنات العم، وبنات العمة، وبنات الخال، وبنات الخالة.

وهؤلاء المحللات من الأقارب، فبنات العم يعني: وإن نزلن، وبنات العمة وإن نزلن، وبنات الخال وإن نزلن، وبنات الخالة وإن نزلن، هؤلاء كلهن حلال.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ﴾ تكلم المفسرون عن قوله: بنات عمك وعماتك وخالك وخالاتك، فقالوا: لمَ أفرد في الذكور، وجمع في الإناث؟

فقال بعضهم: إن هذا من باب تشريف الذكورة، كأن الواحد يقابله من النساء جمع، وإلى هذا ذهب ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ .

وقال بعضهم: إنه لما كان لفظ العم والخال كلفظ المصدر، صار الأنسب ألا يجمع؛ لأن المعروف أن المصادر لا تجمع ولا تثنّى، ولكن هذا في النفس منه شيء، والأقرب ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ، أن قوة صلة العم بالإنسان أقوى من صلة العمة به؛ فلهذا جُمع، وإلا فمن المعلوم أن الإنسان له أعمام ليس له عم واحد فقط، وبنات أعمامه كلهن حلال.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ فيه زيادة قيد بالنسبة للرسول ﷺ وهو قوله: ﴿ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يعني: هاجرن من مكة إلى المدينة، وسواء كُنَّ في معيته مباشرة، أو في معيته بالمعنى - أيْ: بالهجرة - فليس بلازم، أن تكون بنت العم، وبنت الخال مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - مباشرة، يعني: تسير معه، بل لو هاجرت معه أو بعده فهي داخلة في هذا.

قال: [﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ يطلب نكاحها بغير صداق، ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾] النكاح بلفظ الهبة، [من غير صداق] يعني: الخالص هو النكاح.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ يعني: وأحللنا لك امرأة مؤمنة، وهذا نكرة في سياق الإثبات، والمعروف أن النكرة في سياق الإثبات لا تقتضي العموم، لكن لما كان السياق سياق منّة صارت للعموم، والأصل في النكرة ألا تعم إذا كانت في سياق الإثبات، إذا قلت لك: اضرب رجلًا،

ليس معناه أني آمرك أن تضرب جميع الرجال، لكن إذا كانت النكرة في سياق الإثبات يراد بها الامتنان، صارت للعموم؛ لأنها لو قُيِّدت بالواحدة، لم تكمل بها المنة، فلا تكمل المنة إلا إذا كانت بها العموم.

إذنْ ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾ نقول: وإن كانت صيغتها صيغة الواحدة، لكن المراد بها العموم؛ لأنها سِيقت للامتنان، والامتنان بالواحدة لا يكمل إلا إذا كان امتنانًا بكل شيء، أو بكل فرد من أفراد هذه النكرة.

إذنْ يكون معنى الآية: وأحللنا لك أي امرأة.

وقوله ﴿مُّؤۡمِنَةً﴾ هذا قيد يخرج به غير المؤمنة، ولو كانت كتابية، فإنها لا تحل للنبي ﷺ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن من خصائص النبي ﷺ في النكاح ألا يتزوج امرأة كتابية، وهذا لم يقع أن النبي ﷺ تزوج امرأة كتابية.

ومن المعلوم أن من خصائص النبي ﷺ في النكاح ما هو توسعة، وما هو تضييق، فالتوسعة النكاح بالهبة، والتزوج بأكثر من أربع، والتضييق: أنه لا يحل له من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته إلا من هاجرن معه، وكذلك على القول الراجح أنه بعد تخيير النبي ﷺ لزوجاته لا يحل له النساء، كما سيأتي إن شاء الله.

وقوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وهبت هي بدون وليِّها، ﴿وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ أي: أعطتها للنبي ﷺ بلا عوض؛ لأن الهبة تعريفها: بذل المال بدون عوض، فمعنى ﴿وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ يعني: جاءت للرسول ﷺ وقالت له: قد وهبت نفسي لك، فتحل له، لكن لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مخيرًا في ذلك، وليس واجبًا عليه أن يقبل.

وقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وهذا الشرط داخل في الشرط الأول، وقد عُلم أن الشرط الثاني قُيد في الشرط الأول، فهو متأخر لفظًا، متقدم معنىً- تداخل الشروط- كلما تتداخل الشروط فاجعل الشرط الأخير قيدًا فيما قبله، فهو متأخر رتبة، لكن متقدم معنىً، أي: إذا تعددت الشروط: إن الشرطية، أو إذا أو ما أشبههما، فإن الشرط التالي الأخير شرط فيما قبله، فيكون متأخرًا لفظًا متقدمًا معنى ورتبة، مثلًا إذا قلت: أخبرني إذا ضربك زيد إن ظلمك، صار الظلم سابقًا على الضرب، وإن كان متأخرًا عنه في الذكر، ويتضح ذلك تمامًا في قول الشاعر:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا مِنَّا مَعَاقِلَ عِزٍّ زَانَهَا كَرَمُ

الشرط الأول هو: إن تستغيثوا، والثاني إن تُذعروا، الشرط الثاني متأخر عن الأول في اللفظ، لكنه متقدم عنه في المعنى والرتبة؛ لأن الذُّعر سابق على الاستغاثة، وهذه قاعدة: كلما تعددت الشروط فإن الشرط الثاني سابق على الشرط الأول، هو على الشرط الذي قبله، فلو تعددت بأن كانت ثلاثة شروط، أربعة شروط، فالثاني سابق الذي قبله، وإذا قدرنا أنهم ثلاثة شروط، فالثالث

سابق على الثاني، والثاني سابق على الأول، يعني: بالعكس.

هنا قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾ الإرادة تسبق الحل والقبول، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ وفائدة هذا الشرط: أنه لما كان ردُّ النبي ﷺ للمرأة التي وهبت نفسها للنبي، وكان أمرًا شديدًا، وكان النبي ﷺ أشد الناس حياءً، كان عرض المرأة نفسها على النبي ﷺ قد يكون شبه ملزم له بمقتضى خُلقه، فلما كان كذلك فتح الله لرسوله ﷺ الباب على مصراعيه؛ حيث أثبت له التخيير والإرادة في هذه الحال فقال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

إذنْ ما فائدة ذكر الإرادة مع أن الموهوب له إن شاء قبل الهبة، وإن شاء لم يقبل؟ يعني: هذا أمر معلوم، فما الفائدة من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؟

الفائدة: لئلا يلزم النبي ﷺ نفسه قبول هذه الهبة لما علم من خُلقه ﷺ أنه أشد الناس حياءً، ومعلوم أن ردَّ الإنسان هبة المرأة نفسها له أمر صعب.

كيف أن امرأة تهب نفسها لك وتأتي راغبة فيك أشد الرغبة، بحيث أنها فدتك بنفسها، فكيف تردها؟! هذا أمر فيه صعوبة في الواقع، وقد يكون ردها منافيًا للمروءة، والنبي عليه الصلاة والسلام أشد الناس حرصًا على المروءة، وأشد الناس حياءً في مثل هذه الأمور، لكن الله أراد أن يفتح له الباب حتى لا يعترض أحدٌ، أو يقول قائل: كيف ردها؟ ويكون الله أعطاه الحرية الكاملة في قبولها أو ردها.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ قال المؤلف: [يطلب نكاحها] والصواب: يوافق على نكاحها؛ لأنه مطلوب، فالصواب أن المراد أن يستنكحها أي: أن يقبل نكاحها.

وقوله: ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أسلمن معك، وقال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يحتمل أن تكون صفة؛ لقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾، ويحتمل أن تكون مفعولًا لفعل محذوف، والتقدير: جعلناها خالصة لك - أي هذه الشِّرعة - جعلناها خالصة لك، والخالص من الشيء هو الذي لا يخالطه غيره، فمعنى خالصة لك يعني: لا يشاركك أحد فيها فيما إذا وهبت امرأة نفسها لأحد، فإنها لا تحل له، وهل المراد بالخالص هنا أن يتزوج بلا مهر ولا ولي، أو أن يقع ذلك بلفظ الهبة؟ **الصحيح**: الأول أن الخالص أن يكون ذلك بدون مهر ولا ولي ولا شهود، على القول باشتراط الشهود؛ لأن الهبة هي التبرع بلا عوض، فالمقصود المعنى لا اللفظ، يعني: أن الذي اختص به الرسول ﷺ، هو أن المرأة تأتي إليه تقول: وهبت نفسي لك، ويأخذها، وهذا قد وقع فعلًا أكثر من مرة، حيث تأتي النساء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ويهبن أنفسهن له.

فالخالص للرسول ﷺ، والخاص به هو أن يكون النكاح مجانًا وبلا ولي ولا شهود، وأما الهبة فإن العلماء اختلفوا هل يصح النكاح بلفظ الهبة مثل أن يقول: وهبتك ابنتي على صداق قدره كذا

وكذا، أو ملَّكتك ابنتي على صداق كذا وكذا؟

اختلف العلماء في هذا على قولين: منهم من يرى أنه لايصح، وأنه لابد أن يكون عقد النكاح بلفظ التزويج، أو بلفظ الإنكاح، ومنهم من يرى أنه يصح، وهذا له محل آخر.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿دُونِ﴾ بمعنى: سوى، يعني: من سواهم، المعنى: أن المؤمنين لا يحل لهم ذلك، والكافرون من باب أولى؛ لأن الكافر لا يحل له أن يتزوج بالهبة، وكذلك المؤمن.

قال المؤلف: [﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: يطلب نكاحها بغير صَدَاق] وصوبنا من قبل أن المراد يستنكحها: أن يوافق.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال: [النكاح بلفظ الهبة بغير صداق] هذا خاص للرسول ﷺ، من دون المؤمنين.

قال: [﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المؤمنين في أزواجهم من الأحكام].

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ قد هذه للتحقيق، وقد قيل: إن (قد) إذا دخلت على الماضي فهي للتحقيق، وإن دخلت على المضارع فهي للتقليل، وقد يراد بها التحقيق، فإذا قلت: قد قمت، فهذا للتحقيق، وإذا قلت: قد يجود البخيل وقد يصدق الكذّاب، فهذا للتقليل، لكن تأتي للتحقيق في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤] وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٨] هذه لا شك أنها للتحقيق، وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أننا قد فرضنا عليهم أشياء، وعلمنا أن المصلحة تقتضي ما فرضنا دون سواه، فليس المراد بالآية مجرد العلم، أو مجرد الإخبار بأن الله قد علم ما فرض؛ لأن كون الله قد علم ما فرض أمر معلوم.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أقول: ليس المراد مجرد الإخبار بأن الله علم؛ لأن كون الله فرضه فمعلوم أنه صادر عن علم، لكن المراد: أن ما فرضناه قد صدر عن علم منا بما يناسبهم في أزواجهم، وليس عن جهل، ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ و﴿فَرَضْنَا﴾ هنا بمعنى: أوجبنا عليهم، أي: على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام، وكلمة أزواجهم: جمع زوجة، أو جمع زوج من الأحكام، بألا يزيدوا على أربع نسوة، وألا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر، وغير ذلك من الأشياء التي تخالف الأحكام الثابتة للنبي ﷺ، فإن النبي ﷺ خُصَّ بالنكاح بأحكام، وخص المؤمنون بأحكام، وكل ذلك صادر عن علم من الله سبحانه وتعالى وعن حكمة.

وقول المؤلف:[بألا يزيدوا على أربع] فلا يحل لمؤمن أن يزيد على أربع زوجات، لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣] فجعل آخر شيء الرُّباع ـ أي الأربع ـ مع العلم أن المقام يقتضي الزيادة ـ لو كان هناك زيادة ـ بدليل أن الآية إنما ذكر الله فيها العدد الممكن؛ لأنها رُتبت على شرط، وهو إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى.

يعني: إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى في النساء اللاتي بين أيديكم، كبنت العم وشبهها، إن خفتم ألا تعدلوا فيها، فلديكم النساء كثير، فلو كان زيادة على الأربع لكان الله تعالى يذكرها حتى يكون المجال أوسع، فالآية نزلت مقيدة بشرط: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي: لا تعدلوا في نكاحهن، وكانوا في الجاهلية إذا كان الإنسان عنده ابنة عم يتيمة كان يظلمها في النكاح، إما بمنعها أو أن يعلقها على أنها تكون له، فأنزل الله هذه الآية،﴿فَانْكِحُوا﴾ يعني: فالنساء سواهن كثير، وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فلو كان عدد زائد على الأربع جائزًا، لذكر هنا، ولقيل مثلًا: فانكحوا ما شئتم من النساء، أو لقال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء ولم يقيد، فلما قيد علم أنه لا يجوز أكثر من أربع، ولم يخالف في ذلك إلا شذاذ من أهل العلم، أو الرافضة، والرافضة عندهم توسع في مسائل النكاح، منها هذه المسألة، فهم يجوزون أن يتزوج الإنسان إلى تسع، ومنها مسألة المتعة وهذا مما يوجب لضعفاء الإيمان أن يعتنقوا مذهبهم لأنهم يجدون فيه إشباعًا لرغباتهم، فإذا كانوا يجيزون المتعة، أن الإنسان إذا نزل ببلد، له أن يذهب إلى امرأة، ويقول لها: زوجيني نفسك لمدة سبعة أيام، أو لمدة شهر، هم يجوزون ذلك، ويجوزون أيضًا أن يتزوج الإنسان إلى تسع.

كذلك يقول المؤلف: [ولا يتزوج إلا بولي] والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ [النور:٣٢] زوجوا ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:٢٢١] لا تزوجوهم قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢] ولولا أن الولي شرط لم يكن لعضله حكم.

ثانيًا: [ولا شهود] الشهود مختلف في اشتراطه في النكاح، فالمشهور أنه لابد من الشروط؛ لأن عقد النكاح خطير، ويترتب عليه مسائل: نسب، ومال وحقوق، يعني: غيره من العقود الأخرى تجدها إما مالية، وإما حقوقية أخرى غيرَ المال، لكن هو جامع بين المال والنسب والحقوق، فمثل الحقوق المالية: كالمهر والنفقة والإرث، والنسب: كإلحاق الولد بأبيه في الزواج، والحقوق: ما يجب على الزوج وزوجته من المعاشرة بالمعروف، فلابد من شهود.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : لا يشترط الشهود، بل المشترط إعلان النكاح، أو الشهود، فإذا وُجِدَ الإعلان ـ ولو بلا شهود ـ كفى، ذكر الأقسام: إما أن يجتمع الإشهاد والإعلان، وهذا أعلى الأقسام، وإما أن يُفقد الإشهاد والإعلان، وهذا لا يصح، وإما أن يوجد الإشهاد بلا إعلان، قال: وفي صحة النكاح هنا تردد ونظر، وإما أن يوجد الإعلان بلا إشهاد وهذا عنده صحيح فالأقسام إذنْ أربعة.

والإشهاد على العقد واجب، أما الإشهاد على الرضا فهو سنة.

وقوله: [إلا بولي وشهود ومهر] فما هو المهر؟ المهر هو الصَّداق، فظاهر كلام المؤلف، أن المهر شرط في النكاح، واعلم أن للمهر ثلاث حالات: تارة يذكر معينًا، وتارة يُنفى، وتارة يُسكت عنه.

مثال الذي يذكر معينًا أن يقول: زوجتك ابنتي بعشرة ريالات، هذا يصح، ولو قال: زوجتك ابنتي بريال واحد، يصح أيضًا، هذا على سبيل المثال أن يقول زوجتك ابنتي بريال، أو بعشرة ريالات، أو بمائة ريال أو بأكثر أو بأقل.

الحالة الثانية: أن يُنفى ـ أي أن يقول ـ: زوجتك ابنتي ويقول: قبلت بلا مهر، فاختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في هذا العقد، هل يصح أو لا يصح؟

والمشهور من المذهب: أن العقد صحيح، ولها مهر المثل، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن العقد لا يصح، لأنه تزوج على غير الشرط الذي ذكر الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

الحال الثالثة: أن يسكت عنه فلا يذكر معينًا ولا ينفي، بأن يقول زوجتك ابنتي فيقول: قبلت فالعقد هنا صحيح، ولها مهر المثل، وقد نص على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦] فهنا يجب مهر المثل إذا دخل بها، فإن لم يدخل بها وطلقها قبل الدخول، وجبت المتعة، وظاهر كلام المؤلف قوله: [وشهود ومهر] أن المهر شرط في صحة العقد، فيكون ذلك موافقًا لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ (فرض) إذا تعدت باللام فهي بمعنى أحل، كما في قوله كما سبق ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي فيما أحل، وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢] أي: أحلها وشرعها.

أما إذا تعدت بعلى فهي بمعنى الإيجاب، كما في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وذكر المؤلف: أن ما فرض الله علينا في الأزواج، ألا نزيد على أربع، وألا نتزوج إلا بولي وشهود ومهر، وسبق لنا الكلام فيما يتعلق بالمهر، وأن له ثلاثَ حالاتٍ.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قال: [من الإماء] يعني: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من الإماء، خص المؤلف ما العامة بالإماء؛ لأن ﴿وَمَا مَلَكَتْ﴾ ما اسم موصول يفيد العموم، والإنسان يملك الإماء، ويملك المواشي، ويملك الدراهم، ويملك الأراضي، فهل ما هنا للعموم، يعني: وفيما ملكت أيمانهم من كل شيء، أو من الإماء، كما قال المؤلف؟

نقول: إن اللفظ العام لا يمكن أن نخصصه نحن إلا بدليل، وإلا فالواجب إبقاء العام على عمومه، وهنا خصصناه بالإماء بدليل قرنه بالأزواج، والكلام الآن فيما يتعلق بالحقوق الزوجية، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [من الإماء]، فتكون الدلالة على التخصيص من قوله ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

وعلى هذا فنقول: كل موضع ذكر فيه الأزواج وما ملكت اليمين، فالمراد بها ملكت اليمين: الإماء، يقول: [بشراء وغيره]، يعني: علمنا ما فرضنا عليهم من الإماء بالشراء وبغير الشراء، هل

يمكن أن يملك الإنسان الأمة بغير الشراء؟ يمكن بالسبي، وبالهبة، والإرث، وأسباب التملك كثيرة، المهم أن ملك اليمين أسبابه متعددة، بأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية، بخلاف المجوسية والوثنية.

أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بأنه لا يحل للإنسان الأمة غير الكتابية، لا يحل من الإماء إلا الأمة الكتابية، وهي: اليهودية والنصرانية، فأما الأَمة المجوسية، فلا تحل، يعني: لو سبينا نساءً من المجوس، فإنه لا يحل لنا وطئهن، وكذلك الوثنية التي تعبد الأوثان فإنها لا تحل لنا بملك اليمين، أما المجوسية فالفرق بينها وبين الوثنية، أن المجوسية تعبد النار، والوثنية تعبد الأصنام من الأشجار والأحجار، وما أشبه ذلك، وكذلك من يعبد القبور، وكذلك من لا تصلي، لكن من لا تصلي مرتدة يجب أن تقتل، إذا لم تتب.

وقول المؤلف: [بخلاف المجوسية والوثنية] هذا أحد القولين في المسألة، والصحيح: أن الوثنية والمجوسية، حلال بملك اليمين؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦] فكلمة ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ عام فيشمل ما ملكته من المجوسيات وما ملكته من الوثنيات والشيوعيات وغير ذلك، ولا دليل على التقييد بالكتابية، والنكاح هو الذي لا يحل إلا من الكتابية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥] ما قال: إذا ملكتموهن، فدل هذا على أن المراد بذلك النكاح؛ لأن الزوجة هي التي تؤتى أجرها، أما المملوكة فتُشْتَرى.

فالصواب: أننا تحل لنا المملوكة إذا كانت مجوسية أو كتابية، لعموم الكتاب، قال: [وأن تستبرأ قبل الوطء]، هذا أيضًا مما فرض الله علينا أن تستبرأ الأمة التي ملكناها قبل أن نطأها، لأن النبي ﷺ في غزوة أوطاس نهى أن توطأ حامل حتى تضع، وألا توطأ ذات حيض حتى تحيض، فلابد من الاستبراء، إن كانت حاملًا فبوضع الحمل، وإن كانت تحيض فبحيضة، وهل الاستبراء واجب بكل حال، أو لا تُستبرأ البكر؟ ذهب بعض العلماء إلى أن الاستبراء واجب حتى في الأبكار.

وقال بعض أهل العلم ـ ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: إلى أن البكر لا تُستبرأ، لأن الغرض من الاستبراء العلم ببراءة الرحم، والبكر براءة رحمها معلوم، واحتمال أن تتحمل بعلاج غير الوطء وارد ولكنه بعيد، يعني: يحتمل أن تكون بكرًا، ولكنها تتحمل بمني رجل من الناس وتحمل، ولكنَّ هذا بعيد، لكن إذا ملكها من رجل أمين، وأخبره أنه استبرأها قبل البيع، هل يجب الاستبراء؟

المذهب: يجب الاستبراء، والقول الثاني في المسألة: أنه لا يجب الاستبراء لكون البائع أمينًا.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ﴿لِكَيْ﴾ إذا اقترنت باللام يتعين أن تكون مصدرية؛ لئلا يجمع بين حرفَيْ تعليل، فإن لم تسبق باللام صارت حرف تعليل والفعل بعدها منصوب بأن، إذنْ: ﴿لِكَيْ﴾ اللام حرف جر، و(كي) مصدرية، و(لا) نافية، و﴿يَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بكي، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة في آخره، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ﴾ - يعني على النبي ﷺ لأن الخطاب للنبي ﷺ - ﴿حَرَجٌ﴾ أي ضيق في النكاح قال المؤلف في لكيلا: [متعلق بما قبل ذلك]، قبل ذلك يحتمل أن يريد أنه متعلق بـ ﴿أَحْلَلْنَا﴾ في قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾، ويحتمل أن تكون متعلقة بخالصة لك، خالصة لك لكي لا يكون عليك حرج، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال بعضهم: إنها متعلقة بـ ﴿أَحْلَلْنَا﴾، وقال بعضهم إنها متعلقة بخالصة، وكلام المؤلف صالح للوجهين.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ يعني: أننا أحللنا لك هذا الحِلَّ حتى لا يكون عليك ضيق في النكاح، ومعلوم أن النبي ﷺ مطلوب، فالنساء قد يأتين إليه يعرضن أنفسهن عليه، فإذا لم تحل له الواهبة نفسها صار عليه في ذلك ضيق من وجهين: إن رغبها ففيه ضيق عليه ألا يتزوجها، وإن لم يرغبها ففيه ضيق عليه إن ردها، فالله - عز وجل - جعل الخيار له ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ حتى يتسع المجال، والرسول - عليه الصلاة والسلام - خُص بهذا - أي بأن يتزوج من شاء - حتى بمن وهبت نفسها له؛ لأن اتصاله بهن فيه مصلحة عظيمة، لهن، ولأهلهن، وللمسلمين؛ لهن ظاهر، ولأهلهن؛ لأنه ليس من شك في أن لمن تزوج النبي ﷺ، منهم الشرف في مصاهرة النبي ﷺ، وللمسلمين؛ لأن هذه المرأة سيكون عندها علم من سنة الرسول ﷺ، هذا العلم لولا اتصالها به ما حصَّلته، ولهذا كثير من السنن البيتية تلقيت من زوجات الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يجمع الله تعالى دائمًا بين هذين الاسمين الكريمين، لأن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، وإذا زال المكروه وحصل المطلوب فقد تمت الأمور، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ أكان فيما مضى وانقضى؟ لا، لأن كان هنا مسلوبة الدلالة على الزمن والمراد بها تحقق الموصوف بالصفة، الصفة هذه في هذا الموصوف حقيقة ﴿غَفُورًا﴾ هل هو صيغة مبالغة أو صفة مشبهة؟

يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، وأن تكون صفة مشبهة، وأيًّا كان فهي مشتقة من المغفرة وهي ستر الذنب والتجاوز عنه، و﴿رَّحِيمًا﴾ مشتقة من الرحمة، وهي صفة تتعلق بذات الله - عز وجل - من مقتضاها: الإحسان والإنعام، والغفور والرحيم من أسماء الله - سبحانه وتعالى - وكل اسم

من أسماء الله، فإنه دال على أمور ثلاثة إذا كان متعديًا، وعلى أمرين إذا كان غير متعدٍ.

الثلاثة إذا كان متعديًا: الاسم، والصفة، والأثر، مثال ذلك في الغفور، أن الغفور من أسماء الله، والصفة: في الغفور المغفرة، والأثر: أنه يغفر الذنوب جميعًا سبحانه وتعالى، والرحيم مثلها، الاسم: الرحيم، والصفة: الرحمة، والأثر: يرحم.

أما إذا كان لازمًا لا يتعدى يستفاد منه فائدتان: الاسم والصفة، الاسم مثل العلي العظيم، يستفاد من العلي الاسم، والصفة وهي العلو، ولا تتعدى لأحد فنقول: يستفاد منها الأثر، والعظيم كذلك.

الفوائد:

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** علو شأن النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فإنها - كما سبق - تصديرها بالنداء مع وصف النبوة، يدل على رفعة شأنه ﷺ.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإحلال والتحريم إلى الله - عز وجل - ؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾، وهذا لا ينافي أن يكون النبي ﷺ، يجتهد أحيانًا ويحكم، فإن القول الراجح أن الرسول ﷺ له أن يشرع، ثم إن أقره الله على ذلك كان شريعة، وإن لم يقره، كان على حسب ما أراد الله - عز وجل - والدليل على أن النبي ﷺ يستقل بالتشريع عدة أحاديث، بل من القرآن، لقول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وهذا يدل على أن النبي ﷺ له أمرٌ مستقلٌ، ومن السنة مثل قوله ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**»(١) فإن هذا يدل على أنه يأمر وينهى، وإلا لقال: لولا أن الله لم يأمرني لأمرتكم، يعني: ما يعلقها بإرادته هو، بل بإرادة الله، ومنها قوله ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغِيْلَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الرُّوْمُ يَغِيْلُون فَلا يَضُرُّهُم شَيْئًا**»(٢) وغير ذلك من الأمثلة، ومثل قوله في صلاة العشاء: «**إِنَّه لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**»(٣).

والحاصل: أن النبي ﷺ له أن يأمر وينهى ويحلل ويحرم، ولكن إن أقره الله على ذلك كان ذلك من شريعة الله، وإلا فالأمر إلى الله - عز وجل -.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لابد في النكاح من المهر؛ لقوله: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن النكاح عقد على المنفعة، وليس على العين؛ لقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ والإجارة عقد على منافع، لا على أعيان، ولهذا تملك المرأة نفسها، بالبيع والشراء والهبة، وغير ذلك وليس لزوجها أن يعترض عليها في هذه الأمور، لأنه إنما يملك منفعة الاستمتاع فقط.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٤٠)، و مسلم (٢٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤٢)، و الترمذي (٢٠٧٦)، والنسائي (٣٣٢٦).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٣٩)، و مسلم (٦٣٨/ ٢١٩).

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز الوطء بملك اليمين، لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** صحة إضافة الشيء إلى البعض، لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، وهذا كثير في القرآن، ومنه قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة:٣]، فإن الإنسان لا يحرر الرقبة وحدها بل يحرر كل العبد.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن سبب ملك اليمين الفيء، لقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن أموال الكفار إذا عادت إلى المسلمين فقد عادت إلى أهلها، تؤخذ من قوله: ﴿أَفَآءَ﴾؛ لأن الفيء بمعنى: الرجوع، فالكفار يتمتعون بأموالهم، لكن بغير حق، ولهذا يُحاسبون عليها يوم القيامة، أما الأموال فهي حقيقة للمسلمين.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز نكاح هؤلاء الأربع من الأقارب وهم: بنات العم وبنات العمات، وبنات الخال وبنات الخالات، وأما غيرهن من الأقارب فحرام، كما في آية النساء.

١٠- **ومن فوائدها:** أنه يُشترط لحلِّ هؤلاء الأقارب في حق النبي ﷺ أن يكنَّ هاجرن معه، لقوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة: أن النبي ﷺ قد يُخصُّ بأشياء في النكاح تضييقًا وتوسيعًا، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ لأن غيره تحل له بنات العم والعمات والخال والخالات مطلقًا، بخلاف النبي ﷺ.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تزوج النبي ﷺ بالهبة، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ويشترط في هذه الواهبة أن تكون مؤمنة، فلو وهبت كتابية نفسها للنبي ﷺ لم تحلَّ له.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** لطف الله تعالى بنبيه ﷺ، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

١٣- **ومن فوائدها أيضًا:** بيان علو شأن النبي ﷺ، حيث قال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، ولم يقل: إن أردت، مع أن مقتضى السياق أن يقول: وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها، لكنه أتى بالنبي لبيان علو شأنه ومرتبته.

١٤- **ومن الفوائد:** أن الإظهار ـ هنا ـ لبيان علة الحكم ـ الإظهار هنا في مقام الإضمار ـ من فوائده: بيان علة الحكم، كيف؟ لو قال: امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها ما تبين لنا وجه الخصوصية، لكن لما قال: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ تبين الآن وجه الخصوصية، لأنه كان نبيًّا، فالعلة، أنه نبي، فأحلت له هذه الواهبة نفسها.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على الجبرية؛ لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ حيث أثبت للنبي ﷺ إرادة، والجبرية لا يثبتون إرادة للإنسان، إذ يقولون: إنه مجبر على عمله.

١٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جواز النكاح بالهبة من خصائص النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكم الثابت للرسول ﷺ ثابت لأمته إلا بدليل، يؤخذ من قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فلولا أن الحكم الثابت له ثابت لأمته لكان قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لغوًا، لا فائدة منه، فلما أخرج المؤمنين من ذلك الحكم، علم أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام.

١٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن لله تعالى أن يختص بأحكامه من شاء، تؤخذ من تخصيص النبي ﷺ بهذا الحكم، فالله تعالى له أن يختص بأحكامه من يشاء.

١٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التخصيص للحكم لابد أن يكون له علة تقتضي تخصيص ذلك المحكوم له، يؤخذ من قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، فإن العلة في ذلك أنه نبيٌّ، وهذه العلة لا تكون للمؤمنين.

٢٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلم لله - عز وجل - ؛ لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

٢١- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى فرض علينا فرائض في أزواجنا علينا مراعاتها؛ لقوله: ﴿مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، وكذلك نقول في ملك اليمين، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

٢٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أحكام الله عز وجل معللة بالحكمة، أو مقرونة بحكمة، لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٣- **ومن فوائدها:** عناية الله برسوله ولطفه به؛ حيث أحل له ما يزول به عنه الحرج؛ لقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٤- **ومن الفوائد أيضًا:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: الغفور والرحيم، وإثبات ما تضمناه من الوصف، أو من الصفة، أو من الأثر، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

مسألة: هل نأخذ منها فائدة أن النكاح بلفظ الهبة لا يصح؟

لو قال: وهبتك ابنتي، فقال: قبلت، الظاهر أنه يصح؛ لأن العلة ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أنه يتزوج بدون مهر، فهذا هو الذي يكون خاصًّا بالنبي ﷺ، أما لفظ الهبة، فإنه قد جاء في أحد ألفاظ حديث سهل بن سعد في الواهبة نفسها، أن النبي ﷺ، قال للرجل: «**مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**»(١)، وهذا أحد ألفاظ البخاري، وهذا يدل على جواز عقد النكاح بمثل هذا اللفظ.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٣٠)، و مسلم (١٤٢٥).

قال الله تعالى:

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥١، ٥٢]

التفسير

قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ يقول المؤلف: [بالهمزة والياء بدلها، تؤخر]، فتكون ﴿تُرْجِئُ﴾، و﴿تُرْجِي﴾، بمعنى: تؤخر.

وقوله: ﴿مَن تَشَاءُ﴾ هذه مفعول ﴿تُرْجِي﴾، قال: [﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: أزواجك عن نوبتها، ﴿وَتُؤْوِي﴾ تضم إليك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ منهن فتأتيها، ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ طلبت ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ من القسمة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في طلبها وضمها إليك، خيِّر في ذلك بعد أن كان قسمه واجبًا عليه].

كلام المؤلف الآن يدل على أن قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أن الضمير يعود على زوجات النبي ﷺ اللاتي في حباله، وأن معنى ﴿تُرْجِي﴾: تؤخر فلا تقسم لها، ﴿وَتُؤْوِي﴾ تضم فتقسم لها، فتكون الآية نازلة في قسم النبي ﷺ لزوجاته، وأن الله - تعالى - خيَّره بين أن يرجئ، وبين أن يضم، يعني: خيره بين أن يقسم للزوجات وألا يقسم، فيكون في هذا توسعة للنبي ﷺ في القسم، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا هو أحد القولين في تفسير الآية الكريمة، وربما يدل عليه السياق في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إلى أن قال: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾ أي: من أزواجك، ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ فيكون الإرجاء بمعنى: ترك القسم، والإيواء بمعنى: القسم.

والقول الثاني في المسألة: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات أنفسهن لك، يعني: أنك إن

شئت قبلت، وإن شئت رددت، ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يعني: لو أنك رددتها أولًا ثم أردتها ثانيًا، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، وقد سبق لنا قاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان، فإن الواجب حملها على المعنيين، ولهذا اختار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ أن الآية شاملة للمعنيين جميعًا، وأن النبي ﷺ خيِّر بين القسم وعدمه، وخيِّر بين قبول الهبة وعدمها، وأنه أيضًا إذا لم يقسم، ثم أراد أن يقسم فله ذلك، وإذا رد الهبة، ثم أراد أن يقبل فله ذلك، فليس للمرأة إذا لم يقسم لها، ثم أراد القسم أن تمتنع، لأن الخيار بيد النبي ﷺ.

قال الله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ [التخيير]، ذلك المشار إليه التخيير ترجي من تشاء وتؤوي، أي ذلك التخيير المستفاد من الجملتين، ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ [أقرب إلى قوله] ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ [ما ذكر المخير فيه] ﴿كُلُّهُنَّ﴾ قوله: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ كيف ذلك، يعني: ما وجه كون ذلك أقرب إلى أن تقر أعينهن؛ لأنهن إذا علمن أن التخيير بين القسم وعدمه من الله -عز وجل- قرت أعينهن؛ لأنهن يرضين بحكم الله عز وجل، لكن لو كان هذا من النبي ﷺ، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، لكان في نفوسهن بعض الشيء؛ إذ تظن الواحدة منهن أن ذلك من قِبَل النبي ﷺ، وليس من شرع الله، فإذا علمت النساء بأن هذا من شرع الله فإن أعينهن تقر.

وقوله: ﴿تَقَرَّ﴾ مأخوذة إما من القرار، وإما من القروة والبرد، وذلك أن العين إذا بردت فمعناها أنها غير حزينة، وإذا حميت فمعناها الحزن، ولهذا يقولون: دمع الحزن حار، لأنه يخرج من العين إذا حميت من الحزن، أما إذا لم يكن هناك حزن فإنها تبرد وتستقر.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ معطوفة على قوله ﴿تَقَرَّ﴾، وهل هو منصوب؟ لا، بل مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون الفعل مدغمة في نون النسوة؛ لأن ﴿يَحْزَنَّ﴾ هذا الفعل، والنون الثانية: هي نون النسوة وهي فاعل.

إذنْ فما وظيفة واو العطف؟ وظيفتها عطف فعل معرب على فعل مبني في محل نصب.

وقوله ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ هذه الواو حرف عطف ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ معطوفة على ﴿تَقَرَّ﴾، وليس على ﴿يَحْزَنَّ﴾؛ لأنه لو كان على يحزن لفسد المعنى، ولكان المعنى: ولا يحزن ولا يرضين، والمراد خلاف ذلك، فالمراد: ذلك أدنى أن تقر أعينهن ويرضين، فإن قلت: ما الفائدة من اعتراض الجملة الثانية ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾؟

نقول: لأن صلتها بقوله: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أقوى، فإن قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ يراد به كمال قرار العين، يعني: أنها تقر أعينهن حتى لا يبقى فيهن حزن إطلاقًا، فلهذا اعترضت هذه الجملة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ بالمد بمعنى أعطيتهن؛ لأن (آتى) تنصب مفعولين: مفعولها الأول: الهاء، ومفعولها الثاني: محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [ما ذُكر]، وما الذي ذكر؟

قال: [المخير فيه] يعني: أنهن يرضين بما أعطيتهن من التخيير من القسم وعدمه، وسبق أن بينا العلة في كونهن يرضين بذلك، وهو أنه إذا جاء الحكم من الله تعالى رضين به، بخلاف ما لو كان من النبي ﷺ فقد لا يرضين بذلك، تظن الواحدة منهن أن هذا هوىً من النبي ﷺ.

قال: [﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد للفاعل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾] وإنما قال ذلك؛ لأنه لو كان تأكيدًا للهاء في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ لكانت منصوبة، ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾، ولكنها - كما قال - تأكيد للفاعل في قوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾.

مسألة: ألا يصح أن تكون تأكيدًا للضمير في قوله: ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾؟

نقول: لا يصح؛ لأنه لو كان توكيدًا لكان مجرورًا، [كلِّهن]، فإذًا يتعين أن يكون تأكيدًا لقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [من أمر النساء، والميل إلى بعضهن]، لما بين الله - عز وجل - أن النبي ﷺ مخير بين الله - عز وجل - أنه يعلم ما في القلوب من ميل الإنسان إلى بعض النساء دون بعض، وقد بيَّن الله تعالى هذا المعلوم بقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٣] وهذا أمر يؤيده الواقع ويشهد له، فإن الإنسان لا يمكن أن تكون مودة زوجتيه على حد سواء أبدًا، حتى لو فُرض أن إحداهما كانت عنده أرجح من وجه، والأخرى أرجح من وجه آخر، فلا يمكن التساوي، وهذا هو ما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هل يستفاد منها التهديد والوعيد، أو يستفاد منها أن هذا أمر لا تملكونه؟

الظاهر: الثاني، وأن هذا أمر لا نملكه،

وهذا كالتعليل لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فهو سبحانه وتعالى عليم بكل شيء، ومنه ما في قلوبنا من الميل إلى بعض النساء دون بعض.

وقوله: ﴿حَلِيمًا﴾ الحلم هو: عدم التعجل بالعقوبة، وليس هو ترك العقوبة، ولهذا قال ابن القيم:

وَهُوَ الحَلِيْمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوْبَةٍ لِيَتُوْبَ مِنْ عِصْيَانِ

فالحلم إذنْ هو تأخير العقوبة، وليس العفو عنها، يؤخر العقوبة لعل هذا المذنب يتوب إلى الله عز وجل، فترتفع العقوبة عنه.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [بالتاء والياء]، ﴿لا تحل﴾ و﴿لَّا يَحِلُّ﴾، فأما على قراءة ﴿لا تحل﴾ فلا إشكال؛ لأن النساء جمع نسوة، والنسوة جمع امرأة، لأن امرأة ليس لها جمع من لفظها، وإنما لها جمع من معناها، كالإبل جمع بعير، فليس لها جمع من لفظها - يعني: ليس لها مفرد من لفظها - فقوله: ﴿لا تحل لك النساء﴾ لا إشكال فيه، لكن قوله ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ كيف ذكَّر الفعل مع أن الفاعل مؤنث؟

فِعْلَ مُضْمَرٍ مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ لا تَحِل

هذا مع الاتصال، أما مع الفصل فيجوز.

وقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قال المؤلف: [بعد التسع التي اخترنك]، كان مقتضى الكلام أن يقول: اللاتي اخترنك، والمعنى: أن النبي ﷺ لما خيَّر نساءه اخترن الله ورسوله، فلما اخترن الله ورسوله، شكر الله لهن، وقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ وعلى هذا فيكون هذا من باب الجزاء العاجل، ولهن الجزاء الآجل أيضًا؛ لأنهن لما اخترن الله ورسوله على الدنيا وزينتها شكر الله لهن، فمنع نبيه ﷺ من أن يتزوج بسواهن، أو أن يطلق واحدة، فيتزوج بسواها، فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ وهذا أحد القولين في الآية.

والقول الثاني: أن معنى الآية: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: بمعنى من بعد ما ذكرنا لك، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠] والمعنى على هذا: لا يحل لك النساء من بعد ما ذكرنا لك، وعليه فلا يحل للنبي ﷺ أن يتزوج امرأة من العرب سوى بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ولا يحل له أن يتزوج امرأة من أهل الكتاب.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ أن الآية شاملة للمعنيين جميعًا؛ فلا يحل له أن يتزوج على أمهات المؤمنين، ولا أن يتزوج سوى هؤلاء، فإن قلت: أفلا يمكن أن نقول: إن المعنى الأول الذي هو لا يحل لك النساء سوى هؤلاء النساء، يدخل فيه المعنى الثاني، فلا حاجة إلى القول الثاني، إذا قلنا: لا يحل سوى هؤلاء اللاتي معك؛ فإن هذا يدخل فيه القول الثاني: أنه لا يحل له سوى من ذكر، ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فما فائدة القول الثاني إذنْ؟

فالجواب: أنه لو قدِّر أن هؤلاء النساء مِتن في حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهل يحل له أن يتزوج سوى هؤلاء اللاتي أحل الله له؟ فحينئذٍ يكون للقول الثاني فائدة، وهذه الفائدة تظهر فيما لو قدر أن زوجات الرسول ﷺ اللاتي معه يُتوَفَّون قبله، فإنه لا يحل له من النساء إلا ما ذكر الله: بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ [بترك إحدى التاءين في الأصل] في الأصل وهي كلمة

تبدل أصلها تتبدل، والدليل على أن أصلها تتبدل، وأنها ليست فعلًا ماضيًا: أنَّ (أنْ) دخلت عليها ونصبتها، و(أن) لا تدخل وتنصب إلا المضارع، وإلا فإن كلمة ﴿تَبَدَّلَ﴾ تصح أن تكون فعلًا ماضيًا، ولكنه لما دخلت عليها (إن)، وعملت فيها النصب، عُلِمَ أنها فعل مضارع، حذفت منه إحدى التاءين، وهل لهذا نظير؟

نعم له نظير مثل ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر:٤] أي: تتنزل، قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أي: تتلظى.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [بأن تطلقهن، أو بعضهن، وتنكح بدل من طلقت]، هذا أيضًا لا يحل له، ولم يفعل النبي ﷺ، بعد أن نزلت هذه الآية، فإنه ما طلق واحدة ليتزوج أخرى، ولا تزوج عليهن سواهن بل بقين معه إلى أن توفين، لكنه تُوفي له من زوجاته في حياته زوجتان هما: خديجة، وزينب بن خزيمة، هذه تزوجها بعد أن استشهد زوجها في أُحُد، وبقيت عنده أشهرًا ثم تُوفيت، والبقية من نساءه تُوفي عنهن.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ هل المراد الحسن الظاهر أو الباطن، أو كلاهما؟ يشمل هذا وهذا فالنبي ﷺ كغيره من البشر، قد يتزوج المرأة لجمالها، لكن مع الدين، وقد يتزوجها لدينها، أو لمعرفتها وفهمها، فقوله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يشمل الحسن الظاهر والحسن الباطن.

وقوله: ﴿أَعْجَبَكَ﴾ أي: بلغ الإعجاب منك، وذلك لكمال حسنها الظاهر والباطن.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [من الإماء، فتحل لك]، إلى آخره، يعني: استثنى الله - عز وجل - ما ملكت يمينه؛ وذلك لأن ما ملكت يمينه لا يحصل للزوجة غَيرة منها بخلاف الزوجة، وإنما لا يحصل غيرة من ملك اليمين؛ لأنها لا تساميها ولا تساويها؛ ولأنها ليس لها قسم، فإن مُلك اليمين لا يجب لهن القسم.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ لما بين الله - عز وجل - ما أحل لرسوله وما حرم عليه، ختم الآية بذكر رقابته على كل شيء؛ لأجل الحذر من مخالفة أمره؛ لأنه إذا كان - سبحانه وتعالى - رقيبًا على كل شيء فإن الإنسان يحذر ويخاف من مخالفته.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبق لنا نظيرها عدة مرات، وقلنا: إن الماضي هنا مسلوب الدلالة على الزمن؛ إذ ليس المعنى أن الله كان في زمن مضى، وتخلَّف الحكم عنه في هذا الزمن، وإنما هو لتحقيق اتصاف الله تعالى بالرقابة.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ يشمل ما كان خفيًّا، وما كان ظاهرًا، وما كان خاصًّا بالرسول ﷺ، وما كان عامًّا فيه وفي الأمة، ويشمل ما كان من أعمال الجوارح، وما كان من أعمال القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى أن يختص بأحكامه من يشاء، لقوله ﴿تُرْجِي﴾ و ﴿وَتُؤْوِي﴾ على القول بأن المراد بذلك العدل أو القَسْم، لأن الله خيَّره بين التزام القَسْم وعدمه، وهذا من خصائص النبي ﷺ، أما الأمة، فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ**»[1] وهذا يدل على وجوب العدل بين الزوجات في الأمة.

وعلى القول الثاني في قوله: ﴿تُرْجِي﴾ ﴿وَتُؤْوِي﴾، أن المراد به قبول من وهبت نفسها وردها، فيكون فيه أيضًا دليل على توسيع الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ فيما يتعلق بالنكاح، أن له أن يقبل، وله ألا يقبل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز للإنسان أن يرجع في حقه بعد إسقاطه، لقوله: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، هذا إذا كان الحق متجددًا، أما إذا كان الحق غير متجدد، فإن الإنسان إذا أسقطه لا يمكن الرجوع فيه.

مثال ذلك: أسقطت المرأة نصيبها أو حقها من نفقة ماضية، يعني: يكون الزوج قد ترك الإنفاق عليها لمدة سنة، فأسقطت حقها، فليس لها الرجوع؛ لأن الحق هنا غير متجدد، بل هو في شيء مضى. أسقطت المرأة حقها من القسم، فلها أن ترجع؛ لأن حقها يتجدد، اللهم إلا أن يكون ذلك مشروطًا في العقد، بأن شرط الزوج على زوجته الجديدة، ألا يقسم لها فقبلت، ففي هذا الحال لا تملك الرجوع؛ لأنه صار شرطًا في العقد، والشرط في العقد يجب الوفاء به؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] بخلاف ما لو أسقطته بعد العقد، فإن هذا إسقاط لها أن ترجع فيه؛ لأنها لا تملك إسقاط المستقبل.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ داخل في التكليف؛ لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾؛ لأن نفي الوصف عن شيء ما، يدل على إمكان اتصافه به، إذ لو كان منتفيًا من الأصل ما احتيج إلى نفيه، فدل هذا على أنه يمكن أن يكون على النبي ﷺ جناح، وهذا دليل على تكليفه بأحكام الرسالة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على الجبرية، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ أي: طلبت وأرادت، والجبرية يرون أن الإنسان ليس له إرادة، وإنما يُجبر ويسخَّر على عمله بدون

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤٧)، وأبو داود (٢١٣٣)، والنسائي (٣٩٤٢)، والترمذي (١١٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٠١٧).

إرادة منه.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العِلَل والحِكَم للأحكام، لأن الأحكام مربوطة بعللها وحكمها، تؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وإثبات الحكم في أحكام الله - سبحانه وتعالى - الكونية والقدرية كثيرة جدًّا، وكلها ترد أيضًا على الجبرية؛ لأن الجبرية يرون أن أفعال الله - سبحانه وتعالى - وأحكامه غير معللة، وأنه تعالى يفعل لا لعلة وحكمة، بل لمجرد المشيئة.

هل فيه ما يؤيد مذهب المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح، أو الصلاح في حق الله عز وجل؟

الجواب: هذا مر علينا في «العقيدة السفارينية» حيث قال:

فَلَمْ يَجِبْ عَلَيهِ فِعْلُ الأَصْلَحِ وَلَا الصَّلَاحِ، وَيْحَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ

والمعتزلة يقولون: يجب عليه فعل الأصلح فيما إذا تعارض الصالح والأصلح، وفعل الصالح، فيما إذا تعارض، الصالح والفاسد.

ولكن الصحيح أن في ذلك تفصيلًا: إن قلنا بالوجوب بمعنى: أن عقولنا أوجبت على الله ذلك، فهذا باطل؛ إذ إن العقول لا تُوجب على الله شيئًا، فهي أدنى وأحقر من أن توجب على الله شيئًا، وإن قلنا: إن ذلك واجب بمقتضى حكمته، فهذا حق وصحيح، فإن الله - عز وجل - لا يفعل شيئًا إلا وهو أصلح، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٠٧] فإذا كان الله - عز وجل - أثنى على المصلحين، ونفى أن يكون محبًّا للفساد، أو للمفسدين، دل ذلك على أنه لا يمكن أن يريد الفساد.

وعلى هذا فنقول: المعتزلة أخطأوا حيث أوجبوا ذلك على الله، بعقولهم؛ لأن العقل أدنى وأحقر من أن يوجب على الله شيئًا، وقد يرى العقل أن هذا الشيء واجب، وهو في الحقيقة غير واجب؛ لأن العقول قاصرة، قد ترى أن هذا أصلح وليس بأصلح، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأما أن نقول: إنه واجب بمقتضى حكمته، فهذا حق، فهنا نقول: إن إثبات العلل فيه رد على الجبرية - وهم والجهمية أيضًا - في هذا الباب، وليس فيه تأييد لقول المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح أو الصلاح.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: مراعاة قلوب زوجات الرسول ﷺ وإدخال السرور عليهن، تؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾؛ فإن في هذا مراعاة لقلوب هؤلاء النساء حتى تقر أعينهن.

٧- ومن فوائدها أيضًا: أنه ينبغي مراعاة المؤمن بإدخال السرور عليه وانتفاء الحُزن عنه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أي: لا يدخلهن الحزن والغم مما مضى، وهذه الحال المؤمنة تنافي حال

الشيطان، فإن الشيطان يسعى بكل ما يُحزن بني آدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة:١٠]؛ ولهذا كل من حاول إدخال الحزن على أخيه المسلم، فإنه شبيه بالشيطان الذي يريد إدخال الأحزان على المؤمنين.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى يُدافع عن نبيه ﷺ، بأنواع من الأساليبِ الدِّفَاعِيَّةِ، وجهه: أن الله لما خيَّره بيَّن أن هذا الحكم من الله من أجل إذا علمت زوجات الرسول ﷺ أن هذا الحكم من الله زال ما في نفوسهن من عدم الرضا، أو من الحزن؛ لأنه بلا شك أن رضا الإنسان بما كان من الله أبلغ من رضاه بما كان من غير الله، هذا من جهة، وإن كان المؤمن يرضى بما كان من الرسول ﷺ كما يرضى بالشيء الذي من الله، لكن لما كان النبي ﷺ زوجًا لهؤلاء النساء، فإنه يمكن أن يرد في نفوسهن أن كون الرسول ﷺ يقسم ولا يقسم، أو يقبل ويرد، أن ذلك لمجرد هوىً في نفسه، وإذا اعتقدن أن ذلك لمجرد هوىً في نفسه دخل عليهن الحُزن، فإذا علمن أن ذلك من الله وأن الله هو الذي وسَّع له في هذا زال عنهن الحزن.

ربما يتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى، وهي: أنه ينبغي للإنسان أن يدفع عن نفسه ما يلام عليه به ـ كل شيء تخشى أن يلومك الناس فيه فادفع الشبهة عن نفسك ـ ؛ ولهذا أصل وهو قول الرسول ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ»(١).

٩- ويستفاد من الآية الكريمة: استعمال أدوات التوكيد فيما تدعو الحاجة إليه؛ لقوله: ﴿كُلُّهُنَّ﴾، حتى لا يتوهم واهم أن رضا بعضهن وانتفاء الحزن عنهن كافٍ في ذلك، بل الرضا يكون للجميع.

١٠- ويستفاد من الآية الكريمة: عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالظواهر والبواطن؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

١١ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن ما في القلب مما لا يملكه الإنسان لا يؤاخذ عليه؛ لأنه لما ذكر أن الرسول ﷺ مخير قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: من الشيء الذي لا تملكونه؛ ولهذا لا يحرم على الإنسان أن يفضِّل إحدى نسائه على الأخرى في المحبة؛ لأن المحبة محلها القلب، ولا يمكن للإنسان أن يسلط قلبه ويسخره حتى يحب ويكره.

١٢- ويستفاد من الآية الكريمة: أن محل الإرادات هو القلب؛ لقوله ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وهل المراد بالقلب القلب الحسي أو القلب المعنوي الذي هو العقل؟ القلب الحسي؛ لأن الصحيح أن القلب الحسي هو الذي عليه المدار كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(٢).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، و مسلم (٢١٧٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقد اختلف العلماء هل العقل في القلب أو العقل في الدماغ؟

وظاهر القرآن الكريم أن العقل في القلب، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، ويدل لهذا أيضًا من السنة قوله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ» دل هذا على أن العقل في القلب، ولكن قال الإمام أحمد: إن له اتصالًا بالدماغ، يعني: هو في القلب لكن له اتصال بالدِّماغ؛ ولهذا إذا فسد الدماغ فسد العقل، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في مواطن من كلامه بأن الدماغ محل التصور، وتكييف الأشياء، وأن القلب محل التدبير والتصريف، فكأن الدماغ سكرتير القلب، يهيئ الأمور له ويصورها ويكيفها، ثم يرسلها إلى القلب، والقلب يأمر أو ينهى، أو يقر أو ينكر.

١٣ - **ويستفاد من الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العليم والحليم؛ العليم: هو الذي أحاط بكل شيء علمًا، والعلم عند أهل الفقه أو عند الأصوليين: هو إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا.

فقولهم: (جازمًا) خرج به الشك والظن والوهم، فهذا لا يسمى علمًا، لأنه غير جازم، وخرج بقولهم: (مطابقًا) الجهل المركب؛ لأن الجهل المركب يدرك الإنسان به الشيء إدراكًا غير مطابق، وخرج بقولهم: (إدراك الشيء) الجهل البسيط، لأن الجهل البسيط ليس فيه إدراك إطلاقًا، فهذا هو العلم، والله - عز وجل - لا يتجدد له العلم، وإنما الذي يتجدد المعلوم، وتعلق علم الله عز وجل بالمعلوم له حالان: تعلق به قبل وقوعه، وتعلق به بعد وقوعه، فالتعلق به قبل وقوعه معناه: أنه عالم بأنه سيقع، والتعلق به بعد الوقوع أنه عالم بأنه وقع، والذي يترتب عليه الجزاء هو التعلق الثاني - التعلق المعلوم بعد وقوعه - وعلى هذا يزول الإشكال الذي أورده بعض أهل العلم في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد:٣١] هل ما علم الله المجاهدين؟ نقول: هو علم، لكن العلم الذي يترتب عليه الجزاء، هو العلم بالشيء بعد الوقوع، فالتجدد إذنْ ليس للعلم ولكن للمعلوم.

هل علم الله يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل، أو بالواجب والممكن دون المستحيل، أو بالممكن فقط؟

الجواب: بالجميع؛ بالواجب والممكن والمستحيل، أما علم الله - سبحانه وتعالى - بالواجب، فعلمه بما يستحقه من الأسماء والصفات، فإن هذا علم بالواجب، فإن الله قد وجب له من الكمال على ما هو أهله، وأما علم الله - تعالى - بالمستحيل ففي مثل قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإن هذا من العلم بالمستحيل، وأما الممكن فمعروف،

علمه بما يفعل الإنسان وما لا يفعله.

١٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** إثبات اسم الحليم؛ والحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة، وليس الذي لا يعاقب، الذي لا يعاقب هو العفوُّ، وهذا هو الفرق بين الحليم وبين العفو، فهو - سبحانه - حليم: لا يعاجل بالعقوبة، وعفو: يعفو عن الذنب، فلا يعاقب عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ مكلف كغيره من البشر، أي أنه يحلل له ويحرم عليه، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى، وهي: أن التكليف لا يسقط عن أحد، مهما بلغت منزلته في الدين، فيكون في ذلك رد على الذين يزعمون أن الأولياء إذا بلغوا مرتبة من المراتب سقط عنهم التكليف؛ لأننا نعلم أن أعلى درجات الخلق عند الله هم الأنبياء والرسل، وأن أعلاهم محمد ﷺ، فإذا كان هو محلًّا للتكليف، فمن دونه من باب أولى.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات شكر الله - عز وجل - لمن قام بطاعته واتبع مرضاته، وهذا من مقتضى اسمه الشَّكور؛ لأن الله سمى نفسه بالشكور في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧] فمن شكره أنه - سبحانه وتعالى - ينعم على من قام بطاعته حسب ما تقتضيه تلك الطاعة، بناءً على أن قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد التخيير، أما عن الرأي الثاني أن المراد: من بعد هؤلاء النساء، فلا تتأتى هذه الفائدة، ولكننا ذكرنا أن الآية إذا صلحت لمعنيين لا يتنافيان، فإن الواجب حملها عليهما.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أنه لا يجوز للنبي ﷺ أن يطلق أحدًا من نسائه ليتزوج غيرها؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ فالله لم يحرِّم عليه الطلاق، إنما حرم عليه أن يتبدل بهن من أزواج، وفرق بين الطلاق وبين أن يتبدل بهن من أزواج.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ كغيره من البشر، يعجبه حُسن النساء الظاهر والباطن؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** جواز تزوج الرجل المرأة لحسنها، لقوله: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّيْنِ»(١).

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الوطء بملك اليمين أهون على المرأة من الوطء بالزواج؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، ولهذا أباح الله - عز وجل - للإنسان ألا يعدل بين سراريه؛ لأن الغيرة بينهن ليست كالغيرة بين الزوجات؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، و مسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرِّق؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ والرق ثابت في الإسلام، ومن أنكر ثبوت الرق، فقد كذَّب القرآن والسنة وإجماع المسلمين، فيكون مرتدًا حتى يتوب ويقر بثبوت الرِّق.

والناس في هذا الباب، طرفان ووسط؛ منهم من يسترق الأحرار، ومنهم من ينكر ثبوت الرق مطلقًا، ومنهم من يثبت الرِّق بأسبابه وشروطه، فنسمع عن بعض فئات من الناس، أنهم يسترقون أولادهم ويبيعونهم على غيرهم، وهذا كثير في أفريقيًا، وفي شرق آسيا، حتى إن بعض الهمج والرعاع ظنوا أن ذلك يبيح الوطء بهذا المُلك الفاسد، فصاروا يشترون من هؤلاء بناتهم ويطئونهن بهذا الملك الفاسد وهذا لا يثبت به الملك وليس سببًا للرق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله قال: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**»(١).

القسم الثاني: من الناس من ينكر الرق مطلقًا حتى مع وجود أسبابه الشرعية، وهذا يقول به أولئك الدول المتمدنة التي تزعم الحضارة والتقدم لكن من العجب أنهم ينكرون هذا الرق الإسلامي الذي له أسباب شرعية، ولكنهم يسترقون عباد الله في كل الأرض بغير سبب شرعي، وما مشكلة جنوب أفريقيا إلا أنها أنموذج من ذلك فإنهم يسترقون السود استرقاقًا مشينًا ويحرمونهم من حقوقهم، وهذا أقبح بكثير من الاسترقاق الشرعي الإسلامي، على أن الاسترقاق الشرعي الإسلامي ليس فيه قبح؛ لأنك إذا تأملت النصوص الواردة في أحكام الرقيق وجدت أن الشرع أباح استرقاقهم لمصلحتهم؛ لأن سبب الرق واحد وأسباب الحرية متعددة، وأن الرقيق يجب على مالكه أن يعامله بالمعروف.

وعلى هذا يكون الطريق الثالث وهو إثبات الرق بالأسباب الشرعية الإلهية هو الحق، وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، ولا يمكن أن ينكره إلا مكابر، ومن أنكره فهو كافر.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التعبير بالبعض عن الكل؛ لقوله: ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، ومنه تقديم اليمين على الشمال؛ حيث نسب الملكية إليها دون الشمال، ولم يعبر باليد الشمال عن الذات أبدًا، لكن عبر بالأيدي عمومًا وعبر باليمين.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسم من أسماء الله وهو الرقيب؛ لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾، والرقيب بمعنى الحفيظ، والإيمان برقابة الله تعالى يوجب للعبد كمال مراقبة الله، وخوفه منه وألا يتخلف عن طاعته، وألا يتجرأ على معصيته، فلو أن أحد الملوك جعل عليك رقيبًا فهل يمكن أن تتكلم أو تفعل ما يكون سببًا لعقوبتك عند هذا الملك؟

الجواب: لا، وهذا بالنسبة للمخلوق فالرقابة بالنسبة للخالق أكمل وأعظم!!

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بلاغة القرآن، حيث يختم الآيات بما يناسب الأحكام الموجودة فيها؛ لأنه لما كان المقام مقام تحليل وتحريم ختمها بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ يعني: فهو يراقبك لو خالفت ما شرع لك.



قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣، ٥٤]

التفسير

قال المؤلف: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول بالدعاء إلى طعام، فتدخلوا ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ منتظرين إياه، ﴿إِنَىٰهُ﴾ نضجه، مصدر أنى يأني إنًا].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سبق لنا الكلام على مثل هذه العبارة، وبيَّنَّا أن تصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به؛ لأن النداء، يستلزم انتباه المنادى، وأن وصف هذا النداء بالإيمان يدل على أن التزام هذا الحكم من مقتضيات الإيمان، وأن التخلف عنه سبب لنقصان الإيمان، ثم إن التعبير بالإيمان فيه إغراء وحث؛ لأن المؤمن حقًّا يلتزم ما أُمر به، ويترك ما نُهي عنه، ومن ذلك إذا قلت: يا رجل افعل كذا، المعنى بمقتضى رجوليتك يلزمك أن تفعل كذا، يا مؤمن افعل كذا، أي: بمقتضى إيمانك يلزمك أن تفعل كذا، وفيه إغراء وحث.

فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: لإيمانكم وجهنا إليكم هذا الخطاب ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ بيوت النبي جمع، ومضاف إلى النبي ﷺ؛ لأن بيوته كانت تسعة، كل امرأة من نسائه لها بيت، لم يجمعهن ﷺ في بيت واحد، بل جعل لكل امرأة بيتًا وإضافته للنبي ﷺ ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ مع أنه أضيف للنساء أنفسهن، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ

ﵟٱللَّهِﵞ هل هذا يتناقض مع ذاك؟

الجواب: لا يتناقض؛ فهو مضاف إلى كل شيءٍ منهما بنسبة معينة، فباعتبار أن هذه البيوت مأوى النبي ﷺ ومسكنه أُضيفت إليه، وباعتبار أنها مُلك لزوجاته أُضيفت البيوت إليهن.

والعلماء اختلفوا: هل بيوت زوجات الرسول ﷺ مُلك لهن، أو ملك للرسول ﷺ؟

والجواب: أن فيه قولين لأهل العلم وسبق لنا أن الأظهر أنها ملك للزوجات، بدليل أنهن ورثن هذه البيوت، ولو كان ملكًا للرسول ﷺ ما ورثنها؛ لأن النبي ﷺ يقول: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَّثُ؛ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»[1]، ولا يرد على هذا أن هذه البيوت أدخلت في المسجد فيما بعد؛ لأنها إما أن تكون أُدخلت بعوض، وإما أن تكون أدخلت برضا مستحقها، وهذا لا ينافي التمليك.

وقوله: ﵟإِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُﵞ ﵟإِلَّآ أَن يُؤۡذَنَﵞ بالبناء للمجهول، ولم يقل: إلا أن يأذن النبي، لأنه قد تأذن المرأة من نسائه لأحد فيدخل، فليس بشرط أن يكون الإذن من الرسول ﷺ ولكن الله - تعالى - اشترط ثلاثةَ شروطٍ: الإذن، وإلى طعام، والثالث: ﵟغَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُﵞ، ولننظر هذه القيود هل هي معتبرة، أو لا؟

فقوله: ﵟإِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡﵞ يشمل الإذن العرفي، والإذن اللفظي، فالإذن اللفظي: أن يقول ادخل، والإذن العرفي: أن يكون هناك علامة تدل على أن المقام مقامُ إذن كفتح الباب، وما أشبه ذلك فهل يمكن الدخول بدون إذن؟

الجواب: لا يمكن، فالإذن إذنٌ معتبر - قيد -.

قال: ﵟإِلَىٰ طَعَامٍﵞ هل هذا يدل على أنه لو أُذن لهم بالدخول إلى غير طعام لا يحل، فلو دعي إلى غير طعام هل يدخل أو لا؟

الجواب: إن نظرنا إلى ظاهر قوله: ﵟإِلَىٰ طَعَامٍﵞ قلنا: لا يدخل؛ لأن الله تعالى قال: ﵟإِلَىٰ طَعَامٍﵞ ولكننا نقول: إن هذا القيد بيان للواقع، وما كان بيانًا للواقع، فإنه لا مفهوم له، ومعنى لا مفهوم له: أن الآية وردت في قضية معينة، وهي دخول هؤلاء إلى الطعام بدون دعوة؛ فلهذا قُيدت بقوله: ﵟإِلَىٰ طَعَامٍﵞ.

الثالث: ﵟغَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُﵞ ناظر: إن تعدت بـ (إلى) فهي من النظر بالعين، وإن تعدت بنفسها، فهي بمعنى الانتظار، تقول: نظرت إليه، وتقول نظرته بمعنى: انتظرته، قال الله تعالى: ﵟهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥﵞ [الأعراف:٥٣] ﵟهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُﵞ [النحل:٣٣] المعنى: هل ينتظرون؛ لأنها تعدت بنفسها، ﵟوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞﵞ [القيامة:٢٢، ٢٣] هذا من النظر بالعين، هنا ﵟنَٰظِرِينَﵞ متعدية، بنفسها فتكون بمعنى منتظرين.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٣٦)، ومسلم (١٧٥٨).

وقوله ﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نضجه، هل هذا شرط، أو غير شرط؟ نقول: أن هذا شرط لجواز الدخول، أي: أن يدخلوا لطعام غير منتظرين نضجه، وكانوا يتحرون نضج الطعام، فإذا تحرَّوا أنه قد نضج وقارب أن يُقدم، أو قُدِّم، دخلوا البيوت، لأجل أن يأكلوا، ولا شك أن مفاجئة الإنسان عند أكله تؤذيه، ويسمى هذا الذي يفجأ الناس عند تقديمهم الطعام، يسمى طفيليًّا، وضيفنًا، ما هو بضيف، ضيفًا، بالنون، لأن النون هذه مثل الذي يتكئ على عصا، كأنه ثقيل، فإذا كان ضيف عندك وأنت ما تحب أن يكون عندك، فقلت لصاحبك: هل عندك ضيف، قلت: لا، عندي ضيفنًا، يعني ثقيلًا، طفيلي جاء بلا دعوة، ونام على نهض صاحب البيت لا يتزحزح، ولا يخرج، ويتطلب كثيرًا مثل: هات ماء، هات شراب، هات كذا....إلخ.

إذنْ قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ هذا شرط، يعني: لا يجوز لكم أن تتحروا إناء الطعام حتى تدخلوا؛ لما في ذلك من التضييق على النبي ﷺ، ويحتمل أن المعنى لا تدخلوا مبكرين، بحيث تبقون في البيوت حتى ينضج الطعام؛ لأن في هذا أيضًا إشقاقًا على صاحب البيت، إذا كان تجهيز الغداء في الساعة الواحدة، فجاء هؤلاء في الساعة الثانية عشرة، فهذا فيه تضييق على النبي ﷺ والنبي ﷺ حيي كريم، لو استأذنوا عليه قبل نضج الطعام بساعة لا يردهم ﷺ وإن كان يتأذى بذلك، لكن بكرمه وحيائه، لا يردهم، فتبين بهذا النهي عن بيوت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا بثلاثة شروط: الإذن، وأن يكون إلى طعام، وأن يكونوا غير ناظرين إناه.

لكن ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قلنا: إن هذا ليس بشرط؛ لأنه قيد ببيان الواقع، فلا مفهوم له، كل قيد في بيان الواقع؛ فإنه لا مفهوم له؛ ولهذا لو دُعُوا إلى غير الطعام، فلا بأس أن يدخلوا.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قال المؤلف: [في الدخول بالدعاء ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾]، أفادنا المؤلف: أن قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ لا يتعلق بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ما يتعلق بـ ﴿يُؤْذَنَ﴾ إلا على وجه التضمين؛ لأن ﴿يُؤْذَنَ﴾ لا تتعدى بـ (إلى)، وإنما تتعدى بـ (في) أو باللام، لكنها باللام للمأذون له لا للمأذون إليه، فتتعدى بـ (في) إلا أن يؤذن لكم في طعام، لكنها جاءت بـ (إلى)؛ لأن الإذن هنا ضُمن معنى الدعاء، يعني: إلا أن تُدعون إلى طعام.

وقوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ لماذا جاءت منصوبةً، مع أن الذي قبلها مجرور، يعني لم تكن بلفظ ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾؛ لأنها حال من الكاف في قوله: ﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ حال كونكم ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، فإن كنتم منتظرين نضجه، وتتحرون نضجه، فلا تدخلوا؛ لما في ذلك من الإشقاق والأذية.

وقوله: ﴿إِنَىٰهُ﴾ يقول المؤلف: [إنها مصدر، أنى، يأني إنًا] فهي ليس فيها شيء محذوف، يعني ليست إناءه في الأصل، بل هي إناه، أصلًا وفرعًا، مصدر أنى، يأني، إنًا.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ لما كان قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ

﴿أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قد يتوهم منه واهم بأنهم لا يدخلون أبدًا، فكان في قوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ فائدة، وهو أنه متى دعوا دخلوا، فكونهم هم يدخلون بأنفسهم لا يجوز إلا بالشروط السابقة، لكن إذا دُعوا فيدخلون، فإذا طعموا، فإنهم ينتشرون، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ولا تدخلوا بغير دعوة، وهذا غير قوله: ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأن ﴿يُؤْذَنَ﴾ معناها: أنهم جاءوا فاستأذنوا، وأما التي معنا الجملة الثانية، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ فهذه هم الذين دعوا.

وقد كان الرسول ﷺ يدعو الناس إلى طعامه، كما دعا أبا هريرة رضي الله عنه حين وجده جائعًا في يوم من الأيام، فقد خرج أبو هريرة من بيته وهو جائع، حتى كاد يسقط مغشيًا عليه من الجوع، فلما خرج الناس، تبع عمر بن الخطاب يسأله عن آية من كتاب الله، وأبو هريرة حين سأله عن الآية يعرف الآية، لكن يؤمل لعل عمر يقول اتبعني، ولكن عمر رضي الله عنه ما فكَّر في هذا الأمر، بل أخبره بالآية ومضى، يقول: فلما جاء الرسول -عليه الصلاة والسلام- ورآني عرف ما في وجهي، فدعاه، فدخل فجيء بلبن إلى النبي ﷺ فأمره أن يدعو أهل الصُّفة يقول: «**لما قال ادعوا أهل الصفة واللبن قليل، يعني: كأنه تردد رضي الله عنه قال ما يغني هذا اللبن لأهل الصفة، إذا دعوت أهل الصفة وشربوا اللبن بقيت أنا جائعًا، يقول: وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ، فَذَهَبَ فَدَعَا أَهْلَ الصُّفَّةِ فَجَاءُوا، فَشَرِبُوا، كُلٌّ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَكُلٌّ يُشْرِبُ، فَلَمَّا بَقِي بَقِيَّةٌ، قَالَ: اشْرَبْ، يَقُوْلُ: فَشَرِبْتُ حَتَى رَوِيْتُ، فَقَالَ: اشْرَب أبا هِر، فَقلْتُ: والله يَا رَسُوْلَ الله لَا أَجِدُ لَهُ مَسَاغًا، فَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ، فَشَرِبَهَا النَّبِيُّ ﷺ**»[1]، ففي هذه دعوة عامة، ودعوة خاصة، وكذلك في حديث أنس لما صنع النبي ﷺ طعامًا قال: «**اخْرُجْ فَادْعُ لِي مَنْ لَقَيْتَ**»[2]، فإذا دعي المسلمون إلى طعام، ﴿فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، ولم يقل فإذا شبعتم؛ لأن الطعام قد يُشبع وقد لا يشبع.

وقوله: ﴿فَانتَشِرُوا﴾ قال: [أي: تفرقوا ﴿وَلَا﴾ تمكثوا ﴿مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾]، أفادنا المؤلف بقوله: [﴿وَلَا﴾ تمكثوا] أن كلمة مستأنسين: حال من فاعل محذوف مع فعله، والتقدير: ولا تمكثوا مستأنسين لحديث، والاستئناس بالشيء معناه: الاطمئنان إليه، يعني: لا تبقوا بعد الأكل تتحدثون، وتنبسطون، وتطمئنون، وأما الحديث العابر، فلا بأس به بعد الأكل، ولكن هذا ليس من آداب الطعام على كل حال؛ لأنه عُلل، قال: [﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ بعضكم لبعض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المكث ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أن يخرجكم، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أن يخرجكم]، وعلى هذا فينهون عن البقاء مطمئنين للحديث، لعلة وهي الأذية للنبي ﷺ، وبناءً على هذه العلة، لو قُدر أنه لا يتأذى بذلك فلا حرج على الإنسان أن يبقى، وسيأتي - إن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٥٢)، والترمذي (٢٤٧٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٦٣)، ومسلم (١٤٢٨).

شاء الله ـ في الفوائد بيان أن رسول الله كان يقول لبعض الناس إذا طعم يقول: اجلس برهة.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ أعاد الاسم الظاهر في موضع الضمير؛ تعلية لشأن الرسول ﷺ وإلا لكان المتوقع أن يقول إن ذلكم كان يؤذيه، ولكن قال يؤذي النبي؛ إعلاءً لشأنه ﷺ وإشارةً إلى أنه لنبوته يجب أن يتحاشى المرء أذيته، لما له من الفضل.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ لماذا جمع في الخطاب، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾؟

الجواب: لأن المخاطبين جمع، واسم الإشارة إذا اقترن بالكاف، فإنه يراعى فيه المخاطب والمشار إليه، والمشار إليه يتغير به اسم الإشارة، والمخاطب تتغير به الكاف، فلنفرض أني أشير إلى جماعة وأخاطب واحدًا، أقول: أولئك، وبالعكس لو أشير إلى واحد، وأخاطب جماعة، أقول: ذلكم، أشير إلى جماعة وأخاطب جماعة أقول: أولئكم، أشير إلى جماعة وأخاطب جماعة نساء، أقول: أولئكن، أشير إلى واحد، وأخاطب جماعة نساء، أقول: ذلكن، قال الله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢].

المهم: أن اسم الإشارة إذا اقترن بالكاف فإنه يراعي فيه كاف المخاطب، ويراعى في اسم الإشارة المشار إليه، إذا كان جمعًا اجمعها وإذا كان مثنى ثنِّها، وإذا كان مفردًا فأفردها وإذا كنت تشير إلى اثنين مخاطبًا اثنين، كيف تقول؟ تقول: ذانكما، تشير إلى اثنتين مخاطبًا اثنتين؟ تقول: تانكما؛ لأن مثنى المؤنث، يقال: تان، وهذه يخطأ فيها كثير من الطلبة، فيلتبس عليه المشار إليه بالمخاطب.

إذنْ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه هنا مفرد، والمخاطب: جمع؛ لأنه يخاطب جماعة المؤمنين، ويشير إلى شيء مذكور، أي: إن ذلك المذكور يؤذي النبي فيستحيي منكم.

وقوله: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ الأذية ليست هي الضرر، إذ قد يتأذى المتأذي ولا يتضرر بذلك؛ ولهذا يُوصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالتأذي ولا يوصف بالضرر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يُؤْذِيْنِي ابْنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهرَ**»(١)، أما في الضرر فقال في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوْنِي**»(٢).

ونحن نشاهد الآن في أنفسنا أنا نتأذى بالشيء ولا نتضرر به، يتأذى الإنسان بالرائحة الكريهة كرائحة البصل، والوسخ والعرق، وما أشبه ذلك، ولكنه لا يتضرر به؛ إذنْ لا يلزم من الأذية الضرر.

وقال تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ الفاء عاطفة على قوله: ﴿يُؤْذِى﴾ يعني: فكان أيضًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

يستحيي منكم أن يخرجكم إذا دخلتم في هذه الحال.

وقوله: ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي: معروف، ففي القاموس إذا جاءت كلمة معروفة كتب فوقها ميًا، يعني: معروف، ما يحتاج إلى أن نحدده، كما لو قيل لك: ما هي المحبة، ما تستطيع أن تقول، مثل ما قال ابن القيم في «روضة المحبين» يقول: إن المحبة لا تحد، بأوضح من لفظها، المحبة هي المحبة، ما هي الكراهة؟ هي الكراهة، فما تستطيع أن تحدها؛ لأن هذه انفعالات نفسية، يحس بها الإنسان من نفسه ولا يستطيع أن يعبر عنها، فالحياء هو الحياء، وما هو النوم؟ النوم معروف، وبعضهم يقول: إنها غشية ثقيلة، تهجم على المخ فتفقد الوعي والإحساس، هذا لو أتصور أن هذا هو النوم ما جاءني النوم، الحاصل أنك إذا قلت النوم معروف، فهو معروف لكل أحد، أما الجوع فهو خلو البطن من قلة الطعام، هذا أثره، أما هو فإنه معروف، فهذه من العوامل النفسية لا يمكن في الحقيقة أن يعرِّفها أحد، لا يمكن أن تعرف بأوضح من لفظها، إذنْ الحياء معروف.

والنبي ﷺ يستحيي من هؤلاء؛ لأنه ﷺ أكمل الناس إيمانًا، والحياء من الإيمان؛ ولأنه ﷺ أكرم الناس، والكريم يستحيي من ضيفه أن يخرجه، أو أن يتبرَّم بوجوده، أو أن يتكره له، فلهذا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصبر وإن كان متأذيًا من ذلك بما جبله الله عليه من كمال الإيمان وكمال الكرم، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ قال المؤلف: [أن يخرجكم]، هذه في محل جر بدل اشتمال، يعني التقدير: فيستحيي من إخراجكم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ فالله لا يستحيي من الحق، وهو العدل في الأحكام و الصدق في الأخبار، فالرب ـ عز وجل ـ لا يستحيي من الحق؛ لأن الحياء من الحق معناه: ترك الحق، أو يستلزم ترك الحق، والخور، وعدم الحزن، والله ـ عز وجل ـ لا يستحيي أن يبين الحق، يقول المؤلف: [﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أن يخرجكم]، هكذا قال المؤلف، وفيما قاله نظر، بل الصواب: لا يستحيي من الحق أن يبينه لكم؛ لأن المقام هنا ما هو مقام القرار، المقام مقام تبيين لما يجب على هؤلاء الذين استأذنوا على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمعنى قلت: إن الحق هو الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، والمراد بالحق هنا على رأي المؤلف هو الإخراج، يعني: لا يستحيي أن يخرجكم، ولكن الصواب: لا يستحيي أن يبين لكم ما يلزمكم فتخرجوا.

ثم قال المؤلف ـ عفا الله عنه ـ: [أي: لا يترك بيانه]، أي: لا يترك بيان الحق، وهذا من التحريف، حيث فسر الحياء بلازمه وهو الترك؛ لأن من لازم الحياء من الشيء أن يدعه حييًا منه، والمؤلف فسر الحياء بلازمه، وهو الترك، أي: لا يترك بيان الحق، وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ مع قوله: [لا يستحيي أن يخرجكم] فيه شيء من التناقض؛ لأنه جعل المستحيا منه هنا: بيان الحق، وجعله في الأول الإخراج والصواب قوله الثاني، أي: لا يستحيي من بيان الحق، لكن

تفسيره للاستحياء بالترك هذا باطل؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، والواجب علينا - فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته - أن نجريها على ظاهرها اللائق بالله - سبحانه وتعالى - معتقدين أنه لا مثيل له في هذه الصفة، ومبتعدين عن تكييفها، أما وجوب إجرائها على ظاهرها، فلأن الله خاطبنا بلسان عربي مبين، ولو أراد خلاف ذلك الظاهر لكان التعبير بهذا الذي يفيد ظاهره الكفر أو التمثيل خلاف البيان، والله يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] وكيف يتكلم - سبحانه - بخلاف البيان فيما يعتبر صميم العقيدة، وهو ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، ولهذا كانت طريق هؤلاء المنحرفين من أبلغ ما يكون طعنًا في كلام الله - عز وجل - ، بل من أبلغ ما يكون طعنًا في الله نفسه، إذ إن طريقتهم تستلزم أن يكون الله لم يبين الحق فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، وجعلَ الحق موكولًا إلى ما تقتضيه عقولهم، ويحاولون بعد ذلك أن يردوا كلام الله - عز وجل - وكلام رسوله إلى ما تقتضيه هذه العقول الفاسدة المتناقضة.

والطريق الأسلم والأعلم والأحكم، هو طريق السلف: أن تأخذ كلام الله ورسوله على ظاهره؛ لأننا نعلم علم اليقين، أنه لا أحد أعلمُ من الله بنفسه، ولا أحد من الخلق أعلم بالله من رسول الله ﷺ، ونعلم أيضًا أنه لا أحد أصدق كلامًا من الله، ولا أحد من المخلوقين أصدق كلامًا من رسول الله ﷺ، ونعلم - الأمر الثالث - أنه لا أحد أوضح بيانًا في كلامه من الله - عز وجل - ولا أحد من المخلوقين أعظم بيانًا من رسول الله ﷺ، هذه ثلاثة أمور، والأمر الرابع: ونعلم أيضًا أنه لا أحد أصح إرادة وقصدًا من الله - عز وجل - ؛ لأن الله ما أراد من عباده إلا أن يبين لهم الحق، وكذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ لا نعلم أحدًا أنصح منه للخلق، وأصدق إرادة في بيان الحق، فإذا تمت هذه الأمور الأربعة في أي كلام صار ما يدل عليه ظاهره هو المراد الذي يجب علينا أن نأخذ به؛ وهذه أمور أربعة إذا اجتمعت في الكلام، صار الكلام واجبًا الأخذ بظاهره، وهي: العلم، والصدق والبيان، وصحة الإرادة، ضدها ما يؤخذ ولا يعتبر، إذا جاء إنسان لك جاهل يتكلم بكلام بأفصح الكلام، وهو رجل نعرف أنه من أنصح الخلق، وأصدقهم، هل تثق بقوله؟ ما نثق بقوله، ولو جاء رجل يتكلم عن الطب، ونحن نعلم أنه ما درس في الطب أبدًا، وقام يشرح لنا، لا نثق به، لأنه جاهل، لو جاءنا عالم، ونعلم أنه عالم بما يتكلم به لكنه كذوب، هل نثق بكلامه؟ لا نثق؛ لأنه كذوب، يمكن أن يكذب علينا، ولو جاءنا رجل عالم وصدوق، لكنه سيء الإرادة قد يغش، ويقصد ضلال الخلق، هذا أيضًا لا نثق به؛ لأننا نخشى أن يكون غشنا فيما قال، والرابع: لو جاءنا إنسان عالم وناصح وصدوق، لكن ما يحسن أن يعبر، مثل إنسان فارسي لا يعرف اللغة العربية، وقام يعبر باللغة العربية، هل نثق من قوله؟ لا، لا نثق؛ لأنه ما يعرف، أحيانًا يقول: إذا أراد أن يضيف الضمير إلى نفسه يقول: أنت أكلت، إذا أراد أن يقول: أنا أكلت يقول: أنت أكلت، وعندما يريد أن يقول أنت أكلت يقول: أنا أكلت، ما نفهم من كلامه فممكن أن

يقلب الكلام، لكن كلام الله وكلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - اجتمعت فيه صفات القبول الأربع، فلهذا يجب علينا أن نؤمن بكل صفة وصف الله بها نفسه.

فإن قال قائل: الآية وما أشبهها فيها نفي الحياء، والنفي ضد الإثبات، فكيف تقول: إن في الآية أنها إثبات للحياء.

نقول: منطوق الآية: ﴿لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾ ومفهومها: يستحيي من غير الحق، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لكان نفي الاستحياء عن الحق لغوًا من القول، لا معنى له، ثم نقول: إنه قد ثبتت صفة الحياء لله - عز وجل - بصيغة الإثبات، كما في الحديث الذي في «المسند» «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ»(1) حيي هذه فيها إثبات الحياء لله - سبحانه وتعالى - فكل صفة أثبتها الله لنفسه، فإنه يجب علينا أن نأخذها بالقبول، ولكننا ننزه اعتقادنا عن محظورين عظيمين وهما: التمثيل والتكييف، والتمثيل أحسن من التشبيه، يعني: التعبير بالتمثيل أحسن من التعبير بالتشبيه؛ لأن هذا هو الذي نفاه الله عن نفسه؛ ولأن نفي التشبيه المطلق، هذا ليس بصواب؛ لأننا ذكرنا أنه ما من موجودين إلا ويشتركان في صفة الوجود، وإن كانا يتباينان فيما تقتضيه عليه الصفة في مقتضياتها ومستلزماتها، وما من سميعين إلا ويشتركان في صفة السمع، وإن كانا يختلفان في ملزوماتها ومقتضياتها، وما من بصيرين إلا ويشتركان في صفة البصر، فيكون بينهما مشابهة من بعض الوجوه فيما يشتركان فيه؛ ولهذا نفي التمثيل هو الذي ينبغي لنا - معشرَ طلبةِ العلم - أن نعبر به؛ لأنه هو الذي جاء في القرآن وهو أسلم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ [أي: لا يترك بيانه، وقرئ يستحيي بياء واحدة]، قراءة شاذة أو سبعية؟ شاذة؛ لأن قاعدة المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا قال: [وقرئ]، فهي قراءة شاذة بخلاف ما إذا قال: وفي قراءة، أو قال: بالياء والنون أو الياء والتاء، وما أشبه ذلك فهما قراءتان سبعيتان.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الفاعل يعود على الصحابة، والمفعول يعود على نساء النبي ﷺ، وهن لم يسبق لهن ذكر في الآية، لكن قوله: ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ يدل على ذلك؛ لأن ساكن بيوت النبي هن أزواج النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواج النبي ﷺ، أي هذه تفسيرية، وأزواج عطف بيان للهاء في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي أزواج النبي ﷺ ﴿مَتَاعًا﴾ المراد بالمتاع ما يتمتع به من ملابس، ومطاعم، ومشارب، وغيرها، حتى الدراهم تعتبر متاعًا، فكل ما يتمتع به فهو متاع.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [ستر]، اسألوهن تنصب مفعولين: الأول: الهاء، في قوله: ﴿فَسْأَلُوهُنَّ﴾، والثاني محذوف دل عليه ما قبله، أي: فاسألوهن المتاع،

---

(1) صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٢٠٢)، والترمذي (٣٥٥٦)، وأبو داود (١٤٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

وقوله ﴿حِجَابٍ﴾ بمعنى: ستر، وكلمة: ﴿مِن﴾ تدل على أن الستر لابد أن ينفصل، وأنه غير ستر الوجه، أو البدن بالثياب، بل هو ستر آخر حجاب، وحجاب أمهات المؤمنين غير حجاب نساء المؤمنين، لأن حجاب نساء المؤمنين يصح أن يكون متصلًا بالبدن، كالخمار والملحفة، وما أشبههما، أما حجاب أمهات المؤمنين فإنه حجاب آخر منفصل، يحول بين الرجل وبين رؤية أمهات المؤمنين، ولهذا قال: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فتدل على أن هذا الحجاب منفصل عن المستتر به، ومنه قوله تعالى عن الكفار: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: المذكور، والخطاب للصحابة رضوان الله عليهم.

وقوله: ﴿أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ﴿أَطۡهَرُ﴾ يعني: أبلغ في طهر القلوب، ﴿لِقُلُوبِكُمۡ﴾ [أيها السائلون ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي المسئولات من الخواطر المريبة]، الخطاب للصحابة وهم أطهر هذه الأمة قلوبًا في جانب من؟ في جانب نساء النبي ﷺ، وهن أعظم النساء عفةً وبعدًا عن المكروه، فإن كان هذا الخطاب في مثل هذا القول لهؤلاء النساء، فما بالك بمن سواهن، إذا كان احتمال تدنس القلب بمخاطبة المرأة من دون حجاب، إذا كان احتمال هذا واردًا في مثل هؤلاء القوم، فما بالك بمن دونهم بمراحل، لا في الزمن ولا في الرتبة، يكون هذا أشد وأشد، ولذلك ينكر إنكارًا عظيمًا على من قال: إن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين، نقول: من أين الخصوصية؟ فإذا كان الله علل بأنه أطهر لقلوبهن أي: لقلوب المخاطبين والمخاطبات، وهن بلا شك أطهر النساء وأعفهن، وكذلك الذين يخاطبونهن، خير الناس، كما جاء في الحديث «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»[1]، فما بالك بمن دونهم؟! احتمال تنجس القلب بمخاطبة المرأة بدون حجاب فيمن بعد الصحابة أقرب وأقرب بكثير، وإذا كان هذا باعتبار الصحابة مع زوجات الرسول ﷺ فغيرهم مع نساء دونهن بكثير من باب أولى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [من الخواطر المريبة]، الخواطر التي ترد على القلب، والخواطر التي ترد على القلب إذا لم يطمئن الإنسان إليها ويسترسل معها، فإنه لا يعاقب عليها؛ لأنها من حديث النفس، بل هي مما يصول على النفس، والتحرز منها أشد؛ لأن الرسول ﷺ ثبت عنه أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ به أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[2] فإذا كان هذا في حديث النفس، فما بالك فيما يهجم على النفس بدون قصد؟ يكون العفو عنه من باب أولى، فالخواطر التي ترد على القلب إذا لم يسترسل معها الإنسان ويطمئن إليها، فإنها لا تضره، سواءٌ أكانت هذه الخواطر فيما يتعلق بجلال الله - عز وجل - أو فيما يتعلق

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، و مسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

برسوله ﷺ أو فيما يتعلق بشهوة النفس وإراداتها، فإنها لا تضر الإنسان، بشرط ألا يسترسل معها، بل إن هذه الخواطر لا ترد إلا على قلب سليم يهاجم الشيطان بها القلب حتى يفسده، ولهذا لما شكا الصحابة للنبي ﷺ مثل هذه الخواطر، قال: «أَوَجَدْتُم ذَلِكَ؟» قالوا: نَعَم، قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[1] أي: خالصه؛ لأن الشيطان ما يهجم على قلب فاسد، وإنما يهجم على القلوب الصالحة؛ ليفسدها، ودواء ذلك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي وأن تثني على الله - عز وجل - بما هو أهله، فتقول: الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الاستجارة بالله والانتهاء ووصف لله تعالى بالكمال، وبعد ذلك تزول عنك شيئًا.

إذن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ الخطاب للصحابة - رضوان الله عنهم - ولمن بعدهم من باب أولى، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ ومثل هذه العبارة تدل على الممتنع غاية الامتناع، ولهذا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في قوله : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ما بينها، يعني: ما يصلح ولا يستقيم ولا يمكن لكم أن تؤذوا رسول الله، ومثل هذا التعبير يدل على امتناع الشيء، مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] المعنى: أن ذلك ممتنع لا يصلح ولا يستقيم، فكل مؤمن لا يمكن في حقه ولا يستقيم ولا يصلح في حقه أن يؤذِيَ رسولَ الله ﷺ، لا بالقول ولا بالفعل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧] وأذية الرسول - عليه الصلاة والسلام - من أعمال المشركين، فهم الذين يؤذون الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالقول وبالفعل.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ وفي أول الآية قال: ﴿النَّبِيِّ﴾ إشارة إلى أن الرسول ﷺ شرف لعظم من أرسله، وهو الله، فلما كان رسول الله، كان لا يمكن أن يؤذى؛ لأنه رسول من عند الله تعالى.

أذية الرسول - عليه الصلاة والسلام - في حياته ما يتصل بشخصه، وأذية الرسول بعد مماته ما يتصل بسنته؛ فإنه لا ينبغي ولا يصلح لأي مؤمن أن يكون في سنة رسول الله ﷺ على وجه يتأذى به الرسول مثل ردها وتحريفها وما أشبه ذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾.

إذنْ هل نجلس مستأنسين لحديث بعد الطعام؟

الجواب: لا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي﴾ إذنْ ما كان لنا أن نجلس مادام فيه أذية للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ يعني: ما كان لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا، ﴿تَنكِحُوا﴾ المراد بالنكاح هنا: العقد، يعني: ما يمكن أن تعقدوا على أزواجه من بعده، وكل نكاح في القرآن فإنه بمعنى العقد، خلافًا لمن قال: كل نكاح في القرآن فهو بمعنى الوطء إلا قوله:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤١)، وأبو داود (٥١١١).

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢] والصواب: أن كل نكاح في القرآن فهو بمعنى العقد، وأما من قال: إنه بمعنى الجماع إلا في الآية هذه، وآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩] فليس بصحيح.

وقوله: ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾ تكون المرأة زوجة للإنسان بالعقد عليها.

وقوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعد مفارقته لها، ومفارقة النبي ﷺ لها تكون في الحياة وتكون بالموت، والمفارقة في الحياة تكون قبل الدخول، وبعد الدخول، فها هنا ثلاث حالات:

الحالة الأولى: من فارقها بموته، فهذه لا تحل لأحد من بعده بالإجماع ولم يخالف في ذلك أحد.

والحالة الثانية: من فارقها في حياته بدون جماع، بدون دخول، فهذه تحل، ولا نزاع فيها كما ذكره ابن كثير في التفسير.

والثالثة: من فارقها في حياته بعد دخوله بها، فهذه موضع خلاف بين أهل العلم، فمنهم من قال: إنها تحل، ومنهم من قال: إنها لا تحل، وعلى هذا الرأي الذي يقول إنها لا تحل، يقول: إنه يصدُق عليها أنها زوجته وأنها من بعده، ولولا أن من عقد عليها ثم فارقها قبل الدخول لولا الإجماع لقلنا أيضًا: لا تحل لمن بعده.

ويقول: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه إيذاء النبي ﷺ، ونكاح زوجاته من بعده.

وقوله: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبةُ الدلالة على الزمن والمراد إثبات عِظم ذلك عند الله، وفي كون هذا الأمر عظيمًا عند الله ـ عز وجل ـ دليل على حماية الله تعالى لرسوله الله ﷺ، ولاسيما فيما يتعلق بالنكاح، ولهذا قال الله في قصة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥] وهنا قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعني: في قدره ورفعته، أم عظيمًا في إثمه وجرمه؟

الجواب: في إثمه وجرمه، وعلى هذا فعظم الشيء معناه: كبره، وهو شامل لما يكون مدحًا، ولما يكون ذمًّا، فهنا كان عند الله عظيمًا في إثمه، قال: [فيجازيكم عليه] على حسب الذنب الذي قمتم به؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فالتزوج من زوجات النبي ﷺ، من بعده عظيم عند الله، فلذلك حذر من مخالفة ذلك بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ والجملة هنا شرطية، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتكون دالة على العموم.

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال المؤلف: [في نكاحهن بعده]، والصواب في الآية عدم التقييد، وأنها عامة في كل شيء، في نكاح زوجات النبي ﷺ بعده وفي غير ذلك.

وقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: فلا تظهروه لأحد، ﴿تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم أو تخفوه فيما بينكم وبين أقاربكم؛ لأن الإخفاء أو الإظهار أمر نسبي، أشده ما أخفاه الإنسان في نفسه، ثم ما أظهره لذويه

وأصحابه، وأخفاه عن غيرهم، ثم ما أظهره لأهل بلده، ثم ما أظهره لعموم الناس، وأيًّا ما كان فإن كل ما أبداه الإنسان، أو أخفاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ الجملة هنا جواب الشرط واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ فهي جملة اسمية، وإن قرنت بـ (إنَّ) الدالة على التوكيد، ووجه ارتباطها بما قبلها ـ أي بفعل الشرط ـ أنه إذا كان الله تعالى عالمًا به فسوف يجازيكم عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

الفوائد:

قال الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه لا يحل لأحد من المؤمنين أن يدخل بيوت النبي ﷺ، إلا بالشروط المذكورة؛ لقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ والأصل في النهي: التحريم حتى يقوم دليل على أنه لغير التحريم، ويؤيد التحريم هنا: أن هذا يتعلق بحق الآدمي، وما كان متعلقًا بحق الآدمي فإنه لا يُتسامح فيه.

٢ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن إضافة الشيء إلى الشيء تكون لأدنى ملابسة، سواءٌ كان ذلك على صفة الملكية أو الاختصاصية، أو الصحبة، أو القرب، أو غير ذلك؛ ولهذا من قواعدهم المعروفة: أن الإضافة تكون لأدنى ملابسة، لكن لابد أن يكون بين المضاف والمضاف إليه شيء من الارتباط، تؤخذ هذه من قوله: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾؛ لأن إضافتها إلى النبي باعتبارها مأواه، وإلا فهي مُلك لزوجاته على القول الراجح.

٣ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الإذن بالدخول معتبر، سواءٌ كان من صاحب البيت أو ممن أنابه؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ولم يقل: إلا أن يأذن لكم ـ أي النبي ـ فإذا أذن للإنسان بالدخول سواءٌ أكان من صاحب البيت أو من خادمه أو من ابنه أو ما أشبه ذلك، جاز الدخول.

وهل يستفاد منه جواز الدخول إذا وجدت الباب مفتوحًا وقد كان بينك وبين صاحبك وعد، أم لا يستفاد؟

الجواب: إن قلنا بأن الإذن العرفي كالإذن اللفظي، فهو يستفاد من ذلك، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾

[النور:٢٧]، فإن الاستئناس - وهو الاطمئنان - يشمل الإذن أو الاستئذان باللفظ، والاستئذان بالفعل والعُرف.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أنه يجوز دخول بيوت النبي ﷺ بهذه الشروط: الإذن، وألا يكون ذلك بانتظار نضج الطعام، لما في المفاجئة من الإيذاء، يعني: إذا نضج طعامك ثم جاء إنسان يستأذن، صار فيها نوع من الإيذاء؛ لأنك إن منعته شقَّ عليك وإن أذنت له شقَّ عليك أيضًا، فلهذا لا يجوز الدخول لمنتظر نضج الطعام.

٥- **ويستفاد من الآية:** تحريمُ التطفل؛ لأن الطفيلي عادته أنه ينتظر متى يُقدم الطعام، فإذا قُدم الطعام استأذن، أو هجم هجومًا بدون استئذان؛ لأنه قبل أن ينضج الطعام ويقدم يمكن أن يدخل، ثم يقال له: اخرج، لكن بعد أن يقدم الطعام لابد أن يأكل.

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** مشروعية إجابة الدعوة؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾.

وهل يستفاد منه دخول الإنسان المدعو، وإن لم يؤذن له، إذا وجد الباب على هيئة تدل على الإذن؟

الجواب: نعم، وهو واضح؛ لأنه قال: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾، ولم يقل وإذا دعيتم فأجيبوا، والدخول أخص، وعلى هذا فإذا كنت مدعوًّا، وأحضرت إلى الباب فلي أن أدخل إذا علمنا بالقرينة، أن الباب وضع موضع الإذن كما لو كان مفتوحًا.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الإنسان ينبغي له إذا قضى حاجته من الطعام أن ينصرف؛ لقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، وهذا كما أنه في بيوت النبي ﷺ فهو أيضًا في بيوت غيره، فإن الأفضل لمن دُعي إلى طعام إذا طعم أن ينتشر؛ لأن بقاءه قد يشق على صاحب البيت، ولأن الحاجة التي جاء من أجلها قد انتهت، وإذا تأملت الشريعة وجدت أن الإنسان من حسن أدبه وسلوكه أنه كلما فرغ من حاجته التي يريد أن ينتهي منها ينصرف إلى حاجات أخرى، ولهذا قال النبي ﷺ في المسافر إذا قضى حاجته: «**إِذَا قَضَى أَحَدُكُم حَاجَتَه فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَنْتَظِرْ**»(١)، ولو أننا حفظنا أوقاتنا بمثل هذا الأدب، لكانت أوقاتنا مباركة، لكن تجدنا نضيع أوقاتنا، ولسنا نراعي هذه الحال أنه كلما انتهى الشغل لا ننتظر نمشي إلى شغل آخر، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧، ٨] فلا تضيع الوقت.

٨- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن من دخل بيوت النبي ﷺ بدعوة، ثم طَعِم فإنه لا يجلس للحديث؛ لقوله: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ وهذا فوق قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾؛ لأن هذا أمر، أما هذا فَنَهْيٌ يُنْهَى أن يبقى هؤلاء المدعوون مستأنسين للحديث بعد فراغهم من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٤٢٩)، و مسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الطعام.

٩- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن هذا الحكم إنما يكون في حال تأذي صاحب البيت؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، أما إذا كان لا يتأذى به بل يُسَرُّ به بل قد يكون بطلبه إذا فرغوا من الطعام قال: اجلسوا نتحدث، فإن هذا جائز ولا بأس به؛ لأن القاعدة عند أهل العلم: أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا وجدت العلة وُجِدَ المعلولُ وإذا انتفت العلة انتفى المعلول.

١٠- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ كغيره من البشر يتأذى كما يتأذى غيرُه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، لكنه يختلف عن غيره في قوة صبره وتحمله ﷺ بخلاف غيره من البشر، فإنه لا يصبر ولا يتحمل كما يتحمل الرسول ﷺ؛ ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتأذى من بقائهم مستأنسين للحديث، ولا ينهاهم حتى نهاهم الله - عز وجل -.

١١- **ويستفاد من الآية الكريمة:** عناية الله - عز وجل - لنبيه ﷺ، وذلك بالدفاع عن كل ما يؤذيه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

١٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** كمال حياء الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكرمه؛ لقوله: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾، وإنما كان يستحيي لشدة حيائه؛ فإنه كما وصف أشد حياءً من العذراء في خِدْرِهَا، والحياء من الإيمان كما ثبت في الحديث عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو أيضًا دليل على كَرمه؛ لأن الكريم يستحيي أن يخجِّل أضيافه بقوله: اخرجوا، أو يخجلهم بالتبرم منهم، والتكره لتصرفهم، ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يعاملهم وكأنه مسرور منهم، حتى بيَّن الله ذلك للصحابة.

١٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن القرآن شاملٌ لكل شيء، يعني: حتى آداب الدخول والجلوس والطعام وما أشبه ذلك، قد بينه القرآن، فيكون في ذلك إيضاح لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

ودلالة القرآن على الأشياء نوعان: دلالة عينية بمعنى: أنها تدل على الشيء بعينه، وهذا واضح، ودلالة شمول لفظي، أو معنوي، فالشمول اللفظي: بمعنى أن يكون اللفظ عامًّا بصيغته يشمل كل ما يحتمله ذلك اللفظ من المعنى، والعموم المعنوي: هو ما يُعرف عند أهل العلم بالقياس؛ لأنه يكون المقيس والمقيس عليه متفقيْن في العلة فيكون بينهما عموم في المعنى، فدلالة القرآن على الشيء تكون على هذا الوجه، إما دلالة لفظية، وإما دلالة معنوية بالشمول اللفظي أو المعنوي.

وهناك أيضًا دلالة الالتزام، وهي متفرعة أو داخلة فيما ذكرنا من الدلالتين، فإن قلت: يردُ عليك أنه لا يوجد في القرآن مقدار أنصبة للزكاة، ولا مقدار الواجب ولا يوجد عدد الركعات

ولا مقدار ما يسن فيها من الذكر، فما الجواب؟

الجواب: أن السنة قد بيَّنت ذلك، وقد أمرنا الله في كتابه أن نأخذ بما جاء عن رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ يشمل ما آتانا من المال، وما آتانا من العلم، والعلم يسمى إيتاءً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ فكما أن إعطاء المال يسمى إيتاءً، فإعطاء العلم أيضًا يسمى إيتاءً، وكذلك قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وكل هذا يدل على أن ما جاءت به السنة فهو مما جاء به القرآن.

١٤- ويستفاد من الآية الكريمة: وصف الله تعالى بالحياء، يؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وجه الدلالة ـ مع أن هذا نفي ـ أنه لو كان الله ـ تعالى ـ لا يُوصف بالحياء ما صح أن يُنفى عنه الحياء في حال من الأحوال دون الحال الأخرى، وعلى هذا فمفهوم الآية دليل على أن الله تعالى موصوف بالحياء، لكن حياء الله تعالى ليس كحياء الإنسان؛ لأن الله يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

١٥- ويستفاد من الآية الكريمة: أن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل، فالحق في الأخبار هو الصدق، وفي الأحكام العدل، والباطل فيهما عكس ذلك، فالباطل في الأخبار هو الكذب، وفي الأحكام هو الجور.

١٦- ويستفاد من الآية الكريمة: أنه لا يجوز سؤال زوجات النبي ﷺ شيئًا إلا من وراء حجاب، والآية في ذلك صريحة: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

١٧- ويستفاد من الآية الكريمة: جواز تكليم زوجات النبي ﷺ، وجهه: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ فأباح الله ـ تعالى ـ سؤالهن، والسؤال هنا: سؤال استخبار أم سؤال استجداء؟

الجواب: هو سؤال استجداء، ولكن سؤال العلم من باب أولى.

وهل يستفاد منه جواز مكالمة النساء غير زوجات الرسول ﷺ؟

الجواب: نعم يستفاد؛ لأنه إذا جاز مع زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع ما لهن من الاحترام، والتعظيم، ففي غيرهن من باب أولى، ولكنه يشترط في ذلك الأمن من الفتنة، فإن خيفت الفتنة من المكلِّم أو من المرأة، كان ذلك حرامًا، وكذلك يشترط ألا يتمتع الإنسان بمكالمة المرأة، وإن لم يكن تمتع شهوة؛ لأنه قد يكون الإنسان ـ مثلًا ـ يتمتع بمخاطبة المرأة ما هو من الناحية الجنسية الغريزية، ولكنه يحب أن يستمر معها في الكلام، فهذا أيضًا لا يجوز، اللهم إلا إذا كانت من محارمه، وأراد أن يتحدث معها ليؤنسها أو ليأنس بها، فهذا لا بأس به.

١٨- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الحجاب المذكور هنا ليس هو ستر الوجه فقط، بل هو شيء فوق ذلك لقوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ولم يقل: (متحجبات). وهذا يدل على أن هذا

الحجاب منفصل، وليس من ثياب المرأة بل هو شيء منفصل، مثل أن تكون في خدرها فيتحدث الناس إليها.

١٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ثبوت تعليل الأحكام الشرعية، يؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومن قوله - فيما سبق -: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾.

٢٠- **ويستفاد منها:** أنه يجب على المرء أن يسعى في كل ما فيه تطهير قلبه، وأن يبتعد عن كل ما فيه تدنيس قلبه؛ لأنه علل الأمر بالحجاب بكونه أطهر للقلوب، ولا فرق في ذلك بين طهارة القلب من الأخلاق الرذيلة كالزنا واللواط، أو الطهارة من الاعتقادات الفاسدة أو الإرادات السيئة، كل هذا يجب على المرء أن يطهر قلبه منها، وأن يبتعد عن كل ما يدنِّس قلبه من ذلك.

٢١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الفتنة في مخاطبة النساء قد تكون من الرجل وحده، ومن المرأة وحدها ومنهما جميعًا؛ لقوله: ﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، فقد يكون الرجل هو الذي يتلذذ بمخاطبة المرأة، والمرأة ليس على بالها هذا الأمر، ولا اهتمت به ولا فكرت في هذا الموضوع، لكن هو يتلذذ بهذه المخاطبة، فيكون الدنس في قلب الرجل، وقد يكون الأمر بالعكس، فتتحدث المرأة إلى الرجل، وهي تتلذذ بهذه المخاطبة، والرجل ليس على باله هذا الأمر، فيكون هنا الدنس في قلبها هي، وقد يكون من الطرفين، فيكون الدنس في قلبيهما جميعًا.

٢٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** تحريم نكاح زوجات النبي ﷺ بعده؛ لقوله: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ﴾.

٢٣- **ويستفاد منها:** أن التحريم فيهن مؤبد؛ لقوله: ﴿أَبَدًا﴾، وعلى هذا فالمحرمات إلى الأبد محرمات بالنسب، وبالرضاع، وبالصهر، وبالملاعنة، وبالاحترام، خمسة؛ المحرمات بالنسب، سبع ذكرن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾، وبالرضاع في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾، وقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١)، وبالصهر، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وفي قوله: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، أما المحرمات باللعان: هو أن الرجل إذا قذف امرأته بالزنا ولم تقر به ولم يثبت ببينة، فإنه يلاعنها، فإذا تم اللعان حرمت عليه على التأبيد، وأما المحرمات إلى الأبد بالاحترام فهن زوجات النبي ﷺ.

٢٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** عظم إثم من تزوج واحدة من زوجات الرسول - عليه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١١١)، و مسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الصلاة والسلام - من بعده؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

٢٥- ويستفاد منها: أن الذنوب تتفاوت في العِظَم؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، وهو كذلك فإن في الذنوب كبائر وصغائر، والكبائر فيها ما هو أكبر وما هو دون ذلك، والصغائر كذلك تختلف، وكذلك الطاعات تختلف، منها ما هو من أصول الإسلام ومنها ما هو دون ذلك.

مسألة: هل يستفاد من الآية الكريمة أنه لا ينبغي للضيف أن يسأل عن طعام المضيف إذا قدمه له أو لا، يعني لو سأل الضيف مضيفه عن طعامه إذا قدمه له فيقول مثلًا لو قدم له دجاجًا: هذا الدجاج مستورد أو لا؟

الجواب: لا يستفاد، وذلك لقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ ولم يأمر الله تعالى بالسؤال عن الطعام، فإنه ليس من المشروع، ولا من الأدب أيضًا أن تسأل صاحبك الذي قدم لك الطعام، تقول: من أين هذا؟ وحلال أم حرام؟ لأن هذا خلاف هدي النبي ﷺ؛ النبي ﷺ، قدمت له امرأة من اليهود شاة فأكل منها ولم يسأل، ودعاه يهودي إلى طعام فأكل منه ولم يسأل، ثم إنك إذا سألت أخجلت صاحبك، وإذا فتحنا هذا الباب انفتحت علينا أبواب كثيرة؛ ولهذا كان حكمة الشرع أن الإنسان لا يشرع له السؤال أبدًا مهما كان، حتى لو كان الطعام من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فلا تسأل عن طعامه؛ لأن هذا من التعنت والتعمق، وفيه إشقاق على صاحبك وإشقاق على نفسك؛ لأنك إذا عودت نفسك ألا تأكل إلا بعد البحث معناه: أن كل شيء تأكله تكون شاكًّا فيه.

٢٦- ومن فوائد الآية: تشوف الشرع إلى ما يكون سببًا لطهارة القلوب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٢٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا أوجب الله في ذلك العصر ما يكون سببًا لكمال طهارة القلوب، ففي عصرنا من باب أولى، فكل ما يكون سببًا لطهارة القلوب وبعدها عن دناءة الأخلاق، فإنه يكون واجبًا.

وتعليقًا على ما سبق من قرن الأحكام بِحِكَمِهَا نقول: إن من فوائد ذلك:

أولًا: طمأنينة الإنسان إلى الحكم.

ثانيًا: وبيان سمو الشريعة، وأن أحكامها ليست لغوًا ولا باطلًا.

ثالثًا: إلحاق ما وافق الحكم في علته بحكمه، معناه: أن يُلحق بهذا الحكم ما وافقه في تلك العلة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: عموم علم الله - تعالى - بكل شيء؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

٢- **ويستفاد منها**: تحذير المكلَّف من مخالفة الله ـ عز وجل ـ بقليل أو كثير؛ لأن الفائدة من ذكر علمه هو التحذير من المخالفة.

٣- **ومن فوائدها**: الردُّ على غلاة القدرية المنكرين لعلم الله سبحانه وتعالى بأفعال العبد؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ إذ إنه يشمل ما سيفعله الإنسان وما قد فعله.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن ما يفعله العبد من خير أو شر، فإنه محاسَب عليه، إما له وإما عليه، لعموم كلمة ﴿شَيْءٍ﴾، وفي آية أخرى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، لكن هذه الآية أعم.



قال الله تعالى:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥]

التفسير

يقول عز وجل: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الضمير في قوله: ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ يعود على زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ اللاتي قال الله في حقهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فكأن هذه الآية استثناء لما سبق، أو استثناء مما سبق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ حيث إن الآية سألتموهن تشمل المحارم وغيرهم، فاستثنى المحارم، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الجناح بمعنى: الإثم، أي: لا جناح عليهن أن يَبْرُزْنَ لآبائهن، وأن يسألهن آبائهن بدون حجاب، وهذا كقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

وقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ آباء يشمل الآباء من جهة الأم، والآباء من جهة الأب، فالجد من جهة الأم في باب النكاح، كالجد من جهة الأب، ولقد كان الناس يسألون كثيرًا عن أبِ الأم هل هو مَحْرم لزوجة ابن ابنته أم لا؟

والجواب: يكون مَحْرمًا؛ لأن باب النكاح لا يفرق فيه بين الأبوة من جهة الأم، والأبوة من جهة الأب، فليس كالابن، وأبو الأم لا يرث بخلاف أبي الأب، لكن أبا الأم في باب النكاح كأبي الأب.

فقوله إذنْ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يشمل الأجداد من جهة الأب، ومن جهة الأم.

وقوله: ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يعني: أبنائهن للصلب، وأبنائهن للبطن، أي: أبناء الأبناء، وأبناء البنات وإن نزلوا، وفي هذه الحال يكن جدَّات لهؤلاء الأبناء.

وقوله: ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يعني: ولا جناح عليهن في إخوانهن، سواء كانوا أشقاء، أم لأب أم لأم.

وقوله: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يعني: وإن نزلوا، ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يعني: وإن نزلوا، سواء كانوا أشقاء، أمٌّ لأب، أمٌّ لأم، ولم يذكر ولا أبناء أعمامهن، لأنهم ليسوا محارمًا - أبناء الأعمام، وأبناء العمات، وأبناء الأخوال، وأبناء الخالات، ليسوا محارم - لكن لم يذكر العم والخال، مع أن العم والخال محرم، ولم يُذكرا في هذه الآية ولا في آية النور أيضًا وذلك في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١]، ولم يذكر العم ولا الخال، وهنا كذلك لم يذكر العم ولا الخال، مع أن العم والخال محارم.

أبدى بعض العلماء مناسبة في هذا وقالوا: إنه لم يذكر لا لأنه يحرم إبداء الزينة لهما، ولكن لبيان التحرز منهما، لئلا يصفا المرأة لأبنائهن؛ لأن العم والخال، أبنائهما يجوز أن يتزوجوا بهن، فلما كان يُخشى العم والخال يصف المرأة لابنه، لم يُذكر، للتحرز لا للمخالفة في الحكم، وهذا التعليل له بعض الأوجه - والله أعلم بما أراد -.

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: في هؤلاء، وفيما عدا هؤلاء، عليهن جناح يعني ما عدا هؤلاء من الأقارب فإن عليهن جناح في عدم التحجب منهم.

هنا سؤال يقول: الأخ من الرضاع وابن الأخ من الرضاع وما أشبه ذلك ما ذكر في هذه الآية.

نقول: صحيح ما ذكر، لكنه ذكر في قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - «يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١).

قوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قال المؤلف: [أي المؤمنات]، يعني: ولا جناح عليهن في نسائهن، أي: المؤمنات؛ لأن النساء أُضيفت إلى ضمير المؤمنات، فيكون المضاف من جنس المضاف إليه، أي:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١١١)، و مسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولا النساء المؤمنات، فللمرأة أن تكشف وجهها للمرأة المؤمنة، ومفهومه أن الكافرة لا يحل لها أن تكشف وجهها لها، وأن المرأة الكافرة بالنسبة للمرأة المؤمنة كالرجل مع المرأة، وهذا أحد القولين في هذه المسألة، على أن الإضافة هنا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بمعنى أنها إضافة صفة، أي: ولا النساء اللاتي شاركهن في الإيمان، وعللوا ذلك أيضًا بأن المرأة الكافرة، لا يُؤمن أن تفشي ما تراه من المرأة المؤمنة؛ لأنها ليس عندها إيمان يردَعُها، وبناءً على هذا القول، فإنه يجب على الجماعة الذين عندهم من الخدم الكافرات، يجب على نسائهم أن يحتجبوا عن هؤلاء الخادمات؛ لأنهن كافرات.

ونحن نقول: هذا مع بالغ الأسف أن يكون لدى المؤمنين خدم من غير المسلمين؛ لأن معنى ذلك أن الرجل أو المرأة يتصبح ويتمسى، وفي كل وقت ينظر بملء عينيه إلى من هو عدو لله ورسوله وعدو له أيضًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١] ما هو عدو لله فقط، بل هو عدو لله، ولرسوله وللمؤمنين، ومع ذلك تجد هؤلاء يحتضنون مثل هؤلاء الكفار، ومع ذلك يحتضنونهم غير مبالين بهم، وغير مبالين بكونهم مخالفين لهم في الدين والعقيدة والعمل، بل إن بعضهم يحتضنهم فرحًا بهم؛ لأن الشيطان زيَّن لهم أنهم أنصح في العمل وأتقن، وأجلد وأصبر، وهذا من البلية والمحنة التي امتُحِن بها الناسُ في هذا الزمن، ولا سيما في هذه الجزيرة العربية، مع قول الرسول ﷺ: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِيْنَ مِنْ جَزِيْرَةِ الْعَرَبِ، وأَخْرِجُوا الْيَهُوْدَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيْرَةِ الْعَرَبِ**»(١).

وهؤلاء بدل أن يخرجوهم يحتضنونهم، ثم إنه لو لم يكن من مضرة هؤلاء الخدم الكافرات إلا أن هؤلاء الذين يقولون إنهم مسلمون ـ وهم كما قالوا ـ تذهب عنهم الغيرة من نفوسهم وكراهة الكفار، حتى يكون هؤلاء كغيرهم كأنهم مسلمون، لأنهم يألفونهم، ويرونهم ويشاهدونهم وكما قيل: إذا كثر المساسُ قلَّ الإحساس.

وهذه المسألة خطيرة جدًّا ـ نسأل الله تعالى أن يسلط ولاة الأمور على منعها من هذه البلاد ـ لأنه أولًا: قد لا يكون داعيًا لوجود الخادم في البيت، هذا وإن دعت الحاجة فلتكن مسلمةً، لتكن من أندونيسيا أو من باكستان من هذه الدول المسلمة الفقيرة التي ينتفع المسلمون بها يُدفع إلى هذا الخادم من الأجرة، أما أن يجعل الكفار يؤخذ من أجورهم ما تُعْمَرُ به الكنائسُ وما يقوى به دعوة التنصير، فإن هذا لا شك عند التأمل فيه يجد هؤلاء القوم الذين استخدموا هؤلاء الكافرات والكافرين يجدون أنهم مخطئون خطأً عظيمًا فادحًا، إن كان لهم قلوب، فأما إن كانت قلوبهم قد عميت، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] يمكن أن تكون

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، و مسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قلوبهم قد مرضت، وصدأت من المعاصي وعدم المبالاة وعدم الغَيرة، فلا يحسون بهذا الأمر الخطير.

وبلغني أن رجلًا كان من أهل الخير واغتر ببعض هؤلاء الخدم، وكان يجلس مع أولاده ويعلمهم مبادئ الإسلام، فقال لواحد من الصغار: من ربك؟ قال: ربي عيسى ابن مريم، فمن أين جاء هذا الطفل وهو عائش في بلاد المسلمين أن رَبَّهُ عيسى ابن مريم، إلا من هذه الخادمة! هذه الخادمة قد تكون مغرورة، ومخدوعة في بني قومها ولا تعرف إلا هذا، لكن هذا الطفل الذي عاش وهو من المسلمين، كيف ما يعرف الله؟! فهذا من الخطر العظيم بالنسبة لهؤلاء الخدم من الكفار والكافرات.

المهم: أن كثيرًا من أهل العلم يقول: إن معنى قوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات، أي ولا النساء المشاركات لهن في الإيمان، لأن المضاف من جنس المضاف إليه.

وقال بعض العلماء: المراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: ما كان من جنسهن، أي: النساء اللاتي يشاركهن في النسوة أو في الأنوثة، فهو من باب إضافة الجنس إلى جنسه، وهذا القول هو مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ المشهور من مذهبه، وهو أقرب إلى الصواب؛ لأن تعلق المرأة بالمرأة لا يختلف باختلاف الدِّين، وليس كتعلق الرجل بالمرأة.

فالصواب: أن المراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: النساء اللاتي من جنسهن في الأنوثة.

وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يعني: ولا جناح عليهن فيما ملكت أيمانهن، قال: [من الإماء والعبيد].

قوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ أي: ملكته ملكًا تامًّا لا ملكًا مشتركًا، فلو كان عبد بين امرأتين، فإنه لا يحل لواحدة منهما أن تكشف وجهها له، وذلك لأنه ليس مُلكًا لإحداهما، بل هو ملك لهما جميعًا، والآية: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ أضاف المُلك إلى اليمين؛ لأن الأخذ والعطاء يكون باليمين غالبًا.

وقوله: [من الإماء والعبيد]، أما قوله: [من العبيد] فظاهر، وأما قوله: [من الإماء] فبناءً على أن قوله: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات، فإذا كان للمرأة أَمَةٌ كافرة، فلا يلزمها أن تحتجب عنها؛ لأنها مما ملكت يمينها، وكل هؤلاء المستثنين كلهم محارم إلا ما ملكت أيمانهن، فليسوا بمحارم؛ لأن التحريم فيهم إلى أمد، والمحرمية إنما تثبت فيما إذا كان التحريم مؤبدًا؛ ولهذا أخت الزوجة حرام، وليست بمحرم، والمملوك حرام على مملوكته، ولا يلزمها أن تحتجب عنه، لكنه ليس بمحرم لها، بدليل أنه إذا خرج عن ملكها لزمها أن تحتجب.

قوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يعني: [من الإماء والعبيد أن يروهن ويكلموهن من غير

حجاب].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ [فيما أُمرتن به] والواو: حرف عطف، ﴿وَٱتَّقِينَ﴾ فعل أمر، لكن حد الفعل: الياء، والنون: فاعل، وفي الجملة: التفات من الغيبة إلى الحضور، أو إلى الخطاب أخص.

وقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ هذا ضمير غائب، ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ ضمير مخاطب، وقد ذكرنا أن من فوائد الالتفات: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فقد لا يكون من الإنسان انتباه، فإذا اختلف النسق حصل التنبه.

ثم إن في الالتفات هنا فائدة أخرى وهي مواجهتهن بالأمر بتقوى الله عز وجل، وهذا الخطاب موجه لأطهر النساء على الإطلاق، وهن زوجات النبي ﷺ.

قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أن ترين أحدًا سوى هؤلاء، أو أن يراكُنَّ أحد سوى هؤلاء، فإذا كان هذا الخطاب موجه إلى زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهن أطهر النساء وأكرمهن عفةً، فما بالك بمن دونهن، فإنه يُوجه إليهن من الأمر بالتقوى أكثر مما يوجه إلى نساء النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه شيء، وهنا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ لأن الحجاب وعدمه مما يُرى، فناسب أن يختم الآية بذكر شهادة الله على كل شيء؛ تحذيرًا من مخالفته في عدم الاحتجاب ممن يجب الاحتجاب عنه.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجب الاحتجاب عمن ذكر في هذه الآية، لقوله ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

٢- ومن فوائدها: أن نساء النبي ﷺ مكلفات، يعني: يلحقهن التكليف كغيرهن من النساء؛ لقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المحرمات في النكاح محارم؛ لأن هؤلاء المذكورات، أو هؤلاء المذكورين محرمون في النكاح فهم محارم، وهذه قاعدة: كل من يحرم في النكاح تحريمًا مؤبدًا فهن محارم، أما من يحرم تحريمًا إلى أمد، فليسوا بمحارم، وعلى هذا فقوله: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ليسوا بمحارم؛ لأن التحريم يكون إلى أمد.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجب على المرأة أن تحتجب عن المرأة؛ لقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، وهل يشترط أن تكون مؤمنة؟

الجواب: فيه قولان لأهل العلم، والراجح: أنه لا يشترط، وأنَّ العِلَّةَ لَيْسَت الكُفْر، وإنما العلة الجنس، فما دامت من جنسها، فإنها لا تتعلق بها كما يتعلق الرجال بالنساء.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب تقوى الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾، والعناية بها، حيث انتقل فيها من أسلوب إلى آخر للتنبه لها.

٦- ومن فوائدها: أن الأمر الموجه للإنسان بالتقوى لا يعني أنه غير متقٍ؛ لأنه قد يُراد به الاستمرار على التقوى، ويدل على ذلك أيضًا قوله في أول السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾، مع أن بعض الناس لو قلت له: يا أخي اتق الله، لاشتاط غضبًا، فيقال له: إن الله أمر نبيه ـ وهو أتقى منك ـ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:١] وهذه ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أمر لنساء النبي ﷺ.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: تحذير الإنسان من مخالفة تقوى الله؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، فإن خالفتن ولم تتقين الله، فالله تعالى شهيد عليكن.

٨- ومن فوائدها: إثبات اسم الشهيد لله، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ والشهيد معناه: الحاضر الذي لا يغيب، المطلع الذي لا يخفى عليه شيء فهو ـ سبحانه وتعالى ـ حاضر لا يغيب، ولكن ليس حاضرًا معناها أنه في الأرض، بل هو في السماء على عرشه، وهو مطلع لا يخفى عليه شيء.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله سبحانه برسوله محمد ﷺ، وذلك بتوجيه هذه الإرشادات إلى نسائه.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٦ ـ ٥٨]

التفسير

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ هذا خبر مؤكد بـ ﴿إِنَّ﴾، وعطف الملائكة على الله ـ عز وجل ـ بالواو؛ لأنهم مشاركون الله سبحانه في هذا الفعل؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾، والملائكة تقدم أنهم جمع ملك، وأن أصل ملك مألك من الألوكة وهي الرسالة، ولكنه حصل فيها إعلال بالتقديم والتأخير، فصارت بدلَ مألكٍ صارت ملئك، ثم حذفت الهمزة للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال، فصارت ملك، أما الجمع فإنها رُدت الهمزة، وقيل فيها: ملائكة.

والملائكة هم الذين جعلهم الله رسلًا، وهم عالم غيبي مخلوقون من نور، ممتثلون لأمر الله ـ عز وجل ـ قائمون بعبادته آناء الليل والنهار، كما ذكر الله عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وهم مع ذلك ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم:٦]؛ لقوة امتثالهم لأمر الله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، لقوتهم على التنفيذ، وهم ـ أي: الملائكة ـ أصناف في أشكالهم وفي أعمالهم، وفي صفاتهم ـ ما نعلم من هذا إلا ما أعلمنا الله تعالى به ورسوله والباقي مجهول لنا، فنؤمن بما علمنا من أسمائهم وأشكالهم وأوصافهم وأعمالهم، وما لم نعلمه نؤمن به على سبيل الإجمال نقول: (آمنا بالله وملائكته).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الخبر: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال: [محمد ﷺ]، ومعنى ﴿يُصَلُّونَ﴾ اشتهر عند كثير من أهل العلم أن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، وعلى هذا يفسر ﴿يُصَلُّونَ﴾ باعتباره إلى الله، بمعنى الرحمة، وإلى الملائكة الاستغفار ولكن هذا التفسير خطأ، فإن الرحمة أعمُّ من الصلاة؛ لأن الرحمة يُدعى بها لكل أحد والصلاة خاصة بالأنبياء، فهي شعارهم ولا تُقال لأحد سواهم إلا على سبيل لا يكون شعارًا، وأما الرحمة فهي عامة، حتى إن بعض أهل العلم يقول: إنه لا يجوز أن تدعو للرسول ﷺ بالرحمة، ما تقول محمد رَحِمَهُ اللهُ قال رسول الله رَحِمَهُ اللهُ لكن هذا القول ضعيف؛ لأن النبي ﷺ نفسه كان يدعو لنفسه بالرحمة يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي» وفي قصة الأعرابي قال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا»، ولم ينكر عليه النبي ﷺ، لكنها عند السلف، يُدعى للرسول ﷺ بالصلاة، ولغيره بالرحمة والرضا وما أشبه ذلك.

والصواب: أن صلاة الله على رسوله معناها: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، وليست رحمته إياه بدليل قوله تعالى: ﴿أُولَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧] قال: ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فدل هذا على أن الرحمة غير الصلاة وهو كذلك، أما صلاة الملائكة على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيحتمل أن تكون بمعنى الدعاء أنهم يدعون له بالصلاة، ويحتمل أن المعنى أنهم يُثنون عليه مع الله، وهذا أقرب حتى لا يتوزع المعنى في كلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ ويكون المعنى: أن الله يثني عليه والملائكة كذلك يثنون عليه وهذا من تعلية شأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ ولهذا قدم الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ لأن النفس إذا علمت شرفَ هذا النبي، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه وملائكته المقربين وغير المقربين من الملائكة الآخرين، فإنهم يصلون عليه، وأنا قلت: الملائكة المقربين؛ لأن الملائكة كلهم مقربون بالمعنى العام، لكنه هناك ملائكة مقربون عند الله كحملة العرش ونحوهم، وكل هؤلاء يصلون على النبي ﷺ، وفي إضافة الملائكة إلى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ﴾ من باب التشريف.

ولما تقرر في النفوس علو شأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذه الجملة وجَّه الله الخطاب للمؤمنين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ وتصدير الجملة بالنداء يدل على الأهمية والعناية بها؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادَى، ولا داعي لتنبيه المخاطب إلا لأمر هام.

ثم النداء بهذا الوصف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه إغراء للامتثال، لامتثال الخطاب الموجه، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأَرْعِهَا سمعك - يعني: استمع لها - فإما خير تؤمر به وإما شر تُنْهَى عنه)، وفي وصف الإيمان مع كونه إغراءً دليل على أن امتثال هذا الأمر من مقتضيات الإيمان، وأن معصيته نقص في الإيمان.

قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: ادعوا له بالصلاة، فليس المراد بالصلاة، إذا قلت: صلِّ على فلان، ليس معناها: الدعاء المطلق، بل الدعاء بالصلاة؛ ولهذا لما أمر الله نبيه أن يصلي على من أعطاه الصدقة صار يقول: «اللهم صلِّ عليه»، فالصلاة في اللغة الدعاء، لكن إذا أمرتك أن تصلي على شخص، فالمعنى أن تدعو له بصلاة الله عليه، فالمعنى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾، أمر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وهو أمر مطلق غير مقيد.

إذنْ تكون الصلاة على الرسول - عليه الصلاة والسلام -، مطلقة غير مقيدة، فنصلي عليه بأي صيغة صلينا، ونصلي عليه في كل وقت، وفي كل مكان، لكن هناك أمكنة تتأكد فيها الصلاة، وأمكنة لا تنبغي فيها الصلاة، وأمكنة تُستحب فيها الصلاة مطلقًا، يعني: ما هو بتأكد.

الأول: مما تتأكد الصلاة علي النبي ﷺ فيه أي: وجوب الصلاة على النبي ﷺ، وذلك في مواضع:

أولًا: إذا ذكر اسمه، فإن الصلاة واجبة عليه؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة قال «**أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ**»(١)، وهذا دعاء عليه بأن يرغم الله أنفه في التراب، وإرغام الأنف في التراب دليل على الذل والإهانة، وهذا يدل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ، إذا ذكر اسمه.

ثانيًا: الصلاة عليه في التشهد الأخير ركن، ولا تصح الصلاة إلا به، على مذهب الحنابلة والشافعية، ولا فرق بين الفريضة والنافلة.

الثاني: استحباب الصلاة على النبي ﷺ، ويكون في الدعاء مقدمة عليه أو مؤخرة عنه، ومنها عند الأذان، «**فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ**»(٢) والمواضع متعددة، لكن منها ما هو على سبيل

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٤)، و الترمذي (٣٦١٤)، والنسائي (٦٨٧)، وأبو داود (٥٢٣).

الوجوب، ومنها ما هو على سبيل الاستحباب.

الثالث: كراهة الصلاة على النبي ﷺ وذكروا أنها تكره عند الذبح، إذا قلت: باسم الله، الله أكبر، لا تقل: اللهم صلِّ على محمد، قالوا: لأن المقام مقام إخلاص وتوحيد، فلا ينبغي أن يُذكر مع اسم الله غيره، فتقول: باسم الله والله أكبر ولا تصلِّ على النبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ قلت: إنه مطلق بأي صفة كانت؟ بما ورد عن النبي ﷺ حين سأله الصحابة، فقال: قولوا: «**اللهم صلِّ على محمد**»، هذا على سبيل الاستحباب، وليس على سبيل الوجوب، ولهذا أجمع العلماء على أن الصلاة على آل الرسول ﷺ لا تجب، مع أن الصيغة التي علمها النبي ﷺ أمته، فيها الصلاة على آله مع أنها ليست بواجبة، مما يدل على أنها على سبيل الاستحباب، وربما يُستدل لذلك أيضًا، بأن الصيغة التي أمر بها الرسول ﷺ في كيفية الصلاة عليه مختلفة ليست كلها على صيغة واحدة، وهذا يدل على أن أي صيغة أتيت بها فهي مجزئة.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي قولوا: السلام عليك، ادعوا له بالسلام، تقول السلام عليك أيها النبي، والسلام على النبي ﷺ مع كونه غائبًا أمر مشهور، ولهذا نقول في صلاتنا: السلام عليك أيها النبي مع أنه غائب، والصحابة يقولون: السلام عليك أيها النبي مع أنه غائب، ولا يسمعهم، حتى لو كان معهم في الصلاة فهو لا يسمعهم؛ لكن لأن هناك ملائكة سيَّاحين يبلِّغون النبي ﷺ السلام من أمته، ولأنه لما كان الإنسان قويَّ الإيمان بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، صار كأنه حاضر عنده يخاطبه.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ الآية فيها تقديم الصلاة على السلام، مع أنه في التشهد يقدم السلام على الصلاة، فهل بين الآية وما ثبت في حديث التشهد، بينهما تناقض؟

الجواب: لا، لأن العطف بالواو لا يستلزم وجوب التقديم، وإن كان قد يقتضيه، لكنه لا يستلزمه؛ لأن الواو ـ كما قال أهل اللغة ـ تدل على مطلق الاشتراك بدون تقديم، ولهذا إذا قلت: ما شاء الله وشئت مع أنك قدمت مشيئة الله صار نوعًا من الشرك؛ لأن الواو تقتضي التسوية، وليست تستلزم الترتيب.

إذا قال قائل: لماذا أكد التسليم بالمصدر، قال: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، ولم يؤكد الصلاة؟

فالجواب: أن الصلاة تقدَّم ما يؤكدها، وهو إخبار الله تعالى بأنه يصلي عليه وملائكته، وهذا يعطي الإنسان قوة في الصلاة عليه متى علم أن الرسول ﷺ يصلي الله وملائكته عليه؛ فلهذا جاء التوكيد في التسليم دون الصلاة؛ لأن الصلاة أُكدت تأكيدًا معنويًّا بذكر أن الله وملائكته يصلون على النبي، وأما التسليم فأُكد تأكيدًا لفظيًّا؛ لأن قوله: ﴿تَسْلِيمًا﴾، مصدر مؤكد لقوله:

﴿وَسَلِّمُوا﴾.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ]، ولم يفسر ﴿يُصَلُّونَ﴾ رَحِمَهُ اللهُ ، وهذا نقص في التفسير، ثم قال: [﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا اللهم صلِّ على سيدنا محمد وسلم]، ولم يفسر التسليم، فما معنى التسليم؟

قال بعض العلماء: إنك إذا قلت: السلام عليك، فالسلام من أسماء الله، يعني: الله عليك، وما معنى الله عليك؟ أي: الله حفيظ عليك، يراقبك ويحفظك.

وقال بعض العلماء: السلام عليك أي: التسليم عليك، فهي جملة خبرية بمعنى الدعاء، والسلام اسم مصدر سلَّم، مثل: الكلام اسم مصدر كلَّم، فمعنى السلام عليك، أي: تسليم الله عليك بتسليمك من الآفات، وهذا المعنى أصح، أنك إذا قلت لإنسان السلام عليك، أنك تسأل الله تعالى أن يسلمه من الآفات - الآفات الحسية والمعنوية - فالسلامة الحسية من الآفات سلامة البدن، والعِرض، والمال، والسلامة المعنوية سلامة الدين من الآفات؛ لأن الإنسان محوط بآفتين: آفة في الدين، وآفة في الدنيا، والسلامة منهما جميعًا من أكبر نعم الله على العبد.

ولابد أن يستحضر المسلم معاني هذا التسليم وإلا كان لغوًا من القول، وأكثر الناس عندما يسلم يستحضر أنها تحية فقط وهذا لا ينبغي، بل الذي ينبغي أن تستحضر أنه دعاء وبأنه السلامة من الآفات؛ لأنك إذا كنت لا تستحضر إلا أنها تحية، صار لا فرق بينها وبين قولك: أهلًا وسهلًا، بل ربما تكون التحية بأهلًا وسهلًا مرحبًا يا أبا فلان، حَيَّاكَ اللهُ وَبَيَّاكَ، وما أشبه ذلك من الكلمات الترحيبية، أبلغَ من هذا؛ ولهذا ينبغي لنا إذا سلمنا على أحد أن نستحضر أننا ندعو له بالسلامة من الآفات؛ ولهذا لو أتيت بكل ترحيب ما قابل هذه الجملة الدعائية، أن تدعو الله له بالسلامة.

فالحاصل: أنه صحيح أن أكثر الناس يقول: السلام عليكم من باب التحية فقط، والردُّ كذلك، فينبغي علينا أن نستحضر المعاني في كل ما نقول حتى الآن التحيات لله، الله يتوب علينا وعليكم، هل نحن نستحضر معنى التحيات، ومعنى الصلوات، ومعنى الطيبات، أو تمشي ألفاظ تقضى؟ أحيانًا، وأحيانًا، هذا أيضًا لا ينبغي، يعني: ينبغي أن تستحضر لكل لفظ معناه، وإلا صارت ألفاظًا جوفاء، ثياب ما فيها أجسام، أو أجسام ما فيها أرواح، وما هي الفائدة، أنك تقرأ التحيات لله والصلوات والطيبات، وأنت غافل، ما عندك إلا ألفاظ تمر على القلب فقط؟ فينبغي كلما قرأت هذا أن تستحضره وأنت تصلي، ما معنى التحيات؟ ما معنى الصلوات؟ما معنى الطيبات؟ وهكذا.

فما معنى التحيات؟ هو كل لفظ دال على البقاء والتعظيم والتكريم؛ لأن التحية معروفة: تعظيم للمحيى وتكريم له، لله: معروف أنها مستحقة لله وأنها خاصة به.

والصلوات: الفريضة والنافلة، أم الصلاة المخصوصة، أو حتى الدعاء يدخل فيها؟

الصلوات بمعنى العبادة المخصوصة، وبمعنى الدعاء أيضًا كله لله - عز وجل - ما يدعى إلا لله ولا يتعبد بالصلوات إلا لله.

والطيبات: وكذلك الأوصاف، فالطيبات منا والطيبات منهم، فكل صفاته طيبة وكل أفعاله طيبة، وكل أقواله طيبة، ومنها أيضًا ما يكون لله ولا يقبل الله إلا ما كان طيبًا، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»(١)، من يستحضر هذين المعنيين عندما يصلي: أن الطيبات باعتبارها صفة لله وباعتبارها وصفًا لفعل المخلوق؟

قيل: الغالب الثاني أن معناها أن الطيبات الواقعة منا تكون لله، لا يقبل الله سواها، ولكن كلا المعنيين حق، إن الله طيب، هذا باعتبار ما يتعلق بالله، ولا يقبل إلا طيبًا باعتبار ما يفعله العبد.

ورحمة الله وبركاته: الرحمة: الدعوة له بالرحمة، وهي حصول المطلوب، وبالسلام زوال المكروه، وبركاته: يعني الخير الثابت الكثير، فأنت بعدما دعوت له بالرحمة، سألت الله تعالى أن يجعل ذلك بركة عليه مستمرة.

وأما السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقد فسرها النبي ﷺ، وقال: «إِذَا قُلْتُم ذَلِكَ فَقَد سَلَّمْتُم عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»(٢)، من يستحضر إذا سلمنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فمعناه: سلمنا على الأنبياء، والملائكة، والأولياء، والصالحين من هذه الأمة، ومن غيرها، حتى نسلم بهذا الكلام على الحواريين الذين اختارهم عيسى، والسبعين الذين اختارهم موسى، والقليل الذين آمنوا بنوح، وأصحاب الكهف وغيرهم، هل نستحضر هذا؟

الغالب: أننا لا نستحضر.

وقوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أشهد: يعني أقر، لكن إقرارًا كالمشاهد بالعين، يعني أشهد: أصل الشهود أو الشهادة لما رُؤِي أو سُمِع بالأُذن، لكن هنا عبر عما في القلب بالشهادة كأن الإنسان يشاهد ما أقر به.

وأما أن لا إله إلا الله: فالعامة يخطئون فيها فيقولون: أشهد أنَّ لا إله إلا الله، أشهد أنْ، وهذا خطأ من حيث اللغة؛ لأن أنَّ المشددة، لا يُحذف اسمها، ولكنها أن المخففة، أما لا إله إلا الله يعني: لا إلهَ حقٌّ - أي لا معبود حق إلا الله - عز وجل -، والمعبودات التي تُعبد من دونه باطلة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيها أيضًا الإقرار المتيقن كأنما يشاهد، بأن محمدًا عبد الله ورسوله، فهو عبد ليس له حق الربوبية، ورسول ليس فيه شيء من الخيانة، فهو رسول حقًّا، هذا هو معنى التشهد، وليس هذا هو كل المعنى، بل هذه معانٍ ظاهرة عابرة، ومع ذلك أكثر الناس ما يستحضرونها.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

قال المؤلف: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهم الكفار يصفون الله بما هو منزه عنه من الولد ومن الشريك، ويكذبون رسوله]، هذا من الإيذاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ جملة خبرية مؤكدة بإنَّ، وخبر إنَّ قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ بماذا يؤذون الله؟ يؤذون الله بوصفه بالعيوب التي لا تليق به، مثل قول بعضهم: إن الله فقير، ومثل سب الدهر قال الله: «يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأَنَا الدَّهْرُ»(١)، ومثل أن يقولوا: إن الله اتخذ صاحبة وولدًا، أو ولدًا، أو إن الله - تعالى - لما خلق السماوات والأرض تعب واستراح يوم السبت، وما أشبه ذلك، فإيذاء الله تعالى يكون بأن يوصف بما لا يليق به.

ومنه إنكار أسمائه وصفاته، فإن هذا لا شك من أن سلب الكمال عنه يتضمن النقص؛ لأن الكمال والنقص متضادان، ما من شيء إلا موصوف بالكمال، أو بالنقص، فإذا سلبت عنه صفات الكمال لزم من ذلك اتصافه بالنقص، وهو نوع من الإيذاء.

وأما إيذاء الرسول ﷺ، فيكون بالقول وبالفعل، فبالقول أن يُوصف الرسول ﷺ، بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، والغريب أن الساحر والمجنون، وُصِفَ به كل الأنبياء السابقين المرسلين إلى قومهم، وُصفوا بهذا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢] هذه الأوصاف لا شك أنها تؤذي الرسول ﷺ، وتؤذي كل وليٍّ لله ورسوله، وكذلك إيذاء الرسول بالفعل كما صنعت قريش به، حين أتوا بسلا الناقة، وهو ساجد في المسجد الحرام أمام بيت الله - عز وجل -، فوضعوا سلا الناقة على ظهره وهو ساجد، أي أذية أبلغ من هذا، رجل لم يتعرض لهم، وإنما يعبد الله تعالى في آمَنِ مكان على وجه الأرض، أمام بيت الله - سبحانه وتعالى - وأقرب ما يكون من ربه، ثم يأتي هؤلاء الظلمة المعتدون فيضعون عليه هذه القاذورات!! أعتقد أن هذا من أبلغ ما يكون من الأذية، حتى جاءت ابنته الطفلة الصغيرة فأزالته عنه.

كذلك من الأذية ما ذكروا أنهم كانوا يلقون الأنتان والقاذورات على عتبة بابه ﷺ في مكة، حتى كان يخرج ويقول: أَيُّ جِوَارٍ هَذَا! يعني: لو كنت جارًا لكم ولست منكم ما كنتم تفعلون بي هذا الفعل، فهؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ - والعياذ بالله - يعني: أبعدهم الله عن رحمته في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن اللعن بمعنى الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: آذوا الله؛ لأنهم مستمرون في الأذية فما داموا مستمرين في الأذية، فإن لهم اللَّعْنَ في الدنيا والآخرة، أما إذا مَنَّ الله عليهم بالهداية ورجعوا إلى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله تعالى وتابوا من شركهم، فإن اللعنة سترتفع عنهم؛ لأن الحكم يدور مع علته ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [أبعدهم].

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (أعد) بمعنى: هيأ، والعذاب بمعنى العقوبة، و﴿مُّهِينًا﴾ قال المؤلف: [ذا إهانة، وهو النار]، فعذاب النار - والعياذ بالله - إهانة بدنية حسية، وإهانة نفسية، ولهذا يُقال لأصحاب النار: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٤٧] يعني: ادفعوه بشدة وعنف، ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يعني: قعرها وأصلها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ [الدخان:٤٨] الرأس الذي كان لا ينحني لأحد، ولا لله، ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨[الحميم: الماء الشديد الحرارة، ثم يقال له بعد الإهانة بالفعل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] وهذا تهكم به - غاية التهكم - يعني: أنك كنت في نفسك عزيزًا كريمًا، لكنك الآن ذليل مَهين، خلاف العز والكرم.

فهذا هو العذاب المهين الذي أُعِدَّ للكافرين، فصارت عقوبة هؤلاء المؤذين لله ورسوله، عقوبتهم أمران عظيمان، أحدهما: اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، والثاني: العذاب المهين الذي يوقعهم في الهوان والذل.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

قال المؤلف: [يرمونهم بغير ما عملوا ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تحملوا كذبًا، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بينًا].

تأمل الفرق بين أذية الله ورسوله وأذية المؤمنين تجد بينهما فرقًا كبيرًا في العقوبة، فالذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا هذا لم يُذكر في الآية الأولى، والسبب أنه لا يمكن أن يكون من فعل الله، أو من فعل رسوله ما يستحقون به الأذية، لكن المؤمنون يمكن أن يقع منهم ما يستحقون به الأذية؛ ولهذا قال: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ لأن المؤمن قد يكتسب شيئًا يستحق الأذية عليه.

وأيضًا قال: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ولم يقل: لعنهم الله، ولا أعد لهم عذابًا مهينًا، بل قال: ﴿احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ يعني: كذبًا وتحملوه، والبهتان: هو أن تذكر أخاك بما ليس فيه، ولهذا لما سُئِلَ النبي ﷺ، عن الغيبة قال: «هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَه» قيل: يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَه، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّه»(١)، فيتبين لنا أن أذية المؤمنين تكون بالقول وبالفعل، وهي كثيرة لا حصر لها، منها أذية الجار، حتى إن العلماء يقولون: لا يجوز للإنسان أن يدق وتدًا في الجدار المشترك بينه وبين داره على وجه يؤذي

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٩)الترمذي (١٩٣٤)أبو داود (٤٨٧٤).

جاره، ولا يجوز أن يسقي نخله إذا كان الماء يتسرب إلى جاره، ولا يجوز أن يجعل رحىً تطحن حول جاره؛ لأن ذلك يؤذيه، فالأذية كثيرة.

ومن هذا النوع أن نهينه عندما يأتي لطلب حقه، فإن بعض الموظفين ـ والعياذ بالله ـ إذا جاءهم الناس لإجراء معاملاتهم تجدهم يمتهنونهم ويؤذونهم، وهذا أيضًا من أذية المؤمنين بغير ما اكتسبوا، وأفرادها بل وأنواعها لا يمكن حصرها، والشيء العام هو أن يحصل للمؤمن أذية من فعل أو قول، فالذين يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا ـ نسأل الله العافية ـ.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

١- **في هذه الآية فوائد منها:** إثبات الملائكة، لقوله ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾.

٢- **ومنها:** شرف الملائكة؛ بإضافتهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾، فإضافتهم إلى الله إضافة تشريف.

٣- **ومن فوائدها:** بيان علو شأن النبي ﷺ؛ لكون الله وملائكته يصلون عليه، فهذا بلا شك من علو شأنه ورفعة ذكره.

٤- **ومن فوائدها:** الأمر بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الصلاة والسلام عليه من مقتضيات الإيمان، وأنه زيادة في الإيمان؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٦- **ومنها:** أن الصلاة والسلام عليه واجبان؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ ولأن ذلك من قضاء حق النبي ﷺ الذي له على أمته، فإن حقَّه على أمته أعظم من حق الوالدين على أولادهما، ولكن الوجوب يحصل بفعل ذلك مرة واحدة، فإذا دل دليل على التكرار وجب أن نأخذ بمقتضى الدليل، وقد قال كثير من أهل العلم بوجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ في الصلاة، وذلك في التشهد، فإن الإنسان يقول: السلام عليك أيها النبي، ويقول: اللهم صلِّ على محمد.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المشروع أن يُصلي الإنسان عليه باللفظ، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ولا يكفي السلام أو الصلاة بالقلب، وعلى هذا فينبغي عندما نكتب الأحاديث نكتب ﷺ، وأما ما يفعله بعض الناس من كتابته (ص) أو كتابته (صلعم) فإن أهل العلم كرهوا ذلك، وقالوا: إن الأفضل أن يكتب ﷺ، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ ربما كتب الحديث، ولم يذكر ﷺ، وأجاب بعض العلماء عن ذلك بأنه كان يتركها حرصًا على اغتنام الوقت، وأنه كان يصلي عليه بلسانه دون قلمه.

وقد مر علينا في التفسير، أن الصلاة على النبي ﷺ، تنقسم قسمين: مطلقة، ومقيدة، وأنها في المواضع المقيدة قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، وأنها في بعض الأماكن، قد تكون مكروهة.

مسألة: هل تجوز الصلاة على غير الأنبياء؟

الجواب: في هذا للعلماء أقوال ثلاثة: الجواز والمنع، والجواز إذا لم يكن شعارًا، وهذا هو الصحيح، أنه يجوز أن تصلي على شخص بشرط ألا تجعل ذلك شعارًا له، كلما ذكرته صليت عليه، أو سلمت عليه، وقد نص أهل العلم أن ما يوجد في بعض الكتب عند ذكر علي رضي الله عنه، يقولون: علي - عليه السلام -، أو علي - كرم الله وجهه -، أن ذلك من عمل بعض النساخ، وأن الأفضل أن يقال له كما يقال لغيره من الصحابة، علي رضي الله عنه، مع أن عليًا رضي الله عنه أكمل من علي - عليه السلام -، وأكمل من علي - كرم الله وجهه -؛ لأن الرضا مرتبة عظيمة.

أما إذا صُلي على غير الأنبياء بالتبع فهذا جائز بالاتفاق، وقد علَّم النبي ﷺ أمته أن يقولوا: **«اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»**، وسبق لنا أيضًا الدعاء بالرحمة للرسول، هل يُدعى له بالرحمة؟ وأن من أهل العلم من كره ذلك، والصحيح أنه ليس بمكروه.

فائدة: الذين يقولون عن عليٍّ هذا القول - كرم الله وجهه - يقولون: إنه لم يسجد لصنم وأنه كرم الله وجهه بهذا، وهم يريدون أن يجعلوا ميزة لعلي بن أبي طالب فقط، هذا هو أهم شيء عندهم، سواء كان ذلك أحسن أو ليس بأحسن.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن أذية الله ورسوله من كبائر الذنوب، وجه ذلك: أن الله توعد عليه باللعن أو العذاب، وكل شيء توعد الله عليه باللعن أو العذاب، فإنه من كبائر الذنوب، وقد اختلف العلماء في الكبائر، هل تعد أو تحد؟ فمنهم من عدها عدًّا، ومنهم من حدها حدًّا، وقال: إن الكبيرة كل ما رتب عليه عقوبة خاصة فهو كبيرة، وهذا حدٌّ لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كل شيء أو كل ذنب رتِّب عليه عقوبة خاصة دنيوية أو أخروية، فإنه من كبائر الذنوب، سواء كان ذلك لعنةً، أو غضبًا، أو نفي إيمان، أو تبرأ منه، أو عذابًا، أو ما أشبه ذلك، فإنه من كبائر الذنوب.

٢- ويستفاد من الآية الكريمة: وصف الله تبارك وتعالى بأنه يتأذى؛ لقوله: ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٣- ويستفاد منها: بيان كمال الله - عز وجل -؛ لأنه إذا كان يتأذى من الأشياء المنكرة التي لا تليق به، دل ذلك على كماله، ولهذا عند الناس من العيب أن الإنسان لا يتأذى بما يوصف به من عيب، ولهذا يسمون مثل هذا الرجل: الحمار، لبلادته وعدم أهميته، يعني: لا يفرق بين من يمدحه ومن يقدح فيه، كله سواء عنده، لكن الإنسان الذي يتأذى بالعيب، هذا هو الذي له شعور وله

عاطفة، ثم إذا صبر واحتسب واستعمل الحكمة في ذلك، كان خيرًا.

إذن أن الأذية مما ليس بمحمود تعتبر كمالًا.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أذية الرسول ﷺ كأذية الله؛ لأن الله جمع بينهما بالواو في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فكما أن طاعة الرسول كطاعة الله ومعصية الرسول كمعصية الله، فأذية الرسول كأذية الله، يعني: من حيث التحريم، وأنها من الكبائر، وإلا فإن أذية الله أعظم من حيث الجهة التي نُسب إليها الذم والعيب.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اللعنة - أي: لعنة الله - وهي طرده وإبعاده، وهي من الصفات الفعلية؛ لأن كل صفة لله معلقة بسبب، فهي من الصفات الفعلية، والعذاب المهين كلنا يعرف أنه في النار، لأنها هي التي عذابها مهين.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل، فكما تعالى هؤلاء وتعاظموا، وأهانوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - بأذيته، عاقبهم الله بما يُهينهم ويذلهم من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: تحريم أذية المؤمنين بغير حق، لقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

٢- ويستفاد منها: تحريم كل أذية أيًا كان نوعها، سواء كانت قولية، أم فعلية، لعموم اللفظ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾، واسم الموصول من صيغ العموم.

٣- ويستفاد منها: أن أذية المؤمن بما هو من كسبه، ليس فيها وعيد، وليست إثمًا، ولا بهتانًا؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

٤- ويستفاد منها: أنه لا يجوز أن يُؤذى بأكثر مما يستحق، فلو أنه سبَّك فلا تسبه أكثر؛ لأنك إذا سببته أكثر، فقد آذيته بغير ما اكتسب، وإذا سببته بمثل ما سبك، فقد آذيته بقدر ما اكتسب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

٥- ومن فوائد الآية: الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، فأضاف الفعل إليهم، والجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، وأنه لا حول له ولا قوة، يفعل الشيء بغير اختياره، ويدعه بغير اختياره.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: ذم الكذب؛ لقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾، ولاسيما إذا كان الكذب يؤدِّي إلى أذية الغير.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: جواز أذية غير المؤمنين، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، لكن إن كان الإنسان غير المؤمن ذميًا، أو معاهدًا،

أو مستأمنًا، فإنه لا يجوز أذيته بما يخالف عهده.

إذنْ غير المؤمن فيه تفصيل، المؤمن أذيته حرام بكل حال، وغير المؤمن فيه تفصيل، وهذا التفصيل: إذا آذيناه أكثر مما يقتضيه العهد، فهو حرام لا يجوز، وإن آذيناه في حد ما يقتضيه العهد، فإنه لا حرمة له إلا فيما يقتضيه عهده.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الذنب قد يجمع بين وصفين ذميمين؛ لقوله: ﴿ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فهم بكذبهم احتملوا بهتانا، وبعدوانهم احتملوا الإثم المبين.



قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩]

التفسير

الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ تقدم التنبيه عليه، وهو أن الله ـ عز وجل ـ نادى محمدًا ﷺ بوصفه نبيًّا، والنبي ينفذ ما يُوحى إليه، ولا يتأخر عنه، وسبق أن النبي مأخوذ من النبأ، أو النَّبْوة، أو منهما جميعًا، فإنه منبئ، منبأ، وذو رفعة، فهو مشتق من النبأ سواء كان واقعًا منه، أو واقعًا عليه، ومن النَّبْوة، وهي الرفعة، فالشيء النابي: هو الشيء المرتفع.

وقوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ ﴿قُل﴾ هذه فعل أمر، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ، قد أُمر أن يقول جميع القرآن وأن يبلغه، لكن إذا كان الحكم مصدَّرًا بـ ﴿قُل﴾، فهو دليل على العناية به؛ لأن أمر أن يبلغه بخصوصه، فيكون هذا دليل على أنه ـ أي: هذا الشيء الذي أمر أن يقوله النبي ﷺ ـ أمر هام.

وقوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ جمع زوج، وزوج يطلق على الرجل، وعلى المرأة؛ لأنه مأخوذ من الازدواج، وهو الاختلاط، واللغة الفصحى فيه: ألا تفريق بين الذكر والأنثى، ولكن الفرضيون ـ رحمهم الله ـ التزموا أن يجعلوا الأنثى بالهاء والرجل أو الذكر بدونها، تفريقًا بين المسائل، لأنهم إذا قالوا مات ميت عن زوج، وابن، وأرادوا بالزوج الأنثى، اشتبه هل يراد به الزوج الذكر أو الأنثى؟ فالتزموا أن يفرقوا بين الذكر والأنثى بالتاء، على أنه قد قيل: إنها لغة، لكنها قليلة.

وفي قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ بدأ بالأزواج؛ لأن الحماية لهن والغَيرة فيهن أشد وأبلغ.

﴿وَبَنَاتِكَ﴾ كن أربعًا، لكن إذا كانت الآية نزلت في السنة السادسة من الهجرة فإن بعضهن قد مات، وعلى هذا فيكون المراد الموجود منهن.

وقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عام، في كل امرأة من المؤمنين، وإنما قال: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون أن يقول: والنساء، من أجل الإغراء والحث، كقوله: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**»(١)، وإلا فالكافرات يجب عليهن من الحجاب ما يجب على المؤمنات، لئلا يفتتن الناس بهن.

وقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل زوجات المؤمنين، ومن للمؤمنين عليهن ولاية من البنات والأخوات والعمات والخالات والأمهات، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الرجال قوامون على النساء، وإلا لاكتفى بقوله: والنساء المؤمنات.

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ هذه الجملة يحتمل أن تكون مرفوعة، وأن تكون مجزومة، وعلى كل حال فهي مبنية الآن؛ لاتصالها بنون النسوة، والفعل المضارع يكون مبنيًا في موضعين: إذا اتصلت به نون النسوة، أو نون التوكيد، وهنا اتصلت به نون النسوة، فهو مبني على السكون، لكن هل هو في محل رفع، أو في محل جزم؟

الجواب: إن كانت ﴿يُدْنِينَ﴾ مقول القول، فهي في محل رفع، يعني قل لهؤلاء أدنين، وإن كانت جوابًا للأمر، فهي في محل جزم؛ لأن جواب الأمر يكون مجزومًا.

وقيل: إنها مجزومة على تقدير اللام، أي: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ليدنين عليهن من جلابيبهن أي: على تقدير لام الأمر، كقول الشاعر:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلّ نَفْسٍ ....

تفد على تقدير اللام، أي: لتفد نفسك، أي الاحتمالين أرجح أن تكون مقول للقول في محل رفع، أو تكون في محل جزم؟

الجواب: القرآن قد يبين ذلك قال الله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣] هذا يدل على أنها مجزومة على أنها جواب الأمر، إذ لو كانت مرفوعة لقال: يقولون التي هي أحسن، فلما قال: ﴿يَقُولُوا۟﴾ دل ذلك على أنها جواب الأمر، وهي أيضًا من حيث المعنى فهي أبلغ، إذا كانت جوابًا للأمر، كأنهم يفعلون ذلك مباشرة، يعني: كأن فعلهم هذا جواب للأمر أي: أنه متسبب عنهم فيكون ذلك أبلغ في الامتثال من أنهم يؤمروا أمرًا قد يمتثلونه، وقد لا يمتثلونه، وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠] وهذه تؤيد أنها جواب الأمر، ولهذا قال: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، فجزمها بحذف النون، ولم يقل: يغضون من أبصارهم، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١] ما فيه تأييد؛ لأنه مبني، فليس فيه دليل على هذا، ولا هذا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المهم: أن الأولى أن نجعل قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جوابًا للأمر، ويؤيد ذلك السياق في كتاب الله، ويؤيد ذلك أنه أقوى في الامتثال والتنفيذ، حيث كان جوابًا لمجرد القول كأنهن يفعلن، ويمتثلن.

وقوله: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، قوله: ﴿مِن﴾، ليست زائدة ـ كما قيل ـ؛ لأن من لا تُزاد إلا في النفي كما قال ابن مالك:

وزِيْدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهُهُ فَجَر نكِرةً كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَر

وعلى هذا فمن ليست بزائدة، يعني: ليس المعنى يدنين عليهن جلابيبهن، بل (من) للتبعيض، أي: يدنين عليهن بعض جلابيبهن، وهل التبعيض هنا تبعيض جزء من كل، أو تبعيض فرد من فرد؟ بمعنى: هل إن قوله ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: من الجلابيب التي عندهن، لأن الواحدة، قد يكون عندها جلباب، أو جلبابان، أو أكثر، أو أن المعنى بعض الجلباب الذي عليها؟

الجواب: هذا الأخير هو الأقرب، أي: تدني عليها بعض جلبابها، والجلباب هو الرداء، أو الملاءة، أو الملحفة، يعني: الشيء الواسع الذي يشمل جميع البدن أو أكثره، وقال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾، ولم يقل: إليهن، ليكون الإدناء ملاصقًا لهن، فكأنه ضمن معنى يضممن، أي: يقربنه حتى يضممنه عليهن.

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ لم يقل: على وجوههن، ولا على نحورهن، ولا على صدورهن، فيكون شاملًا لجميع البدن، ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على جميع البدن، ولكن من المعروف أن الجلباب ساتر لأكثر البدن، والعادة عندهم أن المرأة تكشف وجهها، وتخرج مكشوفة الوجه، ومكشوفة النحر، فأمر الله ـ عز وجل ـ أن يدنين عليهن من جلابيبهن، أي: على هذا المكشوف الذي يُكشف عادة، وهو الوجه والنحر، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، بأن تغطي وجهها، ولا تبدي إلا عينًا واحدة، تنظر بها للضرورة، وهذا فيما إذا كان الجلباب صفيقًا، بحيث إذا غطَّت وجهها لا ترى، أما إذا كان خفيفًا ـ كما هو المعروف عندنا في الوقت الحاضر ـ فلا حاجة إلى إبداء العين، لأن إبداء العين إنما هو للضرورة، بدليل أن الصحابة، كابن عباس، وغيره، رخصوا في إبداء العين الواحدة؛ لأنها بقدر الضرورة، وإلا لكانوا يقولون تخرج العينين جميعًا.

وعلى كل حال فالمعنى: يدنين عليهن من جلابيبهن فيما يكشفنه من أبدانهن، وهو الوجه، وهذا ما جرت به العادة، وكان هذا الكشف عامًّا للإماء والحرائر، فصار بعض من في قلبه من مرض من المنافقين الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات صاروا يلاحقونهن فإذا عثر عليهم، قالوا: هذه أمة، حسبناها أمة فعيرناها، وهي حرة، فشُكي ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، هكذا قال بعضهم في سبب النزول، لكنه غير مسند، ونحن لا يهمنا أن تكون الآية لها سبب في نزولها أم ليس لها سبب، المهم هو الحكم الذي دلت عليه.

قال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ قال: [جمع جلباب، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة، أي يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن، إلا عينًا واحدة] لماذا؟ لضرورة النظر.

قوله: [جمع جلباب وهي الملاءة]، وهو كما قال، وهي تشبه العباءة عندنا، ولما أمر النبي ﷺ بخروج النساء في العيد للصلاة، قالت أم عطية: يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب، فقال: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»[1]، ولم يقل تخرج بدون جلباب، وهذا يدل على أنه لابد أن تخرج المرأة بما يسترها، ولا يبين حجم جسمها.

وقوله: [﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن حرائر، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالتعرض لهن].

قوله: [﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن حرائر] هذا بناءً على ما قلت، ولكن لنا أن نقول: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن محتشمات، وبعيدات عن الرِّيب، ولا يردن السوء، ولا الفاحشة؛ لأن المرأة، إذا كانت محتشمة، محتجبة، دل هذا على كمال عفتها، وأنها لا تريد أن تقع في مواضع الرِّيب، بخلاف المرأة العاهر، - والعياذ بالله - فإنها تتبرج، وتكشف وجهها، وتخرج يديها وذراعيها، وحليَّها، وما أشبه ذلك، فإذا كانت المرأة متحجبة، عُلم أنها امرأة محتشمة عفيفة، ولهذا قال: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾، وإذا كانت عفيفة محتشمة، فإن الفسَّاق لا يتعرضون لها، لأنهم يعلمون أنها ليست من أصحابهم، وإنما هي امرأة حامية نفسها محتفظة، هذا من جهة، ويحتمل أن ما قاله المؤلف: [﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن حرائر]، والآية صالحة لهذا ولهذا.

قال: [بخلاف الإماء فلا يغطين وجوههن، فكان المنافقون يتعرضون لهن]، وهكذا كانت الإماء في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الخلفاء لا يحتجبن؛ لأنهن مملوكات، ولا يتعلق بهن إلا رديء النفس، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنما هذا في الإماء اللاتي لا يُخشى منهن الفتنة، وأما الإماء الجميلات اللاتي يفتن، فإنه يجب عليهن أن يغطين وجوههن، وذلك لخوف الفتنة، لا لإلحاقهن بالحرائر، وما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ صحيح، والمعنى يؤيده، فإنَّ كل ما يُخشى منه الفتنة، فإنه يجب البعد عنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]؛ لأن الخلخال الذي يُسمع إذا ضربت المرأة برجلها، يُخشى منه الفتنة، وخشية الفتنة بخلخال مخفي عند ضرب المرأة برجلها أقل بكثير من أن تخرج المرأة وجهها، ذلك الوجه الجميل المجمل بالكحل، والتحمير وغير ذلك وكل يعلم أن هذا أعظم فتنة من خلخال مستور، يُسمع صوته عند الضرب بالرجل، وتأبى حكمة الله - عز وجل - أن ينهى عن ضرب المرأة برجلها، لئلا يسمع خلخالها ثم يرخص لامرأة من أجمل النساء أن تخرج وجهها وكفيها، فإن هذا تأباه حكمة الله - عز وجل -.

وما فعله عمر رضي الله عنه عندما ضرب المرأة حين غطت رأسها؛ ذلك لئلا تتشبه بالحرائر،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥١)، ومسلم (٨٩٠) من حديث أم عطية رضي الله عنها.

وخوفًا من أن يختلط هؤلاء بهؤلاء ثم يبقى الفرق، والميزة بينهما لا أثر له، لأنه إذا كانت الإماء يغطين وجوههن بقيت الحرائر غير معلومات.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال: [لما سلف منهن من ترك الستر، ﴿رَّحِيمًا﴾ بهن إذا سترهن]، سبق لنا تفسير الغفور والرحيم، وأن الله يجمع بينهما دائمًا، لأجل أن يتركب من الاسمين زوال المكروه، وحصول المطلوب، فزوال المكروه بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة، والله - عز وجل - يذكر دائمًا المغفرة والرحمة عن أمر قد سلف، ولم ينزل به حكم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]؛ لأنه لولا مغفرة الله ورحمته لكان يعاقبنا على المخالفة التي لا تليق، لكن الله - عز وجل - من مغفرته ورحمته، لا يؤاخذنا بما لم يشرع لنا.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أهمية ما أمر الله به رسوله في هذه الآية، وجه ذلك: أن الله أمره أن يبلغها أمرًا خاصًا في قوله: ﴿قُل﴾، وإلا كل القرآن مأمور بأن يقوله للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن بعض الأحكام يصدرها الله - عز وجل - بـ (قل) فيكون كأنه أرسل بهذه الآية إرسالًا خاصًا، فيكون في هذا دليل على أهمية هذا الأمر الذي أمر الله به رسوله ﷺ.

٢- **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان أن يَغار على زوجته أكثر من غيرها؛ لأنها فراشه، وفي فسادها فساد لفراشه، وتشكيك في نسله، وجه ذلك: أن الله بدأ بالأزواج، فقال: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان مسئول عمن تحت رعايته، سواء كانت تلك مسئولية عامة، أم خاصة، وفي هذه الآية مسئوليتان على رسول الله ﷺ خاصة وعامة، الخاصة: قوله: ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ والعامة قوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان مقتضٍ للعمل بهذه الآية، لقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن على المؤمنين مسئولية في نسائهم، لقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: ونساء المؤمنات، إشارة إلى أن المؤمن يجب أن يكون ملاحظًا لنسائه.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الحجاب - حجاب الوجه - لقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ويتفرع على هذا: أنه يجب أن نعرف مفهوم الحجاب الشرعي؛ لأن أكثر الناس يظنون أن الحجاب الشرعي هو أن تغطي المرأة جميع جسدها إلا وجهها وكفَّيها، وهذا نحن فهمناه من الأسئلة التي ترد علينا، أنهم إذا قالوا: الحجاب الشرعي يعني: الحجب، وستر جميع البدن إلا الوجه والكفين، وهذا خطأ، فالحجاب الشرعي أول وأولى ما يدخل فيه حجاب الوجه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من عادة نساء الصحابة لبس الجلابيب، لقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ويدل لذلك أيضًا أن النبي ﷺ لما أمرهن بالخروج يوم العيد قلن: يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب، فقال: «**لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**» ويتفرع على هذه الفائدة: أن الشرع يتشوف إلى أن تكون المرأة بعيدة عن إبراز مفاتنها؛ لأن الجلباب يكون ـ غالبًا ـ واسعًا، لا تظهر منه مفاتن الجسم.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: رأفة الله بعباده، حيث يبين لهم علل الأحكام الشرعية، وجه ذلك: أن ذكر العلل له فوائد منها:

أولًا: أنه يفيد طمأنينة النفس، واقتناعها اقتناعًا أكثر بذلك الحكم المعلَّل.

ثانيًا: سمو الشريعة، وأنها لا تأمر بشيءٍ عبثًا، بل لابد لكل شيء تأمر به من الحكمة المناسبة التي ينبني عليها الحكم.

ثالثًا: أن العلة إذا كانت عامة أمكن أن نقيس على المعلل ما وافقه في تلك العلة، فنلحقه به في الحكم.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: عناية الله ـ عز وجل ـ بالمرأة، وذلك بدفع ما يمكن أن يكون فيه أذىً عليها، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن في الحجاب كفَّ الأذى عن المرأة، فيكون في ذلك كرامة لها، وإعزازًا لها ورفعة لها من أن تُؤذى، ويتفرع على هذه القاعدة: بيان قصور نظر أولئك الذين يقولون: إن الحجاب ونحوه إذلال للمرأة، وغض من كرامتها، وإهانة لها، فنقول لهم:كذبتم أعظم الكذب، وافتريتم أعظم الافتراء لا، حجابها هو الذي يدفع عنها الأذى ـ أذى الفُسَّاق وتتبعهم لها ـ ؛ لأن المرأة الجميلة تكون بالنسبة لهؤلاء الأراذل كالجيفة أمام الكلاب، ولابد أن يتبعوها، ولو على الرائحة، وبهذا نعرف ما انزلق فيه كثير من الشعوب الإسلامية في رفع الحجاب الشرعي عن المرأة، حيث أدى إلى مفاسد كبيرة، ولو فتشت ما فتشت في أولئك الأمم الذين يدعون التمدن والتحضر لوجدت كثيرًا وكثيرًا من الحوامل من البغاء، والزنى، هذا فضلًا عمن يستعملن الحبوب المانعة من الحمل، وفضلًا عمن يجهضن الحمل قبل أن يستتم، وهذا يدل على أن مناهج الإسلام أسمى كل المناهج، وأحسن من كل الأنظمة.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المغفرة والرحمة لله ـ عز وجل ـ، وهي مأخوذة من هذين الاسمين الكريمين في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هذان الوصفان دل عليهما الاسمان دلالة تضمن أو دلالة مطابقة؟ مطابقة، فهما يدلان على الكرم دلالة التزام؛ لأن الكريم هو الذي يغفر، وهو الذي يرحم.



قال الله تعالى:

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠]

التفسير

قوله: ﴿لَئِن﴾ يقول المؤلف: [لام قسم]، يعني: لام موطأة للقسم، وليست هي أداة القسم، بل القسم محذوف، والتقدير: والله لئن لم ينته، أو وربك لئن لم ينته، فهي موطئة للقسم، وإنما قال المؤلف: [لام قسم] لئلا يتوهم واهم أنها لا الابتداء.

وقوله: (إن) هذه شرطية.

وقوله: ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ مجزومة أم مرفوعة؟ مجزومة، والدليل حذف حرف العلة الياء، والجازم لها إن أم لم؟ لم لأنها هي المباشرة ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني: [عن نفاقهم]، كما قال المؤلف، وإنما قال المؤلف: [عن نفاقهم]؛ لأنه هو الوصف الذي اشتُق منه وصف المنافقين، وإلا قد يكون المعنى: لئن لم ينته المنافقون عن نفاقهم، وعن أذيتهم للمؤمنين، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: [بالزنا]، وهذا بناءً على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أن المراد الأذية بالتعرض لهن بالفاحشة، فالذين في قلوبهم مرض هم الذي يتعرضون للنساء بطلب الفاحشة والزنا، ويحتمل أن يكون المعنى أعم مما قال المؤلف أي: في قلوبهم مرض من الشك، وسوء الخلق وغير ذلك، وهو أعم وأحسن.

وقوله: ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال: [المؤمنين]، فتكون المؤمنين مفعول المرجفون؛ لأنها من أرجف يرجف، وهي مأخوذة من الرجفة، والرجفة هي الزلزلة، والمرجِف هو الذي يقول: قد أتاكم العدو، وإن لكم عدوًا كثيرًا، وسراياكم قد قتلت، وهزمت الجنود، وما أشبه ذلك، فيدخل الخوف والرعب في قلوب الناس، وسُمي ذلك إرجافًا؛ لأنه يزلزل ثقة الإنسان بنفسه وبإخوانه، ولأنه يزلزل أمنهم وطمأنينتهم.

قال بعضهم: ولأنه لا ثبات له؛ لأنه قول كذب، كل هذه المعاني يحتمل أن يكون الإرجاف مشتقًا منها، أو دالًّا عليها.

إذنْ فالمرجف هو: الذي يخبر بما يزلزل طمأنينة المؤمنين من هزيمة، أو قتل عدو، أو كثرة جنود، أو ما أشبه ذلك، ويوجد أناس من هذا النوع في المدينة، إذا بعث النبي ﷺ السرايا صاروا

يبثون مثل هذه الأقوال، بأن السرية قد هزمت، وأسرت، وقتلت، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ واقعة في جواب القسم المقدر، فالجملة إذنْ جواب للقسم، وليست للشرط؛ لأن القاعدة إذا اجتمع قسم وشرط فالجواب للسابق منهما كما قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزم[١]

قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ قال المؤلف: [لنسلطنَّك عليهم]، وهذا التفسير تفسير باللازم؛ لأن الإغراء معناه: الحث بإزعاج على أن ينكِّل بهم، ومنه إغراء الإنسان بالعدو، بمعنى أنه يحثه عليه بإزعاج،؛ ليوقع به ويقتله، أو يهزمه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ [يساكنونك] ﴿فِيهَآ﴾ يعني: في المدينة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [ثم يخرجون ملعونين]، ملعونين: مبعدين من الرحمة، يعني: نغرينك بهم بالتسلط عليهم، إما بالتعزير، أو بالتأديب، أو بالقتل، أو بغير ذلك، فإذا ضاقت عليهم المدينة، خرجوا ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾، ولم يقل: فلا يجاورونك، وذلك لتأخر انتفاء المجاورة عن الإغراء، لأن الله يغريه بهم، فيحصل لهم من التأديب، والتعزير والإهانة ما لا يتمكنون معه من البقاء في المدينة، ولهذا جاءت بـ (ثم).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل أن المعنى: إلا قليلًا من الزمن، أو: إلا قليلًا منهم، وعلى كلا الاحتمالين فإن قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال من الفاعل في يجاورونك، وعلى تقدير المؤلف: هي حال من فاعل حُذف مع عامله، حيث قال: [ثم يخرجون ملعونين]، ولكن الأقرب ألا نقدِّر، بل المعنى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في حال كونهم ملعونين حال المجاورة، يعني: حتى في بقائهم عندك، يكونون ملعونين مطرودين، مبعدين لا يألفهم أحد، ولا يحنو عليهم.

ثم قال: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ قال: [وجدوا]، أخذوا وقتلوا تقتيلًا.

قوله: ﴿أَيْنَمَا﴾ هذه أداة شرط تفيد العموم في المكان، وفعل الشرط قوله: ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ وجواب الشرط: ﴿أُخِذُواْ﴾.

وقوله: ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ يقول: [أي: الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به]، وجملة: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾ جملة خبرية؛ لأنها شرطية، والجملة الشرطية خبرية، لكنها خبرية بمعنى: الإنشاء، أي: بمعنى الأمر والطلب، أي: أينما وجدتموهم فخذوهم واقتلوهم.

وفي قوله: ﴿تَقْتِيلًا﴾ المصدر المؤكَّد دليل على أنهم يُقَتَّلُونَ أفرادًا وجماعات، هذه الآية لا

---

(١) البيت رقم (٧٠٦) من ألفية ابن مالك.

شك أن فيها وعيدًا لمن جمعوا هذه الأوصاف، المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة، والبحث فيها، أولًا: هل هذه الأوصاف لموصوف واحد، أو أنها لأناس متعددين؟ هل المعنى أنهم منافقون، وفي قلوبهم مرض، ومرجفون؟ فالأوصاف هذه لموصوف واحد، وصح العطف؛ لأنه من باب عطف الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١: ٤] وهو واحد أم متعدد؟

واحد، فالعطف هنا عطف صفات، هل نقول: إن هذه عطف صفات، وأنها لموصوف واحد، أو نقول: إنها عطف أعيان موصوفين، ليست لموصوف واحد؟ هذا الأخير هو الأصح، وهو أعم أيضًا؛ لأن المنافق قد يكون في قلبه مرض، يميل إلى الفاحشة والزنا، وقد لا يكون، وقد يكون مرجفًا وقد لا يكون، وقد يجمع بين النفاق والمرض القلبي والإرجاف، وقد يكون الإنسان في قلبه مرض، وليس منافقًا، وقد يكون مرجفًا، وليس منافقًا، ولا في قلبه مرض؛ فحينئذٍ نتبين أن الأولى أن هذا العطف عطف لموصوف على موصوف، وليست عطفًا على موصوف واحد، يعني: ليست وصفًا لموصوف واحد، حتى نجعل العطف من باب عطف الصفات بعضها على بعض.

البحث الثاني: هل هؤلاء انتهوا أم لم ينتهوا؟

الواقع أن الإغراء لم يحصل؛ ولهذا بقي المنافقون فما قتِّلوا، ولا أخذوا، فهم باقون، فهل نقول: إنهم انتهوا حين رأوا هذا الوعيد، أو نقول: إنهم لم ينتهوا، لكن الله ـ عز وجل ـ عفا عنهم فيما بعد، وأن هذا من باب إخلاف الوعيد، وإخلاف الوعيد من الكرم، بخلاف إخلاف الوعد، أيهما أرجح؟

الجواب: هما قولان للعلماء:

فبعضهم يقول: إنهم لما رأوا هذا الوعيد، وكانوا من أخوف الناس، وأرعن الناس انتهوا، وتركوا هذا الأمر.

وبعضهم قال: إنهم لم ينتهوا، لكن الله ـ عز وجل ـ لم يغر نبيه بهم لحكمة اقتضت ذلك.

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ: أنهم انتهوا؛ لأن المعروف من حال المنافقين أنهم جبناء، وأنهم يخافون، ويحذرون، ولهذا يحلفون عند النبي ﷺ أنهم مؤمنون، ولما تخلفوا عن غزوة تبوك جاءوا يحلفون ويعتذرون، فهم جبناء، ويعلمون أن وعد الله حق، وأنهم لو استمروا في أعمالهم العدوانية هذه، لأغرى الله بهم نبيه، وحصل الجلاء ثم القتل.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة من الفوائد:** شدة عناية الله ـ عز وجل ـ لنساء المؤمنين، فإن علاقة هذه الآية بالتي قبلها ظاهرة، فإن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، هم أكثر الناس تعرضًا لأذية المؤمنات، فلهذا أعقب الآية السابقة بهذه الآية، ففيه كمال عناية الله تعالى بنساء

المؤمنين.

٢- **ومن فوائدها:** الوعيد الشديد لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات الثلاث الذميمة، النفاق، ومرض القلب، والإرجاف.

٣- **ومن فوائدها:** أنه إذا ظهر نفاق المنافق، وتبين عداؤه، فإنه يجوز أن يعامل بما يقتضيه نفاقه، لقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ وقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، وسبق لنا البحث هل هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون انتهوا من أعمالهم أم لا؟ وقلنا: إن في ذلك رأيين لأهل العلم، وأن الأقرب من هذين الرأيين: أنهم انتهوا عن ذلك؛ لأننا لم نرَ أن الله ـ عز وجل ـ سلَّط رسوله عليهم، وأغراه بهم، وهذا أقرب بكثير من القول بأن الله لم يغره من باب إخلاف الوعيد.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من النفاق، ومرض القلب، والإرجاف؛ لأن الله توعَّد هؤلاء إذا لم ينتهوا بأن يسلط الله رسوله عليهم، ويغريه بهم، وقُبح هذه الصفات معلوم، أما النفاق فظاهر، فإنه من أرذل الأخلاق؛ لأن من الصفات التي يتصف بها المنافق كما جاء في الحديث أنه: «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]، وهذه من أرذل الصفات الاجتماعية، وأما الذين في قلوبهم مرض، فإن مرض القلب أشد من مرض البدن؛ لأن مرض البدن يوجب الألم الحِسِّيَّ الذي قد يتحمله الإنسان، وأما مرض القلب ـ والعياذ بالله ـ فإنه يوجب القلق النفسي، وضياع الحياة كلها، والموت المعنوي، واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وما أكثر الأوقات التي تضيع على من غفل عن ذكر الله تضيع بلا فائدة، وأنت إذا رأيت من نفسك أن أوقاتك ضائعة بلا فائدة، فيجب عليك أن تلاحظ قلبك، فإن هذا لا يكون إلا من غفلة القلب عن ذكر الله.

ولو نظرت فيما سبق من التاريخ، كيف أنتج العلماء ما أنتجوا من المؤلفات، ومن فطاحل العلماء الذين تخرجوا على أيديهم، في أوقات قد تكون أقل من الوقت الذي عشته أنت، وذلك بسبب ما ملأ الله به قلوبهم من ذكره حتى صارت أعمارهم لا يضيع منها لحظة واحدة، فعليك أن تنتبه لمرض القلب، وأن تبادر بمداواته، لأنه إذا تفشى المرض في القلب ـ نسأل الله العافية ـ قد يموت، ويُطبع عليه فلا يحق حقًّا ولا يبطل باطلًا.

وأما الإرجاف، وتخويف الناس المؤمنين، وإلقاء الذعر في قلوبهم، فهذا أيضًا من الأخلاق الذميمة؛ لأن الواجب على المرء ـ على الأقل ـ أن يكون موقفه موقف المحايد، أما أن يذهب ويرجف بالمؤمنين، ويقول: عدوكم أكثر منكم، ولا يمكن أن تغلبوه، وعدوكم فعل وفعل، فإن هذا من علامات النفاق.

٥ ـ **ويستفاد من الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يدخل على المؤمن ما يقوِّي عزيمته وينشطه،

---

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

سواء في جهاد في سبيل الله، أو غيره من الأعمال النافعة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ مكلف - عبد - يؤمر وينهى، لقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ إذنْ إذا لم يغرينه الله بهم، فالواجب عليه الكف والتوقف حتى يؤذن له فيه.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** مشروعية إجلاء من في بقائه ضرر، تؤخذ من قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد ثبت نحو هذا الإجلاء في الزاني إذا لم يكن محصنًا، فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرَّب عن وطنه، أو عن البلد الذي زنى فيه لمدة سنة، وثبت أيضًا الإجلاء في قطَّاع الطريق إذا أخافوا الناس ولم يأخذوا مالًا ولم يقتلوا نفسًا، فإنهم ينفون من الأرض، ويبعدون، وثبت الإجلاء أيضًا في التعزير، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نفى نصر بن الحجاج، وكان رجلًا وسيمًا، حتى إن النساء بدأن يتغزلن به، يقول قائل:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبُهَا ... أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

فأمره عمر أن يحلق رأسه، حتى لا تفتتن الناس به، فلما حلق رأسه، صرن يتغزلن به من وجه آخر بعد الحلق، فرأى عمر رضي الله عنه أن يُنفى، فنفاه إلى البصرة، وكذلك أيضًا نفى الحُطَيْئَةَ.

إذنْ فأصل النفي والإبعاد عن الأرض ثابت في القرآن، يعني: دل عليه القرآن، وهو قوله ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الأوصاف الثلاثة سبب للَّعن: النفاق، ومرض القلب، والإرجاف، لقوله ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ يعني: إذا لم ينتهوا فإنهم يتصفون بهذا الوصف.

٩- **ومن فوائدها:** أن المنافق إذا أظهر نفاقه، فإنه يجوز قتله؛ لقوله: ﴿أُخِذُوٓاْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، هذا إذا لم ينته عن أذية المؤمنين، فإنه يُؤخذ ويقتَّل، ولا يرد على ذلك أن النبي ﷺ كان يعلم من المنافقين أقوامًا بأعيانهم، لأن النبي ﷺ كفَّ عن قتلهم، قال: «**لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، فيكون في ذلك تنفير عن الإسلام، والإسلام ما زال في ابتداء الدعوة إليه، ثم إن المنافقين في عهد النبي ﷺ، يتسترون، ما يعرفون إلا في لحن القول، أو بوحيٍ أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** استعمال المبالغة في الألفاظ لفظًا ومعنىً، أما معنىً ففي قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُوٓاْ﴾ في أي مكان، في بر، أو بحر، أو جو، قريبًا كان أو بعيدًا، أخذًا من عموم الشرط في قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُوٓاْ﴾، والوجه الثاني من المبالغة في اللفظ قوله: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾؛ لأن هذا أبلغ من قوله: وقتِلُوا قتلًا، ففيه استعمال المبالغة في الألفاظ، والمعاني أيضًا، فالمبالغة في المعاني مأخوذة من الشرط، والمبالغة في الألفاظ مأخوذة من قوله: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾.



قال الله تعالى:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]

التفسير

قوله: ﴿ سُنَّةَ ﴾ السنة بمعنى: الطريقة، وسنة الله، ـ عز وجل ـ نوعان: سنة كونية، وسنة شرعية، أما السنة الشرعية، فإنها تكون بحسب مصالح العباد، وتختلف باختلاف الأمم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وإن كانت هذه الشرائع كلها تتفق في أصول التوحيد فيما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته متفقة، وكذلك في القواعد العامة في الشريعة، وقد أشار الله إليها في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] كم هذه؟ الفواحش، ما ظهر منها ما بطن، والإثم، والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، هذه الأصول الخمس، ذكر أهل العلم أن جميع الشرائع متفقة عليها، لكن من الشرائع التي تختلف مصالحها باختلاف الزمان، والمكان، والأمم، هذه لابد أن تختلف أحكامها بحسب ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ.

أما السنة الكونية: فهي ما يجريه الله ـ تبارك وتعالى ـ قدرًا من العقوبات وغيرها، وهذه السنة لا تتبدل ولا تتغير، وإن كان الله ـ عز وجل ـ قد يُضاعف العقوبة على بعض الناس دون بعض، كما سبق لنا في نساء النبي في قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وقد يجزي الله تعالى بعض العاملين على العمل أكثر من البعض الآخر، كما في هذه الأمة، فإنها أعطيت كفلين من الأجر على من سبقها من الأمم، وكما في أصحاب الرسول ﷺ الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

لكن في العقوبات يقول الله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف:[أي سن الله ذلك]، وأفادنا المؤلف بهذا التفسير أن ﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوب على المصدر المحذوف عامله، أي: سننا بهم سنة الله، أي: سننا بهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين في المدينة سنة الله فيمن سبق، فإن كل من نابذ عباد الله وأولياءه سلط الله عليهم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

وقوله: ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ قال: [من الأمم]، و ﴿خَلَوْا﴾ بمعنى: مضوا، ولهذا قال المؤلف: [من الأمم الماضية، في منافقيهم المرجفين بالمؤمنين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ منه] ولا من غيره، وذلك في السنن الكونية، أما الشرعية فيمحو الله ما يشاء ويثبت، وربما تبدل، لكن سنة الله الكونية، لن تجد لها تبديلًا، لا منه ولا من غيره، في إنزال العقوبة بمن يستحقها، وإن كانت هذه العقوبة لن تختلف، لكن لابد للمخالفين من عقوبة - والله أعلم -.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٣-٦٩].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ قال المؤلف: [أي: أهل مكة]، والصواب: أنه أعم، وفي قوله: ﴿يَسْأَلُكَ﴾، ولم يقل: سألك، دليل على أن هذا السؤال ما زال مستمرًا على النبي ﷺ، يسأله الناس عن الساعة، والسؤال عن الساعة يحتمل أن يكون الحامل عليه التكذيب بها، واستبعادها، وهذا إذا كان الحامل عليه التكذيب والاستبعاد يورد من الكفار، وتارةً يسأل عنها سؤال استفهام، متى تكون؟ مع الإيقان بها، وهذا قد يرد من المؤمنين، وتارةً يُسأل عنها، ليبين للناس أنه لا يمكن العلم بها، كما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة، قال: «متى الساعة؟»[1]، وما سأل استبعادًا، ولا استنكارًا، ولا استرشادًا متى يكون وقتها، ولكن إعلامًا بأن وقتها لا يعلمه إلا الله.

ولكن قد يقول قائل: إن قوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ لا يدخل فيه سؤال جبريل؛ لأن جبريل ليس من الناس.

فيُجاب عنه بأن جبريل حين سأل كان على صورة الناس.

---

(١) رواه مسلم (٨)، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأبو داود (٤٦٩٥).

قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تكون، أمر الله نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ بالجواب، وهذا تلقين من الله - عز وجل - لرسوله ﷺ بالجواب، أن يقول هذا، وإنما لقَّنه الله - عز وجل - ليتبين للناس عامة أن قوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ صادر من الله وليس من تلقاء نفسه، حتى يقتنع الناس بذلك ويؤمنوا به.

وقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة فيها حصر، طريقه: ﴿إِنَّمَا﴾ يعني: ما علمها إلا عند الله وحده، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، فلا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله - عز وجل -، وكل ما قيل عن وقت قيامها، من السابقين واللاحقين، فما هو إلا تخرص كاذب، اعلموا ذلك علم اليقين؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأعلم الرسل بالله البشري والملكي محمد ﷺ، وجبريل، وكلاهما لا يعلم، لما سأل جبريل النبي ﷺ، قال: «**مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(١) فإذا كنت تجهل أيها السائل، فأنا مثلك أجهل منك.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا كما يشمل الساعة العامة التي تقوم، ويحشر الناس فيها من قبورهم إلى رب العالمين، تشمل أيضًا الساعة الخاصة، التي هي موت كل إنسان، فإن من مات قامت قيامته، وقامت ساعته؛ لأنه انتهى من الدنيا إلى دار الجزاء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] وجه الدلالة: أنه إذا انتفى علمه بأي أرض يموت، ففي أي زمن من باب أولى، وذلك لأن الأرض يتمكن الإنسان من أن يذهب إليها، أو لا يذهب، والزمن ما له فيه تصرف، فإذا انتفى علمه بما له فيه التصرف، وهو الانتقال من مكان إلى آخر، فانتفاء علمه بما لا يتصرف فيه من باب أولى.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قال: [يعلمك بها، أي: أنت لا تعلمها].

قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ (ما) يحتمل أن تكون نافيةً، يعني: لا يدريك عنها شيء، ويحتمل أن تكون استفهامية، يعني: أي شيء يعلمك بها حتى تسأل عنها، وأيًّا كان، فالله تعالى ينفي علم رسوله ﷺ بها، ويقول له: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

وقوله: [﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ﴾ توجد ﴿قَرِيبًا﴾] ظاهر صنيع المفسر أن قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ جملة مستأنفة لا علاقة لها بالفعل الذي قبلها، وأنها جملة مستأنفة من الله، يعني: لا تدري عنها أنت ولكنها قريبة.

وقوله: ﴿لَعَلَّ﴾ هنا للتوقع، أي: أنها متوقعة، وذهب بعض المعربين إلى أن قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ مفعول لقوله: ﴿يُدْرِيكَ﴾، مفعول ثان وثالث، لكنه عُلِّق بـ ﴿لَعَلَّ﴾؛ لأن ﴿لَعَلَّ﴾ من المُعلِّقات، يعني: وما يدريك عن توقع قربها، يعني: لا تدري عن قربها - أيضًا - ومن لم يدرِ عن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قربها، لا يدري عن وقوعها من باب أولى، وأيًا كان فالله ـ عز وجل ـ نفى أن يكون النبي ﷺ عالمًا بها أو بقربها، وإذا انتفى علم النبي ﷺ، بذلك فعلم غيره من باب أولى أن ينتفي.

ثم إن السؤال عن الساعة ليس بذي قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة ما أشار إليه النبي ﷺ حيث قال حين سأله رجل عن الساعة: «انْظُرْ مَاذَا أَعْدَدتَّ لَهَا»[1]، هذه هي القيمة، أما متى تأتي؟ أو لا تأتي، ليس ذا قيمة كبيرة، لكن القيمة الحقيقية أن ينظر الإنسان ماذا أعد لها.

ومن ثم أعقب الله تعالى هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ يعني: احذر أن تقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللعن قال أهل العلم معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذه الجملة مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الكافرين بالله وبما يجب الإيمان به، وقوله: ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أبعدهم عن الرحمة.

ثم قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ يعني: ليسوا مبعدين عن الرحمة فقط، وسالمين من الإثم، بل إنهم جُمع لهم بين الإبعاد عن ـ رحمة الله ـ، وبين العقوبة.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيأ لهم ﴿سَعِيرًا﴾ يقول: [نارًا شديدةً يدخلونها]، نارًا يسعرون بها، ـ والعياذ بالله ـ ، فهم وقودها والحجارة، نارًا تطلع على الأفئدة، تصل إلى قلوبهم، التي في أجوافهم ـ والعياذ بالله ـ هذه النار ليسوا باقين فيها يومًا، أو يومين، أو سنة، أو سنتين، بل يقول: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قال: [مقدرًا خلودهم] أشار المؤلف إلى أن الحال هنا: حال مقدرة؛ لأن الخلود ليس حال كفرهم، ولكن حال مجازاتهم يوم القيامة، فالحال هذه حال مقدرة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، و﴿أَبَدًا﴾ هذه تفيد استمرار الزمن في المستقبل، وأزلًا تفيد استمراره في الماضي، ولهذا نقول: إن علم الله علم ثابت لله أزلًا وأبدًا.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذه إحدى آيات ثلاث صرَّح الله فيها بأبدية خلود أهل النار، والآية الثانية في سورة النساء قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩]، والآية الثالثة في سورة الجن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، وفي بعض هذه الآيات، بل في واحدة منها رد واضح على قول من قال: إن النار غير مؤبدة، ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن النار مؤبدة كالجنة، وليس في هذا منافاة لرحمة الله ـ عز وجل ـ وحكمته، وليس فيها إبطال لقوله تعالى في الحديث القدسي «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[2]؛ لأن هذه العقوبة قد أُنذر بها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أولئك الذين فعلوا ما يستحقونها، وقامت عليهم الحجة بها، فليس لهم عذر، فيكونون قد أُمروا بمقتضى العدل، فعقوبتهم هذه عدل من الله ـ عز وجل ـ وليس فيها ظلم، ومن أُنذر بشيء ففعل السبب الموصل إليه باختياره، فهو الذي جنى على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ قال: [يحفظهم عنها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعها عنهم].

قوله: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولاهم بحصول المطلوب، ولا نصيرًا ينصرهم بدفع المكروه، فهم لا يجدون أحدًا يوم القيامة يتولاهم ويحصِّل لهم مطلوبهم بحمايتهم من النار وإدخالهم الجنة، ولا يجدون أحدًا ينصرهم من هذه النار، ويدفعهم عنها، ويخرجهم منها بعد الدخول؛ لأن هؤلاء الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

أما العصاة من المؤمنين: فإنهم قد يجدون شفعاء في ذلك اليوم يشفعون فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يُخرج منها.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦]

قوله: ﴿يَوْمَ﴾ هذه ظرف، والظرف والجار والمجرور لابد له من عامل وهو الذي يسمى المتعلق، فأين عاملها؟ يحتمل أن العامل قوله: ﴿أعد﴾ في قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، ويحتمل أنها ﴿خَالِدِينَ﴾، ويحتمل أنها: ﴿يَجِدُونَ﴾ فتكون تنازعت فيها العوامل الثلاثة، ويحتمل أن العامل محذوف، أي: اذكر يوم تقلب وجوههم، وكل هذا محتمل، وكل هذا هو الواقع.

فائدة: هنا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مع أن السعير مذكر؛ لأن المراد بالسعير هنا سعير النار وهي مؤنثة.

وقوله: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: تصرف من جهة إلى جهة، كما يقلب اللحم على النار لينضج ـ والعياذ بالله ـ وفي قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ ولم يقل يوم يقلبون، لأن هذا الأمر يقع منهم على سبيل الكره ـ والعياذ بالله ـ وأنه ليس باختيارهم.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ يحتمل أنها حال، وهو الأقرب من الهاء في وجوههم، يعني: تقلب، وهم يتحسرون هذا التحسر، ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا﴾، ويحتمل أن تكون استئنافية، حكاية الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم ما يقولون.

قال المؤلف: [﴿يا﴾ للتنبيه ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾] قال المؤلف: ﴿يا﴾ للتنبيه وليست للنداء، لأن ياء النداء لا تدخل إلا على من يصح نداؤه حقيقة أو حكمًا، وليت لا يصح نداؤها؛ لأنها حرف، وهي للتمني، يقول المؤلف: [إنها للتنبيه]، وقيل: إنها نداءٌ لمنادىً محذوف يناسب المقام، يقول: يا ربنا ليتنا أطعنا الله، المنادى محذوف تقديره: يا ربنا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا، فعلى الأول: يكون التنبيه هنا يراد به زيادة التحسر كأنهم ينبهون أنفسهم بهذا التمني

الذي تمنوه، وعلى الثاني: يكون المنادى محذوفًا للمبادرة بذكر التمني دون ذكر من وجَّه الخطاب إليه، وأيًّا كان فإنه يدل على شدة تحسرهم.

وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ هذا التمني ما يعثر حصوله، أو ما يتعذر في ذلك الوقت؟ يتعذر في ذلك الوقت، وهذا أشد تعذرًا من قول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُــودُ يَوْمًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَـعَـلَ المَشِيبُ

وقوله: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ نحذف الألف في ﴿أَطَعۡنَا﴾؛ لأنها أصلًا جاءت بالألف فنقول: أطعنَ الله، وأطعنَ الرسولا، ولا تقل: إنه يجب أن أشير إلى الألف، لئلا تشتبه النون بنون النسوة؛ لأن السياق يدل على المعنى، فهم ينبهون السامع على أنهم يتمنون هذا، والألف هنا موجودة خطًّا لكن ما ينطق بها لفظًا.

وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ بالألف، والألف هنا للإطلاق، ومر علينا في هذه السورة نظيرها، قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وسيأتي بعدها كلمة أخرى ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، فهذه ثلاث كلمات فيها ألف تسمى ألف الإطلاق، ثلاث ألفات فيها ثلاث قراءات، قراءة بإثبات الألف وصلًا ووقفًا، وقراءة بحذفها وصلًا ووقفًا،وقراءة بحذفها وصلًا وإبقائها وقفًا، نرى الآن وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ هذا على قراءتين ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ قراءة واحدة، ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ قراءة واحدة، يعني: يجوز أن نقرأها على الثلاث على النشر فنقرأ: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولا وقالوا﴾ هذه قراءة، يعني: أثبتنا الألف وصلًا ووقفًا، والقراءة الثانية: ﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولَ وقالوا﴾ و ﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولْ وقالوا﴾ هذا أيضًا القراءة الثانية، فيها حذف الألف وصلًا ووقفًا، والقراءة الثالثة: ﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولَ وقالوا﴾ ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ هذه التي تثبتها وقفًا لا وصلًا.

وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ الرسول هنا اسم جنس يشمل كل رسول أُرسل إلى هؤلاء؛ لأن أهل النار ليسوا مختصين بأمة محمد ﷺ، بل جميع الأمم، فيقصدون بالرسول الجنس، وبالله واحدًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ قال: [أي: الأتباع منهم]، صحيح ما قال المؤلف، الأتباع دون المتبوعين، ربنا، يعني: يا ربنا، فحرف النداء محذوف، إنا أطعنا سادتنا، [وفي قراءة ﴿سَادَتَنَا﴾ جمع الجمع]، وقوله: في قراءة يعني سبعية، وسادة جمع سيد، وسادات جمع سادة، فهي جمع الجمع، قراءتان: ﴿سَادَتَنَا﴾، و ﴿سَادَاتِنَا﴾، وإنما جمعت لكثرة الإتيان في الأمم، والسيد: هو ذو الشرف والقدر في قومه، المقدم فيهم.

وقوله: ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ وهم الذين فوق الأسياد، كالأمراء ونحوهم، فالناس لهم أسياد مُطاعون،

وهم كبراء فوق هؤلاء، فيقولون: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾، الصنفين جميعًا، وبطاعتهم أضلونا السبيلا.

وقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: فبسبب طاعتنا لهم أضلونا السبيل، والضلال هنا بمعنى الضياع عن الصواب وعن الحق أو التيهان، يعني: تُهنا.

والمراد بالسبيل: الطريق الذي هو طريق الله، فـ (أل) للعهد الذهني، أي: السبيل المعهود الموصل إلى الله، قال المؤلف: [﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ طريق الهدى].

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾

قال المؤلف: [أي: مثليْ عذابنا]، الله أكبر، كانوا في الدنيا يجلونهم ويحترمونهم، ويعظمونهم، ويؤثرونهم على أنفسهم، وفي الآخرة على العكس، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧،١٦٦] فالمتبوعون يتبرأون وهؤلاء أيضًا يشتمون، ويلعنون يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، وهم بهذا الدعاء ليسوا جائرين، لأنهم أرادوا بالضعفين، أن هؤلاء الكبراء ضلوا وأضلوا، فيكون عليهم إثمان: إثم الضلال بأنفسهم، وإثم الإضلال لغيرهم، ولهذا النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزرُهَا ، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ»(١) وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] فدعاء هؤلاء الأتباع دعاء عدل، وليس دعاء جور؛ لأن هؤلاء المتبوعين مستحقون للعذاب مرتين.

وقوله: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ يقول: [﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾عذبهم]، لماذا فسر اللعنة بالعذاب؟ لأنهم في النار فهم مطرودون عن رحمة الله، ولكن لو أن المؤلف أبقاها على ما هي عليه لكان حقًا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ يعني: أبعدهم إبعادًا كبيرًا عن رحمتك؛ حتى لا ترحمهم يومًا من الدهر.

وقوله: ﴿كَبِيرًا﴾ يقول: [عدده، وفي قراءة بالموحدة، أي: عظيمًا] فيها قراءتان: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾ وهذا باعتبار الكمية، ﴿ولعنًا كبيرًا﴾ باعتبار الكيفية، أي عظيمًا، فإن قلت: كيف يكون فيها قراءتان، والقول واحد صادر من هؤلاء، فهم إما أن يقولوا قالوا كبيرًا، وإما أن يكونوا قالوا كثيرًا، والله ـ عز وجل ـ يحكي عنهم، فما الجواب عن هذا؟

الجواب من أحد وجهين: إما أن بعضهم يقول: كثيرًا، والآخر يقول: كبيرًا، وإما أنهم يقولون أحيانًا كبيرًا، وأحيانًا كثيرًا، فإن قلت: ألا يحتمل أن الواحد منهم يجمع بينهما في كلمة واحدة، بمعنى أن يقول: العنهم لعنًا كبيرًا كثيرًا؟

الجواب: لا، لأن الله ما حكي هذا، بل الكلمة واحدة، إما كبيرًا وإما كثيرًا، ولهذا لا نجمع بين

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

الكلمتين، لا في الآية هذه ولا في قوله ﷺ حين علَّم أبا بكر: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»(١)، وفي لفظ «كبيرًا» ما يجمع بينهما، ما نقول: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا كثيرًا، بل نقول أحد اللفظين، لأن السنة لم ترد بالجمع بينهما، كذلك هنا في القرآن لا يجوز لأحد أن يقول: والعنهم لعناً كثيرًا كبيرا، حرام؛ لأنه إذا قال ذلك فقد زاد في القرآن، فنقول إما هذا وإما هذا.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟﴾ قال المؤلف: [مع نبيكم ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ بقولهم مثلًا ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ تقدم الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ على أنها صدرت بالنداء، وعلى أنها فيها وصف الإيمان.

وقوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ الكاف هنا اسم بمعنى: مثل فهي خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾.

وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ ولكنهم آذوه بدون ضرر، وهذه الآية لها صلة بما سبق في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وفي قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ فيها تحذير، وفيها تسلية، أما التحذير فللمؤمنين، لأنهم إذا آذوا نبيهم استحقوا ما استحقه مَنْ آذوا موسى، وفيها تسلية للرسول ﷺ؛ لأنه إن أوذي فقد أوذي من قبله، ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَر مِنْ ذَلِكَ فَصَبر»(٢).

وقوله: ﴿مُوسَىٰ﴾ هو موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل أنبياء بني إسرائيل، وبماذا آذوه؟ قال المؤلف: [بقولهم: مثلًا ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر]، هم يؤذونه بغير هذا الكلام، ويؤذونه بالفعل أيضًا، لكن المثل الذي ذكره المؤلف؛ لأنه قال مثلًا كان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ما فيه من الشدة، كان حييًا، وكان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ولكنه هو يغتسل وحده، لا يغتسل معهم، لا يتعرى، فقال بنوا إسرائيل لماذا هذا الرجل يشذ عنا؟ هذا لولا أن فيه آفة برص، أو أدرة ما انفرد عنا، والآدر كبير الخصيتين، فيقولون: هذا السبب أنه كان يغتسل وحده، ما يغتسل معنا، أو فيه برص، أو غير ذلك وإلا كان يغتسل مع الناس، فأراد الله ـ عز وجل ـ أن يتبين لبني إسرائيل أن الرجل من أحسن خلق الله وأسلمهم، فاغتسل ذات يوم وحده، ووضع ثوبه على حجر، ولما خرج ليلبسه فرَّ الحجر بثوبه، فجعل يلحقه، ثوبي حجر ثوبي حجر(٣)، كان يخاطبه، ولكن الحجر مأمور بأمر الله ـ عز وجل ـ ما وقف حتى وصل ملأً من بني إسرائيل، وموسى يمشي وراءه عُريانًا، يقول: لما وصل بني إسرائيل رأوا الرجل، وإذا الرجل سليم ما فيه شيء أبدًا، من أحسن خلق الله، وأسلمهم من العيب، وقف الحجر، فأخذ ثوبه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٥٩)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فلبسه، وجعل يضرب الحجر بعصاه، حتى صار فيه أثر من ضرب العصا.

إذن لماذا يضرب الحجر؛ لأنه لما عمل عمل العاقل، بهروبه بالثوب، استحق تأديب العاقل وإلا كان الحجر ما يستفيد، ولهذا الآن صار لنا فيه نوع من التأسي بموسى، حينما يعثر الصبي بالحجر، فإذا ضربت الحجر يهدأ الصبي، ويقف عن البكاء، لكن شتان ما بين المسألتين، نقول: يعني نوع من الأصل.

على كل حال أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أراد الله أن يبين لبني إسرائيل أنه ليس كما قالوا وأنه سليم، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ في الفوائد ما في هذه القصة من الحكمة.

قال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ قال المؤلف: [بأن وضع ثوبه على حجر ليغتسل ففر الحجر به حتى وقف على ملإٍ من بني إسرائيل فأدركه موسى فأخذ ثوبه فاستتر به فرأوه ولا أدرة به، وهي نفخة في الخِصية].

رأوا أنه سليم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أفادنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ أن الأذية التي أشار الله إليها هي قول.

وقوله: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ (ما) اسم موصول والعائد محذوف، والعائد مما قالوه.

قال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ قال: [ذا جاه]، والجاه بمعنى القدر، وعلو المنزلة، فكان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجيهًا عند الله، يعني: ذا قدر ومنزلة رفيعة، وهل وصف الله غيره من الأنبياء بالوجاهة؟

نعم عيسى، حيث قال: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٥، ٥٥] إذا كان موسى وجيهًا عند الله وعيسى، فمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعظم جاهًا منهم، لأنه أفضل الرسل، ولكن هل يلزم من الجاه، أن يتوسل الإنسان بجاه النبي إلى الله؟

الجواب: لا، لأن جاه النبي قدر ومنزلة خاصة بالنبي، ما تنتفع بجاهه، لأن مجرد وجاهة النبي عند الله لا تنفع أحدًا من الناس؛ ولهذا القول الراجح من أقوال أهل العلم أن التوسل بجاه النبي ﷺ محرم.

قال المؤلف: [ومما أوذي به نبينا ﷺ، أنه قسم قسمًا، فقال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله]، وهذا من أعظم ما يكون من السب، لكن سب النبي ﷺ حق له إذا عفا عنه وأسقطه فله الحق، ولا أحد يتهم النبي ﷺ بأنه ما أراد بها وجه الله على الإطلاق، وإن قاله بعض الناس غَيرة، كما قاله بعض من قاله من الأنصار حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين، قالوا: إن الرجل وجد قومه وأراد أن يُغدق عليهم المال، ونحن قاتلنا، وفعلنا، وفعلنا، ولم يعطنا شيئًا، لكن قاله شبَّان من الأنصار، ماهم قيمة بالنسبة للكبار منهم، ومع ذلك النبي ﷺ خطب فيهم كما تعرفون تلك

الخطبة العظيمة التي بيَّن فيها فضلهم، وبيَّن الحكمة في إعطاء هؤلاء القوم دونهم، وأنه يعطي هؤلاء ليتألفهم على الإسلام، وكي يقوى إيمانهم أو ينكف شرهم، أما الأنصار فليسوا بحاجة إلى ذلك؛ لأن الناس يذهبون بالشاة والبعير، وهم يذهبون برسول الله ﷺ، وشتان ما بين هذا وهذا، حتى قال لهم: «**لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا أَوْ وَادِيًا، وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، أَوْ وَادِيًا لَسَلَكْتُ شعب الْأَنْصَارِ**»، وقال لهم: «**النَّاسُ شِعَارٌ وَالْأَنْصَارُ دِثَارٌ**»[1] وقال لهم: «**لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ**»[2]، كل هذا أقنعهم حتى جعلهم يبكون، وابتلت لحاهم بالبكاء رضي الله عنهم، لأن هذا يساوي الدنيا ومثل ما قال النبي ﷺ، الذي يذهب بالشاة والبعير، والذي يذهب برسول الله، فرق عظيم بينهم، فهذا فيه حكمة من الله - عز وجل -، أن الله قد يقدر للإنسان ما يكرهه، ليكون بعد ذلك ما يحبه، فموسى ﷺ كره أن يفر الحجر بثوبه بلا شك، ولكن صار فيه حكمة عظيمة، أن ما يتكلم به بنو إسرائيل من الكلام، والاتهام كله زال.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الناس ما زالوا يسألون عن تلك الساعة، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى، وهي: أن شأن الساعة عظيم، لأنه إنما يكثر التساؤل عن الأمور العظيمة دون الأمور السافلة.

٢- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب لعلم متى تقوم الساعة.

٣- **ومن فوائدها:** أن علم الساعة عند الله لا يعلمه أحد؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا حصل.

٤- **ومن فوائدها:** أن الساعة قريب، لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، ويدل لقربها أن النبي ﷺ كان آخر الأنبياء، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»[3]، وأشار بالسبابة والتي تليها، يعني: أننا مقترنان، أو أنه ليس بيني وبين الساعة إلا كما بين الأصبع الوسطى والسبابة في القرب.

٥- **ومن فوائدها:** أن الله خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وهو دليل على أن النبي ﷺ بشر كغيره من البشر، يخاطب كغيره من البشر، فلا يقال" كيف يخاطب الله نبيه، ويقول وما يدريك؟ لو خاطبت إنسانًا وقلت: ماذا يدريك عن هذا الأمر لعد ذلك من باب التنقص، ولكن الله - عز وجل - يخاطب نبيه بما هو أهله.

---

(١)متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٢)صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣)متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤، ٦٥]

١- من فوائد الآية: أن الله تعالى لعن الكافرين، وأبعدهم وطردهم عن رحمته.

٢- ومن فوائدها: التحذير من الكفر؛ لأنه سبب للعنة.

٣- ومن فوائدها: إثبات العلل والأسباب، يؤخذ من قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: الكافرين وصف عُلق به اللعن، فهو ربط للعن بالكفر، فيكون في هذا إثبات العلل والأسباب، وهذا كثير.

٤- ومن فوائدها: الردُّ على الجهمية، الذين يقولون: إن الله عز وجل يفعل الأشياء لا لحكمة، بل لمجرد المشيئة.

٥- ومن فوائدها: إثبات وجود النار؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

٦- ومن فوائدها: عظم النار؛ لأن السعير إنما يقال للنار العظيمة المسَّعرة، وهذا أمر ثبت في عدة آيات وأحاديث.

٧- ومن فوائد الآية: تأبيد خلود الكافرين في النار، لقوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفيها رد على من قال بفناء النار، والذين قالوا بفناء النار طائفة من السلف والخلف، لكن قولهم ضعيف، أما أبدية النار، فقد أجمع عليها السلف، وأهل السنة، ولم يخالف في ذلك إلا طائفة من المعتزلة الذين يمنعون تـأبيد أفعال الله، ويقولون: إن التسلسل في الأبد ممتنع، كما يرون أن التسلسل في الأزل ممتنع.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المعذَّبين في النار لن يجدوا أحدًا يتولاهم بدفع العذاب عنهم، ولا بمنعه قبل أن ينزل بهم، لقوله: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، الولي الذي يتولاهم، ويحميهم، ويحفظهم من أن ينالهم سوء، والنصير هو الذي يدفع عنهم البلاء بعد نزوله.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾:

١- يستفاد من هذه الآية: شدة عذاب الكافرين ـ والعياذ بالله ـ في النار، حيث إنه ذكر التعذيب على الوجه الذي يكون تعذيبه أعظم إهانة من بقية البدن، ولأن الوجه يُحس بالألم أكثر مما يُحس غيرُه من الأعضاء الظاهرة، ولأن الوجه هو شرف الإنسان وظاهرته، فإذا وقع التعذيب عليه صار هذا أشد في الألم النفسي؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾.

٢- ومن فوائد الآية: أن هذا التقليب بغير اختيار منهم، لقوله: ﴿تُقَلَّبُ﴾ فهم يقلبون فيها ـ العياذ بالله ـ كما تقلب اللحم على النار لشيِّه.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: ظهور التحسر من أولئك الكافرين حين عذابهم، لقوله: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، ولكن هذا أمر فات أوانه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن طاعة الله ورسوله سبب للنجاة من النار، لأنهم لم يتمنوا

شيئًا سوى طاعة الله ورسوله التي ينجون بها من هذا العذاب.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾

١- **في هذه الآية**: دليل على اعترافهم أنهم مقلدون، وليسوا متبوعين، لقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾.

٢- **ومن فوائدها**: أن التقليد لا يغني من العذاب، يعني: حتى لو كانوا كبراء وزعماء، وبُيِّن لهم الحق، فإذا خالفوه لأجل موافقة زعمائهم، فإن ذلك لا ينجيهم من العذاب.

٣- **ومن فوائدها**: تحريم تقليد العالم إذا تبين النص، يؤخذ من أن الله عذب هؤلاء على تقليد كبرائهم، وزعمائهم في مخالفة الحق، فإذا تبين لك الحق، فلا تقل: والله قال العالم الفلاني، وقال الإمام الفلاني، فتكون مشابهًا لأهل النار الذين قالوا: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾.

٤- **ومن فوائدها**: جواز نسبة الشيء إلى سببه، لقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، مع أن الذي يضل، ويهدي - حقيقة - هو الله عز وجل، لكن هؤلاء الكبراء صاروا سببًا للإضلال فنسب الإضلال إليهم.

٥- **ومن فوائدها**: الرد على القدرية، في قولهم: ﴿أَطَعْنَا﴾ وقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾.

٦- **ومن فوائدها**: أن موالاتهم لهؤلاء الكبراء والسادة، ستنقلب يوم القيامة عداوة، لقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

٧- **ومن فوائدها**: تحذير من حول ولاة الأمور، الولاة سواء كانوا وزراء، أو أكبر من ذلك، تحذير من كان حولهم أن يتبعهم في معصية الله، وأنه سيأتي اليوم الذي يندم فيه ويتبرأ، ويدعو عليهم بمثل هذا الدعاء.

٨- **ومن فوائدها**: أن السادة والكبراء المضلِّين، لا ينفعون أتباعهم يوم القيامة، لقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ولأنهم دعوا على هؤلاء، وقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، ولو كانوا ينفعونهم، ما دعوا عليهم.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير من جلساء السوء، وجهه: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، وأن كل إنسان ترى أنه سيضلك عن سبيل الله، فالواجب عليك البعد عنه، وقد قال الله - عز وجل - مخبرًا عن هذه الحالة: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧، ٢٨] فلانًا هذا ما هو من الكبراء والسادة، بل أي فلان، قال:

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان:٢٩]، وهذه هي النقطة، فيكون قوله هنا: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ يعني: بعد أن جاءهم الذكر، وتبين لهم الحق تابعوا هؤلاء، فصارت عليهم هذه العقوبة.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الدار الآخرة لا ينقطع فيها التكليف انقطاعًا تامًّا؛ لأن الله أثبت أن هؤلاء يدعون الله، والدعاء نوع من العبادة، ولا نقول: إن الآخرة ليس فيها دعاء، ولا فيها سجود، ولا فيها عمل، بل فيها، لكنها ليست كالدنيا، وإلا فإن الله يقول في سورة نون: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢] هذا تكليف، قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٤٣].

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان شدة بغض هؤلاء الأتباع للمتبوعين؛ لأنهم دعوا الله أن يضاعف عليهم العذاب، ويلعنهم أيضًا، وليس لعنًا قليلًا، بل كثيرًا وكبيرًا أيضًا، قال: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾:

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: تحريم أذية الرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾، ويقصد في النهي التحريم، وقد سبق أن أذية الرسول من كبائر الذنوب، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله ـ تعالى ـ برسوله؛ حيث يضرب له الأمثال بمن سبقه من الرسل لأجل التسلية، وتهوين الأمر عليهم وأن هذا أمر قد سبقك، وهذا كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

٣- ومنها: تحذير المؤمنين أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم حين تجرأوا على رسل الله، لقوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله تعالى برسله، لقوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾.

٥- ومن فوائدها: أن التبرأة تكون بالقول وتكون بالفعل، تكون بالقول مثل قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]، فنفى عنه الجنون الذي رماه به أعداؤه، وقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩] هذه التبرأة بالقول، والتبرأة بالفعل كما جرى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لأن الله تعالى ما قال لبني إسرائيل إنه ليس بآدر، لكنه هيَّأ

له هذا الأمر الواقع الذي يكون تبرأة من الله -عز وجل- لرسوله بالفعل.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة موسى، حيث برأه الله مما عيب عليه، هذا من وجه، وحيث قال فيه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

٧- **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى أن العبرة بوجَاهة الإنسان عند الله لا عند الخلق؛ لأنه قال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، فقدم ﴿عِندَ﴾ على قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ إشارة إلى أن المهم أن تكون وجيهًا عند الله، وبماذا يكون الإنسان وجيهًا عند الله؟ يكون الإنسان وجيهًا عند الله تعالى بعبادته، كلما كان الإنسان أعبد لله وأطوع له كان عند الله أوجه، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فكل من كان أتقى فهو أكرم عند الله وأرفع منزلة.

هذا ما انتهى إليه الشيخ رحمه الله من تفسير سورة الأحزاب



تفسير سورة سبأ

تفسير سورة سبأ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

قال المؤلف: [سورة سبأ مكية إلا الآية السادسة نزلت بعد لقمان فمدنية وهى قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية، وهي أربعة وخمسون على الصواب أو خمس وخمسون آية]، الصواب أن تقول: أربع، قوله: مكية إلا كذا المكي: المشهور هو الذي نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة فيعتبر الجمهور المكي والمدني بالزمن لا بالمكان.

وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ سبق لنا بيان أنه لا يُقبل استثناء شيء من السور المدنية والمكية إلا بدليل، أي أنه إذا كانت السورة مكية فجميع آياتها مكية إلا بدليل، وإذا كانت مدنية فجميع آياتها مدنية إلا بدليل، فاستثناء المؤلف هذه الآية ننظر ـ إن شاء الله تعالى ـ إذا وصلنا لها إذا كان هناك دليل يدل على أنها نزلت في المدينة قبلناه وإلا فلا.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم أنها آية مستقلة من كتاب الله ـ عز وجل ـ يؤتي بها للفصل بين السور أو يؤتي بها لبدء السورة إلا في براءة فإنه ليس فيها بسملة؛ لأنها لم تنزل بسملة بينها وبين الأنفال فتركت، وسبق أن قلنا: أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ لأن كل جار ومجرور لابد أن يتعلق بشيء إذ أن الجر والمجرور معمول وكل معمول فلابد له من عامل، وعليه فكل جار أو مجرور لابد له من متعلق أي من شيء يتعلق به وكذلك الظرف، والمتعلق إما أن يكون فعلًا أو مبنيًّا على الفعل، هنا يقدر المتعلق فعلًا؛ لأنه الأصل في العمل ولذلك لا يعمل غير الفعل عمل الفعل إلا بشروط وكل شيء لا يتم عمله إلا بشروط؛ لأن الأصل عدم العمل، فكل جار ومجرور لابد له من متعلق؛ لأن الجار والمجرور معمول وكل معمول لابد له من عامل متعلق إما أن يكون فعلًا، أو ما بمعني الفعل، وهنا نقدره فعل ؛ لأنه الأصل في عمل الأفعال، ولهذا غير الأفعال كالأسماء والمصادر وشبهها لا تعمل عمل الفعل إلا بشروط.

أما الفعل يعمل بدون شروط ونقدره متأخرًا أي: لفعل متأخر عن الجار والمجرور لفائدتين،

الفائدة الأولى: التيمن بالابتداء (باسم الله)، والفائدة الثانية: الدلالة على الحصر فنقدر العامل متأخرًا نظرًا لهاتين الفائدتين ونقدره فعلًا خاصًا فنقول مثلًا عند ابتداء القراءة: التقدير باسم الله أقرأ وعند الوضوء التقدير باسم الله أتوضأ وعند الأكل باسم الله آكل وهكذا، وإنها نقدره خاصًا؛ لأنه أدل على المقصود فصلح أن نقدمه عامًّا فنقول التقدير: باسم الله ابتداء أو باسم الله أبدأ، ولكن الخاص أولى فيصير عندنا الآن ثلاثة أمور: لابد من متعلق ومتأخر خاص وهنا باسم الله مفرد مضاف فيعم ويكون المعني بكل اسم من أسماء الله أبدأ وهكذا ذكر الرحمن الرحيم دون غيرهما من الأسماء؛ لأنها البسملة يؤتى بها للاستعانة وأنسب ما يكون للاستعانة هي الرحمة، ولهذا أتبع لفظ الجلالة بهذين الاسمين الكريمين، و(الله) أصله الإله هذا أصلح ما قيل فيه وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، كما حذفت الهمزة من الناس، وأصلها أناس وحذفت الهمزة من شر وخير وأصلها أشر وأخير، وأما الرحمن فهو اسم من أسماء الله دال على سعة رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن الرحمن على وزن فعلان وهو يدل على السعة والامتلاء، وانظر ذلك في كلمة غضبان وندمان وسكران وعطشان وريان وما أشبه ذلك، تجد أن هذه الصيغة دالة على السعة والامتلاء.

ولهذا قال بعض السلف: إن (الرحمن) دال على الرحمة العامة لجميع الخلق، وأما الرحيم: فهي دالة على الفعل أي أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يرحم برحمته الواسعة، فالرحيم دال على الفعل، وهو إيصال الرحمة إلى المرحوم، والرحمن دال على الصفة وهي اتصاف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الرحمة الواسعة.



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [حمد تعالى نفسه بذلك، والمراد به الثناء بمضمونه من ثبوت الحمد، وهو الوصف بالجميل لله تعالى].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الحمدُ لله، (أل) يقول العلماء: إنها للاستغراق أي كل و(أل) التي هي للاستغراق، هي التي يحل محلها كل مثل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: كل إنسان لفي خسر وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي كل إنسان،إذن

فهو معناه أن كل حمد فهو لله، واللام هنا للاستحقاق والاختصاص، للاستحقاق؛ لأن لا أحد يستحق أن يحمد لذاته إلا الله عز وجل، والاختصاص؛ لأن الحمد المستغرق لكل المحامد لا يكون إلا لله.

يقول المؤلف: [حمد تعالى نفسه بذلك] يعني: حمد الله تعالى نفسه بهذا الوصف، [والمراد به الثناء بمضمونه من ثبوت الحمد] يعني: ليس هذا تجديدًا لحمد الله، ولكنه ثناء على الله تعالى بمضمون الحمد وهو الوصف بالجميل لله تعالى، لو قال المؤلف: الوصف بالكمال لكان أعم، فالحمد وصف المحمود بالكمال فإن كرر وصفه بالكمال صار ثناءً قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيجيب الله: حمدني عبدي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أثنى عليَّ عبدي، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد على ما له من الكمال الذاتي، والكمال المتعدي للغير أي: على كماله بذاته وعلى كماله بفعله وإحسانه ـ سبحانه وتعالى ـ ويحمد على الأمرين جميعًا، أما غيره فلا يحمد إلا على فعله إن كان فعله مما يحمد عليه، أما حمدًا للذات نفسها فهذا لا يكون إلا لله، فمثلًا إذا حمدنا الله ـ عز وجل ـ على ما له من صفات الكمال كالسمع والبصر والعلم والقدرة والعظمة وما أشبه ذلك فهذا حمد على الكمال الذاتي، وإذا حمدنا الله ـ تعالى ـ على ما له من الإحسان والإنعام، فهو حمد على الكمال المتعدي، إذا حمدناه ـ سبحانه وتعالى ـ على إنزال الغيث وإنزال الكتب وإرسال الرسل ودفع الضرر، فهذا حمد على الكمال المتعدي.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتعليل للحمد؛ لأن هذا الوصف يدل على العلية، أي يحمد الله نفسه؛ لأنه مالك لما في السموات وما في الأرض وقول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل العقلاء وغير العقلاء ولهذا أتي بـ(ما) لأجل أن يشمل هؤلاء وهؤلاء وإنما غلب غير العقلاء؛ لأنهم أكثر من حيث النوع، أما من حيث العدد فإن في هذا شك؛ لأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا شك أنهم من العقلاء، وهم لا يحصيهم إلا الله، ما من موضع أربع أصابع في السماء إلا وفيه ملك.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ السموات جمع وجمعت؛ لأنها متعددة فهي سبع سموات، كل واحدة فوق الأخرى وهي مأخوذة من السمو، وهو العلو والرفعة، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أفردت، لكن المراد بها الجنس فتشمل الأراضين السبع؛ لأن الأراضين سبع بصريح السنة وسبع بظاهر القرآن، فهي سبع بصريح السنة لقول النبي ﷺ: «مَن اقْتَطَعَ مِنَ الأَرْضِ شِبْرًا ظُلْمًا بِغَيرِ حَقٍّ طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١) وبظاهر القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فإن المثلية هنا قطعًا ليست بالصفة، فتكون بالعدد وقول المؤلف: [ملكًا وخلقًا] يعني أنه هو الذي خلقها ـ سبحانه وتعالى ـ وهو المالك لها المدبر، ولو قال المؤلف:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢) ومسلم (١٣٧/ ١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(وتدبيرًا) لكان أبين وإن كان كلمة ملكًا ليتضمن التدبير، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ سمى ما في السموات والأرض خلقًا، فلم يخلقها إلا الله، وملكًا فلا مالك لها إلا الله وتدبيرًا فلا تدبير لأحد فيها على وجه الإطلاق إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [كالدنيا يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة]، قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ هنا خص الحمد في الآخرة مع أنه محمود في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ لكنه ذكر ذلك؛ لأن ظهور حمده في الآخرة أبين وأوضح فإن في الدنيا من ينكر حمد الله ـ عز وجل ـ ويكفر به ولا يري إلا أن هذه الدنيا طبيعة تتفاعل بذاتها وليس لها مدبر، ومن اعتقد هذا الاعتقاد فهل يمكن أن يحمد الله؟

الجواب: أبدًا لا يمكن حتى لو رأي الخير واندفع عنه الشر فإنه لا يحمد الله؛ لأنه لا يقر به، لكن في الآخرة لا يمكن لأحد إلا أن يحمد الله فالحمد في الآخرة لله كما أنه أيضًا في الآخرة لا أحد يحمد إلا النادر قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أما بقية الناس ممن لم يحمدوا الله عز وجل ليس لهم حمد في الآخرة، فأنت في الدنيا تُحمد من يُحسن إليك لكن في الآخرة ما تحمد صديقك ولا صاحبك، اللهم إلا أن يكون ذلك بابًا لدخول الجنة، يقول: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كالدنيا يعني: كما أن له الحمد في الدنيا، وكأن المؤلف بهذا التقدير رَحِمَهُ اللهُ يقول: إنه حذف الشق الآخر لدلالة السياق عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يعني: والبرد قوله: [يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة]، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾، ولكن الصحيح أنه يحمد حتى على جزائه الكافرين، فإن الله ـ تعالى ـ قال في آخر سورة الزمر لما ذكر سوق أهل النار إلى النار وسوق أهل الجنة إلى الجنة قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن الله تعالى يحمد على كمال عدله وكمال فضله ومجازاته لأهل النار من باب العدل فيحمد عليه قال: [يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة وهو الحكيم في فعله الخبير بخلقه] الحكيم يقول المؤلف: [في فعله] وهذا فيه قصور؛ لأنه حكيم في شرعه وفعله أيضًا الذي هو القدر فليست الحكمة هي خاصة بالفعل، بل حتى في الشرع الذي يكون بكلامه؛ لأن الشرع هو الوحي وهو كلام الله ليس فعلًا له، بل هو كلام، وكذلك فعله هو حكيم فيه والحكمة مأخوذة من الإحكام، وهو الإتقان ولهذا يقال في تفسيرها: إنها وضع الشيء موضعه.

وهذا هو الإتقان ولكنه سبق لنا أن الحكيم له معنيان: الحاكم والمحكم؛ لأنها مأخوذة من الحكم ومن الإحكام وأن حكم الله حكم شرعي وكوني، وأن الحكمة نوعان أيضًا: صورية ـ وغائية، الصورية بمعنى: أن يكون هذا الشيء على صورة معينة موافق للحكمة، والغائية بأن الغاية من هذا الشيء حكمة نحمد الله عليها، فمثلًا كون الصلاة على هذا الوجه، والصيام على

هذا الوجه والوضوء على هذا الوجه، حيث الأمور الشرعية وكذلك في الأمور الكونية كون خلق الإنسان على هذا الوجه والشمس والقمر وما أشبه ذلك هذه حكمة صورية كونه خلق هذا الشيء المعين هذا موافق للحكمة، ثم الغاية من خلق ذلك الشيء حكمة أخرى تكون هذه الحكمة الصورية والغائية في الشرع وفي القدر وإذا أضاف اثنين إلى اثنين تكون أربع حكم غائية في الشرع، حكمة صورية في الشرع، وحكمة غائية في القدر وحكمة صورية في القدر وحكمة غائية في الشرع، وكل ذلك ثابت لله عز وجل، وإذا آمن الإنسان بهذا اطمئن إلى أحكام الله الكونية والشرعية ولم ينقدح في ذهنه أي اعتراض؛ لأنه يعلم أن هذا صادر عن حكمة، وإذا علم أنه صادر عن حكمة؛ فإنه لا يبقى في قلبه شك من أن هذا هو عين الصواب وهو الذي تقتضيه الحكمة، وبهذا يطمئن الإنسان إلي شريعة الله ويطمئن الإنسان أيضًا إلى قدر الله - عز وجل - ويعلم أن هذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره.

وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ يقول المؤلف: [بخلقه] والخبير معناه: ذو الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور ومنه سمي الزارع خبير؛ لأنه يستر الحب في الحرث، فالخبير ذو الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور وهل ينافي ذلك العلم في ظواهر الأمور؟

الجواب: لا بل إنه يؤيده؛ لأن الذي يعلم البواطن من باب أولى أن يعلم بظواهرها، والحكمة دائمًا يقرنها الله - عز وجل - بالعزة وبالعلم، هنا قرنها بالعلم الذي تضمنته الخبرة وإنما يقرنها الله بذلك، ليتبين أن حكمته - سبحانه وتعالى - مبنية على علمه، وأنه إذا تراءى لك أن هذا الشيء ليس بحكمة فذلك لنقصان علمك وإلا لو كان عندك علم وفهم لعرفت لحكمة فيما شرعه الله وفيما قدره ثم فصل شيئًا من علمه كما في الآيات التالية.



قال الله تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]

التفسير

فقال: [﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ يدخل ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كماء وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كنبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رزق وغيره ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يصعد فيها من عمل وغيره]، هذا من باب التفصيل.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وما اسم موصول تفيد العموم و﴿يَلِجُ﴾ بمعنى: يدخل

فكل ما يدخل في الأرض فالله - سبحانه وتعالى - يعلمه يقول المؤلف: [كالماء وغيره] يدخل في الأرض أو يخرج منها؟ يدخل ويخرج فإذا أنزل الله الماء من السماء أدخله في الأرض ينابيع وإذا أراد الله تعالى أن يخرج خرج بآلة أو بغير آلة وقوله: [وغيره] وما غير الماء يدخل في الأرض؟ الأموات والأشياء التي لها جحور في الأرض نقول: والنبات أيضًا بذوره كلها داخلة في الأرض، المهم أن كل ما يلج في الأرض لا يحصى - أصنافه فضلًا عن أفراده - وهو واسع، والله - سبحانه وتعالى - يعلمه حتى الذرة التي تدخل في جحرها يعلمها الله - سبحانه وتعالى - ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يقول المؤلف: [كنبات وغيره]، النبات واضح وغيره كالماء والمعادن والحيوانات التي تنتشر في الأرض، وهل نقول: أَمِن ذلك الإنسان؟ نعم، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ الإخراج والإدخال ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ يقول: [﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق وغيره].

الرزق كيف ينزل من السماء، هل أنت تبقى في البيت كل يوم ويعطيك التمر وينزل عليك من السماء أو الثياب؟ لا ولكن الرزق يكون بالمطر مثلًا ينزل الله المطر فتنبت الأرض، ويخرج منها الماء والمرعى ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، وغير هذا، وينزل أمر الله عز وجل ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] وتنزل أيضًا الملائكة، وتنزل الشهب ترمى بها الشياطين، وأشياء كثيرة من هذا والله يعلمها.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يقول: [يصعد ﴿فِيهَا﴾ من عمل وغيره]، هنا يعرج بمعني يفعل كذا ويعرج تعدى بإلى كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] وهنا قال: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾، والنحويون اختلفوا في مثل هذا فمنهم من قال: إن الحرف بمعني أنه ينافذ الفعل، يعني: يجعل حرفًا بمعنى حرف آخر ينافذ الفعل، كمثل (في) بمعني (إلى)، ومنهم من يقول: بل الحرف باقٍ على معناه الأصلي ويضمن الفعل معنى ينافذ ذلك الحرف وهذا مذهب البصريين فيقول: يعرج مضمن مع معناه الظاهر وهو العروج معني الدخول، يعني: (يعرج) فيدخل فيها، ليس المراد أنه يعرج فقط لا يدخل يعرج ويدخل فيها.

وسبق لنا في «شرح مقدمة التفسير» لشيخ الإسلام ابن تيمية: أن هذا المذهب هو المذهب الصحيح المحقق، وهو أن نُضَمِّن الفعل معنى يناسب الحرف؛ لأن هذا التضمين يجعل للفعل معنيين أحدهما المعني الظاهر من اللفظ والثاني المعني الذي تضمنه ليناسب الحرف الذي تعلق به، ويظهر لك ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (يشرب بها عباد الله) معلوم أننا لا نشرب بالعين من معرفتنا أن الإناء من آلة الشرب أنت تقول: أنا أشرب من الإناء صح، لكن

يشرب بها وهي عين لا يمكن أن تكون إناءً له يرى بعض العلماء أن نجعل الباء بمعنى من أي يشرب منها ويرى آخرون متضمن يشرب معنى يروى إذا ضمنا يشرب بمعني يروى استفدنا فائدتين: الشرب والري، لكن إذا قلنا: إن الباء بمعني من لم نثبت هذه الفائدة فالمهم أن المذهب الصحيح هو أننا نضمن الفعل معني يناسب الحرف ولا نجعل الحرف معني حرف آخر قال: [﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لهم]، هذا أيضًا من التخصيص بلا دليل، كلمة الرحيم لم يذكر متعلقها والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: بأوليائه فعليه يكون أعداؤه لا رحمة لهم هذا كلام المؤلف! والغفور أيضًا لأوليائه فأعداؤه لا مغفرة لهم ولكن الصحيح العموم؛ لأن هذين الاسمين مطلقان فيبقيان على مطلقهما فهو رحيم حتى بأعدائه؛ الكافر قد أعطاه الله تعالى صحة ورزقًا من اللباس والطعام والشراب والمسكن والزوجة والأهل وكل هذا رحمة لكنها رحمة عامة يعني أنها لا تكون خاصة كرحمة المؤمنين والمغفرة أيضًا يستحقها من تاب من عداوته لله، وإذا تاب فهو ولي من أولياء الله عز وجل ولكن قد يكون في الإنسان عداوة وولاية لقوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهم مستحقون لمغفرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله أعلم.

مسألة: هل الرحمة عامة أو خاصة؟

الجواب: عامة كما قلنا قبل قليل: الرحيم معناه أن الرحمة تختص بالفعل يعني إيصال الرحمة بالمرحوم.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

١ ـ من فوائد الآية السابقة: ثبوت الحمد الكامل لله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الحمد الذي ثبت له هو أهل له؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأن اللام كما قلنا: للاستحقاق والاختصاص.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ثناء الله ـ عز وجل ـ على نفسه لأجل مصلحة العباد؛ لأننا لا نستطيع أن نثني على الله أو نحصي ثناء عليه، فإذا حمد الله نفسه فهذا من مصلحتنا؛ لأنه يعلمنا ـ عز وجل ـ كيف نحمده وكيف نثني عليه وهو أهل لأن يمدح نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ ويثني عليها لمصلحة عباده؛ وإلا فهو في غني عن كونه يظهر لنا من صفات الكمال ما يظهر، وفي غني أن نعرف ذلك ولكن هذا من أجل مصلحتنا، وهذه الفائدة قد تكون مبنية على سؤال المقدر كيف يثني الله تعالى على نفسه؟! وهل مدح الشخص نفسه يعتبر منقبة أو لا؟

والجواب: أن يقال: أن الله يمدح نفسه لا لحاجته إلى أن نثني عليه أو أن نعرف كماله؛ لأنه كامل لكن من أجل مصلحتنا؛ إذ أننا لا نحصي ثناء عليه، ولا نعرف ماذا نثني به عليه إلا عن طريق وحيه.

٤ - **ومن فوائدها:** عموم ملك الله؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهنا حمد نفسه على عموم ملكه، وقد يحمد نفسه على فعله مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقد يحمد نفسه على شرعه مثل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن السماوات جمع - يعني أكثر من واحدة -؛ لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ومن أدلة أخرى قد ثبت أنها سبع، وكذلك الأرض.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ظهور كمال الله - عز وجل - يوم القيامة أظهر مما يكون في الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ فالملك عام وظهور الحمد جليًا واضحًا يكون في الآخرة ومنها ثبوت البعث لقوله: (الآخرة).

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات حكم الله - عز وجل - الكوني والشرعي، وإثبات حكمته المتعلقة بالكون والمتعلقة بالشرع، ويتفرع على هذه القاعدة: وجوب التسليم بقضائه الكوني والشرعي، بحيث لا نريد أي اعتراض، حتى وإن جاء على ظاهره خلاف الحكمة فإنه يجب أن نتهم عقولنا؛ لأنه إذا ثبت أنه - سبحانه وتعالى - حكيم في الحكمين الكوني والشرعي لزم من ذلك التسليم للقضاء الكوني والشرعي؛ لأنه صادر عن حكمة، لكن هذه الحكمة قد تخفى علينا.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علم الله، يؤخذ من قوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ وما جاء من تفصيل بعدها؛ لأن الخبير هو العليم بالبواطن والعالم بالبواطن عالم بالظواهر من باب أولى.

٩- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عز وجل - وهما الحكيم والخبير.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من الأساليب البلاغية: الإجمال ثم التفصيل، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ يعلم إلى آخره من الآيات، وفائدة هذه الطريقة البلاغية هي: أن الشيء إذا جاء مجملًا تشوقت النفوس إلى تفصيله فجاء التفصيل وارد على نفوس تتطلع إليه، فإذا ورد التفصيل على نفوس تتطلع إليه كان أوقع في النفس وأرسخ في القلب، لو قلت لك: حصل البارحة شيء عظيم أو ما دريت البارحة الساعة الواحدة من الليل حدث أمر عظيم ما علمت؟ فإنك تتشوق لهذا وتتطلع إليه ما هذا الشيء العظيم؛ لكن لو قلت لك: حصل البارحة مثلا أن رمي بنجم فاستنار نور عظيم على كل حال تقبل هذا الخبر، لكن ليس كالأول؛ لأنك ستقول: وما هذا الشيء العظيم؛ حتى يرد على قلبك وقد تشوقت إليه كثيرًا.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام تصرف الله - سبحانه وتعالى - في مخلوقاته هذا يلج وهذا يدخل وهذا ينزل وهذا يعرج ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

١٢ - **ومن فوائدها:** وهي فائدة بلاغية وهي: البداءة فيما يمس الإنسان وإن كان غيره أشرف منه؛ لأنك ستتحدث عما يلج في الأرض وما يخرج منها قبل أن تتحدث عما ينزل من السماء وما يعرج فيها هذه الفائدة بناءً على أن السماء أشرف من الأرض وهل هذا مُسلَّم؟ هل هو مُسلَّم أن السماء أشرف من الأرض أو الأرض أشرف من السماء؟ هناك خلاف بين العلماء ويوجد جدل كثير منهم من يرى أن السماء أشرف ويقول: أن السماء لو لم يكن فيها إلا الملائكة المقربون وهي جهة علو والسماء فيها أيضًا الله - عز وجل - فوقها فهي أشرف، ومنهم من يرى أن الأرض أشرف يقول: لأن الله تعالى خلق منها أفضل المخلوقات وهم الأنبياء والرسول، فهي أشرف وهذا النزاع وإن كان نزاعًا قد يكون من فضول العلم، لكنه على كل حال في أول وهلة يرى الإنسان أن السماء أشرف من الأرض، ولكن ذكرت الأرض هنا؛ لأنها تمسنا أكثر ونعرف عنها أكثر.

١٣ - **وفيها أيضًا من الفوائد:** إثبات الرحمة والمغفرة لله - عز وجل - في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ وهنا قدم الرحيم على الغفور، وإن كان الأكثر تقديم الغفور على الرحيم لما يكون في السماء والأرض من المصالح والمنافع والمصالح والمنافع، من أثار الرحمة، ودفع المصائب من أثار المغفرة؛ لأن المغفرة محو الذنب التي تزول فيه المكروهات والرحمة حصول الخير، الرحمة عند أهل السنة والجماعة صفة من صفات الله - عز وجل - حقيقة ثابتة له وعند الأشاعرة يقولون: أن الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإحسان فيفسرونها بالشيء المفعول لله يعني بالنعم، أو بإرادة النعم؛ لأنهم يقرون بصفة الإرادة فيفسرون الرحمة بإرادة الإنعام والإحسان أو بالإنعام والإحسان نفسها ولكن سبق لنا القول الصواب المقطوع به هو أن تجرى نصوص الكتاب والسنة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على ظاهرها ولا نقول اللائق بالله إلا على سبيل الإيضاح فقط؛ لأننا نعلم علم اليقين أن ظاهرها غير مراد؛ لأنه لو كان ظاهر نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته التشبيه أو التمثيل، لكان ظاهر القرآن والسنة في هذا الباب هو الكفر ؛لأن من شبه الله بخلق فقد كفر حيث كذب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

ومحال أن يكون ظاهر الحق باطلًا وكفرًا، ولهذا إذا قلنا :أن نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته تجرى على ظاهرها اللائق بالله، فهذا من باب الإيضاح وإلا فنعلم علم اليقين الذي هو عندنا أيقن من الشمس أن ظاهرها هو ما يليق بالله، فلا حاجة إلى التقيد به لكننا قد نقيده على سبيل الإيضاح فقط، والرحمة هل هي صفة كمال من حيث هي بقطع النظر عن موصوفها أو

صفة نقص؟ هي صفة كمال في الواقع.

قال الشاعر ـ المتنبي ـ:

وَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

حكمة هذا يقول: وضع الندي في موضع السيف مضر بالعلا والأخلاق؛ لأن الذي يستحق السيف أحسن ما نضع له السيف فمثلًا ، واحد مجرم مفسد في الأرض أمسكناه وقدرنا عليه نقول له يا ولد هذا المنزل لك وهذه السيارة لك وهذا المستودع المملوء بالخزائن من الذهب والفضة لك؛ لأنك مجرم، هل هذا حكمة أو لا؟ ليس حكمة؛ لأن وَضَعَ السيف في موضع الندى، ولو أن إنسانا صاحب خير وإحسان ومستحق لأن يكرم فجيء به فوضعنه على نطع القتل ونقول له: نريد أن نقتلك؛ لأنك محسن هل هذه حكمة أو لا؟ ليس بحكمة، فالبيت هذا من أعظم ما يكون من أبيات الحكمة، والمتنبي معروف أنه حكيم الشعراء.

إذن نقول: إن الرحمة صفة كمال، فإذا أضيفت إلى الله صارت أكمل وأكمل.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ الذين كفروا بالله ـ عز وجل ـ وبقدرته وبحكمته قالوا: لا تأتينا الساعة قالوا: هذا اللفظ أو قالوا: معنى هذا اللفظ؟

الجواب: قالوا هذا اللفظ لأن الأصل أن ما نقوله: عن الغير فإنه منقول بنصه فهم قالوا: لا تأتينا الساعة وقالوا في موضع آخر: ﴿يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وتنوعت عباراتهم في إنكار القيامة قالوا لا تأتينا الساعة يعني لا يمكن أن تأتينا الساعة مع أن الله يقول ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، فكذبوا بذلك قول الله مستندين إلى استبعاد عقولهم أن ترجع هذه العظام النخرة حتى تعود إنسانًا حيًا وما علموا أن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فشبهتهم إذن في هذا الإنكار، هي الاستبعاد هذه واحدة ثانيًا يقولون: إذا كنتم صادقين في إننا سنبعث ايتوا بآبائنا ابعثوهم لنا، وهذا

تحدٍ في غير موضعه؛ لأن الرسل لم تقل لهم أنكم تبعثون الآن تبعثون متى؟ إذا مات الخلق، وانتهت الخلائق ومات الخلق كله بعثوا، فهل هذا التحدي في غير موضعه؟ لا هذا التحدي يكون في موضعه إذا كانت الرسل تقول: إن الناس سيبعث أولهم الآن مع وجود آخرهم صح أن يقال: أيتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أم وقد قالوا أنهم سيبعثون بعد أن يفنى الخلق كله ثم يبعث فهذا ليس في التحدي؛ إذن شبهتهم الاستبعاد والتحدي في غير موضعه حيث قالوا: ايتوا بآبائنا يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بلى هذه يؤتى بها لإبطال النفي قل: بلى وربي أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يبدأ بخلاف ما قالوا مؤكدًا ذلك بالقسم واللام والنون ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قلت: بلى، جواب لإبطال النفي وربي قسم والنون للتوكيد واللام أيضًا للتوكيد، فالجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي الساعة وهذا أحد المواضع الثلاثة التي أمر الله بها نبيه أن يقسم عليها والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

والموضع الثالث قوله تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإنما أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقسم على ذلك لأهميته وعظمه؛ ولأنه مقتضى البلاغة فإن مقتضى البلاغة، أن المنكر يؤتى له بالكلام مؤكدًا بمؤكدٍ واحد أو اثنين أو ثلاثة حسب ما يقتضيه المقام ولأهمية هذا الموضوع أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقسم عليهم فإن قلت ما فائدة القسم أمام من ينكر؛ لأن من أنكرك بدون قسم أنكرك مع القسم فما الفائدة؟

الجواب: من وجهين الوجه الأول أن هذا هو مقتض ى اللسان العربي، ومقتضي اللسان العربي أن الأخبار تؤكد بأنواع المؤكدات.

ثانيًا: أن التأكيد يدل على أن المتكلم جازم بما أقسم به، جازم بهذا المقسم عليه، فبما أننا جازمون بالله ـ عز وجل ـ بوجوده وكماله، فنحن جازمون أيضًا بما أقسم عليه وهو إتيان الساعة قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ عالم الغيب بالجر يقول: بالجر صفة والرفع خبر مبتدأ و(علام) بالجر ففيها إذن ثلاث قراءات عالم مرفوعة ومجرورة علام مجرورة فقط .

وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ مناسبة ذكر هذه الصفة لإثبات القيامة ظاهر؛ لأن قيام الساعة من الغيب، والذي أخبر به هو علام الغيب فإذا صدر هذا الخبر من عالم الغيب وجب علينا قبوله ولهذا فإن الخبر إذا صدر من جاهل لا يدري فإننا نرفضه، وإذا صدر من عالم فإننا نقبله، وعلم الله الغيب أمر معلوم حتى عند الكفار، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر بأشياء تقع ويشاهدونها، وهذا شيء لا يمترون فيه فلهذا وصف الله نفسه بهذه الصفة بعد إثبات إتيان الساعة؛ لأنه أمر معلوم عندهم، فإذا صدر هذا الخبر من عالم الغيب الذي يقرون بعلمه الغيب صار الخبر مؤكدًا واقعًا.

وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بالجر صفة لرب؛ لأن (رب) مجرور فنقول في إعرابه: الواو حرف قسم

وجر، (ربي) مقسم به مجرور بالكسرة الظاهرة، ورب مضاف أو مضاف إليه مبني على السكون في محل جر، هل هذا صحيح ؟ لا، يكون معربًا مجرورًا بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة مناسبة فليست، الكسرة هذه كسرة العراق وإنما قلنا ذلك ربما يرد علينا مثل قولنا ربي الله كيف تكون مجرورة؟ ما هي مجرورة كسرت لأجل المناسبة، فالكسرة إذن ثابتة قبل أن يدخلها حرف الجر، فلذلك تكون الكسرة الإعرابية مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، إذن هو مجرور ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ صفة لرب وصفة المجرور مجرور، أما بالرفع فيكون خبر مبتدأ يعني: هو عالم الغيب والجملة كلها إما حال من رب وإما نافية لبيان اتصاف الله تعالى بهذا العلم والغيب ما غاب عن الإنسان وهو أمر نسبي، لكن الغيب المطلق لا يكون إلا لله ـ عز وجل ـ أقول: إن الغيب أمر نسبي؛ لأنه قد يغيب عنك ما لا يغيب عن غيرك، فصاحب الدكان الذي عند المسجد الآن تصرفه الذي يتصرفه الآن بالنسبة لنا غيب بالنسبة لمن عنده شهادة، فالغيب أمر نسبي ولذلك الخبر عن الشيء الواقع هل يعتبر من الغيب الذي يختص به الله؟ لا، لأنه يعلمه من وقع عنده وحدث عنده لكن الغيب المستقبل، هذا هو الذي من خصائص علم الله عز وجل ولهذا من ادعى علم الغيب في المستقبل صار مكذبًا لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومن ادعى علم غيب واقع فهذا الغيب ليس غيبًا مطلقًا ولكن غيبًا نسبيًا يعلمه من شاهده ولا يعلمه من لم يشاهده فغيب الله في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ يشمل الأمرين؛ لأن كل ما حدث ولو في أزمان بعيدة جدًا فالله عالم به وكل ما سيحدث فالله عالم به، فالغيب المطلق للواقع والمنتظر هذا من خصائص علم الله والغيب المقيد بالواقع هذا ليس من خصائص علم الله بل هو حاصل لكل من شاهده، قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ يقول: [يغيب عنه] يعني عن الله ـ عز وجل ـ [﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مثقال وزن ذرة أصغر من النملة] ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هذا كقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ صفة من الصفات السلبية، وعالم الغيب من الصفات الثبوتية، والصفات الثبوتية كما تقرر كلها صفات كمال والصفات السلبية تأكيد لصفات الكمال؛ لأنها تتضمن ثبوت الصفات الكمالية الخالية من هذه الصفة التي بالنقص، ولهذا ما من نفي في صفات الله إلا وهو متضمن لإثبات ضده، بل لإثبات كمال ضده مثل إذا قلنا: لا يعزب عن علم الله شيء فذلك لكمال علم الله وإذا قلنا: أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يمسه لغوب فذلك لكمال قدرته وعلى هذا فقس كل صفات النفي في المضاف إلى الله عز وجل يراد بها إثبات كمال الضد، كأنه وصف الله بالكمال الخالي عن هذا النقص وقوله ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يقول المؤلف: [أنها صغار النمل] أفادنا المؤلف أن من النمل ما

هو صغير وما هو كبير ونحن في عرفنا على خلاف ذلك، عندنا أن النملة نوع معين من الذر أم لا؟ عندنا الذر وعندنا شيء يسمونه نمل النمل هذا معروف أكبر من الذر ودون ذلك فكلها نمل وكلها ذر ولهذا نهي الرسول ﷺ يشمل هذا كله وقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وهو اللوح المحفوظ هل في هذا علم ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ نعم يكون فيه إثبات العلم؛ لأنه لا كتابة إلا بعد العلم؛ لأن كتابة المجهول لا تتصور، فيكون فيه فائدة زائدة على إثبات العلم وهو أن معلوم الله ـ عز وجل ـ مكتوب في اللوح المحفوظ.

الثالث: بيان ما يلزم على نفيه من لوازم باطلة فإن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

الرابع: لا تحتمل التأويل وهي مكملة بعضها بعضه فليس فيه ما يمنع إرادة الظاهر، فتعين المصير إليه، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بأن الساعة تأتيهم هل لها نظير في القرآن؟

نعم، الإقسام على هذا المعني، قوله ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ في موضع ثالث أيضًا أمر الله نبيه أن يقسم به قوله﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: إنكار الكافرين للبعث لقوله: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن إنكار البعث كفر لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فإن قلت ما وجه الدلالة؟ فوجه الدلالة: أنه لو لا أن لهذا الوصف تأثيرًا لما قاله الله تعالى بهذا الوصف وهو قولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، فلما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾علم أن هذا القول لا يصدر إلا عن كافر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تعظيم شأن القيامة لأمر الله نبيه محمد ﷺ أن يقسم على أنها ستقع ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال رحمة الله عز وجل لعباده حيث أخبرهم بالبعث وأكده بالمؤكدات اللفظية والمعنوية والحسية؛ لأن الإيمان بالبعث هو الذي يحمل الإنسان على القيام بطاعة الله إذ لو لم يكن هناك بعث ما عمل الإنسان للآخرة أبدًا فنقول: إن هذا دليل على رحمة الله تعالى بالعباد أن يؤكد لهم البعث الذي يكون فيه الجزاء عن العمل من أجل أن يعملوا لهذا اليوم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن إخفاءها موكل إلى علم الله؛ لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، فهي خبر من أخبار الله ـ سبحانه وتعالى ـ الغيبية التي لا يطلع عليها إلا الله والآيات في هذا المعني، والأحاديث أيضًا كثيرة، فمن ادعى علم الساعة فهو كافر لأنه مكذب للقرآن والسنة وإجماع المسلمين.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: شمول علم الله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾.

٧ـ **ومنها**: إثبات السماوات، وأنها عدة يؤخذ من قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾، وجمعها ففيه إثبات للسموات وأنها عدة، والأرض هل هي كالسموات؟ الجواب: نعم كما تدل عليه نصوص أخرى غير هذه الآية.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أن هناك شيء أصغر من الذرة لقوله﴿وَلَا أَصْغَرُ﴾ وهو الوغث، فإن في مخلوقات الله عز وجل ما لا تكاد تراه بعينك، ما لا تراه إلا بالمجهر ومع ذلك إذا رأيت هذا الشيء ـ سبحان الله العظيم ـ في مجهر يكبر يجعل الشيء كبر مليون مرة إذا رأيت الذي لا تراه بعينك تجد له جميع مصالحه أيدي وأرجل وأعين وكل شيء حتى الزغب الذي على ظهره لوقايته تجده موجود وهذا دليل على كمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لطيف خبير.

٩ ـ **وفيها أيضًا**: إثبات اللوح المحفوظ؛ لقوله: ﴿الْكِتَابِ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: أن هذا اللوح كتب فيه مقادير كل شيء الصغير والكبير في قوله ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن هذا الكتاب مبين أي مفصل لكل شيء، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ففي هذا اللوح المحفوظ كل ما يكون إلى يوم القيامة كما جاءت بذلك السنة موضحة هذا.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إباحة القسم بل وجوبه إذا دعت الحاجة إليه من أين يأخذ من أمر الله نبيه أن يقسم على قيام الساعة، تؤخذ من قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ولهذا نجد بعض الأئمة رحمهم الله إذا ذكروا حكم مسألة من المسائل أحيانًا يقسمون عليها وهذا يوجد في كلام الإمام أحمد وربما في كلام غيره لكن لم نطلع عليه يعني أحد يسأل هل تقول بكذا وكذا فيقول إي والله فيقسم على الشيء تثبيتًا له وتأييدًا وإيحاءًا بطمأنينته إليه بالنسبة للمخاطب، وعلى هذا فيجوز للمفتي أن يحلف على الحكم إذا دعت الحاجة إلى ذلك بل قد يكون ذلك واجبًا حسب ما تقتضيه الحالة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، هل يستفاد من هذه الآية الكريمة أن الخطاب الخاص بالرسول ﷺ يشمله والأمة؟ ليس في هذا دلالة ظاهرة على هذا، ولكنه سبق لنا أن الخطاب الموجه إلى الرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام قسم فيه الدلالة الصريحة على أن المراد به الأمة: يعني: مع الرسول ﷺ، والقسم الثاني دلالة صريحة على أنه خاص بالرسول ﷺ، والقسم الثالث ما ليس فيه دلالة ولا قرينة فهذا مختلف فيه عند أهل العلم هل هذا الخطاب الموجه لرسول ﷺ، يشمل الأمة مقتضى الصيغة أم يشمل الأمة في مقتضى الأسوة؟ مثال الذي فيه الدلالة على ما

اختص به الرسول عليه الصلاة والسلام مثل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١ ، ٢]، فهذا بلا شك خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، ومثال ما قام الدليل على عمومه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، ففي قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، دلالة واضحة على أن الخطاب للرسول ﷺ مراد به الأمة وما عدا ذلك فهو كثير فهل يشمل الأمة الحكم بمقتضي الخطاب أو بمقتضى الأسوة؟ فمنهم من يقول: إنه يشمل الأمة في مقتضى الخطاب لكنه وجه للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه إمامها وأن نظير ذلك أن تقول لقائد الجيش: اذهب إلى الجبهة الفلانية، فالمراد اذهب ومن معك من يتبعك من الجنود ومنهم من يقول: إنه خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يشمل الأمة لكن الأمة مأمورة بالتأسي به؛ لقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

والخلاف في هذا قريب من اللفظ للاتفاق على أن هذا الحكم يشمل الأمة إذن لو سمعنا شخصًا ينكر الساعة، لنا أن نحلف هل نحن مأمورون على أن نحلف على ثبوتها؟ نعم مأمورون على أن نحلف على ثبوتها.

١٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: تأكيد الحكم على حسب ما تقتضيه الحاجة أو تأكيد الخبر على حسب ما تقتضيه الحاجة، وقد ذكر البلاغيون أن الخبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يلقى إلى خالي الذهن أو إلى المتردد أو إلى المنكر فإن ألقي إلى خالي الذهن، فإنه لا حاجة إلى تأكيده ولا يمكن أن يؤكد حسب قواعد البلاغة إلا لنكرانه وإن نقل إلى متردد حسن توكيده ليزول عنه هذا التردد والشك، وإن نقل إلى منكر وجب توكيده فالأول: ابتدائي والثاني: طلبي والثالث: إنكاري، مر علينا هذا في البلاغة، هذه المسألة تأكيد هذا الخبر ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ من أي الأقسام الثلاثة الإنكاري، أو الطلبي، أو الابتدائي؟الإنكاري؛ لأنه يخاطب به قوم منكرون، فكان تأكيده واجبًا ذكرنا أثناء الشرح إيرادًا وهو أنه إذا كان هؤلاء منكرين فلا فائدة من القسم لهم؛ لأن المنكر للخبر سواء أقسمت أم لم تقسم ما يصدقك وأجبنا عن ذلك.

مسألة: هل القسم قد يمنع فعل البر والتقوى؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أصح ما قيل فيه ألا تجعلوا اليمين مانعًا لكم من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس.



قال الله تعالى:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٤-٦]

التَّفْسِيرُ

قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: ليجزي [فيها] الضمير يعود على الساعة ليجزي (اللام) هنا للتعليل وقد علمنا من قواعد اللغة العربية أن حروف الجر لابد لها من متعلق فأين متعلق هذه اللام؟ متعلق هذه اللام قوله﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: (لتأتينكم) ليجزي، فهذه اللام لتعليل وهي متعلقة بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ويجزي بمعنى: يكافئ، أو يثيب، والفاعل هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقوله: [فيها] أشار المؤلف لقوله فيها إلى أن الجر والمجرور متعلق بـ (ليأتينكم)؛ لأن الضمير في قوله: [فيها] تعود على الساعة ليجزي فيها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بالقلب وعملوا الصالحات بالجوارح، والإيمان إذا أطلق شمل الأعمال الظاهرة، وأعمال الجوارح، وكذلك العمل إذا أطلق يشمل الإيمان بالقلب لأن الإيمان بالقلب من أعمال القلوب فإذا قرنا جميعًا صار الإيمان في القلب والعمل في الجوارح الإيمان سر والعمل علانية.

وقوله ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع التصديق المستلزم للقبول والإذعان ليس مجرد تصديق بل هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان القبول في الأخبار والإذعان في الطلب، فيقبل مثلا ما أخبر الله به ورسوله ويقبل كون هذا الحكم فرضًا وكونه تطوعًا وما أشبه ذلك ويذعن لذلك بمعني أنه يتعبد لله بمقتضى ما آمن به وبمقتضى ما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفي قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عملوا الصالحات يعني عملوا الأعمال الصالحات فتكون الصالحات وصفًا لموصوف محذوف وحذف المنعوت جائز إذا قامت القرينة عليه.

قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ المَنعُوتِ والنَّعْتِ عُقِل ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعتِ يَقِلْ[1]

---

(١) البيت رقم (٥١٩) من ألفية ابن مالك.

ومن حد المنعوت قوله تعالى ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي دروعًا سابغات، فعلى هذا تكون الصالحات صفة لموصوف محذوف أي الأعمال الصالحات وما هي الأعمال الصالحات؟ العمل الصالح هو الذي جمع بين أمرين الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ والمتابعة للرسول ﷺ فإن فقد الأول لم يكن صالحًا وكان مردودًا على العامل وإن فقد الثاني لم يكن صالحًا وكان مردودًا على العامل أيضًا، الدليل في الأول قال الله تعالى في الحديث القدسي «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» (١) وفي الثاني: قال النبي ﷺ «**مِنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْس عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ**»(٢) أو «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْس مِنْهُ فَهُو رَدٌّ**» (٣) فلا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلا بهذين الشرطيْنِ (الإخلاص والمتابعة) للرسول ﷺ، لو أن رجلًا أحدث بدعة من البدع يتدين بها لله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجد من قلبه الاطمئنان إليها والخشوع والبكاء لكنه مبتدع في دين الله هل تكون عملا صالحًا؟ لا تكون، حتى وإن زين للإنسان هذا العمل واطمأن إليه فإنه ليس من العمل الصالح، فلا يكون مقبولًا، ولا نافعًا، بل يأثم به الإنسان ؛ لأنه من التقرب إلى الله تعالى بما يكره والتقرب إلى الله تعالى بما يكرهه نوع من الاستهزاء بالله عز وجل أرأيت لو أتيت إلى ملك من الملوك وأهديت إليه قارورة فيها – أعزكم الله – بول ما تريد أن تذهب به إلى التحليل – هل تكون مكرمًا له؟ لا، لأنه يكره هذا الشيء كيف أهدي إليه طيبًا لا بأس بذلك أن أما تهدي إليه هذا الشيء تتقرب إليه بذلك فهذا ضد ما يريد وهو نوع من الاستهزاء بهذا المكرَّم أو المعظَّم، إذن الأعمال الصالحات التي جمعت بين شَرْطَيِ الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ والمتابعة لرسول ﷺ يوجد بعض الأعمال مما يكره في الشرع، لكن الإنسان يطمئن إليها ويرتاح لها فنقول: لا تغتر بهذه الراحة وهذه الطمأنينة فإن ذلك من تزيين الشيطان عباد الأصنام الذين جعلوها شفعاء لهم عند الله يرتاحون لهذا ويرون أنها واسطة بينهم وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلك فهي من الشرك مثال هذا يوجد بعض الناس يغمض عينه في الصلاة ويقول إن ذلك أدعى للخشوع وهذا مِنْ تزيين الشيطان؛ لأن تغميض العين في الصلاة لغير سبب مكروه، وخلاف هدي النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد كان لا يغمض عينه، ولكنه إما أن ينظر إلى موضع سجوده أو إلى تلقاء وجهه، أما أنه يغمض عينيه فهذا خلاف السنة ولهذا كرهه الفقهاء ـ رحمهم الله ـ نعم لو كان هناك سبب، للتغميض كما لو كان أمامك شيء يجهد عينيك، فغمض عينيك فإنه لا بأس بذلك.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٦/ ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨/ ١٧١٨) بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان جزائهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبهم فبين هذا الجزاء بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والإشارة في قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تعود إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهو مبتدأ، و﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ معطوف عليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره، والجملة الثانية من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول فعندنا الآن مبتدآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ولهم جار ومجرور خبر مقدم لمغفرة و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ معطوف عليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول، أين الرابط؟ الضمير في ﴿لَهُم﴾؛ لأنه يعود على المشار إليهم قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تنبيهًا على علو مرتبتهم؛ لأن هذا الصنف من الناس هو أعلى طبقات الناس الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقوله: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾بها زوال المكروه ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ به حصول المطلوب فلهم مغفرة لذنوبهم وخطاياهم، فيغفر الله لهم الخطايا والذنوب؛ بأن يتجاوز عنهم ويسترها عليهم؛ لأن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه وهي مُشتقة من المِغْفَر: وهو الذي يُلْبَسُ على الرأس عند الحرب، وفيه فائدتان: ستر الرأس ووقايته من السهام، فالمغفرة إذن فيها ستر الذنوب، والتجاوز عنها، وعدم العقوبة عليها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرزق بمعني العطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: أعطوهم، والكريم بمعنى الحسن في كيفيته وفي كميته، وقد أشار الله تعالى إلى أن حُسن هذا الرزق لا تبلغه العقول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾فثواب هؤلاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات ثوابهم أن تغفر سيئاتهم وأن يجازوا على عملهم بالرزق الكريم قلت في ﴿كَرِيمٌ﴾ أنه حسن في كميته وكيفيته، فكميته لا تحصى، ولا تفنى ولا تبيد وكيفيتها أيضًا لا يدركها العقل، أو القلب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ تكلمنا سابقًا وقلنا: أن القرآن مثاني كما وصفه الله به، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ ومثاني هذه غير المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾؛ لأن المراد بـ (السبع من المثاني) الفاتحة كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ فالمثاني معناه كتاب متشابه، مثاني: أنه تُثَنَّى فيه المعاني فغالبًا إذا ذكر جزاء المتقين، ذكر جزاء الكافرين، وإذا ذكر وصف الجنة، ذكر وصف النار، إذا ذكرت الأوصاف المحبوبة إلى الله ذكرت الأوصاف المكروهة إليه لماذا؟ لأنه لو ذكر المطلوب فقط من أوصاف، أو جزاء أخذ الإنسان الرجاء حتى أمن مكر الله وإن ذكر المكروه من ذلك أخذه القنوت واليأس

فكان الله ـ عز وجل ـ يذكر هذا، ثم يذكر إلى جانبه الشيء الأخر، حتى يكون الإنسان سائر إلى ربه بين الخوف والرجاء؛ لأن هذا هو الاعتدال أن تكون خائفًا راجيًا في سَيْرِكَ إلى ربك؛ لأنك إن غلَّبتَ الرجاء كنت من الآمنين مكر الله؛ لأن مَنْ غلَّب الرجاء صار يعمل الذنب ويقول: أن الله يغفر لي، ويتهاون بالواجب، ويقول أرجو الله أن يغفر لي، وَمَنْ غلَّب الخوف دخل في القنوت من رحمة الله وذكرنا أن بعض العلماء خالف في هذا، وقال: أنه ينبغي أن تغلب الرجاء؛ لأنك قمتَ بما أمرتَ به فارجُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثوابه؛ لأن هذا من باب إحسان الظن بالله، وإذا كنت في مقام المعصية فغلّب جانب الخوف لتردع نفسك عمّا تريد أن تفعله من معصية، وأن بعض العلماء ذهب مذهب آخر وقال: في حال المرض تقدّم جانب الرجاء؛ لأنك الآن في مقام الضعف فتغلِّب جانب الرجاء وإحسان الظن بالله ـ عز وجل ـ، فلا تموتن إلا وأنت تحسن الظن بربك ـ سبحانه وتعالى ـ، وإذا كنت في حال الصحة غلّب جانب الخوف، والإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيها غلب هلك صاحبه، والإنسان طبيب نفسه، في الواقع لا شك أنك إذا رأيت نفسك تميل إلى الباطل، فإنه يجب عليك أن تخوفها بالله عز وجل، لا ترجها لأنك إن رجوتها في هذه الحال ماذا تصنع؟ تُقْدِمُ على المعاصي.

ويقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: [في إبطال آيات القرآن] فجعل في الآية محذوف تقديره (في إبطالها) ومعني سعوا أي مشوا بشدة هذا في الأصل ومنه السعي أي الركض، فالمراد أن هؤلاء يسابقون ويتسارعون إلى إبطال آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، إبطالها بالنسبة لهم لا يقومون بها، وإبطالها بالنسبة لغيرهم يصدون الناس عن دين الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فهؤلاء سعوا غاية السعي في آيات الله ـ عز وجل ـ لإبطالها وإخفاقها.

وقوله: ﴿سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا﴾ لم يبين بماذا سعوا؟ لأن هؤلاء يسعون في إبطال آيات الله أحيانًا بالصراع المسلح، يعني: يهاجمون الديار ويقاتلونهم حتى يردوهم عن تدينهم، وأحيانًا بالسلاح الفكري فيبثون فيهم الشبهات في دينهم، وفي نبيهم، وفي ربهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأحيانًا يسعون في ذلك بالشهوات؛ فيبثون في الناس حب اللهو والشهوة، ومن هذا ما تبثه وسائل الإعلام الخبيثة في الدول الكافرة، والآن تشبهت البلاد الإسلامية بها فتجدهم يدعون إلى أسافل الأخلاق، يدعون بالقلم وبالصورة، ويصورون النساء الفاتنات، وعلى صفة مذرية ـ والعياذ بالله ـ ويكتبون بالدعوة إلى ذلك، هذا الأمر هل تظنون أنه يمس العقيدة أو البدن فقط؟ يمس العقيدة في الواقع؛ لأن الإنسان إذا أصبح بهيميًا ليس له إلا إشباع بطنه، وإشباع غريزته، فإنه يبقى لا صلة له بالله، أهم شيء عند هذا الذي انغمس فيه من الشهوات واللهوات، فتجده يُعرِض عن دين الله ولا يهتم به، ولذلك مِنْ أَضَرّ ما يكون على البلاد الإسلامية بعد بثّ السموم

الفكرية، بث السموم الشهوانية؛ لأن الشهوانية هذه يميل إليها الإنسان بفطرته التي تمليها عليه نفسه الأمارة بالسوء؛ فيدخل فيها مكرهًا، فإذا انغمس - نسأل الله العافية - فيها، فإنه يندر أن ينتشل نفسه منها، المهم أن الذين كفروا يسعون سعيًا حثيثًا في إبطال آيات الله أن تنشر، أو أن يعمل بها، أو يتجه الناس إليها بكل ما يستطيعون من قوة، إما بالصراع المسلح، وإما ببث الأفكار المشككة المشبهة، وإما ببث الشهوات حتى يُعرِض الناس عن دينهم.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ قال: [القرآن] الصواب أن ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا أعم من [القرآن]؛ لأن الساعين في آيات الله ليسوا في هذه الأمة فقط حتى في الأمم السابقة فإن فيهم من يسعى في آيات الله أليس كذلك؟ مثل فرعون يحدث قومه يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] ويحثهم على أن يكفروا بموسى - عليه الصلاة والسلام - وغير ذلك أيضًا من الأمم الأخرى كلهم يسعون في آيات الله أي في إبطالها وصد الناس عنها وعلى هذا فنقول: إن المراد بآيات الله هنا أعم من القرآن يشمل السعي في أي آية من آيات الله [وقوله﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وفي قراءة هنا وفيما يأتي إذن معجزين] الأصل معجزين يسعون في آياتنا معجزين، [وفيما يأتي معجزين أي مقدرين عجزنا أو مسابقين لنا فيفوتونا لظنهم أن لا بعث ولا عقاب] وهناك قراءة ثانية سبعيتان أو أحداهما شاذة سبعيتان كذا؛ لأن من اصطلاح المؤلف [أنه إذا قال: وهناك قراءة فهي سبعية، أما إذا قال (وقرئ) فهي شاذة] هذا اصطلاح خاص للمؤلف لو وجد في هذا التفسير وفي قراءه تعلم أنها قراءة سبعية، وإذا وجدت (وقرئ) فهي قراءة شاذة والفرق بينهما: أن القراءة السبعية يجوز أن يقرأ الإنسان بها في صلاته ويتعبد لله - سبحانه وتعالى - بها، وأما الشاذة فهي على اسمها شاذة، لكن هل يحتج بها في الأحكام؟ يوجد خلاف بين العلماء. إذن فيها قراءتان (معجزين) و(معاجزين) المعجز معناه: الذي يريد أن يعجز غيره بدون أن يكون من الغير مقابلة له، فيكون الإعجاز من طرف واحد، أي أنهم يريدون بهذا أن يعجزوا الله - عز وجل - في عدم مؤاخذتهم وعقابهم، لأنهم آمنون من مكر الله - سبحانه وتعالى -، (معاجزين) تكون مِنْ طرفيْنِ، كل واحد منهم يريد إعجاز الأخر، فكأنهم لطغيانهم وعدوانهم جعلوا أنفسهم في مقام الصراع مع الله - عز وجل - وإن كان الله - عز وجل -، يريد أن يعجزهم فهم أيضًا يريدون أن يعجزوا الله - سبحانه وتعالى -، وقد سبق أن القراءتيْنِ قد تدلّ كل واحدة منهما على معني يُكمّل القراءة الأخرى، فأيهم أبلغ المعجز أو المعاجز؟ المعاجز أبلغ في الطغيان؛ لأنه أراد أن يجعل نفسه حربًا لله - سبحانه وتعالى - مقابل له -- سبحانه وتعالى - فما جزاؤهم؟قال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الجملة نقول في إعرابها كما قلنا في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فهي مبتدأ وخبر، والجملة بعده ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ العذاب: بمعنى العقاب، والرجز يقول المؤلف: [سيء العذاب] الرجز: هو السيئ من كل شيء، فإذا قال:

عذاب من رجز، فمعناه: سيئ العذاب، فعذابهم هذا - والعياذ بالله - سيء العذاب بل إنه أسوأ العذاب، فإن أعظم عذاب يُعذَّب به البشر هو عذاب النار فهو أسوأ العذاب، وقوله ﴿أَلِيمٌ﴾ أي [مؤلم بالجر والرفع] يعني قراءتان: صفة لرجز أو صفة لعذاب، لأن كلمة (أليم) فيها قراءتان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أو ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أما كون (أليم) صفة (لعذاب) فهي كثيرة في القرآن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثير يعني: ما يصف الله العذاب إلَّا بالألم، وأما الرجز فإنها صفة له؛ لأنها أقرب من عذاب، وعليه، فإذا قلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قلنا إنها صفة لعذاب، وإذا قلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، قلنا إنها صفة لرجز، ويجوز أن تقرأ بهذا وبهذا، بل يستحب لك أن تقرأ بالقراءتيْنِ جميعًا، والثلاثة إذا كان فيها ثلاث قراءات؛ لأن اختلاف القراءات كاختلاف الصفات في العبادات وقد مر علينا أن الأفضل فيما جاء من العبادات على صفات متعددة، الأفضل أن تعمل بهذا مرة، وبهذا مرة حتى تحصل على السنن كلها وتعمل بها، وهكذا القراءات، ولكن إياك أن تقرأ وأنت شاك في القراءة يعني لا يجوز أن نقرأ إلا ونحن متيقنون أن هذه القراءة الصحيحة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ (يرى) بمعني [يعلم]؛ لأن الرؤية تكون بمعني الرؤية بالعين، وتكون الرؤية بالقلب؛ والرؤية بالقلب هي العلم، ورأي بمعني علم تأتي في القرآن كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ نراه بمعني نعلمه، يعني ليس المعني نراه بأعيننا؛ لأنه لم يقع وليس المعني نظنه؛ لأن الله منزه عن الظن وعلى هذا فيكون نراه بمعني نعلمه هنا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي يعلم، لكنه إذا جاءت (يري) بمعني يعلم دلَّت على أن العلم في أعلى مقامات العلم، وأنَّ المشاهد بالعين يرى رؤية بالغة كالذي يشاهد، وقوله ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أعطوه وهل المراد بهم أهل الكتاب أو هو عام؟ يقول المؤلف: [الذين أوتوا العلم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه] والصواب: أنها أعم من ذلك وأن المراد بالذين أوتوا العلم: كل من أعطاهم الله تعالى العلم، فيشمل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والنجاشي - رَحِمَهُ اللهُ - من النصارى، ورأي أن الذي أُنزِلَ إلى النبي ﷺ حقّ وعبد الله بن سلام من أحبار اليهود رأي أن الذي أُنزِل على النبي ﷺ هو الحقّ، وكذلك أيضًا مَنْ أعطاه الله علمًا من هذه الأمة، فإنه يرى أن الذي أنزل إلى النبي ﷺ هو الحق، بخلاف من كان جاهلًا، فإن إيمانه إيمان تقليد، وهو ليس كإيمان الذي آتاه الله العلم، ويدل على أن المراد بالذين أوتوا العلم ما هو أعم، قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فالذين أوتوا العلم هم الذين يَرَوْنَ أن ما أنزل إلى النبي ﷺ هو الحقّ؛ وذلك بما آتاهم الله تعالى من العلم الراسخ في قلوبهم، ولهذا تجد عبادة العامي يعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ

عبادة أشبه ما تكون بالعادة وإن كان في قلبه الإنابة والخشوع والاستحضار، لكنه ليس كالذي يعبد الله تعالى على بصيرة وعلى علم؛ لأن في قلب هذا من اليقين ما ليس في قلب الأول، فيكون عامًا، يرى الذين أوتوا العلم ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ إذا كانت (يرى) علمية فإنها تنصب مفعولين أين المفعول الأول؟ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ اسم موصول، و﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ ، المفعول الثاني، أما ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى فهي فاعل قوله ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني [القرآن] فإن الله تعالى أنزله إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل وقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ؛ لأن الوحي ربوبية خاصة إذ لا أحد يشارك النبي ﷺ من هذه الأمة في ذلك فلهذا أضاف إليه الربوبية وحده.

فقال﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ للعناية بهذا المنزل إليه والمنزل أيضا وقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تقدم أن معني الربوبية هو: الخلق والملك والتدبير، فالله تعالى خالق النبي ﷺ ومالكه ومدبره قال المؤلف: أي [القرآن] هو الحق، الحق هذا هو المفعول الثاني، و(هو) ضمير فصل لفظه لفظ الضمير، لكنه ليس ضميرًا، ولذلك لا نقول: أنه اسم، وأيضًا لا نقول: له محل من الإعراب يعني: لا محل له من الإعراب وليس باسم لكنه جيء به للفصل والدليل على أنه لا محل له من الإعراب، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لو كان له محل من الإعراب لقال: (هم الغالبون)، ولكنه قال: (هم الغالبين) وتأتي الغالبين خبر كان، فدل ذلك على أن الضمير ليس له محل من الإعراب، لكن ما فائدته؟ ذكر العلماء أن له ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: الفصل بين الصفة والخبر والفائدة الثانية: الحصر والفائدة الثالثة: التوكيد فهو فيه ثلاثة أشياء الحصر والتوكيد والتفريق، أما الفصل بين الخبر والصفة، فمثاله: زيد الفاضل، كلمة (الفاضل) هنا يحتمل أنها صفة لـ (زيد) وأن الخبر لم يأتِ، فيكون الإنسان الآن مترقب للخبر، كأن يكون تقديره: زيد الفاضل حاضر، إذا قلت زيد الفاضل حاضر، صارت (الفاضل) هنا صفة لا شك و(حاضر) خبر، فإذا قلت: (زيد الفاضل) فقط، يحتمل أنك تريد أن تصف زيدًا بأنه فاضل، والخبر لم يأتِ أليس كذلك؟ فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن يكون الفاضل الآن خبرًا أم لا؟ نعم، يتعين هذا وجه كونه فاصل بين الصفة والخبر،وهو مؤكد أيضًا؛ لأنك إذا قلت: (زيد الفاضل) و(زيد هو الفاضل) هذه آكد بلا شك، كذلك أيضًا مفيد للحصر؛ لأنك إذا قلت: (زيد هو الفاضل) معناه، لا غيره، فضمير الفصل إذن يفيد ثلاث فوائد: الحصر، والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة.

يقول ـ عز وجل ـ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الحق بمعني: الشيء الثابت، فقولك: أحقّ الشيء؟ أي أثبته، (حقت كلمة ربك) أي: ثبتت ووجبت، فما هو الثبوت في القرآن؟ هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فالحق إذا أضيف إلى الحكم فمعناه: أنه حكم عادل، ولهذا لو تنازع خصمان

عند القاضي، وحكم لأحدهما بما تقتضيه الشريعة قلنا: هذا حق؛ لأنه عدل، ولو حكم بخلافه قلنا: هذا ليس بحق هذا باطل؛ لأنه حكم بغير حق، فالحق في الأحكام هو العدل، وفي الأخبار الصدق، فالذين آتاهم الله العلم يعلمون أن هذا القرآن حق في أحكامه، وحق في أخباره، فأحكامه كلها عدل؛ لأنها وضعت الشيء في نصابه، وجعلت الحق لمستحقيه، وهي أخباره أيضًا حق يعني ثابتة، ما فيها كذب، فإذا قلت: هذا خبر حق أي صدق، هذا حكم حق أي: عدل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال العلماء: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ [طريق ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي الله ذو العزة المحمودة] يهدي بمعنى: يدل، فالهداية هنا: هداية دلالة وإرشاد، والهداية نوعان: هداية توفيق، وهداية دلالة، أما هداية التوفيق فلا يملكها إلا الله عز وجل قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وأما هداية الدلالة فثابتة لكل ما يكون به الإرشاد والدلالة، فالقرآن يهدي إلى صراط مستقيم والنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾، يعني يهدي أي: يدل وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يعني: الله، وهنا قال: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فأضافه إلى هذا الاسم العظيم وهو الدال على العزة، إشارة إلى أن مَنْ تمسك بهذا الصراط كانت له العزة، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أيضًا إشارة إلى من لزم هذا الصراط فيكون له من الحمد بقدر تمسكه بهذا الصراط هذا الوجه الأول.

وأما الوجه الثاني: أن من لزم الصراط كان في مقام محمود، أما العزيز الذي هو اسم الله فإن العزيز مَنْ له العزة، والله تعالى له العزة جميعًا ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ العزة التي وصف الله بها تتضمن ثلاثة معانٍ: عزة القدْر، وعزة القهْر، وعزة الامتناع، أما عزة القدر معناها: أن الله تعالى ذو قدر عظيم، وأما عزة القهر: ذو قهر عظيم، وغلبة لا يغلبه أحد، وأما عزة الامتناع فمعناها: أن الله ـ عز وجل ـ يمتنع عليه النقص بوجه من الوجوه فلا يمكن أن يناله نقص أبدًا، هذه هي العزة المضافة إلى الله ـ عز وجل ـ عزة قدر، وعزة قهر، وعز امتناع، يُقَال مثلًا: هذا عزيز عَلَيّ، أي ذو قدْر شريف عندي، وقال تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ يعني: غلبني، هذه عزة القهر والغلبة ويُقَالُ: أرضٌ عِزَاز، أي: قوية شديدة ما يؤثر فيها وَطْءُ الأقدام، وهذه عزة الامتناع، فالله ـ عز وجل ـ موصوف بالعزة بمعانيها الثلاثة.

وأما الحميد فيقول المؤلف: [أنه بمعنى المحمود] وصحيح أن فَعِيل تأتي بمعنى: مفعول ومنه قولهم: قَتِيل بمعنى: مَقْتُول، وجَرِيح بمعنى مجْرُوح، لكنها تأتي بمعنى الفاعل أيضًا، مثل: عَلِيم

بمعنى: عَالِم، عَزيز عازٍ، حكيم بمعني مُحْكِم، وهكذا تأتي بهذا المعني، فإذا كانت تأتي بالوجهيْنِ جميعًا أي بالفاعل والمفعول فهل الأولى أن نجعلها مقصورة على المفعول أو نجعلها شاملة؟ شاملة فهو ـ سبحانه وتعالى ـ بمعني حامد وبمعني محمود، أما كونه حامدًا فما أكثر ما يُثْنِي الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين أم لا ؟ هل الله يثني أو لا يثني؟ يُثْنِي إذن هذا حمد فهو حامد ـ سبحانه وتعالى ـ، أما كونه محمودًا فظاهر، فإن الله له الحمد على كل حال، والحاصل أن تفسير المؤلف الحميد بالمحمود فيه قصور، والصواب أنه بمعني محمود وبمعني حامد، وأن له الحمد ـ سبحانه وتعالى ـ في الدنيا والآخرة هل إضافة الصراط إلى اسم الله الحميد فيه فائدة؟ قلتُ: إن فائدته أنه يدل على أنه مَنْ تمسك بهذا الصراط فإنه عزيز ومحمود على التزامه بهذا الصراط.

سؤال: هل تظهر للمغفرة آثار؟

الجواب: لا، هو لما ذكر المغفرة، فإن المغفرة ما تظهر آثارها إلا هناك، ولكن كما قلت الأحسن أن نقول أن هذا عام، فإن قلتَ إننا نجد من المؤمنين العاملين الصالحات مَنْ هو فقير، فأين الكرم في الرزق؟! نقول كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[1]، فقد يكون الإنسان عنده مال كثير ولكن حاله حال الفقراء.

سؤال:هل يُوجد مِنْ أهل العلم مَنْ لا يرضى أن ما أُنزِل هو الحقّ؟

الجواب: فنقول: لا يمكن هذا، كل مَنْ أُوتِيَ عِلمًا فإنه يرى أن ما جاء به النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الحقّ، لكن يكون معاندًا مستكبرًا، هذه مشكلة، يعني مكابرة، أمرٌ ما فيه إلا السيف ليسحق، وأن كل إنسان يُؤتَي العلم لابد أن يشهد بما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛لأن ما جاء به الرسول مطابق للواقع، فلابد أن يعلم أنه الحق، وقد قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فهم يستيقنون بها ويعلمون أنها الحق، لكنهم يجحدون وقال عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

الفوائد:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

١- من الفوائد في الآية الكريمة: أن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ معللة، بمعني أن لها علّة، فمن أين يُفهم ذلك؟ من اللام ﴿لِّيَجْزِيَ﴾؛ لأن اللام للتعليل وهذا يؤيد مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: أن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة، وتعلمون أن الجهمية وكذلك بعض الأشاعرة يُنكرون أن تكون أفعال الله تعالى لحكمة، ويقولون: إن أفعاله لمجرد المشيئة، قالوا: لأن الحكمة غرض من الأغراض التي تحمل على الفعل والله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن

(١) متفق عليه: البخاري: ٦٤٤٦ – مسلم: ١٠٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

الأغراض، ونقول لهم إن هذا الذي تقولونه مصادمة للنصوص، ولو تأملنا القرآن لوجدنا فيه كثيرًا من الآيات تدل على إثبات الحكمة لله - عز وجل -، ثم إن الغرض إن كان لمصلحة الغير فهو مدح وثناء، وإن كان لحاجة ليس بها نقص بوجه من الوجوه فهذا من تمام الحكمة، وقد سبق لكم القاعدة الخبيثة الذين يقولون فيها: أن الله منزه عن الأعْرَاض والأغْرَاض والأبْعَاض، فإذا سمعت هذا الكلام تقول: هذا كلام طيب منزه عن الأعراض، يعنون بذلك: نفْي أفعاله الاختيارية، يعني أنه لا يَنْزِل ولا يأتي ولا يتكلم وما إلى ذلك؛ لأن هذه أعراض تحدث وتزول، ومنزه عن الأبعاض يعنون بذلك نفي الوجه واليدين والعينين وما أشبه ذلك، لأن هذه أبعاض بالنسبة لنا، والأغراض يعنون بذلك: نفي الحكمة، والقرآن يرد قولهم هذا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضْل الإيمان والعمل الصالح وترتب الثواب الجزيل عليه كما في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الفرق بين الإيمان و العمل الصالح عند الجمع بينهما؛ لأن هنا ما قال الذين آمنوا فقط، ولا عملوا الصالحات فقط، بل جمع بينهما، وقد سبق لنا أَنْ قلنا: أنه إذا جُمِعَ بينهما صار الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الجوارح.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن الإيمان فقط يعني الذي في القلب فقط لا يكفي، بل لا بد مِنَ العمل الصالح؛ لأنه رتب الجزاء على قيام الوصفيْنِ وهما الإيمان والعمل الصالح، لكني أقول: إن كان الإيمان صادقًا فلابد أن يكون العمل صالحًا؛ لقول النبي ﷺ « **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١).

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العمل ليس مقبولًا ولا محمودًا ولا مثابًا عليه حتى يكون صالحًا؛ لقوله﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومتى يكون صالحًا؟ إذا جمع شرطي الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فإن فقد الإخلاص فليس بصالح، وهو مردود على فاعله، قال الله تعالى: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢)، وإن فقد المتابعة فهو مردود غير مقبول؛ لقول النبي ﷺ « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)، ولا تتحقق المتابعة إلا بشروط ستة: أن يكون العمل موافق للشرع في (سببه وجنسه وقدره وكيفيته وزمانه ومكانه)، لا تتحقق المتابعة حتى يكون العمل موافق للشرع في الأمور الستة، فلو أحدث الإنسان عبادة لسبب غير شرعي فهي مردودة، لو قال: كلما سمعت نباح الكلاب صليت ركعتين تقبل أو لا ؟ لا تقبل؛ لأنه علّقها بسبب غير مشروع فلا تُقْبَل، لو أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧/ ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

أحدًا من الناس ضَحَّى بفرس - أنثى الخيل - قال أنا عندي شاة تساوي مائتين ريال، وعندي فرس تساوي عشرون ألف ريال، هل لو ضَحَّى بالفرس تُقْبَلُ؟ لا؛ لأنه مخالف للشرع في الجنس، لو أن أحدًا تعبد لله عز وجل بعبادة محددة بقدْر معين، فزاد في قدْرها كما لو صلّى سِتَّ صلوات قال: إن المدة بين العشاء والفجر طويلة تحتاج إلى زيادة في الصلاة، والمدة بين الفجر والظهر طويلة تحتاج إلى زيادة في الصلاة، فجعلها سبع مرات ما تقولون؟ لا تقبل؛ لأنه خالف القدْر، وإذا صلّى خمسًا في الرباعية، أو ثلاثًا في الثنائية، فإنها لا تقبل، لو قال قائل: إذا سبح الرجل دبر الصلاة مائتي مرة فهل ترفضون هذا التسبيح كلّه، أم تقولون ما وافق الشرع فهو مقبول، وما زاد عليه فهو مردود؟ إذا كانت العبادة التي حصل فيها الزيادة تتجزأ، بمعني أنه يصح أولها، دون أخرها؛ فإننا لا نبطل أولها بما طرأ عليها أما إذا كانت لا تتجزأ، فإنه إذا بطل آخرها بطل أولها فلو صلى الظهر خمسًا بطلت صلاته؛ لأنه لا يمكن أن يصح أولها مع فساد أخرها، لكن في زيادة العدد لا نبطل العدد الأول، لكننا نقول لهذا الرجل: إن كنت تعتقد أن المائتين هي المشروعة فأنت ضال؛ لأنك مبتدع، وإن كنت تريد أن تقول: أنا أعترف بالمشروع مائة، ولكن زدتُ على أنه تطوع، فهذا يكتب لك لأجل التسبيح المطلق لا المقيد، وأما فيما يختص بالكيفية فلو أن أحدًا صلّى وصار يسجد، ثم يركع، ثم يسجد، ما تقولون؟ لا تُقْبَلُ لاختلاف الكيفية، وفي الزمن، لو أن أحدًا قال: أنا سوف أحج في ذي القعدة، أخرج إلى منى في ليلة التاسع من ذي القعدة، وأبيت فيها، وفي التاسع أذهب إلى عرفة، وأقف ... إلى آخره، كما هي أفعال الحج، ما تقولون في هذا؟ لا تُقبل؛ لأنها لم توافق الشرع في الزمن، يقال أن رجلًا بدويًا كان يبيع المواشي في الأضاحي، يأتي بها يجلبها إلى السوق، وهو ما أدى الفريضة، فقيل له: لماذا لم تؤدِ الفريضة؟ قال الفريضة تأتي في وقت الموسم، وأنا ما أحج، ولكن سأذهب إلى الشيخ أسأله، هل يجوز أن أحج في عيد رمضان؟ فذهب إلى الشيخ يستأذنه أن يحج في عيد رمضان بدلًا من عيد الضحية؛ لأن عيد الضحية فيه موسم لنا، فقال له الشيخ: إن أذنت لك أن تحج فإني آذن لك أن تضحي، وحينئذٍ يكون الموسم تابعًا للحج ما يتخلص منه، فأقول: إن هذا الذي حَجَّ في ذي القعدة حتى لو وافق التاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر، فإنها لا تقبل لمخالفتها للزمن، ورجل في العشر الأواخر من رمضان: قال سأعتكف في بيتي هل يقبل منه؟لا، لأنه خالف الشرع في المكان، فتبين الآن: أن تحقيق المتابعة لا يكون إلا إذا وافق العمل الشريعة في الأمور الستة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** علو مرتبة المؤمنين العاملين الصالحات لقوله ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ لأن الإشارة هنا للبعيد وذلك لعلو مرتبتهم، مثل قوله تعالى﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ مع أن الكتاب بين أيديهم، لكن الإشارة للبعيد لعلو مرتبته.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن في الإيمان والعمل الصالح حصول المطلوب وزوال المكروه، لقوله ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ هذا زوال المكروه ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذا حصول المطلوب، واعْلَمْ أن الله تعالى إذا غفر لك فتح لك أبواب المعرفة وانشرح صدرك بالإيمان؛ لأن الذي يُوجب ضيق الصدر وتشتت الفكر هو المعاصي، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما يعرف قدْرَ القرآن، إذا قُرِئ عليه القرآن قال أساطير الأولين، فلا يعرف قدره، لماذا؟ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لما ران على قلبه صار لا يرى هذا القرآن العظيم إلا أساطير الأولين؛ ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي لمن نزلت به نازلة وطلب حكمها سواء كانت هذه النازلة خاصة به أم كان مسؤلا عنها، ينبغي أن يستغفر الله، وَاسْتدل بذلك في قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذا ليس ببعيد، إذن من فوائد الإيمان والعمل الصالح: حصول المطلوب، والنجاة من المكروه.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن رزق الجنة رزق كريم، أي: واسعٌ كثيرٌ دائمٌ حسنٌ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** تحقق ما وصف الله به القرآن من أنه مثاني، إذا ذكر فيه المعني ذكر ما يقابله، وإذا ذكر فيه العامل ذكر ما يقابله.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** الحكمة في الخطاب، وأنه ينبغي في الخطاب أن يكون جامعٌ بين أسباب الخوف وأسباب الرجاء، لماذا؟ ليكون جامعًا؛ ولأنه إذا ذكر الخوف فقط، فقد يستولي على القلب القنوطُ من رحمة الله وإذا ذكر الرجاء فقط فقد يستولي عليه الأمن من مكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار يسعون جادين لإبطال آيات الله عز وجل؛ لقوله ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ والسعي كما نعلم هو الجري بشدة، فهؤلاء يسعون جادين لإبطال آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء الكفار كأنما يعاجزون الله ويغالبونه، لقوله ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء الذين سعوا في آيات الله معاجزين يُعَاقَبُونَ بها العقاب الأليم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وقوله ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أي من عذاب سيئ مؤلم، كما مرّ علينا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من سعْي الإنسان في إبطال آيات الله، فإذا قلنا على القاعدة التي مرت علينا في قواعد التفسير، أنه إذا نُهِيَ عن شيء فهو أمر لضده، فتكون متضمنة للحث على السعي إلى آيات الله لتقريرها وتثبيتها، فإننا مأمورون بأن نسعى في تثبيت آيات الله قدر استطاعتنا ونشرها بين الأمة حتى تقوم المنة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء والحكمة فيه؛ لأن المؤمنين الذين عملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم، وهؤلاء لهم عذاب من رجز أليم .

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾:

١- **في هذه الآية:** فضيلة العلم، العالم يرى الحقائق على ما هي عليها، فيرى أن الذي أُنْزِلَ على الرسول هو الحق، وهذا لا شك أنه من فضيلة العلم، عكس الذي يتردد في كونه حقًا، أو يمكن أن يكون حقًا - والعياذ بالله -.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يعجب بعلمه، من أين تؤخذ؟ من قوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني ما أدركوه بأنفسهم، ولكن الله تعالى مَنَّ عليهم به، لا تَقُلْ هذا مِنْ عندي، مثل المال، فمِنَ الناس من يُعجب بنفسه إذا حصّل مالًا والله وهو الذي أعطاه المال، فماذا صنع الله بالذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ خسف به الأرض، فالآن ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ دليل على ألا ينبغي للإنسان أن يعجب بنفسه، ويقول: أن هذا العلم حصلته أنا بفهمي وحرصي ومثابرتي.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى في تحصيل العلم من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ فإذا كنا نأتي لتحصيل العلم، فلنسأل أنفسنا مَنِ الذي مَنَّ به علينا؟

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن كلام الله والدليل قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كيف يكون في ذلك دليل على أنه كلام الله؟ نقول ليس كل نازل كلامًا، فالكلام لا يمكن إلا للمتكلم، فيكون غير مخلوق، فيكون كلام الله غير مخلوق، وهناك أشياء ينزلها الله يقول: أنزلناها وهي مخلوقة، أنزل من السماء ماء ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وكل هذه الأشياء مخلوقة؛ لأنها أعيان قائمة بذاتها، بخلاف القول، فإن القول لا يكون إلا بقائل، فإذا قال الله: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو قول، صار هذا القول من كلام الله .

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة النبي ﷺ لأنه هو المخاطب بالوحي.

وكذلك فضيلة القرآن وأنه منارٌ وهدًى، يهتدي به الناس ويقتدون به؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ

﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من ابتغى الهدى من غيره ضلّ؛ لأنه إذا كان هو الذي يهدي إلى صراط العزيز الحميد، فإذا ابتغيت الهدى من غيره المخالف له، فإنك لا تُهْدَى إلى صراط العزيز الحميد، ولهذا لما طلب أهل البدع الوصول إلى الخالق عن طريق غير القرآن ماذا حصل لهم؟ ضلّوا وتاهوا وبقوا متحيرين مضطربين.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من تمسك بهذا القرآن نال العزة والحمد، أي صار عزيزًا محمودًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ولم يقل: إلى صراط الله، بل قال: العزيز الحميد، إشارة إلى أن من تمسك بهذا القرآن، فله العزة والحمد، يحمد على فعله وقوله وتركه.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسميْنِ لله - عز وجل - وهما العزيز والحميد، وقلنا إن العزة التي اتصف الله بها - سبحانه وتعالى - لها ثلاثة أنواع: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وشرحها بأن تقول: هذا إنسان عزيز عَلَيّ، أي كبير القدر عندي، وأما عزة القهر، تقول قال الله - سبحانه وتعالى - عزني في الخطاب أي غلبني، وأما الامتناع فتقول هذه الأرض امتنعت عن ذلك، أي قوية صلبة ممتنعة.

الحميد من أسماء الله أيضًا، وهو مشتق من الحمد، فهل هو بمعنى اسم الفاعل أو بمعنى اسم المفعول؟ العزة وإثبات الحمد لله، نجد عبارة عند الناس يقولون: الحمد لله الذي لا يُحْمَدُ على مكروه سواه، أي شيء تكون هذه العبارة ؟ هذه ليست مناسبة؛ لأنك تعلن إعلانًا تامًّا بأنك تكره ما قضى الله والرسول - عليه الصلاة والسلام - كان إذا أصابه أمرٌ يُسَرُّ به قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أصابه ما يكره قال: الحمد لله على كل حال، ولم يذكر شيئًا مكروهًا ولهذا ينبغي لنا أن ننبه مَنْ تكلّم بهذه العبارة؛ لا تقل هذا لأنه يشعر بأنك لا ترضى بقضاء الله، قل: الحمد لله على كل حال، الآن نحن نعلم أن الله رب كل شيء، ويدخل في ذلك الكلاب والخنازير والحشرات وما أشبه ذلك، لكن هل من اللائق أن تقول: الله رب الكلاب، ورب الخنازير، ورب الحشرات، هذا ليس من الأدب أن تخصص كما نصّ على ذلك شيخ الإسلام بن تيمية وغيره، فهناك فرق بين التعميم وبين التخصيص، ولهذا قال الرسول ﷺ: الحمد لله على كل حال.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٧ - ٩]

التفسير

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أولًا: في الإعراب، والمعاني البلاغية: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ المقصود بالاستفهام هنا: السخرية ورجل نكرة تدل على التحقير يعني: أنه رجل حقير، كقوله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ عمّن كذبوا الرسل عمومًا ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وقوله ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ فإن (هذا) للتحقير وقوله ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ تنصب ثلاثة مفاعيل المفعول الأول: الكاف، والمفعول الثاني والثالث: معلق بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول الله - عز وجل - عن الكافرين: أن بعضهم يقول لبعض على جهة التعجب كما قال المؤلف: بل على جهة التحقير ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فقال بعضهم على جهة التعجب لبعض: هل ندلكم على رجلٍ هو محمد ﷺ؟، الاستفهام هنا قلت إنه للسخرية والمؤلف زاد معنًى آخر وهو التعجب، يعني ألا تتعجبون مما سندلكم عليه، وقوله ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يقول: هو (محمد) لكنهم قالوه: بالتنكير على سبيل التحقير لم يذكروه باسمه؛ لأن ذكر الشخص باسمه قد يعني تعلية منزلته، ولكنهم قالوه بهذا اللفظ المنكر تحقيرًا له، (ينبئكم) يخبركم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مزقتم قطعتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بمعنى تمزيق ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا ما نبدأ به يقول ينبئكم أي يخبركم، فالنبأ بمعنى الخبر وقد يكون النبأ في الأشياء الهامة والخبر فيما هو أعم فتخبر عن الشيء الهام وعن الشيء الحقير ولكنك لا تنبئ إلا بشيءٍ عظيم كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ فالنبأ قد يستعمل في الأشياء العظيمة، بخلاف الخبر، فإنه يكون أعم وقوله ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يقول: إذا قطعتم، وهذا التمزيق يعني تمزيق الأرض للحوم البشر، فإن الإنسان إذا دفن مزقته الأرض وقطعته وصارت عظامه الصلبة رميمًا، فهم يقولون: ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق قال المؤلف: بمعنى تمزيق، وعلى هذا فكلمة (ممزق) مصدر.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا هو محل النبأ، وهو في محل نصب سد مسد مفعولي ينبئكم الثاني والثالث وقوله: ﴿﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ كلمة (إذا) هذه ظرفية، فهل هي متعلقة بـ ينبئكم أو متعلقة بشيء محذوف يدل عليه السياق الأخير؛ لأن إنباء الرسول ﷺ ليس في وقت تمزيقهم؛ ولكنه أنبأهم في الحياة الدنيا، إنما تمزيقهم إذا دفنوا يعني أنكم إذا دفنتم ومزقتم تكونوا في خلق

جديد وهذا الخلق الجديد هو البعث وهل البعث إعادة لما مضى أو ابتداء خلق غير الأول؟ الصواب: أنه إعادة ما مضى كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لكنه سمي خلقًا جديدًا؛ لأن الإنسان إذا بعث فإنه لا يبعث كحاله في الدنيا، بل يبعث في حالٍ أشد وأقوى، إذ أنه سيبعث على أنه مؤبد لا يموت، ولهذا يتحمل الناس يوم القيامة من الكرب والهم والغم ما لا يتحملونه في الدنيا، فالناس مثلًا لو دنت الشمس منهم قدر ميل في الدنيا، لأحرقتهم ولكنها في الآخرة تدنو منهم ومع ذلك لا تحرقهم، يقول: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إذا جديد بماذا جديد في ذاته وأجزائه أو في أوصافه؟ جديد في أوصافه؛ لأن الصحيح أن الخلق هو إعادة ما مضى.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

[﴿أَفْتَرَىٰ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام واستغني بها عن همزة الوصل] ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ أصلها أَافترى لكن همزة الوصل مع همزة الاستفهام تسقط ومثالها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ أصطفى بمعنى أَاصطفى سقطت الهمزة؛ لأنها وقعت بعد همزة الاستفهام وأظن سقوطها معلومًا؛ لأن همزة الوصل تسقط في الوصل، فإذا جاءت همزة الاستفهام سار الكلام متصلًا، وإذا كان متصلًا سقطت همزة الوصل ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ (أن اصنع الفلك) أين ذهبت همزة الوصل في اصنع سقطت لاتصال الكلام، ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ذلك أي في قوله: إنكم ستبعثون وتنشرون خلقًا جديدًا هل هذا افتراء على الله؟ يبين الله ذلك لكنهم يقولون: إن حاله دائرة بين أمرين: إما رجل مفتر على الله ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون تخيل به ذلك إذن هم - والعياذ بالله - قسموا حال النبي ﷺ إلى حالين لا ثالث لهما: وهما الافتراء على الله والثاني الجنون ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون تخيل له ذلك به هل هنا حالٌ ثالثة؟ نعم هنا حالٌ ثالثة، ولكنهم لا يقرون بها وهي أنه صادقٌ عاقل صادقٌ لم يفترِ وعاقل ليس به جنة وهذا هو الواقع لكنهم هم والعياذ بالله أسقطوا هذا القسم الثالث لأنهم لا يقرون به ومن العجب أن هؤلاء الذين يقولون في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الوصف أنه إما مفترٍ، أو مجنون، أو شاعر، أو كاهن، أو ما أشبه ذلك، وكانوا يسمونه قبل النبوة بالأمين، ويرونه أنه من أصدق الناس وأعظمهم أمانة، لكن - والعياذ بالله - لما جاء بما لم يوافق أهواءهم صاروا يلقبونه هذه الألقاب، وهذه الألقاب السيئة التي لقب بها المشركون رسول الله ﷺ موروثة ورثها أعداء المؤمنين وأولياء المجرمين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ فهذه الألقاب السيئة موجودة الآن، كل أعداء الرسل يلقبون أتباع الرسل بمثل ما لُقِّبَ به

الرسل، تعلمون أنه مر علينا في العقيدة أن من الناس من يلقب أهل السنة والجماعة بالحشوية، والنوابذ، والغثاء، والمجسمة، وما أشبه ذلك كل هذا تنفيرًا للناس عن سلوك مذهبهم يقول تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾.

قال الله تعالى مبطلًا ذلك: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ في العذاب فيها والضلال البعيد عن الحق في الدنيا قوله ﴿بَلِ﴾ هذه للإضراب وهل هو إضراب الإبطال أو الانتقال؟ الإضراب الإبطالي معناه: أن ما قبل بل باطل والإضراب الانتقالي معناه: أن ما قبل بل مرحلة انتقل منها إلى مرحلة أخرى بدون إبطال لها فهنا بل للإضراب الإبطالي يعني: أن الله أبطل هذين القسمين اللذين ردد هؤلاء الكفار، وحال النبي ﷺ بينهم يعني: بل هو غير مفترٍ وليس به جنة، ولكن هؤلاء الذين لا يؤمنون في العذاب والضلال البعيد، ولا يمكن أن يقروا ومثال الإضراب الانتقالي قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ فإن هذا انتقالي يعني: أنهم أولًا بعد عنهم في الآخرة، ثم شكوا فيها، ثم بعد ذلك عموا عنها - والعياذ بالله - فهذه أحوالهم الانتقالية.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بها ولا يعترفون قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي لا يؤمنون بوجودها ولا يؤمنون بما يحصل فيها وقد مر علينا أن اليوم الآخر يدخل فيه كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فكل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت كفتنة القبر ونعيمه وعذابه، فإنها داخلة في الآخرة قال: [المشتملة على البعث والعذاب] في العذاب فيها وفي الضلال البعيد، والعذاب البعيد عن الحق في الدنيا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيد المطلق في الموضعين فهنا قال الله ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ والمؤلف قال في الآخرة وقال ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وقال [في الدنيا] والأصح: أن الآية مطلقة في العذاب في الدنيا وفي الآخرة أما عذاب الآخرة فظاهر، وأما عذاب الدنيا فما في قلوبهم من الحرج والضيق وما يحصل عليهم أيضًا من العذاب من الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وكذلك العذاب الذي يجري على أيدي الرسل كالعذاب الذي يحصل لهم بالهزائم، فإن هذا من عذاب الدنيا أما الآخرة فظاهر في العذاب يشمل الدنيا والآخرة، وتقييده بالآخرة فيه نظر، بل إنه ينبغي لنا، بل يجب علينا ألا نقيد شيئًا أطلقه الله إلا بدليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع وقوله تعالى: ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ يقول: في الدنيا فهم في ضلال بعيد عن الحق، وهم أيضًا في ضلال في الآخرة، فإنهم لا يهتدون إلى الصراط الذي ينجون به من عبوره من النار، ولكنهم يهدون إلى صراط الجحيم، فيضلون عن الصراط الذي به النجاة قال الله تعالى:

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وقال -سبحانه وتعالى- عن المؤمنين: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ فدل ذلك على أن الضلال كما يكون في الدنيا يكون كذلك في الآخرة فالأولى إذن إبقاء النص على عمومه في الدنيا وفي الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾

[قوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ وما فوقهم وما تحتهم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾] إلى آخره الاستفهام هنا للتهديد، يعني أن الله هدد هؤلاء الذين كذبوا النبي ﷺ في قوله: (إنهم سيبعثون) هددهم بأحد أمرين بالخسف، أو إسقاط الكسف، أي القطع من العذاب من فوقهم وإنما ذكر الفوق والتحت؛ لأنه لا يمكن الفرار منهما أما اليمين والشمال والخلف والأمام، فيمكن الفرار لو جاءك عدو من الخلف أمكنك أن تفر إلى الأمام، ولو جاءك من الأمام أمكنك أن تفر إلى الخلف، لكن إذا جاءك من أسفل إلى أين تذهب؟ تقفز ما تستطيع وإذا جاءك من فوق أين تذهب؟ لا تستطيع لهذا هددهم الله تعالى بأمرين لا يمكنهم الفرار منهما، وقول المؤلف: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ فسر يروا بمعنى ينظروا، والأولى أن تكون شاملة للرؤيا البصرية التي بمعنى النظر، والرؤية القلبية بمعنى العلم والتفكر يعني أن الله -عز وجل- يحثهم على أن يتفكروا حثًّا يراد به التهديد، فالرؤيا هنا شاملة لرؤية النظر بالعين ورؤية القلب بالتفكر وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ فسرها المؤلف أيضًا: [ما فوقهم وتحتهم]: أيهما الذي بين الأيدي؟ على كلام المؤلف يكون ما فوقهم هو الذي بين أيديهم وما خلفهم هو الذي تحتهم، ولكن قد يقول قائل: إن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، بل نقول: لما ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما أمامهم ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ وما وراء ظهورهم، فيحتمل أن المراد بما بين أيديهم أمامهم من الزمن ويحتمل أن يكون ما بين أيديهم أي المكان وكذلك نقول فيما خلفهم، قد يكون ما بين اليد هو ما أمامك من الزمان، وما خلفك ما خلفته من الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي ما بين أيديهم ما يستقبل، وما خلفهم ما مضى، وقد يكون به المكان كما تقول: مررت بين يدي المصلي أي أمامه، وتقول: المأموم يقف خلف الإمام، أي وراءه في المكان أو في الزمان؟ في المكان.

هنا ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ نقول فيها: يحتمل أن يكون المراد المكان، ويحتمل أن يكون المراد الزمان، والمراد أن يتفكروا في الأمر، هل نجا أحد من عذاب الله؟ انظر ما بين يديك في المكان أو ما بين يديك في الزمان وما خلفك من المكان والزمان هل نجى أحدٌ من عذاب الله؟ والجواب: لا، لم ينجُ إذن هم أيضًا لا ينجون من عذاب الله.

وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ الجملة هنا شرطية وفعل الشرط فيها وجوابه مضارع مجزوم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾ وقوله ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ معطوفة على نخسف يعني أو إن نشأ نسقط عليهم كسفًا، قال المؤلف: [في قراءة بسكون السين وفتحها، قطعًا] يعني أن فيها قراءتين سمعيتين سكون السين كِسْفًا أو كِسَفًا بفتح السين، ويجوز القراءة بهما جميعًا، وقد سبق أن قلنا: أن القراءات إذا تعددت فالأفضل أن يقرأ بهذه تارة وبهذه تارة؛ لأن كلها حق وكونه يلتزم قراءة واحدة هذا فيه قصور، إلا أن القراءات التي لم تتيقن أنها ثابتة، لا يجوز لك أن تقرأ بها؛ لأنه يجب أن تقرأ بما ثبت عندك.

[قال ﴿كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وفي قراءة في الأفعال الثلاثة بالياء] أين الأفعال؟ (يشاء ونخسف ونسقط)فيقول تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والفاعل في الضمائر هنا يعود على الله عز وجل، أما على قراءة النون إن نشأ فالأمر ظاهر؛ لأن الضمير فيها ضمير متكلم، لكن على قراءة الياء الضمير فيها ضمير الغائب، وضمير الغائب لابد فيه من مرجع، يرجع إليه إما سابق، وإما لاحق فأين مرجع الضمير ﴿إِن نَّشَأْ﴾ يقال إنه معلوم من السياق كما في قوله ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ من الذي خلقه؟ الله فهنا يعلم كل أحد أنه لا يستطيع أحدٌ من البشر ولا من غير البشر أن يخسف الأرض بالناس، أو يسقط عليهم قطعًا من العذاب فيكون مرجع الضمير معلومًا بالسياق.

قوله: [﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المرأي ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه تدل على قدرة الله على البعث]، يعني: إن الآية تدل على ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما بين أيديهم من السماء والأرض ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ ذكرنا أن ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض يشمل كل ما سبق، وكل ما مضى، وكل ما أمامهم من المكان، وكل ما كان خلفهم، من ذلك أننا نرى الآية في السماء ينزل المطر من السماء على الأرض الهامدة اليابسة فترجع مسرة حية أفلا يكون في ذلك دليل على إمكان إعادة الخلق؟ الجواب: بلى؛ ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي المنظور مما بين أيدينا وما خلفنا من السماء والأرض ﴿لَآيَةً﴾ أي علامة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعلى علمه وحكمته، لكن هذه الآية ليست آية عامة لكل أحد، بل ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عبد مأخوذٌ من العبودية وهي: التذلل، وقد سبق لنا أن التذلل نوعان: تذلل للأمر الشرعي، وتذلل للأمر الكوني وأيهما المحمود المثاب عليه؟ التذلل للأمر الشرعي أما التذلل للأمر الكوني؛ فإن هذا لا طاقة للإنسان به راجع إلى الله من أين؟ من معصيته إلى طاعته فيشمل القائم بالعبادة ولو بدون أن يذنب ويشمل التائب من الذنب، فإن الرجل إذا قام يصلي يتعبد لله ـ عز وجل ـ وقال: إنه أناب إلى الله، وإذا أذنب، ثم استغفر وعاد يقال: إنه أناب إلى الله أيضًا، فالإنابة هنا تشمل كل ذنب فعله، فتكون بمعنى التوبة، وتشمل الإنابة إلى الله القيام بطاعته، فتكون أشمل وأعم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو أمر نسيت أن أنبه عليه في الإعراب الذي اختلف فيه علماء النحو وهو أن النحويين اختلفوا في إعراب جملة إذا كانت مصدرة بهمزة الاستفهام وبعدها حرف عطف فقيل: إن الهمزة أعني همزة الاستفهام داخلة على شيءٌ مقدر بحسب السياق، وقيل: إن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة بدون تقديم وأن حرف العطف كان من حقه أن يتقدم على الهمزة، لكنها قدمت عليه؛ لأن لها الصدارة على الوجه الأول: يكون التقدير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ غفلوا أو أعرضوا وما أشبه ذلك وأما على الثاني: فلا حاجة إلى هذا التقديم، بل نقول: إن الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف وتأخرت عن الهمزة؛ لأن لها الصدارة أيهما أحسن؟ الثاني أحسن يعني كونه يقول: إن الهمزة داخلة على هذه الجملة نفسها أولا، وذلك لأن القول الأول قد يعوزك تقدير المحذوف، يعني بمعنى: أنه يصعب عليك أن تقدر المحذوف، أما هذا فبناء على أن الجملة هذه معطوفة على ما سبق، لا تحتاج إلى تقدير، فلا تتعب فيه.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ دعا إلى الإيمان باليوم الآخر من أين تؤخذ؟ من قوله ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عتو الكافرين واستعلائهم واستكبارهم، حيث عبّروا بهذا التعبير ساخرين بما أخبر به النبي ﷺ، وجه علوهم واستكبارهم أولًا: السخرية بهذا النبأ والثاني: تحقير النبي ﷺ، والثالث: وصفه بأنه لا تخلو حاله من أحد أمرين، إما كاذب، وإما مجنون، هذه ثلاثة أوجه كلها تدل على هؤلاء الكافرين واستكبارهم وعنادهم.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان ما حصل للنبي ﷺ من الأذى وأنه صبر؛ لأن أمرًا يصل إلى هذا الحد في الاستخفاف به والاستهانة بخبره لاشك أنه يؤثر على نفسه تأثيرًا بالغًا، وأعتقد أن صاحب الدعوة إذا أوذي بمثل هذا الإيذاء كان أشد عليه من أن يضرب ويحبس.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - حيث يعيد هذا الخلق بعد أن يتمزق كل تمزق؛ لأنه ظاهر من قوله: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾:

١- ومن فوائد هذا الآية الكريمة: أن الكافرين الذين كفروا برسول الله ﷺ كانوا يقرون بالله

من أين تؤخذ؟ قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** بيان قبح الافتراء على الله، حتى إن الكافرين يستقبحونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أيضًا أن أعداء الرسل بل أعداء دعوة الرسل يكيلون السب والقدح والعيب لما جاءت به الرسل أو بالرسل وبما جاءوا به لقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ومعلوم أن كلام الكاذب وكلام المجنون ليس بمقبول، فهم يأتون بعبارات التشويه والتقبيح، حتى لا يقبل الحق، وهل هذا جارٍ إلى وقتنا هذا؟ نعم جارٍ إلى وقتنا هذا؛ لأن أعداء دعوة الرسل لا يزالون إلى يوم القيامة، ولكن على أتباع الرسل أن يصبروا ولا يثني عزمهم مثل هذا الكلام؛ لأنهم على الحق كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن الله ـ عز وجل ـ تكفل ببيان الحق وإظهاره وإبطال الباطل واندحاره لقوله ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾

٥- **ومن فوائدها:** أيضًا أن الكفر يوجب عدم قبول الحق والاهتداء به، تُؤخذ من قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾وفي للظرفية ومعناه أن الضلال محيط بهم من كل جانب؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فإذا لم يؤمن الإنسان بالحق، بقي في ضلال، والشواهد على هذا كثيرة، استمع إلى مثل هذه الآية وإلى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ يعني مضطرب مختلف فكل من كذب الحق فإنه لا يزداد إلَّا ضلالًا حتى لو جاءته الآيات البينات الظاهرات، فإنه لا ينتفع بذلك ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مع أنها آيات بينات واضحات.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ وجوب النظر والاعتبار فيما حصل من الآيات في السماء والأرض لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن هذا الاستفهام للتوبيخ، ولا يُوَبَّخ إلا على ترْك واجب.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن في السموات والأرض؛ آيات لكنها لمن؟ للعبد المنيب إلى الله، وأما من لا يريد الإنابة إلى ربه، فإنه لا ينتفع بهذه الآيات حتى لو رآها ونظر فيها وفكر فإنه لا ينتبه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المشيئة إلى الله لقوله ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** إن ما يحصل من الخسف والزلازل والنوازل فإنه بإذن الله - عز وجل - عقوبة للعباد واعتبارًا، خلافًا لمن قال إن هذه أمور طبيعية لا تدل على غضب الله - عز وجل - ولا على إنذاره كما هو رَأْيُ مَنْ لا يؤمن بالله، فالخسف في الأرض عقوبة، وما يأتي من الصواعق والكوراث الأفقية فهي أيضًا عقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى محيط بالعباد، لا يمكنهم الفرار من قضائه وقدره الله تعالى محيط بكل شيء لا مفر للعباد منه لقوله ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - يمن على العبد بظهور الآيات له حتى يتبين له الحق لقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وإذا منَّ الله على العبد بالنظر في آياته والتدبر، ازداد بذلك إيمانًا بالله - عز وجل - وإيمانًا بما تقتضيه هذه الآيات من صفاته؛ فإن كل آية تدل على صفة معينة من صفات الله، فإنزال المطر مثلًا يدل على القدرة والعلم والرحمة، وكونه في وقت مناسب يدل على الحكمة في كل شيء مما يقع في السماء والأرض؛ فإنه يدل على صفة من صفات الله تعالى تناسبه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن في السماء والأرض آيات لمن نظر وتدبر، وهذا أثبته الله تعالى في القرآن في مواضع كثيرة ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة فكل من تدبر ما في السماء، وما في الأرض، وما بينهما، تبين له من آيات الله ما يقوي إيمانه ويزيده طمعًا في فضل الله تعالى وخوفًا من عقابه.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ الواو حرف عطف، ويجوز أن تكون للاستئناف، واللام موطئه للقسم، وقد للتحقيق، ومثل هذا التقييد يأتي في القرآن كثيرًا ويقال فيه: إن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات القسم المقدر، واللام، وقد، فتقدير هذه الجملة: والله لقد آتينا داود منا فضلًا، هل يجوز أن تحذف اللام؟ نعم يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ إلى أن قال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جواب القسم، ويجوز في قوله ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ في غير القرآن أن نقول لقد أفلح، وهل يجوز أن تحذف اللام وقد؟ الجواب: نعم يجوز، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ (فقتل) هذا جواب القسم ليس فيه (قد) و(لا) (اللام) فصار جواب القسم إذا كان فعلًا ماضيًا، جاز فيه ثلاثة أوجه: أن يقترن باللام وقد، أن يقترن بقد، أن تحذف اللام وقد، لكن لا تحذف اللام ولا تحذف قد في الغالب إلا إذا طال القسم، أما إذا لم يطل فإنها لا تحذف، إذا قلت: (والله لقد قام زيد) صحيح وهذا هو الأصل، (والله قد قام زيدٌ) هذا أيضًا صحيح حذفنا اللام، (والله قام زيدٌ) هذا أيضًا صحيح حذف منه اللام وقد والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ آتينا بمعنى: أعطينا، وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وكل فعل ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، يسمى من باب أعطى وكسا فهنا آتينا داود منا فضلًا، (داود) المفعول الأول، و(فضلًا) المفعول الثاني، ولا يمكن أن يكون هذا مبتدأً وخبرًا، ولو قلت: (داود فضل) يصلح ؟ما يصلح ويقال (أتينا) ولكنها يختلف معناها عن (آتَيْنَا) بمعنى أعطينا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وقال تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي جاء أمر الله، قال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ داود هو أحد أنبياء بني إسرائيل وهو بعد موسى أم قبله؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي القصة أن داود كان منهم، إذن فهو بعد موسى وهو نبي من الأنبياء، وقد أنكرت اليهود ـ لعنة الله عليهم ـ كونه نبيًّا ووصفوه بأنه ملك، وقد كذبوا في ذلك فإنه كان نبيًّا من أنبياء الله الذين يجب علينا أن نؤمن بهم ولا يتم إيماننا إلا بالإيمان بهم؛ لأن أركان الإيمان كما نعلم الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، وهو أيضًا رسول؛ لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول قال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ (منا) فبدأ بالجهة قبل الفضل ليتبين عظم ذلك الفضل؛ لأن الشيء إذا نسب إلى جهة

عظيمة كان ذلك عظيمًا كما في قوله في الحديث الصحيح: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١) فأضافها إلى الله، حتى يتبين بذلك عظمها.

﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [نبوة وكتابًا] وهذا الذي فسر المؤلف الآية به من باب التمثيل فإن الله أعطاه النبوة والرسالة أيضًا وأعطاه الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وهل أعطاه شيئًا آخر غير هذا؟ نعم، ولهذا نكَّر كلمة (فضل) جاءت منكرة؛ ليشمل كل ما أُعْطِيهِ من فضل سواء كان ذلك دينيًا أم دنيويًا، وكان داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أحسن الناس صوتًا وترنمًا بالذكر حتى أن الله ـ عز وجل ـ أمر الجبال أمرًا إما كونيًا، وإما شرعيًا قال لها: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أوّب بمعنى: رجع، ومنه الأواب أي: الرَّجاع إلى الله ومنه آب يؤوب أوبًا بمعنى: رجع (فأوبي معه) أي: رجِّعي معه، والترجيع معناه: تردد الصوت الذي يقوله، فمثلًا إذا قرأ سمعتَ كأنَّ الجبال التي حوله كلها تقرأ بقراءته، وهذا غير ما نسمعه نحن من الصدى الذي يحصل لكل إنسان؛ لأن هذا الصدى الذي يحصل لكل إنسان يكون إذا أحاطت به الجبال، هذا أمرٌ طبيعي، لكن هذا الذي أوتي داود فوق ذلك فكانت الجبال ترجِّع معه؛ وذلك لحسن صوته ونغماته، حتى إن الجبال ترجع معه بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ [يقول بالنص عطفًا على محل الجبال] ﴿يَـٰجِبَالُ﴾ (جبال) مُنادى مبني على الضم في محل نصب؛ وإنما بني على الضم وهو نكرة؛ لأنه مقصود والنكرة المقصودة بمعنى العلم فلهذا بنيت على الضم، (الطير) لو عطفت على اللفظ ﴿يَـٰجِبَالُ﴾ لكان مرفوعًا مبني على الضم، لكنها عطفت على محل الجبال وهو النصب، يعني وكذلك أمر الله الطير بأن ترجِّع معه فكانت الطيور في جو السماء تقف عند سماع قراءة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ وترجِّع معه، وأنت إذا تصورت هذا الأمر وأن رجلًا يقرأ الزبور بهذه القراءة والنغمات الجميلة، ثم الطيور من فوق تسبح والجبال لاشك أنه مشهد عظيم ورهيب، كل شيء يقرأ بقراءة هذا الرجل بأمر مَن؟ بأمر الله ـ عز وجل ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [فكان في يده كالعجين] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه ليِّنًا بيده حتى إنه كالعجين في يد أحدنا، وهل المراد أن الله ألانه له بالوسائل التي تلين الحديد؟ سخرت له وهيئت له، أو أن الله ألان له الحديد بغير السبب المعلوم، يرى بعض الناس أنه الأول، وأن المراد بقوله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي يسرنا له الأسباب التي تلين ذلك الحديد؛ لأن تيسير الأسباب لا شك أنه من نعمة الله ،أرأيت لو أنك تريد أن تعقف سيخًا من الحديد وعندك نار ضعيفة فإنك تتعب في ذلك، لكن لو كان عندك نار قوية جدًّا كان في خلال دقائق قليلة يلين هذا

(١) متفق عليه: البخاري: (٨٣٤) – مسلم: (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

الحديد، كما يفعل الحداد، فيرى بعض العلماء: أن المراد بتلين الحديد لداود تيسير الأسباب التي يسهل بها لينه، ولكن بعض أهل العلم يقول: إن الله ألان له الحديد بغير سبب، بل بقدرة الله - عز وجل - وجعل الله ذلك آية له، كما جعل الله عصا موسى إذا نزلت في الأرض صارت حية، وإذا رفعها صارت عصا في آن واحد في لحظة واحدة، فالله على كل شيء قدير، والذي جعل الحديد صلبًا قادر على أن يجعله لينًا، وعندي أن هذا أقرب إلى المعنى وذلك لأمور أولها: لأن الله قال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ فجعل التليين مضافًا إليه، إشارة إلى أن لين هذا الحديد بمجرد القدرة، وكوننا نقول: إن هذا بأسبابٍ عادية، لكنها يُسِّرت له، هذا خلاف ظاهر الآية، ثم لو قلنا بهذا القول، هل تكون هذه آية له؟ لا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ هذه هي الحكمة من كون الله ألان له الحديد أن يعمل منه الدروع للمجاهدين في سبيل الله، قال: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بقوله: [وقلنا أن اعمل] أنَّ (أنْ) مصدرية حذف عاملها، والتقدير [وقلنا أن اعمل] أي بأن اعمل أي بالعمل، ويحتمل أن يكون (أنْ) تفسيرية، وأن يقدر المحذوف (بأوحينا) أي: وأوحينا إليه أن اعمل؛ لأن أن التفسيرية هي التي سبقها معنى القول دون حروفه، وهذا من تقدير المؤلف ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أي: وأوحينا إليه أن اعمل سابغات، اعمل بمعنى اصنع، مِنْ أين؟ قال: [منه] أي من الحديد، ﴿سَابِغَاتٍ﴾ [دروعًا] بالنصب وعندي ما هي منصوبة [كوامل يجرها لابسها على الأرض] سابغاتٍ فسرها المؤلف بقوله: [كوامل يجرها صاحبها على الأرض] وأفاد هنا بقوله: [دروعًا] أفادنا بأن سابغاتٍ صفةٌ لموصوف محذوف وهذا المحذوف تقديره دروعًا، وحذف الموصوف جائز، قال ابن مالك[1]:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ   يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلْ

والسابغ من كل شيء هو الكامل الصافي التام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي أتمها وأكملها، ومنه إسباغ الوضوء أي إتمامه وإكماله، فهذه الدروع السابغات يعني الوافيات الكوامل التي تمنع لابسها من أن يناله أذى، وأما قول المؤلف: [يجرها لابسها على الأرض] ففيها نظر لأنه ليس هناك حاجة إلى أن يجرها على الأرض؛ ولأنها إذا بلغت إلى هذا المستوى فربما تعوقه مِنَ الكرِّ والفرِّ.

ومعروف أن الدروع تصل إلى الركبة فقط، هذه غايتها لأنها حديد، وإذا لبس الإنسان حديدًا يصل إلى الأرض فإنه سيكون مُكَبّل بالأغلال، فالواجب أن نقول (سابغات) أي

---

(١) البيت رقم (٥١٩) من الألفية.

كاملات ليس فيها نقص وكمال كل شيء بحسبه، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [أي نسج الدروع قيل لصانعها سرّاج أي اجعله بحيث تتناسب حلقه]، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ معناه: نسج الدروع كما ينسج الثوب من القطن ومن الصوف، ينسج الدرع من الحديد، ومعني التقدير في السرد: أي اجعل هذا السرد أي النسج مقدرًا متناسبًا، من التقدير: أن تجعل الحلقات متناسبة، ما تأتي بحلقة كبيرة وحلقة صغيرة ومنها أن تجعل الحلقات ضيقة؛ لأنها إذا كانت ضيقة وقف الدرع ولم يكن سهل الحركة، ولا تجعلها واسعة جدًا لأنك إذا جعلتها واسعة جدًا لا تقي، ثم هي تكبر إذا جعلتها واسعة، كبرت وآذت لابسها، ولكن اجعلها مقدرة متناسبة، الدرع قميص مثل ثوبنا، هذا قميص من حديد تلبسه كما أنك تلبس الثوب هذا إلا أنه لا يصل ذراعه إلى الكف، فهو إلى العضد فقط، وهذا الدرع منسوج من حِلَق حديد، حلق صغيرة مشبوك بعضها ببعض حتى يتم النسج، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ معني التقدير في السرد الآن: أن تكون الحلقات متناسبة وألّا تكون ضيقة ولا واسعة، لأنها إذا لم تتناسب فإنها تؤذي ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [اعملوا أي آل داود معه صالحًا] ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فأجازيكم به] بعد أن بَيَّن الله ـ عز وجل ـ ما مَنَّ به على داود من تعليم صنعة الدروع، ولين الحديد وتوجيهه وكيف يصنع هذه الدروع، قال: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ اعملوا، كيف عدل عن ضمير المفرد في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾؟؛ لأن تقدير السرد خاص بداود، والعمل الصالح عام له ولغيره، فوجَّه الخطاب إلى جميع آل داود، قال: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ وقوله ﴿صَٰلِحًا﴾ هو صفة للموصوف المحذوف، والتقدير: عملًا صالحًا، والعمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعته، فلابد فيه من هذيْنِ الشرطيْنِ: الإخلاص لله، والموافقة للشريعة، فإن فقد الإخلاص فليس بصالح لوجود الشرك، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١) والثاني: الموافقة لشريعة الله، فإن لم يوافق شريعة الله فإنه ليس بصالح ولا يُقْبَل والدليل قول رسول الله ﷺ «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، وقوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فلابد لكونه عمل صالح، مِنْ وجود هذيْنِ الشرطيْنِ.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾هذه الآية فيها تقديم وتأخير، وما التقديم؟ (بصير) مؤخَّر، والمقدَّمَ المعمول، فإن قلت: من القواعد المقررة أن تقديم المعمول يدل على الحصر، هنا إذا قلنا أنه يدل على الحصر، صار الله بصيرًا بما يعملون دون غيره، مع أنه ـ عز وجل ـ بصير بكل شيء فما هو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

السبب؟ السبب في ذلك التقديم، حيث جاء بصيغة الحصر؛ للردع عن المخالفة، كأنه لو لم يكن الله بصير بشيء لكان بصير بماذا؟ بأعمالكم، فلما كان الإنسان قد يقول: إن الله تعالى لا يبصر عملي، جعل الله تعالى الصيغة دالة بظاهرها على الحصر، حتى لا يدَّعي مدَّعٍ أن الله تعالى ليس عالمًا بعمله، هذا من وجه، ومن وجهٍ آخر مناسبة خواص الآيات، والله أعلم.

سؤال: هل يجوز الدخول إلى مكان العذاب؟

الجواب: لا يجوز الدخول إلى مكان العذابِ إلا بشرط أن يكون الإنسان باكيًا، قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها».

سؤال: هل يصح أن تسبح الجبال؟

الجواب: يصح؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - أمرها بأن تسبح بحمد الله تعبدًا لله - عز وجل - وتذللًا له.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أولًا: بيان منة الله - سبحانه وتعالى - على داود؛ لقوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، ثانيًا: عناية الله تعالى ببيان هذا الفضل، حيث أكَّده بالقسم، واللام، وقد.

٢- **ومن فوائدها:** أن هذا الفضل فضل عظيم؛ لأن الله تعالى عرفه إليه في قوله ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ والمضاف إلى العظيم يكون عظيمًا، ونظير ذلك الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1] .

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** توجيه الخطاب إلى الجماعات من الله - سبحانه وتعالى - لقوله﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ .

٤- **ومن فوائدها:** أن الجماد يحس بخطاب الله - سبحانه وتعالى - وجه ذلك لولا أنه يحس لكان توجيه الخطاب إليه عبثًا، والله - سبحانه وتعالى - مُنَزَّه عن العبث في أقواله وأفعاله، ويدل على أنه يحس بذلك، أنها أوَّبت معه ورجَّعَتْ.

٥- **ومن فوائدها:** أيضًا أن من فضائل داود أن الله أمر الجبال أن توجه معه التسبيح وقراءة الزبور هي والطير، وهل الأمر في قوله ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أمر كوني أو أمر شرعي؟ يحتمل المعنيين، فإذا نظرت أنها مأمورة بعبادة قلت: إن هذا أمر شرعي، وإذا نظرت إلى أن هذه الجبال لو فرض أنها عَصَتْ، هل تعاقب؟ الله أعلم، ربما تعاقب وربما لا تعاقب؛ لأنه ليس لها عقل تدرك به

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) ومسلم (٤٨/ ٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

كما يدرك ابنُ آدم قلتُ: إنه أمر كوني، ونستخلص من هذيْنِ الاحتماليْنِ أنَّ الله أمر الجبال أن ترجِّع معه، ولا نقول: أمرًا كونيًا ولا أمرًا شرعيًا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ظهور آية الله -عز وجل- في تمام القدرة حيث ألان الحديد لدواد؛ لقوله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وهذه الإلانة ليس لها سبب حسي معلوم؛ لأنه لو كانت لأسباب معروفة، لم يكن فرق بين داود وغيره، هذا هو الصحيح، وإن كان بعض العلماء يقول: ألَنّا له أي: هيأنا له الأسباب التي يلين بها الحديد، ولكننا هيأنا له أسباب عظيمة قوية لا تحصل لغيره.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحديد بطبيعته قاسيًا، ولكن الله تعالى يلينه بما جعله من الأسباب التي تلينه حتى ينتفع الناس به، وهل هو أقسى أو الحجارة؟ الحجارة ولهذا لا تلين الحجارة بالنار، والحديد يلين بالنار، قال العلماء: فدل ذلك على أن الحجارة أقسى، ولذلك شبَّه الله تعالى القلوب القاسية بالحجارة، قال تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

ثم قال الله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله -سبحانه وتعالى- مَنَّ على داود وعلى غيره، لتعليمه هذه الصنعة، صنعة الدروع، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ وهذا التعليم الذي علمه الله لداود بقي إلى يومنا هذا، وهذا كما علَّم الله نوحًا صنع السفينة وإشارة الله تعالى إلى مواد بنائها ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾أي مسامير.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمن صنع شيئًا أن يكمله، لقوله: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ يكمله ولا ينقص منه شيئًا، وينبغي لمن صنع شيئًا أن يتقنه، وهذه فائدة جديدة لقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ إكمال وإتقان.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ينبغي بل يجب على من أنعم الله عليه بنعمة أن يقوم بشكرها بالعمل الصالح لقوله ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الله إذا أنعم على شخص من القبيلة بنعمة، فإنه إنعام على القبيلة كلها، كيف ذلك؟، لقوله:﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فوجه الخطاب إلى آل داود كلهم مع أن الفضل خاص بداود، ولهذا إذا نبغت نابغة في قبيلة من القبائل، فإنه يرفع قدر هذه القبيلة كلها، كما أن العكس بالعكس إذا سفل أحد من القبيلة عُيِّرت القبيلة به كلها، وهذا أمر معلوم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من المخالفة لقوله:﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى بصير بكل ما نعمل من خير وشر، وقليل وكثير، وظاهر

وباطن، حتى أعمال القلوب يعلمها الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ لا تُضْمِر في قلبك شيئًا يُغضب الله، إنك إذا فعلت فإن الله تعالى سوف يعلمه، ولا يخفى عليه شيء ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ قال المؤلف: [وسخرنا] لسليمان ولماذا قَدَّر [وسخرنا]؟؛ لأن الريح منصوبة، فلابد من تقدير عامل يتم به اللفظ، وهنا نقدر ما يناسب وهو (سخرنا له) كما جاء ذلك في آيات أخرى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وقوله ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ مَنْ سليمان؟ هو ابن داود وقد أتاه الله تعالى الرسالة والملك، ملكًا عظيمًا لا ينبغي لأحد من بعده؛ لأن الله سخر له الإنس والجن.

وقوله ﴿الرِّيحَ﴾ هي الهواء، سخرها الله له أي ذللها بحيث تجري بأمره، يأمرها تتجه إلى الشمال إذا كان يريد ناحية الشمال، ويأمره تأتي في الجنوب إذا كان يريد ناحية الجنوب، ويأمرها أن تذهب شرقًا فتذهب، وأن تذهب غربًا فتذهب، وأن تسرع فتسرع، وأن تبطئ فتبطئ، تجري بأمره ولا يُقَالُ أَنَّ هذا يدل على أن سليمان مشارك لله في الخلق؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يصرف الهواء، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يصرفوا الهواء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وسليمان يستطيع أو لا؟ يستطيع ؛ لقوله تعالى في الآيات، فلا يقال: أنه شريك لله؛ لأن الذي سخر الريح له هو الله، ولهذا لا نقول: أن عيسى شريك مع الله في الخلق، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾؛ لأن قدرة هؤلاء الخلق على ما يقدرون عليه مِمَّا لا يقدر عليه غيرهم من المخلوقين، إنما هي بأمر الله - عز وجل -، فهم لا يستقلون بذلك، ولكن الله تعالى أعطاهم قدرة كما أن الله يمن على بعض العباد بقدرة هائلة في الحفظ، أو في الفهم، أو في قوة السمع، أو في البصر، أو البدن، أو غير ذلك، إذن نقول: الريح هي الهواء سُخِّرَتْ

لسليمان.

قال: الريح [وقراءة الرفع على تقدير تسخير] تركيب المؤلف هنا ببيان القراءة الثانية غريب، ما كان معهود منه، وكان الأولى أن يقول: وفي قراءة بالرفع على تقدير تسخير هذا هو الأَوْلَى؛ لأن الآن قوله وقراءة الرفع لم نستفد هل هذه القراءة سبعية أو شاذة؛ لأن المعهود أنه يقول في السبعية وفي قراءة وفي الشاذة يقول: قرئ، وهنا يقول: وقراءة الرفع لكن على كل حال القراءة سبعية ففي قراءة ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ كيف نعرب ﴿ٱلرِّيحَ﴾ على هذه القراءة؟ نقول: إنها مبتدأ مؤخر، وأصل الكلام تسخير الريح فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وابن مالك يقول(١):

وَمَا يَلِي المُضَافَ يَأْتِي خَلَفَا عَنْهُ فِي الإِعْرَابِ إِذَا مَا حُذِفَا

أي لسليمان تسخير الريح، ولو قال قائل: ولسليمان الريحُ، إنَّ الريح مبتدأ بدون تقدير لم يكن بعيد، ويكون معنى كون الريح له أنها مسخرة له فيكون له التصرف فيها.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ غدوها: [مسيرها من الغُدوة يعني معناه الصباح إلى الزوال شهر]، ورواحها [سيرها من الزوال إلى الغروب] شهر أي: [مسيرة شهر]، الريح سخرها الله له إذا صارت به من الصباح إلى الزوال فهي مسيرة شهر بسير الإبل، وعلى هذا فإنها تكون سريعة رواحها شهر، فيستطيع أن يذهب إلى مكان مسيرته شهر ويرجع إلى بلده في نفس اليوم؛ لأن غدوها شهر ورواحها شهر، ومع ذلك فقد وصفها الله تعالى بأنها عاصفة، ولكنها غير مؤثرة، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وأيضًا: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ فهي سريعة لكنها غير مزعجة، لكن كيف يطير بالريح؟ قال العلماء: أنه يضع بساطًا معتدًا عاديًا ويجلس هو وحاشيته عليه، ثم يأمر الريح تطير بهم بهذا البساط، والله على كل شيء قدير، ولا عادةً أن يكون الإنسان مع حاشيته على بساط ويرتفع، العادة أنه يُسْقِطُ هذه العادة، ولكن الله - سبحانه وتعالى - على كل شيء قدير، هل يمكن أن نقول: إن قانون الطيران بالطائرات الحديثة مبني على هذا أو لا يمكن؟ إنَّ قانون الطيران مبني على هذا، على الهواء الذي تولده هذه المولدات.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أسلنا [أذبنا] له عين القطر، أي [النحاس] هذا أيضًا قد يكون مما أوتيه داود؛ لأن داود قال الله له: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أما هذا فأسال الله له عين القطر، يعني فجر له عين من النحاس تسيل كما تسيل الماء مع أنها نحاس، وهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل؛

(١) في البيت رقم (٤١٣) من ألفيته.

لأن المعروف أن النحاس معدن جامد، فجعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ لسليمان عين سائله كأنها الماء؛ ولهذا قال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وقوله ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ يدفع ما قيل إن سليمان يُذِيبُ النحاس فيسيل، كما تشاهدون الآن الرصاص إذا أذبناه يصير سائل كالزئبق، فنقول: لا، بل إن الله قال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ فجعل هذا عينًا يندفع من الأسفل، ويسيل، ونحن نعلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق الأشياء جامدها ومائعها، وأن الله قادر على أن يجعل الجامدَ مائعًا والمائعَ جامدًا، وهذا الماء المائع المتدفق الجاري لما ضرب موسى بعصاه البحر، انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم كالجبل العظيم، وهو ماء سائل ضربه مرة واحدة فقط فتفرق البحر وصار اثني عشر طريقًا، كل طريق بينه وبين الطريق الأخر مثل الجبل من الماء وهذا بأمر الله تعالى؛ لأن خالق الأشياء قادر على كل شيء ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ [فأجريت له ثلاثة أيام بليلهن كجري الماء] هذا التقدير يحتاج إلى توقيف، يعني أن الله أجراها له ثلاثة أيام فقط، قد نقول: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أسال له عين القطر يتصرف فيها كما يشاء، وهذا يقتضي أن تكون هذه الإسالة مستمرة، وقتما أرادها وجدها وهذا هو الأقرب، ولا يمكن أن نحددها بثلاثة أيام إلا بدليل من الشرع، أو من السنة، وليس في الكتاب تحديد وكذلك ليس في السنة، فالأَوْلَى أن نجعلها على ظاهرها، قال المؤلف: [وعمل الناس إلى اليوم مما أعطي سليمان]، ولماذا عمل الناس إلى اليوم؟ يعني أن انتفاع الناس بهذا النحاس وتذويبه حتى يكون كالماء هذا أثره من عمل سليمان، يعني أن النحاس إنما ذاب من وقت سليمان إلى اليوم، وقد قيل إن النحاس كان من قبل لا يذوب أبدًا، ولكنه في عهد سليمان ذاب، ثم صار مستمر الذوبان.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بإذن: [بأمر] ربه ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ (مِنْ) للتبعيض، والجن عالم غيبي مستتر عن الأعين، ولهذا جاء بلفظ الجن وأصل هذه المادة (جيم ونون) الإستتار ومنه سُمِّيت الجنة التي يستدعي بها الإنسان، وسميت الجنة للبستان الكثير الأشجار؛ لأنه يجن ما فيه أي يغطيه، ويُسَمَّى الجنة لهذا السبب، وسُمِّيَ الجنين جنينًا لاستتاره وتخفيه في بطن أمه؛ لأنه مستتر.

والجن ربما يتلبسون بالإنسان، أي يدخلون في جوفه حتى يكون كاللباس لهم، فيصرعونه ويؤذونه وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ يعني: مثل المصروع الذي صرعه الشيطان، وهذا الصرع أي: صرع الجن للإنس لا ينكره إلا الملاحدة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد: إنهم لم يصلوا إلى هذا النوع من الصرع فجعلوا ينكرونه ويحيلون جميع أنواع الصرع إلى صرع الأعصاب والمخ وما أشبه ذلك، وصرع الجن للإنس معلوم بالمشاهدة أيضًا فلا ينكره إلا مكابر، كيف ذلك؟ لأنه شوهد

من يصرع ويخاطب الجني الذي صرعه مخاطبة صريحة واضحة، وجرى ذلك على أيدي أئمة الإسلام كالإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم إلى يومنا هذا، جيء مرة بمصروع إلى شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فوعظ الجني الذي صرعه ونصحه وقال له: اخرج وقال: إني لا أخرج إني أحبه، وكانت امرأة التي صرعته صرعتِ الرجلَ امرأةٌ قالت: إني أحبه، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكنه لا يحبك، فقالت: إني أُريد أن أحج به، كيف؟ تحمله إلى مكة فقال: إنه لا يريد أن يحج معك ثم وعظها فلم تتعظ، ثم ضربها شيخ الإسلام ابن تيمية جعل يضربها على رقبة هذا المصروع يقول: حتى تعبت يدي من الضرب فقالت: أنا أخرج كرامة للشيخ فقال: لا تخرجي كرامة لي، اخرجي طاعة لله ولرسوله، فخرجت على ألا تعود، فأفاق الرجل فلما أفاق قال: ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية فقيل له: إنه قد فعل كذا وفعل كذا قال: والله ما أحسستُ بشيء من هذا لا أني خاطبته ولا أنه ضربني، وهذه القصة ذكرها ابن القيم في زاد المعاد عن شيخه، وابن القيم ثقة، وشيخ الإسلام كذلك ثقة وقد ورد مثل ذلك عن الإمام أحمد، إذن الجن نقول في تعريفهم: عالمٌ غيبي مستترون عن الإنس وربما يظهرون، ومنهم صالح ومنهم دون ذلك، ومنهم قاسط ومنهم مسلم، ويأكلون ويشربون ويبولون ويتقيئون، كل هذا ثبت في القرآن وفي السنة.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ (مَنْ) بمعنى (الذي) يعمل بين يديه، فهي اسم موصول، وما محلها من الإعراب ؟يحتمل أن يكون محلها الرفع على أنها مبتدأ مؤخر، وخبره (من الجن)، ويحتمل أنها في محل نصب يعني: وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه، وأيهما أولى؟ نحن ذكرنا قاعدة أنه إذا دار الأمر بين التقدير، وعدم التقدير فعدم التقدير أولى؛ لأنه الأصل، الأصل أن الكلام لم يحذف منه شيء، وعلى هذا فنقول: (من الجن) جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يدي سليمان يعني: أمامه، لكن الإذن بأمر ربه، والإذن كوني أو شرعي؟ كوني بإذن الله،الكوني يعني:أن الله سخر الجن يعملون بين يدي سليمان بإذنه بأمره الكوني، وقد يقال: إنه إذنٌ شرعي بدليل.

قوله ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ [يعدل] وقيل:يميل وهذا أقرب، ومنه: زاغت الشمس أي مالت عن وسط السماء ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ يعني:من يميل ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ [له بطاعته] له أي الجن بطاعته أي بطاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [النار في الآخرة] ﴿نُذِقْهُ﴾ جزمت بِمَنْ؛ لأنها جواب الشرط، وفعل الشرط يزغ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي:نعذبه بالنار حتى يذوق عذابها ،فهل هذه نار الدنيا أو الآخرة؟ قال المؤلف:[في الآخرة وقيل في الدنيا بأن يضربه مَلَكٌ بسوط منها ضربة تحرقه] والله أعلم،هل إن عذابه في الدنيا بواسطة الملك ،أو أن سليمان أُذِنَ له بتعذيبهم في النار.

على كل حال: الذي يزغ من الجن عن أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطاعته سليمان، هذا يُعَذَّبُ بالنار إما في الدنيا وإما في الآخرة ،ولكن إذا قلنا إنه في الدنيا فإنه لا يتعين أن يكون الأمر كما قال المؤلف: [إنه ملك يضربه بسوط منها ضربه تحرقه والله أعلم].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة**:أن الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأمور الكونية لبعض عباده آية له؛ لأن الريح كما تعلمون لا أحد يستطيع أن يصرفها كما يشاء، وسليمان سُخرت له تجري بأمره، فيستفاد من هذا أن الله قد يسخر بعض الأمور الكونية آيةً لبعض عباده كهذا،وهل يمكن أن يأتي مثل ذلك لغير الرسل؟ الظاهر أنه لا يمكن، وما ذكر عن بعض الخلفاء أن الله تعالى سخر له الريح يأمرها كما يشاء فتنقل جنده، فإن هذا في صحته نظر،والظاهر أن آيات الأنبياء لا تكون كرامة للأولياء، صحيح أن آيات بعض الأنبياء تكون كرامة لبعض الأولياء، أما الآيات الكبيرة كهذه، فالظاهر والله أعلم أنها لا تكون.

٢- **من فوائد الآية الكريمة**: أن للريح سرعة عظيمة كما قال ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجن أو وجود الجن وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، ولهذا مَنْ أنكر وجود الجن فقد كذَّب القرآن، ويحكم بكفره ،لكن هل الجن يعملون للإنس أو لا يعملون؟ نقول: إن الجن يعملون للإنس لقوله:﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا شك أن عملهم بين يديه آية له دلالة على نبوته وعلى رسالته، لكن هل يعملون لغير الأنبياء؟ يقول شيخ الإسلام: نعم إنهم يعملون لغير الأنبياء، وعملهم لغير الأنبياء له سبب إما أن يكون سببه الشرك بمعنى أن الجن تأمره أن يُشْرِكَ فيعبدهم، أو تأمره أن يشرك فيعبد من يعظمونها هذا واحد ،وقد يكون سببه أنهم يعشقون هذا الإنسان فيحبونه حبًّا ليس لله، لكن مثلًا لجمال صورته أو ما أشبه ذلك، ومنها أنهم يعملون له مثال ذلك يعملون له محبة لله لكونهم صالحين، فأحبوا هذا الرجل الصالح فعملوا له عملهم له، يقول شيخ الإسلام: إن عملوا له أمرًا محرمًا كان ذلك حرامًا، مثل أن يستخدمهم في أذية المسلمين أو في الاعتداء على شخص معين يروعونه أو ينفرون إبله أو ما أشبه ذلك فهذا حرام، فإذا استعان به بطريق المعصية أو من أجل المعصية كان ذلك حرامًا بلا شك، أما إذا استعان به في الأمر المباح فإن هذا لا بأس به إذا خلا من شرك أو عدوان على الغير، فإن قلت إن القول بإباحة الاستعانة بهم في غير المعصية يشكل عليه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فإن ظاهر هذا أنه لا يجوز أن يستمتع الجن بالإنس ولا الإنس بالجن.

فلا بأس به وقد ذكر رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «النبوات» وفي كتاب «إيضاح الدلالة على عموم الرسالة» ذكر أشياء وردت عن السلف؛ لأنهم ربما ينتفعون بالجن في الإخبار عن الأشياء البعيدة، والأمر الواقع شاهد بذلك، فإنا نسمع قضايا عن بعض الناس أن الجن يساعدونهم على ما يريدون مع صلاحهم وعدم شركهم وعدم معصيتهم.

فإذا قلت: هل يمكن أن يعتدي الجني على الإنسي؟

فالجواب: نعم يمكن، وهل يمكن أن يعتدي الإنسي على الجني؟ نعم يمكن، أما الأول فظاهر كثيرًا أن الجن يعتدون على الإنس أحيانًا يروعونهم في الطرقات بل وربما في البيوت، وأحيانًا يفسدون عليهم شئونهم، وأحيانًا يرمونهم بالحجارة، وأحيانًا يؤذونهم بأصوات، وهذا شيء لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه أمرٌ واقع مُشَاهَد، وكذلك الإنس ربما يعتدون على الجن فلو أن أحدًا استجمر بعظم أو استجمر بروث، لكان معتديًا على الجن ؛ لِأَنَّ العَظْمَ طَعَامُ الجِنِّ [1] ، والروث طعام دوابهم، فيكون في هذا عدوان من الإنس على الجن، وهل يمكن أن يدخل الجن في بدن الإنسي؟ نعم، ولا يحتاج إلى طلب الدليل؛ لأن هذا أمر واقع محسوس ثبتت به الأخبار وتواترت، وشاهده الناس؛ وقد ذكر أن الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- يؤتى إليهما المصروع فيخاطبونه ويكون الخطاب على لسان مَنْ صرعه ويضربونه أيضًا، ويكون الضرب على مَنْ صرعه أي: على الصارع لا على المصروع، وفي القرآن ما يشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ والمس معناه الصرع ولهذا يقال: به مس من الجن أي: الصرع، والذي يتخبطه الشيطان من المس يكون مخبلًا لا يحس ولا يعرف، قال أهل العلم: إن هؤلاء يقومون من قبورهم كمثل المجانين الذين أصابتهم الشياطين، وأما إنكار بعض الناس لهذا فقد قال شيخ الإسلام: إن هؤلاء الفلاسفة الذين أنكروا ذلك، لا يعلمون من الشرع كما يعلمه أهل الشرع، فهم يُنْكِرون ما غاب عنهم ولا يقرون إلا بالشيء المحسوس، وأنكر عليهم إنكارًا عظيمًا في «زاد المعاد».

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة

أن الجن قد يُشَاهَدُون من قوله ﴿مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فإن الظاهر أنهم يُشَاهَدُون وهم يعملون بين يدي سليمان يعني أمامه

٥ - ومن فوائدها: أن الجن مكلفون بمعنى أنهم إذا خالفوا عُذِّبوا، ومن تمام عدل الله أنهم إذا وافقوا نُعِّمُوا، أما كونهم يُعذَّبون إذا خالفوا فهذا أمرٌ متفق عليه بين العلماء، وأن كافرهم يدخل

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النار، وأما دخول مؤمنهم الجنة ففيه خلاف بين العلماء، والصواب أنهم يدخلون الجنة لقوله تعالى في سورة الرحمن وهو يخاطب الجن والإنس ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيكون هؤلاء الجن إذا خافوا الله فلهم الجنة وقال في أثناء ذلك ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ كلمة ولا جان لا تتناسب مع الإنس وإنما تتناسب مع الجن، وهذا هو القول الحق المتعين، ولا يعارض ذلك قوله تعالى عن الجن الذين صرفهم الله لنبيه ﷺ يستمعون القرآن حين ولّوا إلى قومهم منذرين فقالوا ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيقال إن الله إذا أجارهم من عذابٍ أليم فلازم لذلك أن يدخلوا الجنة؛ لأن الآخرة ليس فيها إلا داران هما الجنة أو النار، فمن نجا من النار دخل الجنة ولابد، إذن الجن مُكلَّفون لكن هل تكليفهم كتكليف الإنس، بمعنى أن صلاتهم كصلاتنا، وصيامهم كصيامنا، وحجهم كحجنا أو يختلف عنا؟

في هذا احتمالان: أحدهما أن يكون ما كُلِّفُوا به مساويًا لما كُلِّفْنَا به من كل وجه، مادام الرسول ﷺ مبعوثًا للجن والإنس، ولم تأتِ السنة بالتفريق بل والقرآن بالتفريق بين أحكام الإنس والجن والواجب إجراؤها على ما هي عليه، وأن تكون هذه الأحكام ثابتة في حق الإنس والجن على حد سواء، والاحتمال الثاني: أن تكون الواجبات بالنسبة للجن موافقة لما هم عليه مناسبة لهم فلا يلزم على هذا أن يكونوا مساوين للإنس؛ لأن الله - عز وجل - يجعل الأحكام مناسبة لمن شرعت له، فهذا المريض مثلًا هل عليه صوم؟ إذا كان المريض لا يُرْجَى زوال مرضه ففرضه الإطعام، والفقير ليس عليه زكاة وليس عليه حج، فلما كان اختلاف الشرائع ظاهرًا بالنسبة للإنس لاختلاف أحوالهم، فإنه يلزم أن تكون الشرائع أيضًا مختلفة في الجن عن الإنس؛ لأن الجن لا شك - كما ذكر شيخ الإسلام - مخالفون للإنس في الحد والحقيقة، فحقيقة الجن وحدودهم وطاقاتهم، ليست كحدود البشر وطاقاتهم، فإذا كانوا مخالفين للبشر في الحد والحقيقة لزم أن يكونوا مخالفين لهم في الأحكام الشرعية وهذا فيما يمكن الاختلاف فيه أما، ما لا يمكن كالتوحيد والرسالة، وأصل الرسالة وما أشبه ذلك، فهذا أمرٌ نعلم علم اليقين أن الجن مساوون للإنس في تلك الأحكام، لكن الكلام على المسائل الفرعية التي يُخَاطَبُ بها المخاطبون باختلاف أحوالهم فالمسألة، فيها احتمالان ولكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ جزم بأن الأحكام التي كلف بها الجن، تخالف الأحكام التي كلف بها الإنس؛ لأنهم مكلفون بالجملة، بدون أن يساووا الإنس، والعلم عند الله.



قال الله تعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ إلى آخره ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ﴾ لِمَنْ؟ لسليمان وهذا كالتفصيل لقوله ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنه يقول ماذا يعملون؟ ففصّل وقال ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ (مِنْ) بيانية مبينة للإبهام في الاسم الموصول وهو قوله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يعني ﴿مَا﴾ اسم موصول ونحن نعلم جميعًا أن الاسم الموصول من الأسماء المبهمة فقوله ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيان يقول المؤلف: [أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج] هذه المحاريب، فالمحاريب عبارة عن أبنية مرتفعة ذات أسوار منيعة قال الله تعالى في داود ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ هذا واحد، وكما قيل تماثيل جمع تمثال [وهو كل شيء مثلته بشيء أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حرامًا في شريعتهم]، التماثيل جمع تمثال، وهو ما صُوِّر على مثال شيء آخر، فكل ما صُوِّر على مثل شيء آخر فإنه يقال: تمثال له، وعلى هذا فيمكن أن نقول لمن صَوَّرَ صورة شجرة ونحتها من جسم نقول: إن هذا تمثال للشجرة، وكذلك نقول لمن نحت خشبًا أو حجرًا على صورة حيوان نقول إن هذا تمثال، والمؤلف جزم أن المراد بالتماثيل ما كان تمثالًا لحيوان، ولهذا قال كل شيء مثلته بشيء هذا أصل التمثال أو صور من نحاس وزجاج ورخام، النحاس معروف والزجاج أيضًا معروف والرخام كذلك يقول: [ولم يكن اتخاذ الصور حرامًا في شريعتهم] وهذا مبنيٌّ على أن المراد بالتماثيل: تماثيل ما يُحَرَّمُ تصويره كالحيوان من إنسان وغيره ولكن نقول: إن هذا لا يلزم أي لا يلزم، أن يكون المراد بالتماثيل هي صور الحيوان، فمن الجائز أن ينحتوا له مما ذكر من النحاس والزجاج والرخام أن ينحتوا له أشياء على صور شجر، وَيُقَالُ إن هذا تمثال، يوجد الآن مجسمات يجعلونها على صورة نخلة، على صورة سيف، على صورة قصر، وما أشبه ذلك نقول هذا تمثال أو لا؟ تمثال ويوجد أيضًا مجسمات على صورة حيوان، أسد، أو جمل، أو بقر أو ما أشبه ذلك، هذا أيضًا تمثال، فنحن الآن نقول: إن كان قوله ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عام لتمثال الحيوان والأشجار وغيرها فنحتاج حينئذٍ أن نجيب بما أجاب به المؤلف: وهو أن الصور في شريعتهم ليست حرامًا ولكن ما دام الأمر غير لازم إذ من الممكن أن تكون التماثيل التي يأمرهم بعملها تماثيل أشياء، يجوز تصويرها، فلا حاجة إلى هذا الجواب.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ الجفان ما هي؟ الصحفة التي يُوضَعُ بها الطعام ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ [جمع جابية

والجواب: هي [الحوض الكبير]، ومنه البركة تسمى جابية حتى الآن يسمون البرك جوابي، هل الجفان على ما تقتضيه الآية الكريمة جفان كبيرة وافرة؟

يقول المؤلف مبينًا سعتها: [يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها] وهذا قد يكون واقعًا، وقد يكون الأمر أكبر من هذا، وقد يكون دون هذا، المهم أن هذه الجفان لعظمها وسعتها وكبرها مثل الجوابي وهي الأحواض الكبيرة يعني البرك ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها تتخذ من الجبال باليمن يصعد إليها بالسلالم] ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال العلماء: الراسي الثابت، والقدور جمع القدر وهو ما يطبخ به الطعام، وإنما كانت راسية لكبرها كبيرة راسية في الأرض فهي لكبرها لا يستطيع أحد أن يتناولها أو يقلدها، والعادة أن القدور منقولة مقلبة، لكن هذه لكبرها وسعتها وعزمها راسية لا تتحرك، وقول المؤلف: لها قوائم ما المراد بالقوائم؟ المناصب التي تنصب عليها أرجل.

يقول رَحِمَهُ اللهُ : [تتخذ من الجبال باليمن] هذا ليس بلازم، أنها تتخذ من الجبال، وإن كانت القدور تتخذ من النحاس والحديد وكذلك من الأحجار يمكن تنحت وتكون قدرًا، وممكن أن تجعل طينًا ويتخذ منها الفخار، ولكن ليس بلازم يعني تتخذ من الحديد والنحاس ومن الأحجار ومن غير ذلك.

وقلنا: [﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ يا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ بطاعة الله ﴿شُكۡرٗاۚ﴾ له على ما آتاكم]، أفاد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن اعملوا جملة في محل نصب لقول محذوف تقديره قلنا اعملوا آل داود، وأما آل داود فهي منصوبة بيا النداء محذوفة أي [يا آل داود] وآل داود هنا ذريته وقرابته؛ لأن الله تعالى أنعم على هذه القبيلة عائلة داود بنعم عظيمة أنعم على أبيهم وعلى ابنه سليمان وقوله ﴿شُكۡرٗاۚ﴾ أفادنا بتقدير الشكر لله على أن شكرًا مفعول من أجله، وأن مفعول (اعملوا) محذوف تقديره (بطاعة الله) يعني (أن اعملوا بطاعة الله)؛ لأجل الشكر لله، ويحتمل أن تكون (شكرًا) مفعول به لـ (اعملوا) يعني (اعملوا الشكر)، والشكر هو الطاعة ولكن هذا الوجه فيه من التقدير، أما على الوجه الأول فإنه لابد أن نقدر مفعول (اعملوا)، الشكر عرفه العلماء بأنه: القيام بطاعة المنعم في القلب واللسان والجوارح، أما في القلب بأن تعتقد بأن ما بك من نعمة فهي من الله، وأما باللسان بأن تثني على الله بالنعمة، ولا تذكر النعمة افتخارًا بها على الناس، وأما الجوارح بأن تقوم بطاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يختص بتلك النعمة، أو بطاعته على سبيل العموم، والفرق بين هذا وذاك، إذا قلنا أن تقوم بطاعة الله فيما يختص بهذه النعمة، فإذا أنعم الله عليك بمال فشكره الزكاة والإنفاق وما أشبه ذلك، فإذا عصيتَ الله في غير ذلك لا يقال: إنك لم تقم بشكر المال، أما إذا قلنا: أن الشكر هو أن تقوم بطاعة الله فيما يختص بهذه النعمة وفي غيره، فإن الإنسان إذا أُنعم عليه

بالمال وقام بحقه على الوجه الكامل، لكنه يعصي الله - سبحانه وتعالى - في أمور أخرى يقال: إن هذا ليس بشاكر، ولكن قد نقول: إن الشكر نوعان، شكر مطلق: وهو الذي يقوم بطاعة المنعِم فيما أنعم به عليه فيه وفي غيره، وشكر خاص: مقيد بهذه النعمة المعينة فيكون هذا الشاكر قام بما يجب عليه في هذه النعمة المعينة شاكرًا؛ لكنه لا يُعْطَى وصف الشكور، ويبين ذلك ما سبق لنا في التوبة، أن التوبة تصح من الذنب مع الإصرار على غيره، لكن لا يستحق التائب وصف التوبة المطلقة، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [العامل بطاعتي شكرًا لنعمتي] (قليل) خبر مقدم و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ لأن المقصود الإخبار عن الشكور بأنه قليل، والشكور من عبادي قليل، فلما قدم عليه صارت موضع نصب على الحال، يعني الشكور حال كونه من عبادي قليل، وتعليل ذلك أن أكثر بني آدم غير شكور بل هم ضالون، فبنو آدم يكون منهم تسعمائة وتسع وتسعون في النار وواحد في الجنة ولا شك أن واحدًا إذا نسب إلى المائة يكون قليلًا وقوله ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ المراد بالعبودية هنا العامة أم الخاصة؟ العامة الشاملة للكافرين والمؤمنين.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** أن الله - سبحانه وتعالى - سخر الجن لسليمان يعملون له ما يشاء وهذا لا يتأتى لأحد من البشر، نعم تعمل الجن لبعض البشر أشياءَ، لكن لا تكون قائمة بما شاء.

٢- **ومن فوائدها:** جواز البناء العالي لقوله ﴿مِن مَّحَـٰرِيبَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** جواز التماثيل في شرع من قبلنا وهي مُتعلقة بمبحث شرع من قبلنا في أصول الفقه، وهل يشمل التماثيل للحيوانات والأشجار والبحار والأنهار على كلام المؤلف؟ يشمل، بل يقال: هذا قبل تحريم الصور، وعلى الاحتمال الثاني: لا يشمل؛ لأن التماثيل تطلق على كل ما كان مثالًا على غيره ولا يلزم أن يكون على صورة الحيوان، فعلى رأي المؤلف يكون الحكم منسوخًا بشريعة النبي ﷺ، فيستفاد منه فائدة: وهي جواز النسخ في الأحكام الشرعية، وعلى الرأي الثاني والاحتمال الثاني: لا يكون دالًّا على جواز تماثيل الحيوانات.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان كثرة جنود سليمان وكرمه؛ لأن الجفان كالجوابي والقدور راسيات.

٥- **ومن فوائدها:** وجوب القيام بشكر الله عز وجل لقوله ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، والأمر في الأصل للوجوب.

٦- **ومن فوائدها:** أن الشاكر على النعمة قليل لقوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ والمراد بهذه الجملة الحث على الشكر.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات العبودية العامة الشاملة لقوله ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ فإن المراد بها العبودية

العامة الشاملة.

٨- **ومن فوائدها:** أن داود - عليه الصلاة والسلام - أبٌ أي فخذٍ كامل من بني إسرائيل؛ لقوله ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ كما قال بني تميم، بني زهرة وما أشبه ذلك.



قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٤-١٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي [على سليمان] الموت [أي مات] إلى آخره ﴿قَضَيْنَا﴾ أي قدرنا عليه الموت فمات، والقضاء هنا قضاء قدري، وقضاء الله - سبحانه وتعالى - نوعان: قدري وشرعي، فهنا ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ قضاء قدري ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ هذا أيضًا قضاء قدري قدرنا عليهم ذلك، والثاني: قضاء شرعي، وهذا إذا تعلق بما أمر الله به، فمنه قضاء شرعي كقوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فالقضاء هنا قضاء شرعي، إذا لو كان قضاءً قدريًّا لوقع ولعبد الناسُ اللهَ كُلُّهم بدون إشراك، وهنا القضاء قدري ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي قدرناه عليه فمات قال: [ومكث قائمًا على عصاه حولًا ميتًا والجن تعمل في الأعمال الشاقة على عادتها لا تشعر بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتًا] كل هذا الذي ذكره المؤلف واضحًا من الآية لما قضى الله عليه الموت بقي مدة لا تعلم الجن أنه مات، وهم يعملون دائبين؛ لأنه قد كلفهم بذلك فمات وبقي متكئًا على عصاه.

أولًا: المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: بقي [حولًا] تقيّد هذا البقاء بالحول ليس عليه دليل، لكن لا شك أنه بقي مدة وهم يعملون بين يديه وهم لا يدرون أنه ميت، أما أن يقيده بحول، أو بأقل، أو

بأكثر، هذا يحتاج إلى دليل، وقولنا إنه متكئ على عصاه فيه دليل من الآية ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وهذا لا يمكن إلا وهو متكئ.

يقول ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أكلتها الأرضة]، كلمة الأرضة، هل المراد بها الجنس أي الدابة التي تكون في الأرض أو المراد بها المصدر؟ المؤلف يرى أن المراد بها المصدر، مأخوذ من قوله أرضت الخشبة يعني أكلتها الأرضة، يعني ما دلهم على موته إلا الدابة التي تأرض الخشب تأرضها، فعليه تكون كلمة أرض مصدر أي شيء؟ أَرَضَ يَأْرِضُ أَرْضًا مثل ضَرَبَ يَضْرِبُ ضَرْبًا، هذا تقرير كلام المؤلف، وما قرره رَحِمَهُ اللهُ بعيد من مفهوم الآية؛ لأنك عندما تفهم ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ ما تفهم الذي قرره المؤلف أبدًا، بل الذي يتبادر إلى الذهن أن المراد بالدابة الجنس، يعني إلا الدابة التي تخرج من الأرض.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [بالهمز وتركه بألف] يعني فيها قراءتان: ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾، والقراءة الثانية: جعل الهمزة ألفًا أي: منساته، ولهذا قال: [بالهمز وتركه] ولكن إذا تركناه يكون ألفًا؛ [لأنها ينسأ يطرد ويزجر بها] كأن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يبين اشتقاق هذه الكلمة وأنها من النسأ أي الطرد والزجر، والإنسان يزجر بعصاه بحزلها عَلَى مَنْ يوجه إليه الخطاب، ويطرد بها بالضرب، وهذا يدل على أن الكلمة عربية، ولكن بعض المفسرين يقول: إن الكلمة غير عربية وأنها من الكلام الذي عُرِّب، وإذا كانت الكلمة من المعرب، فإنها لا يشتق لها من الاسم وفي اللغة العربية كل كلمة لها اشتقاق، وعلى كل حال فهذا سهل، المهم أن المنسأة هي العصا يطرد بها الشيء ويزجر بها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [ميتا] ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾، الجملة كما تشاهدون جملة شرطية، وأداة الشرط فيها [لما] وقد مر علينا أن [لما] تأتي لعدة معان: تكون شرطية، وتكون للنفي، وبمعنى إلا، والرابع أن تكون ظرفًا بمعنى حين، فهنا شرطية بدليل أنه جاء بعدها شرط وجواب ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ﴾، ونافية كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي لم يذوقوا عذابي، وتأتي بمعنى إلا كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي إلا عليها حافظ، وتأتي بمعنى حين أي ظرف مثل أن تقول: أكرمتني لما زرتك، أي حين زرتك، إذن لها أربعة معانٍ؛ أو تأتي على أربعة أوجه.

﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ تبينت أي علمت وبان لها بقوله [انكشف لهم] ﴿أَن﴾ [مخففة أي أنهم] ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾، أن مخففة من الثقيلة، وإذا خففت الثقيلة وجب حذف اسمها وكان خبرها جملة فهنا الخبر ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وإعرابها أن تقول: أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان مستتر، وجملة ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ في محل رفع خبرها.

وفي قول المؤلف: إشارة إلى ما سبق أن قلنا إن ضمير الشان ينبغي أن يكون مناسبًا للمقام، فقد يكون مفردًا، وقد يكون جمعًا، وقد يكون للغائب، وقد يكون للمُخَاطَب، خلافًا لما عليه

أكثر النحويين، حيث يقدرونه مفردًا للغائب ويقولون: أنه أي الحال ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟﴾ [سبأ: ١٤] لو شرطية وجوابها ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ و«لو» تأتي شرطية، وتأتي مصدرية، وتأتي بعد وَدَّ كذلك فتأتي شرطية، مثل هذه الآية ومثل أن تقول: لو زرتني لأكرمتك، وتأتي مصدرية إذا جاءت بعد وَدَّ في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي أن تدهن وهذا معناه فقط هنا شريطة فعل الشرط فيها ﴿كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وجوابه ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ [ومنه ما غاب عنهم من موت سليمان ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ العمل الشاق لهم لظنهم حياته خلاف ظنهم علم الغيب] وهذا واضح؛ لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أنه مات قبل أن يخر بسبب تآكل عصاه، ولعلهم كانوا يظنون أو يدَّعون أنهم كانوا يعلمون الغيب، فأراد الله تعالى أن يبين حالهم لهم ولغيرهم، وأنهم لا يعلمون الغيب مع أن الغيب الذي حصل هنا ليس غيبًا مطلقًا، ولكنه غيب نسبي، إذ أن مَنْ كان قريبًا جدًّا من سليمان فقد يعرف أنه مات، يقول المؤلف: [ومنه ما غاب عنهم من موت سليمان] ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ أي ما بقوا في العذاب المهين الذي ألحق بهم المهانة والذل، وقال المؤلف: [العمل الشاق لهم لظنهم حياته خلاف ظنهم علم الغيب]، يعني كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، فلما خرَّ ميِّتًا تبين لهم أنهم لا يعلمون الغيب قال: [وعلم كونه سنة بحساب ما أكلته الأرضة من العصا بعد موته يومًا وليلة]، مثلًا هذا جوابٌ عما قيل إنه بقي سنة وهو ميت ولم يعلم به، يعني كأن قال قائل: ما الذي أعلمكم بأنه سَنَة؟ قال: علمنا ذلك بالحساب؛ لأننا حسبنا ما أكلته الأرضة يومًا وليلة من العصا فقسنا عليه ما مَضَى، مثلًا إذا كانت تأكل في اليوم والليلة مثلًا سنتيمتر، عرفنا أنها تأكل في السنة ثلاثمائة وستين سنتيمتر، وعرفنا هذا من طول العصا، ولكن هذا في الحقيقة ليس متعينًا، إذ قد تأكل اليوم أكثر مما تأكله بالأمس أو بالعكس، وحتى نقول أيضًا: من الذي قال أنها أكلت في اليوم والليلة هذا المقدار حتى عرف به ما مضى؟ يحتاج أيضًا إلى دليل، أو بالعكس قلنا: بأنه لا حاجة لنا إلى تقدير المدة التي لبثها سليمان، وأن مثل هذه الأمور لا يُرْكَنُ إليها ولا يُعتمد عليها إلا إذا جاءت عن الشارع عن النبي ﷺ أو جاءت في كتاب الله، وأما ما يأتي عن بني إسرائيل في مثل هذه الأمور فإننا نقول نقف فيها لا نصدّق ولا نكذّب.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ إلى آخره، الجملة هذه كما تعلمون مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات وهي اللام، وقد، والقسم المقدر؛ لأن هذه على تقدير القسم: أي: (والله لقد كان لسبأٍ وكان هنا تدل على مجرد الحدوث، أي أنها مسلوبة الدلالة على الزمن فإن هذه الآية باقية، حتى الآن كل من قرأ خبرها تبين كمال الآية ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف وعدمه، قبيلة سميت باسم جدٍّ لهم من

العرب، سبأ اسم في الأصل اسم رجل يسمى سبأ وكان من قحطان، واختلف المؤرخون النسَّابون في قحطان هل هو من العرب العاربة أو من العرب المستعربة، والمشهور أنهم من العرب العاربة الذين قبل إبراهيم، لكن رَوَى البخاري: أن النبي ﷺ مرَّ على قبيلتيْنِ من الأنصار كانوا يترامون بالنبل فقال لهم النبي ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»[1] وهذا يدل على أنهم عرب مستعربة؛ لأن الأنصار معروف أنهم الأوس والخزرج كلهم من قبائل اليمن من قحطان، تفرقوا في البلاد بعد الغرق ونزلوا المدينة، وعلى هذا فيكون ظاهر حديث البخاري أن هؤلاء من قحطان كلهم من بني إسماعيل، والحاصل أن العلماء في النسب يقسمون العرب إلى قسميْنِ: ما كان قبل إبراهيم فهم عرب عاربة، وما كان بعده من ذريته فهم عرب مستعربة، المهم أن سبأ اسم لرجل كان له أولاد كثيرون، جاء في الحديث أنهم عشرة بقي منهم ستة في اليمن، وأربعة في الشام، وانتشروا في الأرض وكثروا، وفيها قراءة يرويها المؤلف بالصرف وعدمه ﴿لِسَبَإٍ﴾. هذا الصرف، وعدمه ﴿لسبأ﴾ يقول: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ [باليمن] آية. المؤلف يقول: في [مساكنهم] أتى بالقراءة قراءة الجمع ولم أره ذكر قراءة الإفراد، وفيها قراءتان سبعيتان: قراءة الإفراد في (مسكنهم)، وقراءة الجمع في (مساكنهم) ولا خلاف بينهما في المعنى؛ لأن مسكن مفرد، والمفرد المضاف يعم ويشمل كل ما يدخل تحت هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فهنا نعمة مفرد، وقال فيها لا تحصوها إذن هي كثيرة، فمسكن من حيث المعنى بمعنى مساكن؛ لأنه مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعم، على كل حال مساكنهم قراءة سبعية، ومسكنهم قراءة سبعية أيضًا، والمسكن ما يسكنه الإنسان، فيسكن فيه ويطمئن، كالبيوت والحدائق والبساتين وما إلى ذلك ﴿وَءَايَةٌ﴾ آية بمعنى علامة قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فالآية بمعنى العلامة الدالة على الشيء، هذه الآية دالة على أي شيء؟ دالة على قدرة الله - عز وجل - وعلى نعمته وعلى حكمته في النهاية، و(آية) من حيث الإعراب اسم كان مؤخر، و(لسبأ) خبر مقدم، قال المؤلف: ﴿ءَايَةٌ﴾ [دالة على قدرة الله] وعلى إحسانه وإنعامه وعلى حكمته في النهاية، يعني هذه المساكن كما سيأتي دُمِّرت بسبب إعراضهم، قال: ﴿جَنَّتَانِ﴾ [بدل] من ﴿ءَايَةٌ﴾ ويجوز أن تكون عطف بيان؛ لأنها بينت الآية ووضحتها، والجنة هي البستان الكثير الأشجار سميت بذلك؛ لأنها تجن من فيها أي تستره، وقد علمنا سابقًا أن هذه المادة وهي الجيم والنون تدل على معنى الاستتار والخفاء.

وقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يقول: [عن يمين واديهم وشماله] وكان هذا الوادي بين جبال، وكان على أطراف هذا الوادي هذه الجنان العظيمة من الأشجار المتنوعة الكثيرة الثمار، وكانوا في أحسن ما يكون من الرغد والهناء والأمن يقول: عن يمين وشمال، يعني إذا كانت على

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٩) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

يمين الوادي وشماله، صار لها أيضًا منظر بديع جذاب يقول عز وجل: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [على ما رزقكم من النعمة في أرض سبأ] إلى آخره، يعني أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل في هاتيْنِ الجنتيْنِ خيرًا كثيرًا، وجعل تناولها ميسرًا ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ مما يدل على أن الأمر مُيَسَّر، كما لو قدمت لك طعامًا، وقلت: كُلْ، إذن فهذه الجنات تعطي ثمارها بدون مشقة، بل باليسر والسهولة.

وقوله: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرزق بمعنى العطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ وقوله: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرب تقدم لنا أن معناه الخالق المالك المدبر، والربوبية هنا ربوبية خاصة بعنايته ـ سبحانه وتعالى ـ بهم بما أعطاهم في هذه الجنات، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ هذا هو الذي يطالبون به جزاءً أو إظهارًا لنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم، والشكر تقدم أنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، يعني فاعْتَرِفُوا بأن هذه النعمة من الله، وَأَثْنُوا على الله بها، وَقُومُوا بجوارحكم بطاعته حتى تؤدوا الشكر على الوجه المطلوب منكم، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ على [ما رزقكم من النعمة في أرض سبأ] ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أحيانًا تتعدى (شكر) بنفسها فيقال: شكرت الله، ويقال: شكرت له، فهي من الأفعال التي جاءت في اللغة العربية لازمةً ومتعدية، متى تكون لازمة؟ تقول: لازمة إذا جاء حرف جر له، وتكون متعدية إذا لم يأتِ حرف الجر، فإذا قلت: شكرت الله صارت متعدية، وإذا قلت: شكرت لله صارت لازمة.

قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، بلدة طيبة [ليس فيها سباخٌ، ولا بعوضة، ولا ذبابة، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حية ويمر الغريب فيها وفي ثيابه قمل فيموت لطيب هوائها، إنما نقول: هي بلدةٌ طيبة، أما كون الغريب يأتِ من البر وفي ثيابه القمل، فيموت لطيب الهواء] فالله أعلم، لكن نقول لا شك أن وصف الله إيَّاها بالطيبة، أنها من أحسن البلاد في هوائها، وفي قرِّها، وفي حرِّها ليس فيها الحر الشديد ولا البرد القارس، وليس فيها عفونة الهواء والماء وما أشبه ذلك، فخذ بما شئت من طيب المسكن في كل ما يسمى طيبًا ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يعني يقول: [والله] ﴿ربٌّ غفور﴾ للذنوب، فَمَنَّ الله عليهم بنعمتيْنِ، نعمة السكن وطيبه، ونعمة المغفرة، فيكون في نعمة المغفرة السلامة من الآثام، وعقوباتها في الآخرة، وفي البلدة الطيبة السلامة من الآفات في الدنيا، و(الغفور) صيغة مبالغة، واسم الفاعل منها غافر وهي مأخوذة من الغَفْر وهي الستر مع الوقاية، ومنه قولهم: (المِغْفَر) الذي يلبسه الإنسان ليتقي به السهام في الحرب ففيه تغطية وستر، وفيه أيضًا وقاية، وهكذا مغفرة الذنوب فإن معناها: أن الله يستر عليك الذنب ويقيك عقوبته ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [فأعرضوا عن شكره وكفروا] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخره، الفاء عاطفة، يعني أنهم مع هذه النعم جنات وبساتين عظيمة وبلد طيب ومغفرة للذنوب، إذا قاموا بطاعة الله.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ

وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ يقول: [أعرضوا عن شكر الله، وكفروا] فأعرضوا عن الشكر، وقابلوا هذه النعمة بالكفر، فماذا كانت عاقبتهم؟ قال ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الفاء هنا عاطفة، وتفيد السببية أيضًا، أي فبسبب إعراضهم أرسلنا عليهم سيل العرم وهذه سنة الله - سبحانه وتعالى - في خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هؤلاء أعرضوا فدمر الله ديارهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته أي سيل واديهم المسوك بما ذكر فأغرق جنتيهم وأموالهم] ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ العرم بمعنى السد، يعني أن هذا السيل منسوب إلى السد، أو بمعنى سيل العرم من باب إضافة الشيء إلى صفته، أي السيل العارم الجارف الذي يتلف كل ما مَرَّ عليه، والمعنى أن الله - سبحانه وتعالى - أرسل عليهم سيلًا عظيمًا وذلك بفساد السد الذي جعلوه بين هذه الجبال، وكان هذا السد المنيع تجتمع فيه السيول وتمتصها الأرض وتخرج في العيون فلما تصدع هذا السد جرت المياه بغير تقدير، وذلك بقدرة الله - سبحانه وتعالى -.

يقول: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ الجنتان السابقتان كلها ثمار طيبة تؤكل وينتفع بها بالبيع والشراء وغير ذلك، أما البدل فيقول: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ﴾ [تثنية ذوات مفرد على الأصل]، هو في الأصل (ذات) للمفرد، و(ذوات) للجمع، فثني الجمع وصارت ذواتي أكل، ويمكن أن يقال: خلاف كلام المؤلف يقال: إن الأصل ذات لكن لما ثني عادت الواو فصارت ذواتي، ومعنى ذواتي أي صاحبتي؛ لأن ذات بمعنى صاحبة، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي صاحبة البروج ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قال المؤلف: [مُرٍّ بَشِع بإضافة أُكل بمعنى مأكول وتركها، ويعطف عليه] يعني أن فيها قراءتين: (ذواتي أكل خمطٍ) هذه الإضافة، وتركها (ذواتي أُكلٍ خمطٍ)، ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي أن الأكل يخمط خمطًا وهو شجر الأراك كما فسره بذلك ابن عباس - رضي الله عنهما - والأراك هي المساويك، هذه لها أوراق بسيطة جدًّا وليست لذيذة، ولهذا يقول المؤلف: [مُرٍّ بَشِع] بدل الفواكه والخضر والزروع وغيرها ويقول ﴿أُكُلٍ﴾ بمعنى مأكول، يعني ذواتي مأكول يخمط خمطًا ﴿وَأَثْلٍ﴾ بدل الأشجار المثمرة البهيجة، صار بدلها أثل، والأثل بعضهم قال: هو الطرفة والصحيح أنه غير الطرفة؛ لأن الطرفة تكون صغيرة ما تكبر، والأثل معروفة.

سؤال: الآراك هو الأثل أم الخمط؟ الجواب: الخمط، قال ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هنا قال: وشيء من سدر: وهناك خمط وأثل؛ لأن السدر أحسن هذه الأنواع الثلاثة، ولم يُعطَوا منه إلا

الشيء القليل شيء من سدر، وأيضًا قليل مع أن كلمة شيء من سدر، تدل على القلة لكن أُكِّدت هذه القلة بقوله ﴿قَلِيلٍ﴾.

الخلاصة الآن: أن هؤلاء لما أعرضوا ولم يقوموا بشكر الله - عز وجل - أرسل الله عليهم السيل؛ فأغرق أموالهم وهدم بناءهم، وأبدلهم بهاتين الجنتين جنتين لا يساويان ولا يقاربان ما سبق، ذواتي أكل ليس بالقليل، خمط والمؤلف قال: [إنه مرٌّ بشع] وأثل هو شيء من سدر قليل بدل تلك الجنات العظيمة المفيدة النافعة.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ ذلك [التبديل] جزيناهم، ولو قال المؤلف: ذلك التبديل وإرسال السيل لكان أعم وأشمل، أو لو قال: ذلك المذكور لكان أشمل ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ [بكفرهم] ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قال المؤلف: [بكفرهم] فأفاد أن ما مصدرية، وأما (الباء) فهي للسببية أي جزيناهم هذا الجزاء بإغراق أموالهم وهدم بنائهم وإبدال الجنتين بهاتين الجنتين ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي [بسبب كفرهم] ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [بالياء والنون مع كسر الزاي ونصب الكفور، أي ما يناقش إلا هو] في قوله: (هل نجازي) قراءةً نُجَازِي، وعلى هذه القراءة يجب نصب ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ على أنها مفعول به، والقراءة الثانية (يُجازَى) وعليه ترفع (الكفورُ) على أنها نائب فاعل، والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ لأنه عُقِّب بإلَّا، فيكون هل نجازي إلا الكفور؟ أي ما نجازي إلا الكفور، والمجازاة هنا بمعنى المناقشة، أو بمعنى المكافأة على الفعل، والكفور صيغة مبالغة، أي ذو الكفر بالله - سبحانه وتعالى - والله أعلم.

يعني ما نجازي بالعقوبات إلا مَنْ كفر بالله، سواء كان كفْر نعمة، فَيُجَازَى على قَدْر ذنبه، أو كُفْرٌ مُخْرِجٌ عن الملة، ليس المراد جنتان يعني بستانان واحد يمين وواحد يسار المراد بساتين، لكن قال العلماء: لما كانت هذه البساتين متصلة، صارت كأنها بستان واحد، ومعلوم أنه لو كان بستان وبستان ما هي بآية، لكنها بساتين متصل بعضها ببعض، على يمين الوادي وشمال الوادي، فلما كانت متصلة بعضها ببعض، صارت كأنها واحدة، كأنها جنة واحدة عن اليمين، وجنة واحدة عن الشمال.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾

١ - من فوائد هذه الآية: أولًا: أن الموت غاية كل حي، وإن عَظُم ملكه، فإن سليمان كان من أعظم الملوك ملكًا، ومع ذلك لم ينقذه ملكه من الموت، ومنها أن الأمور كلها إلى الله؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾. ومنها: أن الله - سبحانه وتعالى - موصوف بالعظمة والجلال

والكمال؛ لأن (ما) هنا ليست للتعدد، ولكنها للتعظيم؛ لأن كلمة (ما) تدل إما على التعدد، وإما على التعظيم، والتعدد هنا ممتنع، فيتعين أن تكون للتعظيم.

٢- **ومنها:** أن الشيء الحقير قد يفعل شيئًا عظيمًا كبيرًا، يؤخذ من قوله ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا شيء جرت به سنة الله - عز وجل -، أن الشيء قد يكون حقيرًا لكن يترتب عليه أمرٌ عظيم، فنحن الآن لا نعرف كيف نقبر موتانا إلا بدلالة الغراب، أليس كذلك؟ بلى، أيضًا جميع المباني الهندسية الفخمة الجميلة عُرِفَتْ مِنْ صنيع النحل، أيضًا كل ما حدث من الآلات التي يحدثها الناس الآن تجدهم يشبهونها بمخلوقات الله - عز وجل - كالطائرات وغيرها؛ بهذا نعرف أن الأشياء الحقيرة قد تكون مفيدة للإنسان فائدة عظيمة، ويترتب عليها أمور خطيرة، ومنها: أن إضافة الشيء إلى سبب معلوم جائزة: لقوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ فأضاف الدلالة إلى دابة الأرض، مع أن الدابة هل هي أكلت العصا؛ لأجل أن تدل الجن على موت سليمان؟ لا، لكنها كانت سببًا للشيء وإضافة الشيء إلى سببه المعلوم شرعًا أو حسًا جائزة، حتى ولو لم يذكر فيها اسم الجلالة، فمثلًا إذا قلت: لولا فلان لهلكت، وصحيحٌ أنَّ فلانًا هو الذي أنقذك فهذا جائز، إذا لم تعتقد أن هذا السبب هو الفاعل الوحيد، والممنوع أن تضيف الشيء إلى سببه مع الله مقرونًا بالواو، أو تضيف الشيء إلى سبب غير معلوم سببيته لا من الشرع ولا من الحس؛ لأن هذا يكون من باب الأوهام والتخيلات.

٣- **ومن فوائد الآية:** الحذر أو التحذير من دابة الأرض لأنها مادامت تأكل الأخشاب وتأكل هذه الأشياء فاحذر منها، وكم من إنسان أفسدت عليه دابة الأرض مكتبته القيمة التي تساوي شيئًا كثيرًا؛ ولهذا انتبهوا لا تأكل الأَرَضَة عليكم كتبكم وتُفسدها.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إضافة الفعل أو إضافة الشيء إلى من لم يقم به باختياره لقوله ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾، فالخرور قد يضاف إلى الفاعل بالاختيار، وقد يضاف إلى الفاعل بغير اختيار، فتقول خَرّ الماء، وتقول خَرّ ميتًا، وقال الله عز وجل ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذا بلا اختيار.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الجن لا يعلمون الغيب والدلالة على ذلك واضحة، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، ومنها أن الأمور الحسية الواقعة يُستدل بها وهذه الفائدة معناها الاستدلال بالأمور الحسية؛ لأن الله استدل على كونهم لا يعلمون الغيب بأنهم بقوا معذبين بما يعملونه من الأعمال الشاقة، فلك أن تستدل على الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، وهذا شيء معروف.

٦- **ومن فوائد الآية:** أن الجن ذوو عقول؛ لقوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ وهو كذلك؛ فإن الله

أعطاهم عقولا يهتدون بها إلى مصالح دينهم ودنياهم، ومنها: تسمية الأعمال الشاقة عذابًا، لقوله: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ﴾ مع أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - لم يجعلوا له ما يشاء عقوبة لهم، ولكنه تكليف، وبهذا نعرف أن العذاب قد يُطلَق على ما ليس بعقوبة، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ»[1].

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن فيها دليل على استعمال التأكيد في الأمور الهامة، وإن لم يكن المخاطب مُنكِرًا أو مترددًا، تُؤخذ من قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾؛ لأن التأكيد - كما نعلم - إنما يجب في مخاطبة المُنكِر، ويحسن في مخاطبة المتردد، ويكون على خلاف البلاغة فيما عدا ذلك، هذا هو المعروف عند علماء البلاغة، ولكن بتأمل ما ورد في القرآن الكريم، نجد أن الأمور الهامة وإن خُوطِبَ بها مَنْ لا ينكرها أو يتردد فيها، نجد أن الله تعالى يؤكدها.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: هذه العبرة العظيمة الدالة على قدرة الله وحكمته، وهي قصتهم على سبيل العموم أنهم منعمون في ديارهم وبساتينهم وقصورهم وغير ذلك، فلما أعرضوا انقلبت الحال، ففيها عبرة وفيها آية من وجوه كثيرة، آية دالة على قدرة الله، آية يعني عبرة لمن عصى الله - عز وجل -، وعبرة لمن أطاع الله، آية دالة على حكمة الله، فبتأمل هذه الآية تجد فيها أصناف وأنواع من العِبَر والعظات، الآن شرحنا هذه الآيات قلنا: آية دالة على قدرة الله حيث خلق لهم هذه البساتين، ثم أبدلها بأخرى لا تساويها بشيء، دالة على حكمته - عز وجل - حيث أعطاهم ذلك الخير حين كانوا مقبلين على الله، وسلبهم إياه حين أعرضوا واستكبروا عن طاعته، آية للمعتبرين من أهل المعاصي؛ لأن فيها تحذير مِن أن تزول نعمة الله عليهم بسبب معاصيهم؛ آية للطائعين حيث يعتبرون بها بأنهم ما داموا على طاعة الله؛ فإن نعمة الله تدر عليهم، هذه أربعة أوجه على كونها آية.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الجنات تُؤتي أكلها على وجه واسع؛ لقوله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾

٤- ومن فوائدها: وجوب الشكر لله - سبحانه وتعالى - لقوله ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ والشكر واجب عقلاً كما هو واجب شرعًا، أما وجوبه الشرعي فالآيات بالأمر به كثيرة، وأما وجوبه العقلي؛ فلأن العقل الصريح يقتضي أن كل مَنْ أحسن إليك فإنك تشكره على ذلك، «وَمَنْ لَا يَشْكُرِ الناس فلا يشكر الله» يعني كل أحد يرى أنه من الخطأ أن يُسْدِي إليك إنسانٌ ما يسدي مِنَ الخيرِ ثم تتنكر له، ولا تقم بشكره كلٌّ يعرف أن هذا خطأ، وأن الواجب أن تشكر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٧٩/ ١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن بلاد الله تنقسم إلى: طيب، وخبيث؛ لقوله ﴿بلدة طيبة﴾ وما نوع الطيب في هذه البلدة هل هو طيب الأرض، أو طيب الهواء، أو طيب الثمار؟ الجواب: يعم كل ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات ربوبية الله - عز وجل - ومغفرته في قوله ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان حال هؤلاء القوم، وأنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، وكان عليهم لَمَّا أنعم الله عليهم بهذه النعم، أن يقوموا بطاعة الله، لكنهم أعرضوا.

٢- **ومن فوائدها:** عقوبة المعرضين بما تقتضيه حكمة الله؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ فالعقوبات دائمًا تكون من جنس العمل، فهؤلاء لما بطروا نعمة الله وكفروا به بسبب هذه الجنات، ابتلوا بجنات سيئة بالنسبة لما نُعِّمُوا به مِن قَبْلُ.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أيضًا إثبات الأسبابُ من قوله ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا﴾ فجعل الله تعالى سبب الإرسال إعراضهم.

٤- **ومن فوائدها:** أن المعاصي سبب لزوال النعم؛ لقوله ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا﴾ بينما كانوا مُنَعَّمِين، فلما أعرضوا أرسل الله عليهم هذا السيل المدمر، وهذا له شواهد في القرآن كثيرة منها قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن المطر الذي هو نعمة ورحمة، قد يكون نقمة وعذاب لقوله: ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ فإن السيل في الأصل هو اجتماع المطر حتى يتدفق، الأصل أنه خير، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهذا خير أو لا؟ خير ولكن أحيانًا يكون عذابًا.

٦- **ومن فوائدها:** بيان ضلال أولئك القوم الذين إذا أصابتهم مثل هذه المصائب من

الفيضانات وأشبهها لم يتأثروا لذلك، فإن هذه الفيضانات التي تدمر، إنما هي عقوبة من الله عز وجل، عقوبة ليبتلي به أولئك المعذبين، ويرتدع بها مَنْ كان على شاكلتهم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - بإرسال هذه السيول الجارفة التي أغرقت ثمارهم وزروعهم، ونبت بعد هذه الثمار والزروع نبت خمط وأثل وشيء من سدر، فبعد هذه الجنات العظيمة صار سدرًا أي حلّ محلها.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحكمة في أن الله - عز وجل - جعل بدل جنتيْنِ جنتين أخرتين؛ لأن الطاعة نور وصلاح وفلاح فيناسبه الجزاء بالعطاء، والمعصية ظلمة وفساد فناسبه أن يكون فيها البدل السيء بالنسبة لما قبله.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾

١ - **في هذا دليل على:** أن الله - عز وجل - لا يجازي أحد بعقوبة إلا بفعله؛ لقوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ وفيها أيضًا إثبات الأسباب؛ لأن (الباء) هنا للسببية، وفيها الفرق بين يجزي ويجازي فهنا قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ لكن نجزي في الثواب، ونجازي في العقاب هكذا قال بعض العلماء فتقول للكافر: جزاك الله، وتقول للمسلم: جازاك الله، ففي الخير نقول: جازاك، وفي الشر: جزاك، ووجه ذلك: أن الخير عطاء محض، وإن العقوبة مجازة ومكافأة؛ ولهذا نقول: جازاه يصاغ الفعل على صيغة المفاعلة، والمفاعلة تكون في الأصل مِن طرفيْنِ.



قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٨، ١٩]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

(جعلنا بينهم) كل الإضافات كلها فيها نسبة الفعل إلى (نا) الدالة على العظمة (جعلنا بينهم) الضمير يعود على سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ القرى جمع قرية سواء كانت كبيرة أم

صغيرة وسميت قرية؛ لأنها تجمع وما اشتهر عند الناس: أن القرية هي المدن الصغار، هذا اصطلاح عرفي وإلا فإن الله يقول في أم القرى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ فالقرية اسم للبلد سواء كان كثيرا أم قليلا سمي بذلك؛ لأنه يجمع الناس وقوله: ﴿الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ ما هي القرى التي بارك الله فيها؟ قيل: إنها قرى اليمن كصنعاء ونحوها، وقيل: أنها قرى الشام، ولكلٍّ من القولَيْنِ وجه؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بارك في الشام وبارك في اليمن قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا»[1] ولهذا اختلف المفسرون هل المراد بالقرى التي بارك الله فيها قرى الشام أم قرى اليمن؟ قرى الشام، لبعدها، فهم يذهبون إلى الشام ويرجعون منها فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ قال المؤلف: [باركنا فيها بالماء والشجر] يعني والثمار [وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة] ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [متواصلة من اليمن إلى الشام] ﴿ظَاهِرَةً﴾ يعني بينة يُرى بعضها من بعض؛ لأن القرى إذا كانت بعيدة عن الثانية ما ترى الظاهرة، إذا خرجت من قرية إلى قرية، وهي بعيدة منها فهل تكون القرية الثانية ظاهرة لك؟ لا، وتحتاج لأحد يدلك، لكن إذا كانت متواصلة متقاربة صارت ظاهره بادية للعين، فهذه قرى متصل بعضها ببعض من اليمن إلى الشام، والذين قالوا: إن المراد قرى اليمن لأنه لا يُعْلَمُ أنه هناك قرى متصلة من اليمن إلى الشام، وقالوا: إن الواقع يدل على خلاف ذلك، وأن المراد بالقرى قرى اليمن، وعلى كل حال لكل واحد من القولين وجه.

قال: [﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة من اليمن إلى الشام] ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ يعني جعلناه مقدرًا بمراحل، ينزلون من قرية إلى أخرى مرحلة مرحلة يقول: ﴿قدرنا فيها السير﴾ [بحيث يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى إلى انتهاء سفرهم ولا يحتاجون فيه إلى حمل زاد وماء]، وهذا معني تقدير السير: أن يكون مقدّر بمراحل، حسب هذا التقدير يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ثم يقيلون في الثانية ويبيتون في الأخرى وهكذا، ولا شك أن تقدير السير على هذا الوجه، لا شك أنه من نِعَم الله على الناس فإن الخطوط الطويلةَ التي ليس فيها مدن تكون في الغالب طرق مهلكه ومخيفة، لكن إذا كانت متواصلة صارت أيسر للسالك وأشد طمأنينة، بل وأقرب للسير؛ لأنك إذا مشيت من قرية إلى أخرى تحس أنك قطعت مرحلة، مثل القرآن الكريم الآن لما جعل آيات وسور وأجزاء صار أسهل للقارئ، والكتاب إذا كان مفصلًا بأبواب وفصول، صار أيسر، أيضًا الطريق الحسي طريق الأرض، إذا كان فيه قرى متوالية كان أيسر من الطريق الطويل الذي يمل فيه الإنسان ولا يرى أنه قطع مسافة فيه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٣٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال المؤلف: [قلنا سيروا] وعليه فتكون هذه الجملة في موضع نصب مقولاً لقولٍ محذوف قلنا: سيروا، وهذا القول شرعي أو قدري؟ يعني أنه تعالى قال لهم: سيروا في هذه الطرق فيها ليالي، أي في هذه القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [لا تخافون ولا في ليل ولا في نهار]، وهذا من نعم الله أنهم يسيرون ليلا ونهارًا آمنين، لا يخافون من أحد، ولا يخافون من تلف، ولا من انقطاع ماء، ولا من فقد طعام، ولكن ماذا صار؟ ما صبروا على هذه النعمة والعياذ بالله قالوا:

﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ما شكروا النعمة وكان عليهم أن يشكروا الله على هذه النعمة ويغتبطوا بها، ولكنهم لم يصبروا عليها، حتى سألوا الله أن يباعد بين أسفارهم فتكون الأسفار طويلة، ما فيها طرق، وهذا نظير قول أصحاب موسى له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بينما كانوا في الأول يأكلون رغدا من المن والسلوى، لا تعب، وطعام طيب، لكن لم يصبروا عليه، هؤلاء ما صبروا على هذه النعمة التي هي من أحسن النعم في الأسفار ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [وفي قراءة سبعية بَعِّدْ] ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [إلى الشام اجعلها مفاوز]، المفاوز جمع مفازة وهي الأراضي التي يُخْشَى فيها من الهلاك، وسميت مفازة من باب التفاؤل، إلا أنه في الحقيقة ما هي مفازة بل هي هلاك ومهلكة، لكن العرب تطلق الشيء على ضده تفاؤلًا، كما قالوا في الكثير: إنه كبير هذا أيضًا مثلها، يقول المؤلف في تفسير مفازة: اجعلها مفاوز لماذا؟ قال: [ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء، فبطروا النعمة] لما كانت القرى ظاهرة ومتقاربة ولا تجد فيها حمل زاد صار الأغنياء والفقراء فيها على حد سواء في هذه الطرق، فإذا تباعدت صار ذلك مِنْ حَظِّ مَنْ؟ الأغنياء، فسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم من أجل أن يتطاولوا على فقرائهم، فهؤلاء الأغنياء يركبون ما شاء من الزاد، وأما الفقراء فلا يستطيعون، ذلك هذا هو السبب في أنهم دَعَوْا الله أن يباعد بين أسفارهم.

يقول ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بماذا إما [بالكفر]، وإما بدعاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يباعد بين أسفارهم، فلم يقبلوا نعمته لهذه الراحة ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ [لمن بعدهم في ذلك].

إن قصتهم كانت أحاديث للناس يتحدثون بها أنه حصل «كَيْتَ وكَيْتَ» ولهذا من الأمثال المعروفة (تفرقوا أيدي سبأ) يعني: أنهم تفرقوا كتفرق سبأ، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بعد أن كانوا أشياء حقيقية ثابتة، صاروا أحاديث.

وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يعني [فرقناهم في البلاد كل التفرق] وشُرِّدوا وتشتتوا؛ لأنهم كفروا النعمة وظلموا أنفسهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى كل ما سبق من هذه القرى الظاهرة وصورة السفر، ثم سؤالهم أن يباعد الله بين أسفارهم، ثم تمزيقهم في البلاد كل ممزق.

قوله: ﴿لَأيَٰتٖ﴾ [عِبَرًا] كيف قال لآيات وهي قصة واحد؟ لأنه قصة واحدة لكنها تشتمل على أجزاء، كل جزء منها يستحق أن يكون آية.

وقوله ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ صبَّار صيغة مبالغة أي ذي صبر على البلية، والصبر في اللغة: المنع والحبس، وفي الشرع المنع والحبس عما يحرم عند المصائب[1]، والناس في المصائب لهم أربع مراتب: مرتبة السخط، ومرتبة الصبر، ومرتبة الرضا، ومرتبة الشكر وهو أعلاها، فالتسخط حرام، والصبر واجب، والرضا مستحبٌ على القول الراجح، والشكر كذلك مستحب، ولهذا قال هنا: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على أي شيء؟ عن المعاصي، بل وعلى أقدار الله، بل وعلى أوامر الله؛ لأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله ﴿شَكُورٖ﴾ أي قائم بشكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه، فيشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمه، وأما كونها آيات لأن شكر الله موجب لبقاء نعمته على العبد.

وأما كونها آيات؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى حالهم، سلك مسلك الشاكرين، واجتنب مسلك الجاحدين المُنكرين.

الفوائد:

قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على سبأ حيث جعل القرى ممتدة من اليمن إلى الشام قريب بعضها من بعض، وفيه أيضًا أن الطرق إذا كانت بين قرى متجاورة فهي آأمن وأقرب إلى السلامة لقوله ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن السير فيها مقدر مرحلة مرحلة بين هذه القرى، وأن تقدير السير أنشط للمسافر وأسهل له؛ لأنه إذا كان بين القرى تباين بعيد تعب المسافر وَمَلَّ، لكن إذا صار يقطعها مرحلة مرحلة، صار ذلك أنشط له وأهون عليه، - وذكرنا من هذا تجزئة القرآن ومسائل العلم في الكتب المصنفة - حتى يقطعها الإنسان مرحلة مرحلة، فيكون ذلك أسهل عليه، وربما نأخذ منها فائدة لمن أراد حفظ القرآن أن يحفظه شيئًا فشيئًا؛ لأن بعض الناس ربما يكتب له ورقة كاملة ثم يرجع يحفظها فيصعب عليه، لكن إذا حفظها آية آية كان هذا أسهل في الغالب.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأمن في الأوطان من أكثر النعم، لقوله ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ والأمن لا أحد يخفى عليه أنه من أكبر النعم.

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه الماتع «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» في معنى الصبر (أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما).

ثم قال الله تعالى على لسانهم: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾

١ - **في هذا دليل على:** أن هؤلاء القوم لم يصبروا على هذه النعم، بل طلبوا زوالها وتغيرها وهل هذا القول باللسان، أو بالفعل بمعني هل قالوا فعلًا: ربنا باعد بين أسفارنا أو أنهم لمَّا ظلموا أنفسهم وكفروا صار ذلك سببًا لتباعد مابين هذه القرى حيث دُمرت وفسدت وخربت؟ الأول هو ظاهر الأمر أنهم قالوا ذلك فعلًا فباعد الله بينهم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء القوم لما بطروا النعمة وعجزوا عن شكرها وأضافوا إلى ذلك ظلم أنفسم بالكفر لقوله: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء القوم صاروا أحاديثًا للناس من بعدهم، وهذا نوع من الخزي والعار والعياذ بالله أن يشتهر أمر الناس أو أمر الإنسان حتى يكون أحدوثة لمن بعده، ولهذا قال ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾

٤- **ومن فوائدها:** أيضًا أن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالاجتماع في قراهم وقبائلهم مزقوا كل ممزق، فشردوا في البلاد وتفرقوا لقوله﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن ما يفعله الله ـ عز وجل ـ بالعصاة والظالمين يكون آية للمعتبرين سواء إن كان في ضراء فيصبرون أو سراء فيشكرون لقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** فضيلة الصبر والشكر، الصبر على الضراء، والشكر على السراء، والإنسان دائمًا مصاب بهاتين الفتنتين: إما ضراء، وإما سراء؛ قال الله تعالى:﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ والموفق من أعطى كل حال ما يجب لها، ففي الضراء يجب عليه الصبر وانتظار الفرج، وليعلم أن الله ـ عز وجل ـ إذا قدَّر عليه الضراء، فإن ذلك نعمة مِنَ الله عليه، كيف ذلك؟ لأن الصبر ـ كما نعلم ـ درجة عالية، ومنزلة الصابرين من أعلى ما يكون من المراتب والمنازل، هذه الدرجة أو المرتبة أو المنزلة إذا لم يكن هناك شيء يُمتَحن به العبد، فإنه لن ينالها، لابد من أذى، ولابد من مصائب يصبر عليها الإنسان، حتى ينال بذلك درجة الصابرين، وكذلك أيضًا الشكر درجة عالية لا ينالها إلا من وُفِّق فإن الإنسان إذا أذاقه الله النعماء من بعد الضراء فالغالب عليه أن يفخر ويفرح ويبطر، فإذا أضاف إلى ذلك الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، نال هذا درجة الصابرين الشاكرين، قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»، وانتظار الفرج معونة على الصبر؛ فإن الإنسان إذا أيس ولم ينتظر الفرج، ضاقت عليه الدنيا وتضاعفت عليه المصيبة، لكن إذا كان ينتظر الفرج مؤمنٌ بذلك، هان عليه الأمر.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢٢]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ صدَّق [بالتخفيف والتشديد] صدّق بمعنى أُخبِرَ بالصدق، وصدَق أَخْبرَ بالصدق، فالإنسان إما مُخبِر، وأما مُخبَر فالمخبِر نقول: صَدَق، والمخبَر نقول: صدَّق، يقول الله - عز وجل - صَدَقَ، وصدَّق والقراءتان هنا تحملان معنيَيْن: معني الصدق والتصديق، فالفائدة من هاتيْنِ القراءتيْنِ أنهما تدلان على معنيين، يتبين ذلك بشرحهما.

قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ عليهم [أي الكفار منهم سبأ] ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [أنهم بإغوائه يتبعونه] فاتبعوه، فصدق بالتخفيف في ظنه، أو صدق بالتشديد ظنه [أي وجده صادقًا]، إبليس له ظن في بني آدم ما هو ظنه؟ ظنه أنه يغريهم أجمعين، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ هذا ما كان يأمله ويرجوه، ويظن إما ظنًا راجحًا وإما ظنًا متيقنًا، لكن لا يمكن أن يتيقن، وإنما يظن ظن الراجح فهنا صدق ظنه، وما ظنه؟ أنه كان يقول: أنه سيغويهم فصدقه؛ لأنه أغواهم، أو صدق عليهم إبليس ظنه أنه لَمَّا ظن نفذ ما قال، فيكون صدق، والحاصل أن الظن الذي ظنه إبليس إغواؤهم، هذا هو الظن، هذا الظن إما أن يكون بإغوائه إياهم قد صدقه، حيث وقع منه أولا فصدقه بتصديقه فعلا، أو صدق عليهم إبليس ظنه أنه لَمَّا ظن ذلك الظن صدقه وفعله، والمعني أن ما توقعه الشيطان وظنه من إغواء الكفار - ومنهم سبأ - وقع مؤكدًا باللام، وقد، والقسم، فتبعوا الشيطان، والشيطان - لو نظرنا - ما هو الجامع لما يأمر به؟ يأمر بالفحشاء ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فهو يأمر بالفحشاء والمنكر، وكل فعل قبيح إذا اتبعه الإنسان في الفحشاء والمنكر وفعل الخبيث فقد تبعه وَضَلَّ عن هدى، وإن خالفه فقد نجا.

ولهذا قال: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ ﴿إِلَّا﴾ [بمعني لكن] ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [للبيان] قال المؤلف:

﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن إشارة إلى أن الاستثناء هنا منقطع؛ لأن الاستثناء بإلا بمعني لكن صار منقطعًا، ولكن الذي حمل المؤلف على هذا لأن قوله ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ظاهره أن صدق عليهم جميعًا، وعليه فالمؤمنون لم يدخلوا في ذلك فيكون الاستثناء هنا منقطع؛ لأن إبليس لم يصدق الظن إلا على الكفار، أما لو جعلنا صدق عليهم إبليس ظنه عام للقبيلة كلها، أو لبني آدم كلهم، ثم قال: إلا فريقًا من المؤمنين؟ لكان هذا الاستثناء متصل، والحاصل إذا جعلنا الضمير عائد على الكفار الذين اتبعوا إبليس، فإن الاستثناء يجب أن يكون منقطعًا، وإن جعلناه عامًا لبني آدم، أو جنس هذه القبيلة (سبأ) صار الاستثناء متصلًا، وقوله ﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المؤلف يقول رَحِمَهُ اللهُ من المؤمنين [للبيان] كيف للبيان يعني (مِنْ) بيانية وليس تبعيضية؛ لأنها لو كانت للتبعيض لكان المعني: إلا فريقًا من المؤمنين نجا منه وفريقًا آخر لم ينجوا، وهذا المعني فاسد، وعلى هذا تكون من للبيان، إلا فريقًا من هؤلاء فريق المؤمنين قال المؤلف: [أي هم المؤمنون لم يتبعوه] ﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إذا قلت جاء فريق من القوم، كلهم جاءوا أم لا؟ لا، فمِنْ للتبعيض (إلا فريقًا من المؤمنين) إذا جعلنا مِنْ للتبعيض، فسد المعني؛ لأن المؤمنين كلهم لم يتبعوه، ولهذا احتاج المؤلف أن يجعل (مِنْ) بيانية وتكون (المؤمنين) بيانًا لقوله (فريقًا)، كأنه قال فاتبعوه إلا المؤمنين، هذا معني الآية.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ الضمير يعود على إبليس ﴿عَلَيۡهِم﴾أي: على القوم الذين أغواهم ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ (مِنْ) زائدة لفظًا، لا معنىً، و﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ اسم كان مؤخر، أي: (ما كان له سلطان عليهم) والمراد بالسلطان هنا التسلط، أو التسليط، ولهذا قال [تسليط] فهي إذن اسم مصدر، وليس المراد بها السلطان الذي هو القوة والقهر والمعنى: ما كان للشيطان عليهم تسليط (إلا لنعلم، وهذا تقدير المؤلف أن السلطان مع التقدير يكون الاستثناء متصلًا، أي: ما جعلنا للشيطان تسليطًا عليهم إلا لنعلم، وإذا جعلنا السلطان بمعنى التسلط، أو القدرة، فالاستثناء هنا منقطعًا، أي: ما كان له عليهم سلطة، لكن لنعلم من يتبعه إلى آخره.

وقوله ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن﴾ (اللام) هنا للتعليل أم للعاقبة؟ يحتمل أن تكون للتعليل أو للعاقبة، وعلى كلا التقديريْنِ فيها إشكال: هو أن ظاهرها يدل على تجدد علم الله، ومعلوم أن علم الله أزلي أبدي أي قديم مستمر لابد أن يستمر، فكيف أن تكون اللام هنا للتعليل أو للعاقبة؟ يقول المؤلف في تفسيرها: [علم ظهور] وذلك لأن تعلق علم الله بالشيء له حالان، الحال الأولى: قبل وجوده، والحال الثاني: بعد وجوده، فتعلق علم الله به بعد الوجود يسمي علم ظهور، أي: عَلِمَهُ بعد أن ظَهَرَ وبان، وعلْم الله قبل وجوده علْم تقدير أي أنه قدَّر أن يكون، وعلم التقدير هو أنَّ الله

لم يزل ولا يزال عالمًا بكل ما يكون، إذا قلنا: إن العلم علم تقدير وعلم ظهور، زال الإشكال وصار علْم الله لشيء بعد وقوعه علمًا بأنه ظهر ووقع، وعلْم الله قبل وقوعه علمًا بأنه سيقع، وفرْقٌ بين المتعلّقين.

وقيل: أن المراد بالعلم هنا العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان، فإن علم الله تعالى بالشيء قبل أن يقع علْمٌ لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب؛ لأن المكلف لم يؤمر ولم يَنْهَ، فإذا أُمر ففعل، أو أُمر فلم يفعل حينئذٍ صار مثابًا، أو معاقبًا كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وعلى هذا الوجه يكون علم الله تعالى علميْنِ، علم معناه أن الله تعالى عالم بأن هذا الشيء سيقع، ولكن لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعلم يترتب عليه الثواب والعقاب، وذلك لا يكون إلا بعد امتحان المكلف به، وهل يقع وهل يفعل، أو لا يفعل، يعني هل يمتثل، أو لا يمتثل؟ فتبين أن في هذه المسألة التي ظاهرها تجدد علم الله، أن عنها جوابيْنِ، الجواب الأول: العلم الذي يتبين له الخفي؛ لأن الأمر لم يزل ولا يزال أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ واضحًا وظاهرًا قال: إلا أن يعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك، هنا ضَمَّن نعلم معنى نميز، ولهذا قال: مَنْ هو؟ يعني إلا لنميز مَنْ يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، والناس بالنسبة للآخرة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا بها، وقسم كفروا بها وأنكروا، وقسم في شكٍّ، الذين آمنوا بها أمرهم واضح والذين كفروا بها.

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا: هذا لا يمكن، هذا أمرهم واضح، والذين ترددوا قالوا: يمكن أن تكون حقًا أو أن تكون باطلًا، بأي القسمين يُلحَقون بالكافر أو بالمؤمن؟ بالكافر؛ لأن الواجب أن يؤمن بالكلّ ولهذا قال عز وجل: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ فكيف بِمَنْ هو منها منكرٌ وجاحدٌ ومكذبٌ؟ فالله ـ عز وجل ـ جعل للشيطان سلطة على بني آدم لأجل أن يمتحن هؤلاء الناس، فيعلم مَنْ يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، الذي في شك من الآخرة يتبع مَنْ؟ يتبع الشيطان قطعًا؛ لأنه لا يؤمن بأنَّ هناك يوم آخر يثاب الناس فيه ويعاقبون، فهو يرى أن لنفسه الحرية المطلقة، وهي في الحقيقة حرية مِن شيء وَرِقٌّ في شيء، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ هربوا من الرِّقِّ الذي خُلقوا له، ما هو الرِّق الذي خُلقنَا له؟ العبودية لله ـ عز وجل ـ وبُلُوا برق النفس والشيطان ـ نسأل الله العافية ـ يعني صاروا عبيدًا لأنفسهم وشياطينهم، فلا يمكن أن يتحرر الإنسان من عبادة الله على زعمه إلا إذا كان رقيقًا لغيره للنفس والشيطان، والحاصل أن هؤلاء الذين كانوا في شك من الآخرة لا يمكن أن يعملوا، ولا أن يقوموا بطاعة الله، ذلك لأن الذي يقوم بطاعة الله هو الذي يؤمن بأنه سوف يحشر ويثاب، أو يعاقب.

قال ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ الجملة خبرية تفيد لازم ذلك المعنى،

فهي خبرية تفيد أن الله على كل شيء حفيظ، أو مراقب ومطلع ومهيمن على كل شيء، سواء كان ذلك مما يتعلق بفعله أو يتعلق بفعل الخلق، فهو جل وعلا رقيب على كل شيء ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هذا المعني يستلزم معني آخر، وهو التحذير من المخالفة؛ لأن الإنسان متى علم أن الله حفيظ على كل شيء خاف ولم يخالف، أما إذا كان في شك من هذا فإنه سوف يعمل كما يشاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾

قوله: ﴿قُلِ﴾ [يا محمد لكفار مكة]، فهنا المؤلف جعل الخطاب خاص من وجهيْنِ، من جهة المخاطِب، ومن جهة المدعُوّ المخاطَب. قال قل: [يا محمد] والمدعو كفار مكة، ولكن هذا غير مسلم به للمؤلف، أو للمفسر بل نقول: (قل) يمكن أن تكون موجهة لكل مَنْ يُتوجَّه الخطاب إليه من الرسول ﷺ أو مَنْ ورثه مِنْ أمته، أي قل: (أيها الناس) أما بالنسبة للمدعوين فنقول الأصح: أنه أعم لكل مَنْ دعا مع الله غيره من كفار مكة وغيرهم، وهكذا يجب أن يكون لدينا قاعدة، وهو أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الخطاب خاصًا، أو عامًا، وجب أن يكون عامًا؛ لأن العام يدخل فيه الخاص ولا عكس، وكلما كان معني القرآن أوسع كان أوجب، إذن نقول: قل (أيها المخاطب) ممن تدعو إلى الله قل للذين يدعون مع الله غيره ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتموهم آلهة، ادعوهم، هل المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة أو دعاء الإحضار؟ ادعوهم أي احضروهم، أو دعاء المسألة يعني اسألهم أي اطلبوا منهم الحوائج، هل يستجيبون لكم أو لا؟ يحتمل المعنييْنِ يحتمل معني أحضروهم لنناقشهم، أو ادعوهم دعاء مسألة اسألهم، كما تقول: ادع الله أي اسأله.

المشركون يدعون هذه الآلهة أن تنفعهم فهل تنفعهم؟ لا يمكن أن تنفعهم؛ وذلك لانتفاء أسباب النفع من عدة أوجه، أولًا: لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض استقلالًا، ولا يملكون ذلك مشاركة، وليس لهم معونة ولا شفاعة إلا بعد إذن الله، فبين الله ـ تعالى ـ أن أسباب النفع في هذه الآلهة منتفية فقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الجملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرة من خير أو شر في السموات ولا في الأرض ولا دون المثقال؛ لأن التقدير إذا قصد به المبالغة فلا مفهوم له، سواء كان في الكثرة أم في القلة، فهنا لا يملكون مثقال ذرة يعني ولا دونها ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ولو أكثر من سبعين فلن يغفر الله لهم، ولهذا قال في آية المنافقين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فإذا جاء القيد للمبالغة قلة أو كثرة فليس له مفهوم، إذن لا يملكون مثقال ذرة ولا دونها في السموات ولا في الأرض، ولو كانوا

يملكون ذلك لقلت: نتعلق بهم لعلهم يعطوننا مما يملكون، هل لهم شرك في السموات أو في الأرض؟ لا، ولو كان لهم شرك لقلتم لعلهم يعطوننا من نصيبهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [شركة] (مِنْ) هذه زائدة لفظًا لا معنىً، وعلى هذا فشرك مبتدأ مؤخر وخبره جاء مقدم، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ يعني ما لهم شرك في السموات ولا في الأرض، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ [تعالى] ﴿مِنْهُم﴾ [من الآلهة] ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ أيضًا نقول فيها كما قلنا في ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي من زائدة لفظًا لا معنىً، وظهير مبتدأ مؤخر والظهير بمعني [المعين] كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ إذن ليس لهم مع الله معونة حتى يدلوا على الله بها ويقولون: اعطنا عوض معونتنا لننفع من يدعونا، ما لهم مساعدة مع الله ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ معين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

١- **يستفاد من هذا:** أن إبليس يوصف بالصدق ويوصف بالكذب، وما هو الوصف اللازم له؟ الكذب، قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقال النبي ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1] ولكن قد يصدق.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ في تسليط الشيطان على بني آدم، وهي أن يُعْلَمَ مَنْ يؤمن بالآخرة فيعمل لها، ممن لا يؤمن ويكون في شك فلا يعمل؛ لقوله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان حاجر عن اتباع الشيطان لقوله ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولهذا يمر بكم كثيرًا فيما يمر بكم، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون كذا وكذا»، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليقل كذا وكذا»، «أو فليفعل كذا وكذا» مما يدل على أن الإيمان حاجز عن اتباع الشيطان وموجب لاتباع هدي الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشيطان إمامٌ لكل ضال لقوله ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ فكل الضالين إمامهم الشيطان وهم متبعون له.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إذا قلنا أن (مِنْ) للتبعيض وأن المراد بالاتباع الاتباع المطلق.

٦- **ومن فوائدها:** أن بعض المؤمنين قد يتبع الشيطان في بعض الأمور؛ لأننا من قبل قلنا: ربما يكون الاستثناء متصلًا وتكون (مِنْ) للتبعيض إذ أن بعض المؤمنين قد يتبعون الشيطان في بعض

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأمور مثال ذلك: «لَا يَأْكُل أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ وَلَا يَشرَبْ بِشِمَالِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»[1]، إذا فعل أحد ذلك صار متبعًا للشيطان، ولهذا كان القول الراجح تحريم الأكل بالشمال والشرب بالشمال وأنه ليس مكروهًا فقط، بل هو حرام، والإنسان يكون عاصيًا بذلك إلا إذا كان أفنديًا تقدميًا حضاريًا فإنه يأكل بالشمال، الشوكة ما فيها شيء لكن الكلام عن اليد الشمال إذا أكلت باليمين ما في مشكل لكن إذا أكلت بالشمال هذه هي المشكلة التي يزعم فاعلوها أنهم تقدميون وحضاريون ولكن ليس كل تقدم محمودًا فإن الله تعالى يقول عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ إذن على هذا القول الأخير أن ﴿مِن﴾ للتعبيض يكون الاستثناء متصلًا ويكون لبعض المؤمنين شيء من اتباع الشيطان لا الاتباع الكامل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علم الله؛ لقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ وتعلق علم الله تعالى بالموجودات سبق لنا أنه ينقسم إلى قسمين: تعلق بها قبل الوجود وتعلق بها بعد الوجود، فالتعلق بها بعد الوجود يكون علمه بها علم أمرٍ واقعٍ، والأول يكون تعلق علمه بها أنه علم بما سيقع وبهذا يزول الإشكال في مثل هذه الآية حيث أن ظاهرها يفيد تجدد علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأننا نعلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ محيط بكل شيء علمًا أزلًا وأبدًا ومن ظن أن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وجوده فقد كفر.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الآخرة ووجوب الإيمان بها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشك فيما يجب فيه اليقين كفر؛ لقوله ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ (ولم يقل ممن هو منكر لها) لكن قال ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ لنستفيد من فوائدها: وهو أنه ما يطلب فيه اليقين يكون الشك فيه كالإنكار وكلاهما كفر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم رعاية الله ومراقبته لكل شيء تؤخذ من ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن ربوبية الله ـ عز وجل ـ تنقسم إلى خاصة وعامة والخاصة إلى أخص وإلى خاصة كقوله ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فهذه ربوبية أخص من الخاصة فإن ربوبية الله ـ عز وجل ـ لخواص عباده كالأنبياء أخص من ربوبيته لعموم المؤمنين وخصوصيته للمؤمنين أخص من ربوبيته لعامة الناس ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ خاصة أو عامة؟ خاصة إذن لما كانت الربوبية الخاصة هنا قد توهم باختصاص ربوبيته بهذه البلدة قال بعدها ﴿وَلَهُۥ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٥/ ٢٠٢٠) من حديث ابن عمر ﷺ.

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عام.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية دليل على:** أنه ينبغي في المناظرة التحدي للمناظر فيما يعلم أنه لن يكون لقوله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ فيجب على كل دعاة الحق أن يتحدُّوا هؤلاء المبطلين بإن يبرزوا لباطلهم شيئًا من النفي وهذا كما أنه في الشرك يكون أيضًا فيما دونه فإنه ينبغي أن يكون الداعي إلى الله - عز وجل - على علم بالأمور حتى يستطيع الجدل فيها؛ لأن من لم يكن على علم فيها فإنه سيقف حيران ولا يتمكن من مقابلة الخصم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الأصنام المدعوة من دون الله لا تملك شيئًا لنفسها فلا تملك شيئًا لغيرها ليس لها ملك ولا شرك في الملك ولا معاونة على تصرف ولا شفاعة والأمر في هذا واضح ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي ماله الله منهم ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

٣- **ومن فوائدها** إثبات الشفاعة بإذن الله لقوله﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ولو كانت لا تنفع مطلقًا ما صح الاستثناء ولو كانت تنفع مطلقًا ما صح النفي لو كانت الشفاعة مطلقًا تنفع أذن الله فيها أو لم يأذن ما صح النفي ولو كانت تنفع مطلقًا ما صح الاستثناء، إذن فهي تنفع بإذن الله، ولا تنفع الشفاعة عنده أي عند الله إلا لمن أذن له، وهنا لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له لكمال سلطانه فالنفي هنا متضمن الإثبات وهو كمال السلطان؛ لأن من كمال السلطان ألَّا يتكلم أحد عند الملك المشفوع إليه أبدًا إلا بإذن ولهذا تجد الإنسان إذا كان ذا هيبة عند الناس وكان في مجلس تجد الناس ما يتكلمون هيبةً له وتجد السلطان إذا كان ذا هيبة ما أحد يقدر يتكلم في مكان جلوسه ولا مع أخيه سرًا؛ لأنهم يهابونه فلكمال سلطان الله - عز وجل - لا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه حتى أخص عباده به وهم الأنبياء وأخصهم محمد ﷺ لا يمكن أن يشفع إلا إذا أذن الله حتى في مقام الرحمة يوم القيامة فإن الله تعالى «يَجْعَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِائَةَ رَحْمَةٍ يَرْحَمُ بِهَا الخَلْقَ»[1] في مقام الرحمة وعند شدة الهم والغم المقترن برحمة الله ما يمكن أن يشفع الرسول ﷺ إلا بإذن الله أبدًا، لماذا؟ لكمال سلطان الله - عز وجل - إذا كانت الشفاعة لا تنفع إلا بإذن الله فهل هذه الأصنام المقبوحة عند الله المنحطة عنده قدرًا، تشفع؟!



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (١٨/ ٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

التفسير

[قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ تعالى ردًا لقولهم إن آلهتهم تشفع عنده ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة وضمها] أُذِن له فيها إذا قالوا: نعم آلهتنا لا تملك شيئًا لا في السموات ولا في الأرض آلهتنا ليس لها مشاركة مع الله آلهتنا لم تعن الله لكنها تشفع كما قالوا ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع قطع الله هذه الوسيلة الأخيرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إذن هذه الآلهة لا تستطيع أن تشفع إلا بعد إذن الله وهل يمكن أن يأذن؟ لا يمكن؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويقول عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ ومعلوم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يرضى عن الكافرين، لا أن يشفعوا، ولا أن يشفع فيهم فتبين أن جميع ما يتعلق به المشركون في شركهم مع الله كله باطل وكله ممتنع، فإن الأسباب التي يمكن أن ينتفعوا بها واحد من أمور أربعة. نعدها:ـ

الملك استقلالًا، الملك مشاركة، الإعانة، الشفاعة، وكل هذه الأربعة منتفية في عبادة هذه المدعوة من دون الله فانقطع كل سبب يتشبث به المشركون، وحينئذٍ فيجب أن تكون العبادة والدعاء لمن؟ لله تعالى وحده؛ لأنه الذي له ملك السموات والأرض فما هي الشفاعة؟ الشفاعة في اللغة: جعل الفرد شفعًا وجعل الوتر شفعًا ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ فضم واحد إلى واحد شفع وضم واحد إلى ثلاثة شفع وهكذا لكنها في الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة، هذه الشفاعة: أن تتوسط لغيرك إما بجلب منفعة له أو دفع مضرة فالشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة في جلب منفعة، والشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج هذه شفاعة لدفع الضرر فلا تخرج الشفاعة عن هذين الأمرين إما لجلب النفع وإما لدفع الضرر، إنسان شفع لشخص في أن تعلو مرتبته، جلب منفعة، شفع لشخص كُتِبَ عليه غرامة أن تُرْفَعَ عنه الغرامة هذا دفع مضرة، وقوله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الإذن هنا الكوني أو الشرعي؟ الكوني، يعني إلا لمن أذن الله له في أن يشفع، وشرط الإذن أن يكون الله تعالى راضيًا عن الشافع والمشفوع له فيأذن فيها ـ سبحانه وتعالى ـ كرامة للشافع وبيانًا لفضله ورحمة بالمشفوع له وإحسانًا إليه.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ [وهو العلي فوق خلقه بالقهر] هذا فيه إما تقصير وإما قصور؛ لأن علو

الله ـ عز وجل ـ ليس بالقهر فقط، بل علوه ثلاثة أقسام: علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات، لكن المؤلف ـ عفا الله عنا وعنه ـ كأنه لا يرى علو الذات.

والمنكر لعلو ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسمون إلى قسمين: حلولية، ومعطلة محض تعطيلًا محضًا.

فالحلولية يقولون: أنه يجب عليك أن تؤمن بأن الله في كل مكان بذاته وتنفي علوه، إن كنت في المسجد، أو في السوق، أو في البر، أو في البحر فالله ـ سبحانه وتعالى ـ بذاته في ذلك المكان وإن كنت في الحش فهو في الحش مكان التخلي - والعياذ بالله - ما نزهوا الله عن الانتان والأقذار ـ نسأل الله العافية ـ ولا شك أن هذا كفر محض ولا يشك أحد في كفر من اعتقد هذه العقيدة.

والطائفة الثانية المنكرة للعلو وهم المعطلة يقولون: أنه لا يجوز أن نقول: أن الله فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا متصل ولا منفصل وهذا تعطيل محض يعني لو قيل صِفْ لنا المعدوم ما وجدت أشد إحاطة بالمعدوم من هذا الوصف الذي لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا خلف ولا أمام ولا متصل ولا منفصل هذا ليس بموجود قطعًا.

أما الرسل وأتباعهم فيؤمنون بأن الله ـ عز وجل ـ بذاته فوق كل شيء وهذا الذي دل عليه العقل والفطرة والإجماع والكتاب والسنة ولنستعرض لهذا الأمر وإن كان الأمر ظاهر لكن الكتاب دل على أن الله بذاته فوق عرشه من وجوه متنوعة فتارة بذكر العلو مثل ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وتارة بذكر الفوقية ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وتارة بذكر صعود الأشياء إليه مثل ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتارة بذكر نزول الأشياء منه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فقد تنوعت الأدلة من كتاب الله على علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأما السنة فكذلك دلَّت السنة على علو الله بذاته من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ربنا الله الذي في السماء»[1] وقال: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2] وأما فعله فإنه في يوم عرفة وهو يخطب الناس عندما خطب تلك الخطبة العظيمة قال لهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يرفع أصبعه إلى السماء وينكثها إلى الناس: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[3] هذا سنة فعلية بإشارته ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين ذكر الله وأما الإقرارية، فإنه أوتي إليه بجارية فسألها فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟»

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود». وصح ما هو خير منه ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٢١/ ١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٤٤/ ١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) صحيح: مسلم (١٤٧/ ١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قالت: في السماء قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(١) هكذا قال ويعتبر هذا إقرارًا فقد تنوعت السنة في الدلالة على علو الله تعالى بذاته، وأما الإجماع فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الأمة على أن الله تعالى في السماء بذاته ولم يقل أحد منهم بحرف واحد إن الله ليس في السماء، أو أن الله في كل مكان بذاته أبدًا، وأما العقل فاسأل عقلك هل الكمال في علو الذات، أو في نفي العلو عنها؟

الأول بلا شك علو الذات تدل على كمال بل هي الكمال فإذا كان العلو هو الكمال فإن من المعلوم عقلًا أن الرب متصف بالكمال وحينئذٍ يثبت له العلو عقلاً، أما الفطرة فاسأل فطرتك عندما تسأل الله شيئًا أين ينصرف قلبك؟ إلى الأعلى ولهذا كان (أبو المعالي الجويني) كان يقرر فيقول: كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء يريد بذلك أن ينكر استواء الله على العرش الذي من إلزامه الإقرار بالعلو فقال له أبو العلاء رَحِمَهُ اللَّهُ دعنا من ذكر العرش وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو فلطم الجويني على رأسه وصرخ وقال: حيرني الهمداني(٢). حيرني لماذا؟ لأن الدليل الفطري لا يمكن أن يُنَازَعَ فيه، ولو نازعه منازع قلت: هذا مجنون، لا لما قال: أنه كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ(٣) ينفي الاستواء على العرش هذا يريد أن يقرر أن الله تعالى لم يستوِ على العرش فينتفي علوه، فالآن نقول أن الأمر الفطري لا يمكن أبدًا لأحد أن ينكره ولهذا تحير أبو المعالي الجويني وعجز عن الإجابة؛ لأن هذا دليل فطري لا ينازع فيه أحد، إذن فقد تطابقت الأدلة على علو الله تعالى بذاته، أما علوه بصفاته سواء كانت صفات قدر أم قهر فهذا يقر به جميع المنتسبين إلى الإسلام حتى الجهمية والأشاعرة وغيرهم يقرون بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عال علوًا معنويًا وهو علو الصفات.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ [فوق خلقه بالقهر] ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ [العظيم]، الكبير العظيم لا شك أن هذا ليس تفسيرًا مطابقًا ولكنه كأن المؤلف أخذه من قرن العظيم بالعلي في آية الكرسي حيث قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهنا قال وهو العلي الكبير ففسر الكبير بالعظيم ولكن الصحيح أن الكبير أعم يعني أن الكبير ليس معناه العظيم بل معناه ذو الكبرياء ومعناه أن الله تعالى لا يماثله شيء في ذاته السموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا وهذا أيضًا تمثيل على سبيل التقليد وإلا فالله تعالى أعظم وأجل فكل المخلوقات

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٣/ ٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي اله عنه.

(٢) أسند القصة أبو منصور بن الوليد الحافظ في رسالة له إلى الزنجاني كما في «العلو» للذهبي ص (٢٥٩) وسنده صحيح.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.

بالنسبة له ـ سبحانه وتعالى ـ ليست بشيء فينبغي أن نقول أن الكبير ليس هو العظيم بل يفيد معني آخر وهو الذي له الكبرياء وهو الذي لا يُنْسَبُ له شيءٌ من خلقه فالسموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا، وفي هذه الآية دليل على إثبات الشفاعة، لقوله ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فإن قلت: ما وجه الدلالة على إثبات الشفاعة مع أنها نفي أي لا تنفع الشفاعة؟ الجواب: أن الله – سبحانه وتعالى – لم يقلْ (ولا تكون الشفاعة)، وإنما قال: (لا تنفع الشفاعة) فهذا دال على إثباتها لكن لا تنفع إلا بإذن الله.

الفوائد:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عظمة الله تعالى وقوة سلطانه هذه ما فيها ما قال (إن الله قوي ذو سلطان أو عظيم ذو سلطان) لكن هي تدل على ذلك باللازم فما وجه الدلالة؟كلما عظم السلطان ازدادت الهيبة وصار لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كما قال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** قطع كل سبب يتعلق به المشركون في آلهتهم ما وجهه؟ قطع كل الأسباب التي يستدلون بها على أنها شفاعة .

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان كرم الله ـ عز وجل ـ على كل من الشافع والمشفوع له.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتكلم بكلام مسموع والآن نأخذ الفوائد بناءً على القول الراجح.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أيضًا أن كلام الله ـ عز وجل ـ ليس ككلام المخلوقين بل هو أعظم؛ لأن السامع له يصعق إلا أن يثبته الله ـ عز وجل ـ لقوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن قول الله عز وجل كله حق لقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية؛ لقوله ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات علوه ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ وهو ينقسم إلى علو ذات وعلو صفات وكلاهما ثابت لله ـ عز وجل ـ.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات الكبرياء لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٩- **ومن فوائدها أيضًا:** أن للملائكة عقول وفهم وإدراك وقلوب لقوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ ولكن هل قلوبهم كقلوب الآدميين؟ الله أعلم لا نعلم كيفيته والملائكة لا يشربون ولا يأكلون وليس لهم أجواف ولا أمعاء؛ لأنه لا يحتاج إلى الجوف والأمعاء إلا من يأكل ويشرب.

١٠- **ومن فوائد الآية:** أن الملائكة يتكلمون ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (مَنْ) اسم استفهام والمراد به التحدي تحدي هؤلاء المشركين الذين يعبدون مع الله غيره هل هذه الأصنام ترزقهم من السموات والأرض؟ لا ولكن الذي يرزق هو الله فيتحداهم بالسؤال ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقوله ﴿مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ لابتداء الغاية أي أن الرزق يأتي من السموات والرزق بمعني العطاء فما هو الرزق من السموات؟ قال المؤلف: [المطر] فإن المطر رزق ينزل للأرض فتنبت وأن الرزق من الأرض فأمره ظاهر ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ثم أننا قد نقول: أن الرزق من السموات أشمل من المطر فإن السموات ينزل منها المطر وينزل منها المنّ والسلوى وربما نقول: أن الطيور في جو السماء إنها من رزق السماء؛ لأنها تأتي من فوق فكل ما يأتي من فوق فإنه يطلق عليه أنه رزق من السموات.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخطاب في قوله ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ والمخاطب في قوله ﴿يَرْزُقُكُم﴾ المشركون فبماذا يجيبون؟ أحيانًا يُجيبون بالصواب فمثل قوله في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، هذا جواب صحيح وأحيانًا لا يجيبون، أو يأبون أن يتكلموا عنادًا وخوفًا من الإلزام؛ لأنهم إذا قالوا الله ألزموا بألا يعبدوا إلا الله إذن كيف تعبدون مَنْ لا يرزق؟وهم أحيانًا يجيبون بالصواب ويقولون: الله ثم يكابرون ويعاندون ويقولون: إنما نعبدهم شفعاء لنا عند الله ليقربونا إلى الله زلفى ما نعبدهم لذواتهم وأحيانًا يأبون الجواب يتلعثمون؛ لأن الحق ثقيل عليهم، وإذا لم يقولوا شيئًا فقل: الله، ولهذا قال ﴿قُلْ﴾ الله هو الذي ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن أبوْا قالوا: (لا هو غيره) ولكن لا يمكن أن يقولوا (هو غيره) فقل مَنْ؟أعاد عليهم السؤال مرة ثانية، قال الله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قال المؤلف: [إن لم يقولوه] يعني إن لم يقولوا هو الله.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ وجوب مناظرة المشركين ومحاجتهم ويؤخذ من قوله ﴿قُلْ﴾ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٢- ومن فوائدها أيضًا: أنه ينبغي أن يستدل بالأوضح والأبين فإن الرزق من الله - عز وجل - أمر معلوم، لا بد على المؤلف أن يقول أنه ينزل المطر أو أنه ينبت النبات ففي باب المناظرة ينبغي على الإنسان أن يستدل بما هو أبين وأوضح وهذه طريقة القرآن كما مر علينا في (قواعد التفسير).

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إجابة السائل بما هو واضح لقوله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ومثاله في الأمور العادية أن أسألك مثلا ما الذي جاء بكذا وكذا ؟ فتتوقف إما جهلا أو مكابرة فأقول أليس فلان هو الذي جاء ؟ فأقرره وهذه أعني إجابة السائل إنما هي في الأمور الواضحة أما في الأمور الغير واضحة فقد يعرض ولا يكون جوابه ممتنعًا ولكن في الأمور الواضحة للسائل أن يجيب نفسه إذا تلعثم الخصم ولم يُجِبْ أما إذا أجاب فالأمر واضح، وهذا الاستفهام في الآية الكريمة هذه هل أجاب عنه المشركون بالحق في موضع آخر؟ نعم في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: جواز محاجة الخصم بما يعرف في باب المناظرة بالسبر والتقسيم بالسبر يعني تتبع الشيء والتقسيم يعني الترديد يعني هذا أو هذا فمثلا هنا ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ تتبعنا الحال وجدنا أن حال كل منا لا تخرج عن حالين: إما هدى، وإما ضلال وهي إما لنا وإما لكم وليس هناك شيء ثالث هذا يعرف بالسبر والتقسيم ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هذه دعواه ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال الله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يعني هل يعلم الغيب؟ يعني سيأتى مالا وولدا ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أن الله أعلمه بذلك وعهد به إليه وفي قسم ثالث الكذب ولهذا قال ﴿كَلَّا﴾ أي أنه لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا ينتفي هذا وهذا، وما يبقى إلا الكذب أنها دعوة كاذبة لا حقيقة لها ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ومنها أيضًا ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وما الجواب ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ إن كان عندكم عهد من الله فإن الله لا يخلف عهده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والجواب: أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون.

٥- ويستفاد من الآية: الاستدلال بما يعرف عند علماء المناظرة أو علماء المناظرة والجدل بالسبر والتقسيم والتنزل معه للوصول إلى الإقرار بالحق، من قوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى

﴿أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لأن هذا تنزل في غاية التنزل مع الخصم ليقر بالحق لمن؟ للرسول ﷺ.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان لا يُسْأَلُ عن عمل غيره ولا يُسْأَلُ غيره عن عمله لقوله: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وغير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ لكل إنسان عمل وَيُسْتثنى من ذلك ما إذا كان عمل الغير ناشئًا عن عملك بأن تكون أنت الدال عليه، أو المعين عليه فإن لك من وزره بقدر عملك قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١) فهل هذا مخالف للآية الكريمة في المعنى؟ لا؛ لأن حقيقة الأمر أن وزر الغير مزيد على وزره فيكون من فعله فيدخل في إجرامه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات السؤال عن العمل؛ لأن قوله ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ يعني من الذي يسئل؟ الإنسان كلٌّ مسئول عن عمله ولو كان السؤال منتفيًا مطلقًا ما صح أن يقول الله تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ فكل إنسان مسئول عن عمله ولابد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ وما دام الإنسان يؤمن بذلك؛ لأنه سيُسْأَلُ عن عمله فسوف يحرص غاية الحرص على أن يكون عمله موافقًا لشرع الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

١- **في هذه الآية:** إثبات البعث والجمع لقوله ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾ وهذا الجمع ثابت بقوله تعالى ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ ويدخل فيه أيضًا الجمع في الدنيا والحساب لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على القدرية لقوله ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ ومعلوم أن اجتماعنا من فعلنا فأضافه الله إلى نفسه؛ لأنه هو المدبر له -سبحانه وتعالى- المقدر له.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن حكم الله -عز وجل- كله حقٌّ وعدل لقوله ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالعدل الذي ليس فيه ظلم ولا جور.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات ما قرره أهل السنة والجماعة من أن اسم الله إذا كان متعديًا لم يتم الإيمان به إلا بالإيمان بكونه اسمًا وبما تضمنه من صفة وبما تضمنه من أثر وحكم لقوله ﴿يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾، ثم قال بعد ذلك ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ دَلَّ هذا على أن أسماء الله -عز وجل- متعدية تتضمن الأحكام والآثار المترتبة على ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٩/ ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اسمينِ من أسماء الله وهما الفتاح، والعليم، وكما سبق في الشرح أن الفتاح تشمل معانٍ كثيرة الفتح بالنصر وبالعلم وبالفهم وبالفصل الحسن وبغير ذلك، يعني أنها اسم واحد.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات العلم لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وأنه صفة من صفاته الثابتة اللازمة؛ لأنه موصوف به أزلًا وأبدًا ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد المناظر بالجزاء المجزوم به لقوله ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ لأن هذا يتضمن التهديد لأننا نعلم أن الله إذا فتح بينهم فسيكون الحق مع المسلمين بهذا عرفنا الترديد في قوله ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ الذين على هدًى مَنْ؟ هم المسلمون وأن أولئك على الضلال؛ لأنه لو قال قائل: الآية في ترديد ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ما عرفنا مَنِ الذين على الهدى؟ نقول الذين على الهدى هم الذين يفتح الله عليهم وينصرهم على أعدائهم بالحق.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ:٢٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في هذا ما سبق من أنه من آداب المناظرة سلوك التحدي فيما يعلم امتناعه من الخصم؛ لأنك إذا تحديته بأمر لا يمكن وظهر عجزه تبين بطلان دعواه بخلاف ما إذا تحديته بأمر يمكنه أن يفعله فإن هذا ضرر عليك لا تتحدى الخصم إلا بأمر يعجزه ولا يتمكن منه هنا يقول: أروني الذين ألحقتم به شركاء يعني [أعلموني] ماذا خلقوا ؟ماذا نفعوا ؟ لم يخلقوا شيئًا ولم يرفعوا ضررًا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ وقوله ﴿أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾.

الفوائد:

١- **يستفاد منها:** أن الشرك يكون في العبادة كما يكون في الخلق والتدبير يعني أن الشرك

يكون في الألوهية كما يكون في الربوبية وجه ذلك أن هؤلاء المشركين لم يكونوا يشركون في الربوبية، ولكنهم يشركون في الألوهية والعبادة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يمكن أن نري أحدًا من الناس يَدَّعي أن لهذه الأصنام شيئًا من الخلق أو الرد أو التدبير تؤخذ من قوله ﴿كَلَّا﴾ يعني لا يمكن، أروني شيئًا من هذه الأصنام.

٣- **ومن فوائد الآية أيضًا:** إثبات اسميْنِ من أسماء الله وهما العزيز والحكيم وما تضمناه من صفة وهي العزة والحكمة يعني الحكيم قلنا ذو الحكم والحكمة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يمكن أن تقع سفهًا لقوله الحكيم، والحكيم هو الذي لا يعرف به السفه وهذا شيءٌ معلوم بالضرورة قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾.

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله ـ عز وجل ـ لا يُغْلَبُ، لقوله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإذا آمنت بذلك واستعززت به ـ تبارك وتعالى ـ علمت أنك لا تغلب.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره العزيز، وفي قوله الحكيم [في تدبيره لخلقه] وأخطأ في قوله ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ملكه؛ لأنه ليس المقام مقام نفي الشريك في الملك وإنما المقام مقام الشريك في العبادة إذ أن هؤلاء المشركين يعترفون أن الله لا شبيه له في ملكه.



❁ قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً ﴾ حالٌ من الناس قدم للاهتمام قوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً ﴾ هذا الاستثناء يسمونه استثناءً مفرغًا من أعم الأحوال يعني ما أرسلناك لأي حالٍ من الأحوال إلا لهذه الحال يعني إلَّا للناس كافة، كافةً بمعنى جميعًا وقوله ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الإرسال معناه الأمر بتبليغ الشيء، فأنت إذا أرسلت شخصًا من الناس إلى شخص آخر معناه أنك أمرته أن يبلغ شيئًا ما إلى المرسل إليه ولهذا قال العلماء في تفسير الرسول: هو الذي بعث إليه بالشرع وأُمِرَ بتبليغه، قوله ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ الناس معناه: هم البشر وسموا ناسًا من قولهم أنس إذا

تحرك وعمل وعلى هذا فيكون الناس اسمًا مشتقًا وليس اسمًا جامدًا قالوا: وأصلهم أُناس، أصله الأُناس لكنها حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال قالوا: ومثل ذلك قولهم (شر) و(خير). فأن تقول هذا خير من هذا بمعنى أخير من هذا فحذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال قالوا: ومن ذلك (الله)، وأصله (الإله) حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال على أن هذه المسألة الأخيرة فيها شيءٌ من النظر لأن الإله تأتي إلى جانب الله فتقول هو الله الإله العظيم إلى آخره.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي كفار مكة وهذا قصور من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لأننا إذا قلنا إنك أرسلت إلى كفار مكة فغيرهم لم يرسل إليهم وهذا قصور عظيم جدًّا كيف تأتي كلمة الناس في مقام الرسالة ونقول المراد بها كفار مكة الصواب أن المراد بها كل البشر كفار مكة وكفار واشنطن وكفار موسكو وكفار الصين وكل الكفار إلى يوم القيامة للناس عمومًا.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيرًا مبشرًا للمؤمنين بالجنة ونذيرًا منذرًا للكافرين بالعذاب بشيرًا حال أيضًا من الكاف في قوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ فعيل بمعنى مُفعِل أو بشيرًا بمعنى البشارة وفَعِيل تأتي بمعنى مُفعِل، كما أسلفنا ذلك كثيرًا، وقوله بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين بالنار ينبغي أن يقال؛ بشيرًا للمؤمنين بالجنة كما قال المؤلف ونذيرًا للعاصين بالعقوبة ليشمل الإنذار عن الكفر والإنذار عن المعاصي يعني حتى المعاصي رتبت عليها عقوبات من أجل أن تردع الإنسان عن فعلها والله أعلم.

الفوائد:

١- **فيها دليل على:** أن محمدًا ﷺ عبدٌ مأمورٌ لا ربٌ آمرٌ، لقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾.

٢- **وفيها أيضًا:** عموم رسالة النبي ﷺ كافة للناس فهو كقوله ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1] أو نقول كقوله ﴿لِّلنَّاسِ﴾ فإن الناس هذه من صيغ العموم؛ لأن فيها رأيٍ آخر يقول ﴿كَآفَّةً﴾ بمعنى (كافٍ) يعني إلا تكف الناس عن الشرك والعصيان، أو إلا كافًا للناس أي جامعًا لهم على التوحيد والإخلاص، وعلى هذا فتكون حالًا من الكاف في قوله أرسلناك والتاء فيها على هذا المعنى للمبالغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي إمامًا، وكما يقال: هذا عَلاَّمَة أي بمعنى كثير العلم لكن تكون التاء للمبالغة فصار عندنا في كافة معنيان أو قولان: وأنا ما ذكرتها في الشرح نعم للقصور لا للتقصير ﴿كَآفَّةً﴾، فيها وجهان: أن تكون حالا من الناس وأنه مقدمة عليها، وأن تكون حالًا من الكاف في أصل المعني وعلى هذا الوجه تكون كافة بمعني كافٍ أي جامع، أو كاف أي مانع تكف الناس.

٣- **ومن فوائد الآية:** أن رسالة النبي ﷺ تتضمن شيئين هما البشارة والإنذار البشارة للطائع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بالثواب والإنذار للعاصي بالعقوبة.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى الحكمة من إرسال الرسل وهي التبشير والتنذير كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٣ - ١٦٥].

٥- **ومن فوائدها:** أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولا يعلمون أنه رسول أما الأول فواضح أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسل، وأما الثاني ففيه نظر.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأكثرية لا يلزم أن يكون الصواب معها؛ لأن أكثر الناس لا يعلمون فهم في جهل إذ أن المتمسك بالأديان قليل، والمتمسك بالدين هو صاحب العلم وهو صاحب اليقين.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب تأخذ من قوله ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي على المعنى الأخير فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - سبب وليس بموجب فهو سببٌ للهداية ولكن ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وهل يستفاد منها إثبات أفعال الله الإختيارية؟ نعم من قوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ فإن هذا فعل من الأفعال المتعلقة بمشيئته - سبحانه وتعالى -.

٨- **ومن فوائد الآية أيضًا:** إقامة الحجة على الخلق لقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلم يبق لأحد حجةٌ على الله بعد الرسل وهل يؤخذ منها عذر لمن لم تبلغه الرسالة؟ الجواب: نعم ، من أين تؤخذ من قوله ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فإن من لم تبلغه الرسالة لم يحصل له بشارة ولا نذارة فما حكم من لم تبلغه الرسالة؟ نقول لا يخلو من أمرين: إما أن يكون مقصرًا في طلب الحق فهذا لا عذر له؛ لأنه مقصر، وإما ألا يكون مقصرًا بحيث لم يبلغه اي شيء عن الرسالة ولم يطرأ في قلبه أي شيء من ذكر الرسالة فهذا نقول إنه يحسب له في الدنيا بما هو عليه من دين وأما في الآخرة فأمره إلى الله ما نحكم عليه بشيء.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٩-٣٣]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(يقولون) يعني: المكذبين للرسول ﷺ الذين توعدوا بالعذاب والنكال فيقولون متحدين ومستبعدين ومنكرين متى هذا الوعد؟ متى اسم استفهام ويراد به الإنكار والتحدي والوعد أي بالعذاب الذي وعدتمونا به ويحتمل أن يكون متى هذا الوعد بالنصر لكم؛ لأن المعروف أن الوعد بالخير وأن الشر بالوعيد، ولكن قد يقال: إن الوعيد لهؤلاء الكفار هو بالنسبة للمؤمنين وعد (متى هذا الوعد بالعذاب إن كنتم صادقين) فيه يعني إن كنتم صادقين بما تقولون من أن العذاب سيحل بنا وسنعاقب والصدق هو الإخبار بما يوافق الوعد والكذب هو الإخبار بما يخالف الوعد فإذا قلت: قدم زيد البلد ولم يكن قدم فهو كذب؛ لأنه خلاف الوعد وإذا قلت قدم زيد البلد وقد قدم فهو صدق بما نطق بالوعد فيقولون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فمتى يكون هذا؟ وهذا كقوله تعالى في الساعة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ فالكفار يستعجلون العذاب تكذيبًا للرسل - عليهم الصلاة والسلام - قال الله تعالى ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ يعني أي شيء يغني عنهم فمهما طال بالكفار الأمد فإن المسألة محدودة معدودة ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فهنا تحدُّوا ومع ذلك أحيانًا يتحدُّون كذبًا فإنهم قالوا حين أُخبروا

بالبعث قالوا: متحدِّين للرسل - عليهم الصلاة والسلام - ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهل قيل لهم إن آباءهم يأتون الآن؟! فالذي قيل لهم إن آباءهم سيبعثون يوم القيامة لكنهم يموهون على العامة بمثل هذه الدعاوى.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وهذا الميعاد هو يوم القيامة، ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ﴾: ميعاد يحتمل أن يكون ظرف مكان أو زمان ويحتمل أن يكون مصدرًا والمعنى أن لكم ميعادًا يكون لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون عليه وذلك لأن الله - عز وجل - بحكمته البالغة قدر لكل شيء أجلًا معينًا قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ كل شيء بمقدار عند الله ومحدد بأجل فالعذاب لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر وفي هذا من التهديد لهم ما هو ظاهر كما يقول الإنسان: إن لك عندي موعدًا لا يتقدم ولا يتأخر فالمعنى احذر من هذا اليوم وقول المؤلف: [هو يوم القيامة] هذا لا شك أنه محتمل لكن فيه احتمال آخر أنه يوم القيامة ويوم موتهم أيضًا فإنهم يشهدون على ذلك قال الله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فهذا اليوم يجدون فيه العذاب قبل يوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وفي سورة الدخان ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فهذا متى حصل؟ حصل في بدر حين قتل شرفاؤهم وشبابهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [من أهل مكة] بالكفر قبل أن يكونوا مؤمنين لكن لا ينبغي أن نخصص ما عممه الله - عز وجل - فالصواب وقال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم.

قالوا: (لن نؤمن) يؤكدون انتفاء إيمانهم بالقرآن في المستقبل ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ هذه الإشارة للقريب تحقيرًا له كما في قوله تعالى ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كيف أن الإشارة هنا للقريب؟ تحقيرا له وقوله ﴿الْقُرْآنِ﴾ على وزن فعلان، فهل هو بمعنى المقروء، أو بمعنى القارئ؛ أو هو مصدر

بمعنى الجمع؟ فيه اختلافٌ لعلماء العربية، والصواب أنه متضمن للمعاني كلها فهو بمعنى قارئ أي جامع؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة وجميع ما فيها من النصائح موجود فيه وهو مقروء يتناوله؛ لأن الناس يقرأونه ويتلونه وهو جمع أيضًا؛ لأنه جامع لكل شيء والفعلان بمعنى المصدر وموجود في اللغة العربية مثل الشكران والكفران والنقصان وما أشبه ذلك، والمراد بالقرآن هنا الكتاب الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ وهو اسم خاصٌ به ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ولا نؤمن بالذي بين يديه أي تقدمه كالتوراة والإنجيل الدَّالَيْنِ على البعث بإنكارهم له يعني ولا نؤمن أيضًا بالذي بين يديه فالمراد يديه ما سبقه وليس ما يأتي بعده ويحتمل أن المراد بقوله ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي بما يأتي بما أخبر به، فإن ما بين يدي الشيء يستقبله كما قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ والمعنيان صحيحان وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين الصحيحين لا يتنافيان وجب حملها على الجميع؛ لأن القرآن شامل.

وقوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولا بالذي يأتي بعده بما أخبر به أو بالذي بين يديه ما تقدمه من كتب كالتوراة والإنجيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ قال المؤلف: [يا محمد] ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الكافرون] ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هذه لو الشرطية فعل شرطها (ترى) وهي غير جازمة وجوابها محذوف أي: إذا رأيت أمرًا فظيعًا، وجواب الشرط في مثل هذا التركيب حذفه أفضل من ذكره؛ لأن النفس تذهب في تقديره كل مذهب من الفظاعة والبشاعة (ولو) تأتي في العربية على عدة معانٍ: تأتي بمعنى الشرطية كما هنا، وتأتي مصدرية كما في قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقول المؤلف: [يا محمد] قصر المؤلف الضميرَ على الرسول ﷺ مع أنه يحتمل أن يكون المراد به كل مخاطب يعني: ولو ترى أيها المخاطب حال هؤلاء لرأيت أمرًا فظيعًا وقوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿إِذِ﴾ ظرف زمان و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأ و﴿مَوْقُوفُونَ﴾ خبر والمراد بالظالمين هنا قال المؤلف: [الكافرون] وإنما خصها بالكافرين مع أن الظلم أعم بقرينة السياق، حيث قال الله تعالى في آخرها: [وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا] فسار المراد بالظالمين هنا الكافرين هل كل كافر ظالم؟ نعم، هل كل ظالم كافر؟ لا. ولهذا لما قال الله تعالى ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال العلماء: نحمد الله أنه لم يقل والظالمون هم الكافرون.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي محبوسون فمعنى وقفه أي حبسه ومنه سمي الوقْف للمال الحبيس الذي تحبس عينه وتسبل منفعته فمعنى موقوفون أي محبوسون عند الله عز وجل.

وقوله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل عند الله؛ لأن مثل هذا القول العظيم الدال على العظمة يتناسب مع الربوبية لكمال ربوبيته عز وجل وكمال ملكه وسلطانه تجد هؤلاء الظلمة الذين عندهم من العتو والاستكبار والعناد في الدنيا تجدهم في أذل شيء أمام ربوبية الله - عز وجل - ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾

﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ يرجع بمعنى يرد، وعلى هذا فتكون متعدية؛ لأن رجع تأتي لازمة وتأتي متعدية فقولك رجعت من مكة إلى المدينة هذه لازمة؛ لأنها لم تأتِ بمفعول وقوله تعالى ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾ هذه متعدية وهنا قال: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ متعدية أي يرد وقوله ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ القول هنا مبهم مجمل ثم فصّلَه بقوله ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ إلى آخره وفائدة الإبهام المفصل فائدته عظيمة؛ لأنه إذا أَجْمَلَ أولًا وأبهم فإن النفس تتطلع إلى بيان ذلك الشيء وتفصيله عندما تقرأ ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ ماذا يكون في ذهنك؟ يكون ذهنك متطلعًا إلى بيان هذا القول الذي يتراجعونه لكن لو قال (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يقول الذين استضعفوا) هكذا جاءت لم يكن لها في الذهن مثل ما كان لها حينما أبهم القول ثم بين أو أجمل ثم فصل ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ ماذا يقولون ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [الأتباع] ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ [الرؤساء]، ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ [صددتمونا عن الإيمان] ﴿لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ [بالنبي] ﴿لَوۡلَآ﴾ هذه شرطية، ويقال: فيها حرف امتناع لوجود؛ لأنه امتنع جوابها لوجود شرطها وتأتي لولا الشرطية كما هنا وتأتي للتحضيض كما في قوله ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وتأتي للنفي كما في قوله ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ المعنى كما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا هنا يقول ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتمًا.

إذن هنا المبتدأ موجود وهو (أنتم) فأين الخبر؟ محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [صددتمونا] من أين عرف أنه في هذه اللفظة؟ من قولهم ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ إذن ما نقدر هنا (لولا أنتم موجودون)؛ لأن الصد أخف من مطلق الوجود وإذا كان لنا طريق إلى تقدير آخر فهو أولى من تقدير الأعم ولهذا قلنا إن القارئ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم يقدر المتعلق بقوله (اقرأ) لا بقوله (ابتدئ)؛ لأن (ابتدئ) عامة و(اقرأ) خاصة هنا يمكن أن نقول: لولا أنتم موجودون، لكن ما دمنا نجد فعلًا أخف وهو الصد المدلول عليه بقوله ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾ فيجب أن (يقدر لولا أنتم صددتمونا) ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ فلهذا جواب الشرط فهذا اقترن باللام ﴿لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ لكن بمن؟ قال بالنبي والأصح أنه أعم أي لكنا مؤمنين بما تشمله رسالة النبي ﷺ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبغير ذلك مما يجب الإيمان به.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ هذا رد لقولهم ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفي يعني لم نصدكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل أنتم الذين

اخترتم الكفر وهنا صدق قول الله - عز وجل - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ فهنا قال ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ يعني ولا أجبرناكم على الكفر بل أنتم الذين اخترتم ذلك.

وقوله: ﴿صَدَدْنَاكُمْ﴾ أي صرفناكم وقوله ﴿عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ هذا من باب تحقيق مجيء الهدى ووضوحه وهذا من هؤلاء الرؤساء المستكبرين إقرار منهم على أن الهدى قد جاء وبان ووضح بعد إذْ جاءهم، والمؤلف يرى أن الاستفهام للنفي، كلما جاءت لا بعد الاستفهام فإن ترجمتها أن المؤلف يرى أن الاستفهام هنا للنفي ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [في أنفسكم] في الدنيا يأتي إليهم المستكبر هذا الرئيس يدعوه بلطف تام وفي الآخرة يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض انظر إلى ملك غسَّان لما بلغه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَجَر كَعْبَ بنَ مَالِكٍ - أَرْسَلَ إِلَيْهِ خِطَابًا رقيقًا لطيفًا - وَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ هَجَرَكَ فَأْتِ إِلَيْكَ نُوَاسِكْ» انظر التلطف ولكن لم ينخدع كعب رضي الله عنه بلطفه وخاف أن ينخدع في المستقبل فماذا صنع؟ ذَهَبَ إِلَى التَّنُّورِ وَأَوْقَدَ هَذِهِ الوَرَقَةَ (١) وهكذا كل شيء تخشى على نفسك منه في المستقبل يجب عليك أن تتلفه لا تقل إني الآن ما يمكن أفعل هذا الشيء أبدًا ولا يمكن أن أضل به صحيح أنك في بادئ الأمر قد لا تنخدع، لكن الشيطان يعمل عمله ولهذا يجب عليك أن تتلف كل ما تخشى أن تكون عاقبته عليك وخيمة الحاصل أن هؤلاء في الآخرة ما يتوددون ولا يتلطفون هؤلاء الأتباع بل كانوا مجرمين والإجرام هو الذنب قال: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

وقوله: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ جواب عن قولهم بل ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ثم هؤلاء أضربوا عنهم يعني قاموا منهم بإضراب آخر ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي [مكر فيهما منكم بنا] مكر الليل والنهار هنا المكر مضاف إلى الليل على تقدير (في) لأن الإضافة قد تكون على تقدير (مِنْ)، وعلى تقدير (اللام)، وعلى تقدير (في) فإن كان الأول من الثاني يعني إذا كان الثاني جنسًا للأول فهو على تقدير (مِنْ)؛ وإذا كان الثاني ظرفًا للأول فهو على تقدير (في) وما عدا ذلك فعلى تقدير (اللام).

تكون الإضافة على تقدير (من) إذا كان الثاني جنسًا للأول وعلى تقدير (في) إذا كان الثاني وعلى تقدير (اللام) فيما عدا ذلك. على تقدير (مِنْ)، كذا ثوب خز، وعلى تقدير (من) في مكر الليل، أي مكرٌ في الليل ما هو المكر؟ قالوا في تعريف المكر: أنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالمقابل هذا المكر توصل بأسباب خفية إلى الإيقاع بالمقابل يعني بالذي قابلك أو إن شئت فقل بالخصم كذا مكر الليل أضيف مكرٌ هنا إلى الليل؛ لأنه ظرف(٢).



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٥٣/ ٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير الآيات (٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦) غير موجود.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبـــأ: ٣٧]

التفسير

يقول نحن أكثر أموالًا وأولادًا ولإن رجعنا إلى الله فإنا لن نعذب، وهذا على أحد الاحتمالين، والاحتمال الثاني: أن قولهم وما نحن بمعذبين أي أننا لن نبعث ونعذب ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إلى آخره في هذا إثبات المشيئة لله لقوله﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لقوله﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وفيه أيضًا أن كثرة المال والولد لا يدل على الرضا وإنما هو تابع لماذا؟ لمشيئة الله ومنها الحكمة العظيمة البالغة في اختلاف الناس في سعة الرزق وضيقه لولا ذلك ما قامت مصارع الخلق لو كان الناس على حد سواء في الغنى هل يخدم بعضهم بعضًا ولا يقوم بعضهم بمصالح بعض؟ وانظر إلى قوله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ لماذا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ولولا هذا الاختلاف في بسط الرزق وسعته ما حصلت هذه الفائدة العظيمة وهي تسخير الناس بعضهم لبعض .

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ:٣٧]

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر الناس جهال بحكمة الله تعالى في أفعاله لقوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ في هذه الآية دليل على أن كثرة الأموال والأولاد لا تستلزم القرب من الله فإن مَنْ الناس من يكون كثير المال والولد وهو من أبعد الناس عن الله ومِنَ الناس مَنْ يكون قليل المال والولد وهو من أقرب الناس إلى الله فهذا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ هل كان أكثر الناس أموالًا وأولادًا؟ الجواب: لا، ومع ذلك فهو أقرب الناس إلى الله وهذا الرجل الذي افتخر بماله وولده وقال ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إذا أتاه الله المال والولد فإنه لا ينفعه قال الله تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ

﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فالأموال والأولاد لا تقرب إلى الله.

٢- **ومن فوائدها**: أن المؤمن الذي يعمل الصالحات فإن أمواله وأولاده تقربه إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه يكتسبها من حلال ويصرفها فيما يرضي الله ـ عز وجل ـ فيكون منتفع بها والأولاد كذلك يقوم عليهم بالتربية والتعليم وغير ذلك من مصالحهم وأن تدعو بذلك الله ولذلك قال ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء على الإيمان والعمل الصالح مضاعف لقوله ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾.

٤- **ومن فوائدها**: إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾

٥- **ومن فوائدها**: أن منازل الجنة عالية لقوله ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ﴾ والغرفة المنزل العالي أما الذي في الأرض فيسمى حجرة لا يسمى غرفة فالمنازل فوق غرف والمنازل تحت حجر.

٦- **ومن فوائدها**: أن من دخل الجنة فهو آمن، آمن من ماذا؟ آمن من كل مخوف آمن من الموت من المرض من انقطاع النعيم من فساد الثمار من كل شيء ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

لما ذكر جزاء المؤمنين ذكر جزاء غيرهم؛ لأن القرآن مثاني تثنى فيه المعاني فإذا ذكر الثواب ذكر العقاب وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر وذلك لئلا تسأم النفس إذا بقيت في موضوع واحد ولأجل أن يكون الإنسان عند تلاوة القرآن دائرًا بين الخوف والرجاء ومعلوم لنا جميعا أن الموضوع إذا كان واحدًا فإن النفس تمله وتسأم منه فإذا نُوِّعَ صار في ذلك تنشيط لها.



۞ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ:٣٨]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: [القرآن] ﴿يَسْعَوْنَ﴾ السعي يطلق على مجرد الحركة ويطلق على الركض ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فالمراد بذلك مطلق الحركة وليس المراد الفرقة، وإذا قلت يسعي في الطواف بين الصفا والمروة يسعى بين العَلَمَيْنِ، فالمراد بذلك الركض هنا ﴿يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك مطلق الحركة ويحتمل أن يراد به الحركة بشدة وإقدام، وهذه الأخيرة

أبلغ فإن هؤلاء يسعون جاهدين في آيات الله وقول المؤلف ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي [القرآن] وجهه: أن الذين كفروا لا ينكرون آيات الله الكونية، وإنما ينكرون آيات الله الشرعية على أنهم أحيانًا يطلبون آياته الكونية تعجيزًا للرسول ﷺ كما حكى الله عنه في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ كم آية طلبوها من الآيات الكونية هنا ومع ذلك قال الله (قل سبحان ربي) يعني تنزيهًا له أن يبعث رسولا بدون آيات يؤمن على مثلها البشر وما أنا إلا بشر رسولا كما أن الآيات هنا خصها المؤلف بالآيات الشرعية وقال إن المراد بها: [القرآن] ويحتمل أن يراد بها الآيات الكونية والآيات الشرعية جميعًا؛ لأن هؤلاء كما يعجزون في القرآن يعجزون أيضًا في الآيات الكونية ولما كان القرآن آية من آيات الله لاشتماله على ما يعجز عليه البشر فإن الله ـ عز وجل ـ تحدى البشر وغيرهم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ معاجزين [لنا مقدرين عجزنا] لأنهم معاجزون المعاجز: هو الطالب لإعجاز غيره فهي عاجزه مثل قاتله المعني أنهم يعاجزون الله أي يطلبون على زعمهم ما به العجز ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أي [مقدرين عجزنا] وهؤلاء الذين فعلوا ذلك يعاجزون الله ويطلبون ما به عجز، عجزه على زعمهم ويقولون: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾هذا تعجيز لله ـ عز وجل ـ لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم لا يجيبهم لما أرادوا وهو يجعل هذه الأمور حسبما تقتضي الحكمة قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ إن هذه الجملة هي خبر ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ﴾ فخبر المبتدأ الآن جملة خبرية وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي محضرون في العذاب في نفس العذاب، لا أن يحضرون حتى يوقعوا في نفس العذاب، والعذاب بمعني العقوبة والنكال، وهذا الخبر يراد به التهديد، لا هو مجرد أن نعلم أن هؤلاء سيحضرون في العذاب ويعذبون بل المراد التهديد والتحذير من صنيعهم .



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ هنا الخطاب للنبي ﷺ ويكون المراد به كل من يتعدى خطابه، أو كل من يصح توجيه الخطاب إليه يخاطب هؤلاء الذين يسعون في آيات الله معاجزين ويطلبون عجز الله فيما يدعون ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ [يوسعه] أي يبسطه من البسط وهو التوسعة ولهذا يقال بسط الكلام واختصر الكلام، بسطه بمعني وسعه وطوله والرزق هنا العطاء لمن يشاء من عباده امتحان ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يضيقه] له [بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاءً].

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قوله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ مر علينا كثيرًا بأن كل فعل علقه الله بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فمشيئته - سبحانه وتعالى - تابعة لحكمته فهو إذا اقتضت حكمته أن يوسع الرزق لأحد وسعه وإذا اقتضت حكمته أن يضيقه ضيقه وقوله ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المراد بالعباد هنا العبودية العامة؛ لأننا نشاهد أن الكافرين والمؤمنين على السواء منهم من يبسط الله له الرزق ومنهم من يضيقه فالمراد بالعباد إذن العبودية العامة وقد مر علينا أن العبودية تنقسم إلى: عامة وخاصة، فالعامة التي تشمل جميع الخلق والمراد بها العبودية الكونية التي قال الله عنها: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وأما الخاصة فهي عبودية الطاعة الشرعية وهي التي قال الله فيها :﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخره من عباده قال المؤلف [امتحانًا] كيف يعني امتحان؟ يعني اختبار يختبره هل يشكر أو يكفر، ولهذا قال - سليمان عليه الصلاة والسلام - ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ حين رأي عرش بلقيس حاضرًا بين يديه في هذه المدة الوجيزة ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ وقال تعالى:﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يعني ابتلاءً واختبارًا وكم من إنسان كان في حال الفقر أصلح مما كان بعد الغني!! وكم من إنسان بالعكس كان فقيرًا مسرفًا على نفسه ولما أغناه الله هداه الله! والله عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء حسب ما يقتضيه الحكمة قال ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ له حال يعود على الموصوف له أو يعود على من يشاء، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر المعنيين قال: [ويقدر يضيق له بعد البسط] يعني أن الله - عز وجل - يبسط الرزق لمن يشاء، ثم يضيقه عليه ليبلوه يُعْطِي النعم، ثم يزيلها امتحانًا واختبارًا يمن الله على

إنسان بالأولاد وبالمال فيهلك هذا تضييق بعد بسط، أو كان المعني يبسط ويقدر له أي لمن يشاء لا لهذا الذي كان مبسوطًا له الرزق يعني أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يبسط الرزق لقوم ويقبضه لآخرين وهل المعنيان يتنافيان؟ لا، وإذا كانا لا يتنافيان فقد مرَّ علينا في القاعدة في التفسير أن المعنيْن إذا كانا لا يتنافيان فإن الآية تحمل عليهما جميعًا يبسط لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [في الخير] ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يقال: [إن الإنسان يرزق عائلته أي من رزق الله] ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ما هذه شرطية وفعل الشرط ﴿أَنفَقْتُم﴾ وجوابه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ﴾ أي الله ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يأتي بخلفه واعلم أن هناك فرق بين يخلُف ويُخلِف فيخلُف يراد به الشيء الذي خلف غيره، قال الله تعالى عن موسى ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ أي صار خلف عني في قومي وأما أخلَفَ الرباعي المراد أعطى الخلف فالمخلف معطي الخلف والخالف الذي خلف غيره،فانتبه للفرق بين الثلاثي والرباعي فالثلاثي الذي خلف غيره والرباعي أعطى الخلف ومنه الحديث حديث أبي سلمة قال: «واخلفني في عقدي»، وحديث أم سلمة في نفس الشيء قالت: «وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهُ»[1] فاجتمع في الحديث الكلام جميعًا حديث أم سلمة «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَجَرَهُ الله فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» هنا من الرباعي أو الثلاثي؟ من الرباعي هو يخلفه أي يعطي ما يكون خلفًا عنه وقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ الإنفاق بمعنى بذل المال والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيده بقوله وما أنفقتم [في الخير] وهذا القيد الذي قيده به المؤلف دلت عليه آيات متعددة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ والآيات في هذا كثيرة؛ لأن من أنفق في غير الخير فالخلف غير مضمون له لكن من أنفق في الخير فالخلف مضمون له ويشمل هذا النفقات الواجبة كإنفاق الإنسان على زوجته وأمه وأبيه وابنه وابنته وما أشبه ذلك، ويشمل أيضًا الإنفاق في الزكاة؛ لأنها هي أم الإنفاقات؛ لأن إنفاق الزكاة أحد أركان الإسلام ويشمل الإنفاق الجهاد في سبيل الله ويشمل الإنفاق في وجوه الخير وغير ذلك وقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ هذا الإخلاف هل هو في الكمية أو في الكيفية بمعني هل أن الله ـ عز وجل ـ يعطيك بدلًا عنه في الكمية؟ إذا أنفقت عشرة أعطاك عشرة أو بالكيفية؟ بمعني أن الباطن ينزل الله به البركة حتى يكون مقابلًا.



(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ٩١٨) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [أي المشركين].

ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم [بتحقيق الهمزتين وإبدال الأولى ياء وإسقاطها].

يعني الهمزة الأولى من الهمزتين المتجاورتين وهي همزة أولاء تعي وهمزة إياك فهذه ثلاثة قراءات وبأيها قرأت صَحَّت قراءتك وشذَّ مَن يقول كانوا يُعْبَدُون، كانوا متى؟ في الدنيا يقول الله تعالى ذلك توبيخًا وتقريعًا لهؤلاء العابدين الذين كانوا يعبدون الملائكة والملائكة تقدم لنا كثيرًا أنها جمع ملك وأصل ملك ملأك وأصل الملأك مألك كذا فهي رسول لكنها وصلت إلى هذا الشكل، قالوا الضمير يعني الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [تنزيهًا لك عن الشريك] يعني أننا ننزهك عن أن نكون شركاء لك لا نحن ولا غيرنا وتنزيه الله - سبحانه وتعالى - يكون عن شيئين، أحدهما النقص والثاني مشابهة المخلوقين، وإن كان مشابهة المخلوقين من النقص لكن هذا من باب التقصير في القول ينزه الله عن النقص فمثلًا لا يوصف الله بالعمى والصمم والعجز والضعف وما أشبه ذلك، فلا يقال علمه كعلم المخلوقين، أو وجهه كوجه المخلوقين، أو يده كيد المخلوقين وما أشبه ذلك ننزه عنه الأمرين هنا ينزه على أن يكون له شريك؛ لأنه لو كان له شريك لكان ناقصًا إذ أن الشريك معين لمن شاركه، أو مالك لما يملكه فالله تعالى منزه عن هذا وتقول الملائكة سبحانك أي [تنزيهًا لك عن الشريك] وأفاد المؤلف في قوله: [تنزيهًا] أفادنا أن سبحان منصوبة على أنها اسم مصدر فتكون مفعولًا مطلقًا وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة فعلا وملازمة أيضًا للإيضاح فلا تقع إلا مضافة وإلا منصوبة على المفعولية المطلقة.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم

﴿مُّؤْمِنُونَ﴾ أي لا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا يعني أن هذه الجملة خبرية ثبوتية :﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ معناها جملة سلبية أي لا نتولاهم بل أنت ولينا من دونهم [فلا موالاة بيننا وبينهم]، وإذا انتفت الموالاة ثبت ضدها وهي المعاداة يعني فهؤلاء أعداؤنا وأنت ولينا من دونهم وهذا كقوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ﴾ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ (بل) للانتقال كانوا يعبدون الجن أي [الشياطين أي يطيعونهم في عبادتهم إيانا] ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [مصدقون فيما يقولون] ﴿بَلْ كَانُوا﴾ للانتقال؛ لأن بل تأتي للاضراب الانتقالي والإضراب الإبطالي فإن كان المقصود بها إبطال ما سبق وإثبات ما ذكر، فالإضراب للظاهر، وإذا كان المقصود بها الإنتقال من معني إلى آخر فوقه أو دونه يسمى إضرابًا انتقاليًا نقول: إن هذا الإضراب انتقالي يعني أنهم لم يبطلوا ما سبق فهم باقون على قولهم: (سبحانك أنت ولينا من دونهم] (ولا موالاة بيننا وبينهم ولا نواليهم ولا يوالونا بل نزيد على ذلك كانوا يعبدون الجن).

والمراد بالجن هنا [الشياطين]؛ لأن الجن هم الشياطين قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٤ - ٣٦] فهم يعبدون الجن بماذا؟

• إذا كانوا يعبدون الملائكة كما هو وارد في السياق فكيف عبادتهم للجن هنا؟ عبادتهم للجن عبادة طاعة أي أنهم يطيعونهم في الإشراك، فالجن تأمرهم أن يجعلوا الملائكة شركاء مع الله في العبادة فيطيعونهم ومن أطاع غير الله في معصية الله فقد اتخذهم إله قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وقد روي أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ أَحَلُّوهَا، وَإِذَا حَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللهُ حَرَّمُوه (١) فجعلوهم آلهة مع الله - سبحانه وتعالى - في التحليل والتحريم والطاعة فيكون المعني قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي يطيعونهم في عبادة مَنْ؟ عبادة الملائكة، ومَنْ أطاع غيره في معصية الله فقد اتخذه إلهًا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ مصدقون فيما يأمرونهم قال ﴿أَكْثَرُهُم﴾ ولم يقل كلهم مع أن الجميع يعبدون الملائكة طاعة للجن فلماذا عبّروا بقولهم أكثرهم ولم يقولوا كلهم؟ الجواب : يقال إن هؤلاء المشركين ينقسمون إلى قسمين قسم عام من أتباعهم لا يعرفون شيئًا وجدوا أباءهم على دين فمشوا عليه، والقسم الآخر مجتهدون يعرفون الأمر ولكنهم يؤمنون بهؤلاء الجن ويصدقونهم ويكفرون بالرسل، وهؤلاء هم الأكثر ومع ذلك فإن الأتباع وهم القسم الأول إذا تبين لهم الحق وأصروا على اتباع هؤلاء وقالوا كما قالت الأمم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ فإنهم مستحقون للعذاب؛ لأنهم كفروا عن بصيرة.

الفوائد:

قال الله عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد:

أن من عباد الله مَنْ يسعى في إبطال آيات الله - عز وجل - بكل ما يستطيع من قوة دليل ذلك أن الله أثبته وأثبت عذابه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ وليس شيئًا مفروضًا مقدرًا بل هو شيء واقع.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة:

بيان ما يصل إليه عتو الإنسان وطغيانه، حيث يسعى في آيات الله معاجز لله - عز وجل - فمن أنت حتى تعاجز الله وتطلب تعجيزه وتتحداه.

٣- ومن فوائدها:

أن هؤلاء الذين يسعون في آيات الله معاجزين سوف يكونون يوم القيامة في العذاب لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ وربما يقول قائل إنهم في العذاب محضرون حتى في الدنيا، ويكون المراد بالعذاب هنا العذاب القلبي؛ لأن الكافر مهما نعم في الدنيا فإنه في ألم وعذاب في قلبه؛ لأن الكافر لا يشبع من الدنيا فهو في حزن خوفًا من ذهاب الموجود وفي هَمٍّ طلبًا لوجود المفقود؛ لأنه يريد أن تنمو له الدنيا وتزدهر ويخشى أيضًا من أن تفوت بخلاف المؤمن.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة:

إثبات الجزاء والعقوبة لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

١- من فوائد هذه الآية:

طلب الإعلان لأن الأمور كلها بيد الله من بسط وتضييق لقوله ﴿قُلۡ﴾ إذ أنه ليس المراد أن تقولها في نفسك بل تقولها في نفسك ولغيرك.

٢- ومن فوائدها:

أن الأرزاق بيد الله لقوله ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ ويترتب على هذا فائدة: وهي أن نطلب الرزق من الله؛ لأنه هو الذي يبسط الرزق ويقدر.

٣- يترتب عليه فائدة أخرى وهي:

أن لا نطلب رزق الله بمعاصيه؛ لأن طلب زرق الله بمعاصيه منافي للأدب كيف تطلب الرزق مِن بيده الرزق بمعصيته؟! ولهذا حَذَّرَ النبي - عليه الصلاة والسلام - مِنْ ذلك فقال: «إِنَّهُ لَنْ

تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1] يعني: اطلبوا الرزق طلبًا جميلًا، وهو ما وافق الشرع وعلى هذا فطلب الرزق بالغش والكذب والظلم طلب مشروع أو غير مشروع ؟ غير مشروع وينافي الأدب مع الله ـ عز وجل ـ.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسلطانه لكونه يبسط ويقدر، ولا أحد يمكن أن يعترض عليه وحتى لو اعترض عليه هل ينفع هذا الاعتراض؟ لا ينفع لأن الله مدبر لما يشاء.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:**

الحثُّ على الإنفاق لقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ووجه ذلك أن الإنسان إذا أنفق فإن نفسه الأمارة بالسوء تقول له إذا أنفقت نقصت منه فلا تنفق فيقول الله عز وجل ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإنفاق وإن قلَّ فإنه مخلوف مِنْ أين تؤخذ؟﴿مِّن شَيْءٍ﴾ فإنه نكرة في سياق الشرط مؤكدة بـ(من) الزائدة هذا إن لم تكن (مِنْ) بيان لما في قول ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خير الرازقين بكثرة العطاء وبدوام العطاء فمن سوى الله من الرازقين لا يعطي الكثير، وإذا أعطى الكثير فإنه يمل فلا يستمر في عطائه أما الله ـ عز وجل ـ فإنه خير الرازقين في عطائه كثرة واستمرارًا.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات أنه لا رازق سوى الله من أين تؤخذ؛ من قوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن هذا يدل على وجود مفضل ومفضل عليه مشتركين في أصل المفضل به، وهو الرزق ولكن رزق غير الله من رزق الله؛ لأن هذا الذي أعطاني مثلًا مِنْ أين له العطاء؟ مِنَ الله، فيكون إعطاؤه إياي من رزق الله الذي أعطاه، وأيضًا فإن رزق غير الله رزق محدود ليس شاملًا لكل أحد، وليس شاملًا لكل زمن.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:**

أن أفعال العباد مخلوقة لله وفيه رَدٌّ عَلَى مَنْ؟ القدرية، مِنْ أين تؤخذ الفائدة هذه؟ مِنْ قوله﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ونحن نعلم أن الرزق الذي يأتينا يكون كثيرًا من كسبنا نتجر ونحرث ونعمل ونحصل على الرزق فيكون في هذا دليل على أن فعل العبد مخلوق لله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

١٠- وفيها أيضًا:

رد على الجبرية وهم الجهمية أيضًا لقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ حيث أضاف الفعل إلى العبد والجبرية يقولون: إن الإنسان مسلوب القدرة والاختيار وفعله لا ينسب إليه إلا على سبيل المجاز، وإلا فإنه لا اختيار له في فعله.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾

١- يستفاد من الآية الكريمة: أنه ينبغي تذكير الناس بيوم المعاد وجه الدلالة أن (يوم يحشرهم) متعلق بمحذوف تقديره (اذكر)، (واذكر يوم يحشرهم) وهل هذا يشمل تذكير النفس؟ يعني بمعنى أن نفسك إذا رَكَنَتْ ينبغي أن تُذكّرها يوم الحشر ويوم الموت أولا؟ نعم يشمل لأن قوله (اذكر) المقدر يحتمل أن المعني: اذكر في نفسك هذا اليوم أو اذكر لغيرك هذا اليوم، وكلاهما حق فينبغي للإنسان أن يذكر نفسه، كلما رَكَنَتْ إلى الدنيا وأرادت الانغماس فيها فَلْيُذَكِّرها، ليذكرها يوم أن نقلع من هذه الدنيا، ويذكرها قومًا انتقلوا عن هذه الدنيا وكانوا أشد منه قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، ثم يذكرها ما وراء ذلك من الحساب والعقاب وهو اليوم المشهود الذي يجمع له الناس.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة:

إثبات البعث لقوله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٣- ومن فوائدها: أيضًا أن الحشر عام لكل أحد حتى من أكلته السباع وأحرقته النيران مِنْ أين يؤخذ؟ من قوله ﴿جَمِيعًا﴾ وهو كذلك فالذي أكلته السباع أو أحرقته النيران لابد أن يحشر يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قول الله ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ وهذا أعني إثبات الكلام والقول لله ـ سبحانه وتعالى ـ هو مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الأشاعرة ومذهب المعتزلة، لكنهم مختلفون في تفسير هذا الكلام، فالكلام عند أهل السنة والجماعة كلام حقيقي بحروف وأصوات مسموعة، وهو غير مخلوق، والكلام عند المعتزلة كلام بحروف وأصوات مسموعة، لكنه ليس من صفات الله، فهو مخلوق عندهم يقولون: إن الله تعالى يخلق كلامًا فينسبه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كنسبة البيت إليه، ونسبة المساجد إليه، ونسبة الناقة إليه، ونسبة الأرواح إليه، وما أشبه ذلك، والأشاعرة يثبتون لله كلامًا لكن يقولون: هو بغير حروف وبغير أصوات مسموعة، بل هو المعني القائم في نفسه وهذا الذي سمعه موسى وسمعه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسمعه الناس يوم القيامة هذه أصوات يخلقها الله ـ عز وجل ـ لتعبر عما في نفسه وليست هي كلام الله، بل هي عبارة عنه أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن كلام الله تعالى كلام حقيقي بحرف وصوت مسموع، لكن هذا الصوت لا يشبه أصوات المخلوقين؛ لأنه من كلام

الله، وكلامه تعالى صفة من صفاته لا تشبه صفات المخلوقين.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: تقريع أولئك المشركين وتوبيخهم بسؤال من يدعونهم آلهة حتى يظهر البراءة منهم لقوله ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فسؤال المعبودين عن عبادة العابدين يراد به التقريع والتوبيخ لأولئك العابدين، وأن هؤلاء المعبودين تبرأوا منهم وقالوا ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ وهذا من أشد ما يكون من التخجيل والتوبيخ والتنديم؛ لأنه يظهر كذب هؤلاء العابدين وافتراءهم.

٦- ومن فوائدها: إثبات وجود الملائكة وأن مِنَ الناس مَنْ عبدهم من دون الله لقوله﴿يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

٧- ومن فوائدها أيضًا: بيان ما عند الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مِنْ تعظيم الله، حيث قالوا ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا على أن يكون لك شريك لا منا ولا من غيرنا.

٨- ومنها:

إثبات ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ للملائكة.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:٤٢]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾فاليوم (ال) هنا للعهد ما نوعه؟ العهد الذكري والمذكور هو قوله ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي فاليوم الذي نحشرهم فيه لا يملك بعضهم لبعض نفعًا ولا ضرا وقوله ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ بهاذا نصبت؟ على الظرفية، والعامل فيها قوله ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ يعني فلا يملك اليوم بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرا﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ [أي بعض المعبودين لبعض العابدين] نفعًا [شفاعةً] ولا ضرًا [تعذيبًا] ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ من الذي لا يملك العابدين أو المعبودين؟ الذي لا يملك المعبود؛ لأن العابد يرجو من وراء المعبود النفع أو الضرر فنقول: لا يملك العابد للمعبود ضرًا ولا نافعا، كما أنه لايملك المعبود للعابد ضرًا ولا نفعًا وهذا ـ والله أعلم ـ هو الحكمة يعني أن الله عز وجل قال﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾وجعله مبهمًا يشمل العابد والمعبود والتابع والمتبوع.

فكل أحد يوم القيامة لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا المؤلف يقول: [شفاعة]مع أن كلمة نفع

أعم من الشفاعة، لكن كأنه رَحِمَهُ اللهُ قيدها بالشفاعة في قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فادَّعوا أن عبادتهم إياهم من أجل أن تشفع لهم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتقربهم إليه ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يعني نفعًا في عبادتكم إياهم في الشفاعة، وإذا لم تعبدوهم فإنهم لن يضروكم وكما أنهم لا يملكون في ذلك اليوم نفعًا ولا ضرًا فكذلك لا يملكون في الدنيا نفعا ولا ضرًا فإن قلت إنه قد يعبد الإنسان غير الله فيدعوه لكشف ضر فينكشف ذلك الضر فما الجواب عن هذه الآية وغيرها؟ نقول: إن هذا الذي حصل لم يحصل بالدعاء، أو بالعبادة، ولكن حصل عنده فليس ذلك سببًا فإذا قلت: قولك إنه حصل عنده دعوى بلا برهان وإلا لكان الواجب أن يحال الأمر على الشيء ، أو على السبب الضاغط وهو دعاء هذه الأصنام، يعني قد تقول: إن هذا الشيء حصل عند الدعاء لا بالدعاء فيقال لك: هذه دعوة ما دام دعا هذا الصنم أن يشفيه فشفي هل الأصل في هذه الحالة الحكم على الظاهر وهو هذا الدعاء؟ فدعوى بأنه حصل بغير هذا الخلاف الظاهر تحتاج إلى دليل فالجواب أن لدينا دليل على ذلك وهو قوله تعالى:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ فهاتان الآيتان وما أشبههما كلها تدل على أن هذه الأصنام لا تنفع لا بجلب نفع، ولا دفع ضرر، فإن وجد شيئًا حصل بعد الدعاء عنده لا به فإن قلت كيف يكون هذا الشيء وما الحكمة من أن الله ـ عز وجل ـ يجعل حضور هذا النفع، أو اندفاع هذا الضرر عند دعاء هذه الأصنام؟ نقول الفتنة والامتحان فإن الله تعالى قد يمتحن العبد بالشيء المحرَّم يصر عليه أو يبتليه بالشيء المحرم، والله على كل شيء قدير.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يعني واليوم ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الظلم في اللغة: النقص هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص، وأما في الاصطلاح وفي الشرع فهو نقص ذوي الحق حقه، إما بالمطالة بالواجب، وإما بانتهاك المحرم،بالمماطلة بالواجب مثل قول النبي ﷺ «مَطْلُ الغنيِّ ظُلْمٌ»(١) ، وإما بالاعتداء على حقه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فإذن الظلم في الأصل النقص ودليله ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ وأما شرعًا فهو نقص ذوي الحق حقه إما انتهاك محرم في حقه، أو في مماطلة في واجب وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فسرها المؤلف: [بكفروا]وهذا تفسير بالمعني أو بالمراد؟ بالمراد لأن الظلم من حيث المعني أعم من الكفر، لكن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (٣٣/ ١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤلف يقول: [إنه يراد بالظلم هنا ظلم الكفر] كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ فالظلم قد يراد به الكفر، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خص الظلم بالكفر هنا بدليل السياق: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هذا مما يدل على أن الظلم هنا ظلم كفر؛ لأن الذي يكذب بالنار حكمه كافر، لتكذيبه خبر الله ورسوله ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ذوقوا فعل أمر، لكنه يراد به الإهانة يعني يقال له: إهانة، ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي النار ستصيبكم حتى تذوقوها كما تذوقون الطعام، وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كيف كانوا يكذبون بالنار؟ لأنهم ينكرون البعث والنار إنما تكون بعد البعث وهم يكذبون بذلك، ومن باب أولى بما يكون في القبر من العذاب، فهم يكذبون تكذيبًا كاملًا ويقولون: إن الروح إذا خرجت من الجسد لن تعود إليه وهنا قال: ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وفي سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة قال: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] فعليه - أي: على الآيتين - يكون الوصف بالتكذيب، مرة بالنار ومرة بعذابها، فهم أحيانًا ينكرون وجود النار ووجود الآخرة، وأحيانًا يكذبون التعذيب بالنار ويقولون: كيف نعذب بالنار وكيف نبقى أحقابًا ونحن في النار؟ الإنسان إذا دخل في النار احترق وانتهى فيكذبون بالعذاب، وأحيانًا يكذبون بالنار نفسها وقوله: ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الجواب الموجود متعلق بـ ﴿تكذبون﴾، ولكنه قدم للفواصل لا شك هذه من جهة وللحصر ولكننا إذا قلنا إنه للحصر، يرد علينا إشكال وهو أنهم كذبوا بالنار وبغيرها فيقال لما كان العذاب بالنار ذكروا بتكذيبهم بها خاصة؛ لأنهم عُذِّبوا بها، فكأنهم قيل لهم عذبتم بشيء أنتم كنتم تكذبون به، وإلا فلهم تكذيب آخر ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن بينات واضحات بلسان نبينا محمد ﷺ قالوا في هذه الجملة الشرطية، وهي إذا فعل الشرط تتلى جوابه، قال: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ هذه ما النافية وهنا لم تعمل لانتقاض النفي.

قال الله تعالى:﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ﴾فقال: ونقول للذين ظلموا: والإظهار في موضع الإضمار ذكرنا أن له فائدة مستمرة، وهي: التنبيه، وفائدة خاصة في كل سياق بحسبه، فهنا يقصد بها التعميم يعني: للذين ظلموا من هؤلاء وغيرهم، والإشارة إلى سبب الحكم وهو قوله: ﴿ذُوقُوا۟﴾ للذين ظلموا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ والتعميم والإشارة إلى علة الحكم وهو الظلم.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٣-٤٥]

التفسير

نبدأ بالإعراب أولًا، قوله: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بينات حال من آياتنا؛ لأنه وصف بعد معرفة، والوصف بعد المعرفة إذا كان نكرة يكون حالًا، وكذلك إذا كان جملة، فالأوصاف بعد المعارف إذا كانت نكرة، أو جملة تكون حالًا، والأوصاف بعد المعرفة تكون نعتًا، الحال والنعت كلاهما وصف، ولكن إن وافق متبوعه في التعريف والتنكير فهو نعت، فإن كان المتبوع معرفة والثاني نكرة أو جملة فهو حال، وقوله: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ جواب الشرط، يقول الله - عز وجل - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي إذا تقرأ عليهم آياتنا، ولم يبين القارئ، فيشمل أن يكون القارئ النبي ﷺ أو غيره، إذا تليت عليهم آيات الله ﴿بينات﴾ أي: ظاهرات، فما ظهورها هنا، هل ظهورها بمعني أنها واضحة أنها كلام الله لعجزهم عنها،أو بينات فيما تدل عليه من معاني سامية لا يمكن أن يأتي بمثلها البشر أو الأمران؟ يشمل هذا وهذا، فهي بينة في ذاتها واضحة،أنها ليست من كلام البشر، بل هي بينة في موضوعها وما تدل عليه من أنها ليست من أحكام البشر؛لأنها لا تتناقض ولا يكذب بعضها بعضًا، وهذا يدل على أنها من عند الله، لو كانت هذه الآيات خفية كان لهم شيء من العذر في ردها، ولكنها آيات بينات ومع هذا يقول الله عز وجل ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يقول المؤلف في تفسيره: [واضحات بلسان نبينا محمد ﷺ].

قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ما هذا؟ أي الذي جاء بها وادعى أنها من عند الله ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ وانظر كيف تحمل هذه الجملة من الاحتقار والإنكار ما هو معلوم فقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أتوا به بصيغة الحاضر وإن كان غائبًا للاحتقار، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ هذا للإنكار؛ لأنهم أتوا به بصيغة النكرة كأنهم لا يعرفونه، كأنه رجل أجنبي منهم ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ ولم يقولوا ما ذلك الرجل إلا رجل، بل قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ احتقارًا

وإنكارًا ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعني: لا يريد أن يهديكم سبيل الرشاد، ولكن يريد أن يصدكم، أي يصرفكم ويمنعكم عما كان يعبد آباؤكم وما الذي يعبد آباؤكم ؟ الأصنام من الأشجار والأحجار وغيرهما، هذا هو غرض هذا الرجل الذي جاء بهذه الآيات التي تليت عليهم، وليس غرضه الصلاح ولا الإصلاح، هكذا ردَّ الحق بهذه الدعوى الباطلة.

وقوله: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ولم يقولوا عما كنتم تعبدون؛ لإثارة الحمية في نفسهم؛ لأن الإنسان يصعب عليه أن يدَعْ ما كان آباؤه عليه، لاسيما مثل هؤلاء الجهلة، لو قال: عما كنتم تعبدون لكان يمكن أن يقال: إنهم عبدوا على غير أساس، لكن لما قالوا: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأن هذه العبادة لهذه الأصنام كأنها أمر مستقر كان عليه الآباء ولا ينبغي أن تتركوا ملة آبائكم، ولهذا يقولون كما حكاه الله عنهم في آيات أخرى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: مقتدون آية أخرى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والمراد بالآباء هنا ما يشمل أباء الصلب وهو الأب الأدنى والآباء الأعلون، وهم الأجداد وإن علوا.

وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ هل أمهاتهم كذلك؟ نعم، لكن الإنسان تأخذه الحمية لأبيه أكثر مما تأخذه لأمه؛ لأنه من المعلوم أن العبد رجل، والرجل أعقل من المرأة، فإذا كان آباؤكم يعبدون هذه الأصنام ويصرون على عبادتها وهم العقلاء، فإنه لا ينبغي لكم أن تتبعوا هذا الرجل الذي كان يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا في القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب مفترى على الله، فطعنوا في الرسول وطعنوا في القرآن، طعنوا في الرسول ﷺ بسوء قصده، وأنه لا يقصد الإصلاح وإنما يريد أن يصدكم عما كان يعبد أباؤكم، وطعنوا في الوحي الذي جاء به هذا الرسول.

وقالوا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الصيغة صيغة حصر، فعلى زعمهم ليس في القرآن شيء صدق، كل القرآن جملةً وتفصيلًا إفك مفترى، أي كذب وبنفسه كذب؛ لأن هناك كذبًا مطلقًا يكذبه الإنسان ينسبه إلى أحد، وهنا كذب يفتريه الإنسان على غيره، فالقرآن يقولون أنه كذب وأنه مفترى على الله، ولا ريب أن هذه دعوى باطلة، فالقرآن كما وصفه الله في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وكذلك القرآن من عند الله ـ عز وجل ـ بدليل أن الله ـ عز وجل ـ تحدى هؤلاء أن يأتوا بمثله، فلم يأتوا، فهو دليل إذن أنه من عند الله وكل أخباره صدق وحق، خلاف ما طعن به هؤلاء ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ فطعنوا في الرسول، وطعنوا في المرسل به والطعن فيهما طعن في الله ـ عز وجل ـ ؛ لأن تمكين الله لهذا الرسول وتأييده له تنزيل الآيات عليه وهو كاذب سفه والله ـ عز وجل ـ يؤيد رسوله بما ينزل عليه ويشهد له بأنه حق، والرسول ﷺ يدعو الناس علنًا وسرًّا فلو كان كاذبًا على الله ـ عز وجل ـ والله يؤيده ويمكنه،

لكان تمكين الله له كله في غاية ما يكون من السفه وهذا طعن في الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا أيضًا دعوى ثالثة كاذبة، لكنه أتى بالإظهار في موضع الإضمار لم يقل وقالوا، بل قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليشمل هؤلاء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

فقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل هؤلاء وغيرهم، ويفيد أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول كفار؛ لأنه وصفهم بالكفر مسند إليهم هذا القول فيكون ذلك سببًا لكفرهم، قال المؤلف في تفسيرها: [ما] أي: أن (إن) نافية، (إن) تقع نافية وهل يشترط لكونها نافية أن تأتي بعدها إلا؟ الجواب: لا، لكن إذا أتت بعدها إلا فهي نافية، كلما أتت (إلا) بعد (إن)، فإن نافية ولا نقول إنها لا تكون نافية إلا إذا وقعت بعدها إلا لأنها قد تأتي نافية ليس بعدها إلا، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ أي: (ما عندكم من سلطان بهذا) ومع ذلك فإن الجملة هذه ليس بها إلا، والخلاصة: إذا أتت (إلا) بعد (إن) كانت (إن) نافية، ولا يلزم أن تأتي بعدها (إلا)، بل قد تكون نافية بدون (إلا) ولنا أن نستطرد حتى نذكر معاني (إن) فتأتي نافية كما هنا، وتأتي شرطية كقوله: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ وتأتي زائدة كقول الشاعر:

بَنِي غُدَانَـةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَـبٌ   وَلَا صَرِيـفٌ وَلَكِـنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: (وإن مالك كانت كرام المعادن) هذه مخففة من الثقيلة، إذن فتستعمل في اللغة العربية على أربعة أوجه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السحر في اللغة هو: كل شيء خفي وسمي سحرًا لمطابقة السحر وهو آخر الليل؛ لأن أخر الليل تقع فيه أشياء خفية لكون الناس مستترين في بيوتهم، فالسحر في اللغة الشيء الخفي الذي يخفى أمره وسببه، ولهذا أول ما ظهرت الساعات هذه يقال: إنها سحر، وإذا جاءت أشياء غريبة على الناس خارقة للعادة قالوا هذاسحر، فهم يقولون: الذي جاء به محمد ﷺ هذا سحر فعصى موسى على رأيهم سحر، وإحياء عيسى الموتى ـ بإذن الله ـ سحر، وهذا الكلام الذي جاء به محمد ﷺ سحر، (إن من البيان لسحرًا) فقالوا: هذا كلام فصيح، سحر عقول الناس.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ هذا من باب التمويه يعني أنه سحر بيِّن لا ينبغي المجادلة فيه لبيانه وظهوره، وهذا كما تؤكد الشيء هذا أمر بين واضح، وإن كان ليس بينًا واضحًا، فإن هذا الذي جاءت به الرسل من الآيات ليس بينًا أنه السحر، بل البيِّن أنه حق وآيات حقيقية، لكن المكذبين ـ والعياذ بالله ـ يجادلون في الحق.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ قال المؤلف بمعني: [بيِّن]؛ لأن أبان تأتي لازمة ومتعدية، فتقول: بان الفجر بمعني: ظهر الفجر وتقول: ظهر الفجر فهنا كلمة مبين بمعني: بيِّن هذا هو الأقرب، أما مبين بمعني أبان أي أوضح وأظهر فمثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن القرآن

مبين الحق، فتكون مبين هناك مِن (أبان) المتعدي ومبين هنا من (أبان) اللازم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾

قال المؤلف: [فمن أين كذبوك؟!]

قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾اختلف المفسرون في معناها، فقال بعضهم: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ يناقض ما قلت: فإذا لم يكن عندهم علم من كتب يدرسونها ولا علم من نذور أتتهم يخالف ما أنت عليه فكيف يكذبونك، وعليه فيكون المراد بهذه الآية: أن تكذيبهم إياك صادر عن جهل؛ لأنهم يقولون: إياك ما أتيناهم من كتب يدرسونها تدل على أن ما قالوه في وصفك حق ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ يناقض ما جئت به حتى يقول: إنك كذاب وساحر، فيكون المراد بالآية أن هؤلاء الذين كذبوك لم يستندوا في تكذيبك على علم لا من كتب، ولا من وحي، يعني كتب يدرسونها ويفهمون ما فيها ويعلمون أن ما جئت به مناقضًا لها، ولا من نذير أنذرهم وحذرهم مما جئت به وقال: إنه سيأتي كاذب مفتري فلا تطيعوه.

نحن الآن لو جاءنا نبي وقال: إنه نبي من عند الله؛ لأننا قد أنذرنا من هؤلاء كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام لكن لما جاء النبي ﷺ هل هؤلاء مكذبون له هل أنذروا به وحذروا منه؟ لا، هل هناك كتب درسها هؤلاء تبين أن الرسول ﷺ على باطل؟ لا، هذا وجه وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف؛ لهذا قال فمن أين كذبوك؟ القول الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعث محمدًا ﷺ في قوم أميين لا يقرءون ولم يبعث إليهم نبي، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أن هؤلاء كان الأليق بهم أن يفرحوا برسالتك، وأن يقبلوا ما جاءت به؛ لأنه ليس عندهم كتب يدرسونها كما عند اليهود والنصارى، ولم يبعث إليهم نبي قبلك فكانوا في أشد الحاجة إليك، ومن كان محتاجًا إلي الشيء، كان به أفرح ولخبره أشد تصديقًا، فيكون المراد بهذه الجملة توبيخ هؤلاء على تكذيبهم النبي ﷺ وأنه كان الأليق بهم أن يفرحوا بذلك وأن يصدقوا؛ لأنه ليس عندهم كتب تدرس ولم يبعث لهم نذير من قبلك، فكانوا في أشد الحاجة إلى تصديقك وقبول ما جئت به.

فتتضمن هذه الآية توبيخ هؤلاء على تكذيبهم النبي ﷺ، ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾. ولا أنذرهم أحد منه، وكذلك هم لم يكونوا عالمين بالكتب السابقة، ولم يرسل إليهم رسول، إذن حالهم قابلة لهذين الوجهين، يعني تنزيلها على الوجهين لا يتنافى مع حال هؤلاء المكذبين لرسول ﷺ، فالوجهان كلاهما يسقط عليهم وإذا كان الوجهان كلاهما يسقط عليهم، فلا مانع أن نقول: أن الآية يراد بها هذا، وهذا؛ لأن حال الذين كذبوا

الرسول ﷺ قابلة للوجهين جميعًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا﴾ أي: [هؤلاء] ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: [من القوة وطول العمر وكثرة المال] هذا فيه تسلية للرسول ﷺ وفيه تهديد للمكذبين ففيه معنيان: التسلية والتهديد، كما كذب الذين من قبلهم مثل عاد وثمود وفرعون وأصحاب الأيكة كثير، وهؤلاء المكذبون السابقون أشد قوة من هؤلاء وأكثر أموالًا وأولادًا، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ وقال أيضًا: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾، فالآيات في هذا تدل على أن الذين كذبوا الرسل السابقين كانوا أعظم من الذين كذبوا الرسول ﷺ في قوة الأجسام وكثرة الأموال وكثرة البنين، وهل أغنى ذلك عنهم شيئًا؟ لا، لم يغنِ عنهم شيئًا، ولهذا قال الله تعالى ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ إليهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك] يعني: أن هؤلاء السابقين كذبوا رسل الله حصل عليهم إنكار الله - سبحانه وتعالى - بالتعذيب والإهلاك، لم يقرهم الله - سبحانه وتعالى - على تكذيبهم بل أنكر عليهم إنكارًا بالفعل أهلكهم وأبادهم، هذا الاستفهام في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتعظيم والتفخيم، أي فما أعظم إنكاري عليهم؛ لأنه إنكار أدى بهم إلى الهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ولهذا قال المؤلف أي: [أنه واقع موقعه].

الفوائد:

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة منها: أن الوحي آية من آيات الله عز وجل ووجه كونه آية، من عدة وجوه:

أولًا: أنه أعجز البشر وغير البشر وهذا دليل على أنه من عند الله.

ثانيًا: أن أحكامه عادلة مصلحة للقلوب، والأبدان، والأفراد، والجماعات في كل زمان، وفي كل مكان، وهذا لا يمكن أن يكون في كلام البشر، وترانيم البشر مهما عظمت، فإنما تكون سارحة في نطاق محدود، وتجدها كذلك مع كونها صالحة في نطاق محدود تجد فيها أمورًا ضارة قد تعادل المصالح التي فيها، بخلاف آيات الله.

ثالثًا: ما يشتمل عليه الوحي أو القرآن بالذات من الأخبار الصادقة التي ليس فيها ما يخالف الواقع بوجه من الوجوه، سواء كانت تلك الأخبار ماضية أم حاضرة أم مستقبلة، هذا وجه كونها

من آيات الله.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن آيات الله -عز وجل- بينات ليس فيها خفاء، وعلى هذا فمن يشكل على بعض أهل العلم من أحكام الله - سبحانه وتعالى - فليس مصدره أن الوحي خفي، ولكن مصدره قصور الناظر في الوحي أو تقصيره، قصوره بحيث لا يكون عنده علم، أو لا يكون عنده فهم، أو تقصيره بحيث لا يطلب العلم ولا يطلب الفهم، وإلا فإن آيات الله بينات لا يمكن أن تحدث حادثة إلى يوم القيامة إلا وفي كتاب الله تعالى بيانها، ولكن ليس كل أحد يستطيع أن يتبينها من القرآن، تجد الآية الواحدة يتلوها جماعة ويتفكرون فيها يستنبط أحدهم منها مسائل عديدة والآخر لا يستنبط منها إلا مسألة أو مسألتين وهذا أمر ظاهر وكثيرًا ما تشكل علينا مسألة، ونراجع كتب العلماء من الفقهاء وغيرهم، ثم عند التأمل في الكتاب والسنة نجد أنها قريبة موجودة إما داخلة في عموم لفظ، أو إشارة، أو إيماء، أو ما أشبه ذلك، بيان الآيات إما أن يكون بذاتها، وإما أن يكون عن طريق السنة، يعني بيان آيات القرآن إما أن تكون بذاتها هي بينة واضحة، وإما أن يكون عن طريق السنة تبين المجمل، وتفسر المشكل، وتقيد المطلق، وتخصص العام، وتنسخ المحكم هذا محل خلاف بين العلماء، والصحيح أنها تنسخ ذلك؛ لأن كله من عند الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسول ﷺ بين القرآن بلفظه ومعناه سواء بينه بقوله أو بفعله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عتو المكذبين للرسول ﷺ بيان عتوهم؛ حيث كانوا مع هذه الآية يدّعون هذه الدعوى الباطلة وهي أن الرسول ﷺ لا يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا شبهة لهؤلاء المكذبين لرسوله ﷺ وإنما هي اعتداء بالدعوى الباطلة؛ لأن غاية ما عندهم أن يقولوا: هذا ما كان عليه آباؤنا، وهذا ليس بحجة فإن الحق ما وافق الشرع سواء كان عليه الآباء أم لم يكن.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** غلط هؤلاء المكذبين بصوغ الأساليب أو العبارات الدالة على الحط من قدر النبي ﷺ لقولهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المكذبين كانوا على ضلال هم وآباؤهم؛ حيث كانوا يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم؛ لأنهم يعبدون الأشجار والأحجار ويدّعون أنها تنفع أو تضر، إما بذاتها وإما بشفاعتها.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنهم ادَّعوا أن النبي ﷺ كذب على الله في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الدعوى هم بأنفسهم يكذبونها؛ لأنهم كانوا يسمون الرسول ﷺ قبل أن يوحى إلى الأمين، ويرون أنه أعظم الناس أمانة وصدقًا، فما الذي قلبه عن ذلك الوصف

الذي أنتم تقرون به حتى قلتم: إنه مفترى على الله - عز وجل ؟!

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ألا نستغرب من يجادل بالباطل ويدَّعي الأقاويل الكاذبة؛ لأن هناك أناسًا الآن إذا رفضوا شيئًا من الأشياء صاروا يقولون ويتقولون على الذي قاله ما لم يقله فيقولون: أنه كاذب، أنه متناقض، أنه كذا، أنه فعل كذا، وهو برئ من ذلك، فلهؤلاء سلف من أولئك الكفار.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما جاء به النبي ﷺ من الآيات من أفصح الكلام وأبلغه وأدينه لقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فهم لم يصفوه بالسحر إلا لأنه يعصف بالقلوب ويجر الناس إليه جرًّا، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من نسب الكذب إلى رسول الله ﷺ فيما أوحى الله إليه فهو كافر في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١١- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء ادّعوا أن الوحي سحر بعد أن وصل إليهم وعرفوه لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعرفوا أنه حق حتى أن زعماءهم كانوا يتسللون لواذًا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا القرآن؛ لأنه أخذ بمجامع قلوبهم وصاروا يحبون أن يستمعوا إليه، لكن الحمية والعياذ بالله والعصبية منعتهم أن يهتدوا بهذا القرآن.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ سنشرحها على أن المعني أن الله - سبحانه وتعالى - لم يُعطِ قريشًا بل والعرب جميعًا لم يعطهم كتبًا ولم يرسل إليهم رسولا نأخذ الفوائد على هذا المعني فنقول:

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** بيان منة الله - سبحانه وتعالى - العظيمة على العرب بما بعث إليهم وهو محمد ﷺ وجه ذلك أنهم كانوا أمة جاهلة ليس عندهم كتب تدرس ولم يأتهم نذير يخبرهم ويعلمهم، فهم أشد الناس حاجة إلى الرسول، وإذا اشتدت الحاجة ثم جاء ما يزيل هذه الحاجة كان أعظم من أي شيء؛ ففي الآية إذن بيان عظيم منة الله - عز وجل - على العرب حيث بعث فيهم هذا الرسول الكريم ﷺ.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن العرب كانوا جاهلين من أجهل الناس قبل بعثة الرسول ﷺ تؤخذ من قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ليس في العرب رسول إلا محمد ﷺ وهو كذلك وما ذكر بعض المؤرخين من أنه وجد في الجاهلية رسلًا منهم خالد بن سنان فهذا لا أصل له ولا صحة له؛ لأن الله يقول: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وأخبر النبي ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى رسول [1] وعلى هذا فإنه لم يبعث فيهم رسول إلا محمد ﷺ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن حقيقة الرسالة هي الإنذار، وكذلك البشارة الإنذار للمخالفين بالعقوبة والبشارة للموفقين بالثواب والجزاء، وفيه أيضًا على المعني الثاني يستفاد من الآية أن هؤلاء الذين كذبوا الرسول ﷺ ليس لديهم ما يستندون إليه في تكذيبه؛ لأنهم لم يقرأوا كتبًا تدل علي كذبه ولم يبعث إليهم رسولًا تقتضي رسالته أن محمدًا ﷺ كاذب، هذا على المعني الثاني.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة: تحذير لمكذب الرسول ﷺ، وجهه: أن الله أخبر أنه كذب من قبلهم مَنْ هُم أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا من هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ.

٢- ومن فوائدها: أن من كذب الرسل فقد حقت عليه كلمة العذاب؛ لقوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

٣- ومن فوائدها: شرف الأنبياء أي شرف الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ؛ لأن الله أضاف رسالتهم إليه فقال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ ومن المعلوم أن مرتبة الرسالة أعلى مراتب البشر، فإن مراتب البشر أربع، النبوة المتضمنة للرسالة، والصديقية، والشهداء، والصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ فأعلى المراتب النبوة، ثم الصديقية، ثم الشهادة، ثم الصلاح، خلافًا للزنادقة الذين يقولون: إن الأولياء أفضل من الأنبياء، والأنبياء أفضل من الرسل ويقول قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخ ... فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِي

يزعمون ـ قبَّحهم الله ـ أن الأولياء أفضل من الرسل والأنبياء هو كذلك عندهم؛ لأن أولياءهم الطاغوت، والطاغوت يملي عليهم أنه أفضل من الرسل والأنبياء.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤/ ٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله - عز وجل - حيث جعل العقوبة من جنس العمل فلما كان عمل هؤلاء عظيمًا - وهو تكذيب رسل الله - سبحانه وتعالى - كان جزاؤهم عظيمًا يتعجب منه ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي ما أعظمه وما أشده.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنكار يكون بالفعل كما يكون بالقول، وجه ذلك أن إنكار الله عليهم ليس بالقول فقط بل بالفعل والأخذ بالعقوبة فهذا إنكار بالفعل، وهذا موجود أيضًا في أعمالنا نحن، عندما يخالفك صبيك في أمر من الأمور أحيانًا توبخه تقول لماذا تفعل هذا ألم آمرك أن تتركه؟ وأحيانًا إذا جئت وجدته قد فعله تضربه هذا إنكار ويكون بالفعل، فإنكار الله - عز وجل - يكون بالقول، ويكون بالفعل، فعقوبة المجرمين هي إنكار بالفعل، وفي هذه الآية وفي غيرها من الآيات التي تضيف الفعل إلى الفاعل رد على من لا يثبت للعباد أفعالًا - مثل ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما أشبه ذلك -؟ هي رد على الجبرية الذين يقولون: إن فعل العبد مخير عليه ليس له فيه اختيار.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: استعمال قياس الأولى، تؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني إذا أخذ الله هؤلاء الأقوياء الأشداء الأكثر أموالا وأولادا إذا أخذهم الله تعالى بجرمهم هؤلاء الذين دونهم من باب أولى، ولا شك أن القياس دليل صحيح ثبت اعتباره بالكتاب والسنة والعقل، ولكن القياس نوعان: صحيح وفاسد، فالفاسد دل الكتاب والسنة والعقل على عدم اعتباره، والصحيح دلّ الكتاب والسنة والعقل على اعتباره مثال فاسد قول إبليس مستعملًا قياس الأولى لما أمره الله أن يسجد لآدم قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فكيف يكون الأخير عبدا لمن دونه، ومثال القياس المثلية قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ هذا قياس فاسد؛ لأنه قياس ما حرم الله على ما أحله الله عز وجل، إن القياس قد سبق اعتباره بالكتاب والسنة والعقل، ومن أنكره فقد أنكر ما يدل عليه الكتاب والسنة نعم الذي ينكر منه القياس الفاسد.

مسألة: هل نأخذ من هذه الآية أن تكذيب الرسل تكذيب لله؟

الجواب: نعم هو الظاهر؛ لأنه قال في الأول: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يذكر المكذب ثم قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ فدل ذلك على أن تكذيب الرسل تكذيب لله - عز وجل - وهو كذلك عند التأمل؛ لأن الرسول إذا جاء وقال إنه رسول الله وأيده الله بالآيات، ثم كذبته فقد كذبت الله - عز وجل - ؛لأن الآيات التي يعطيها الله الرسول ما هي إلا براهين تدل على صدق فكأن المكذب يقول إن هذه الآيات كذب؛ لأنه يكذب الرسول.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ انظر إنصاف الله - عز وجل - في مخاطبة الخلق ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد موجه الخطاب إلى هؤلاء المكذبين ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ الجملة هذه فيها حصر، وتقديرها ما أعظكم إلا بواحدة، يعني ما أدعوكم دعاءً واعظًا ناصحًا لكم إلا واحدة فقط بمعني أنصحكم، يعني أنا أدعوكم ناصحًا لكم وواعظًا إلى هذه الخصلة بواحدة أن تقوموا قال: هي أن تقوموا، وعلى هذا فأن تقوموا في موضع جر عطف بيان على قوله ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ يعني أنه بين هذه الواحدة بقوله ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾، وأن تقوموا هنا المراد بها: أن تثبتوا على الشيء، وليس المراد القيام ضد القعود فهو في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ ليس المراد أن تقوموا يعني يقف الواحد وهكذا قوله: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ليس المراد أن تقفوا قيامًا، بل أن تثبتوا وتنظروا في الأمر.

وقوله ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ قال المؤلف: [أي: لأجله]، اللام هنا للإخلاص أي أن تقوموا مخلصين لله لا مقلدين لآبائكم ولا متعصبين لآرائكم، جردوا نياتكم من كل شيء إلا لله، أن تقوموا لله وحده لا مراعاة لي، ولا مراعاة لآبائكم ولا لحمايتكم، ولكن لله ﴿مَثْنَىٰ﴾ قال المؤلف: [اثنين اثنين] وهل المراد حقيقة التثنية؟ يعني أن يقوموا اثنين اثنين، أو المراد مجرد الزيادة على واحد يعني: أنه مثنى لا يريد به حقيقة الاثنين، بل المراد أن تقوموا لله مجتمعين سواء كنتم اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو عشرة، نعم هذا هو الظاهر، وقال بعض المفسرين: المراد بالمثنى هنا حقيقة الاثنين وعللوا ذلك بأن الناس إذا كثروا اضطربت أراؤهم، وكثر الشجار بينهم وفات المقصود؛ لأنك الآن لو وضعت رأيًا بين عشرة كما يأتيكم رأيًا عشرة آراء، وبين اثنين يأتيك رأيان، قالوا: فالاثنين أقرب للحصر، وأقرب إلى تصور المسألة مما إذا كانوا أكثر من اثنين، ولكن قد يقال: إن هذا حقيقة لكن أحيانًا يكون الثلاثة والأربعة أسد رأيًا من الاثنين فقط، فتقبل الآية أن المراد بالمثنى مطلق الجمع اثنين أو أكثر، والمثنى قد يراد به مطلق الجمع كما في قوله تعالى ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي كرة بعد كرة وليس المراد حقيقة الاثنين وكقول الإنسان وهو يلبي بالحج أو العمرة لبيك أي الإجابة مرتين، أو المراد إجابه بعد إجابه الأخير، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ أي: في شأنكم وفي حالكم ثم استأنف فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ وهذا من كلام الله وليس مفعولًا لما يقتضيه التذكر وهو العلم وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ صاحبكم المراد به محمد رسول الله ﷺ، لكنه عبر بالصاحب المضاف إليهم زيادة في التشنيع عليهم والتوبيخ، كأنه يقول هذا صاحبكم الذي تعرفونه ليس رجل منكر عليكم بل هو صاحبكم الذي تعرفون عقله، وصدقه، وأمانته، فكيف تقولون: أنه ساحر وأنه مجنون وأنه شاعر وأنه كاهن وما أشبه ذلك الإضافة إليهم للتشنيع عليهم، والتوبيخ لهم هذه واحدة، وفيه أيضًا الإشارة أنه كان ينذر أن يكونوا أول من يصدقوا به وأول من يناصره؛ لأنه صاحبهم وصاحب الإنسان مستحق للنصر منه والمساعدة والمعاونة، فكان في الإضافة فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التشنيع عليهم في أنهم يصفون صاحبهم الذي يعرفونه بهذا الوصف.

الثانية: أنه كان أولى بهم وهو صاحبهم أن يكونوا أول الناس تصديقًا به، وأشد الناس معونة له، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم، و﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر قرنت به (مِنْ) الزائدة من حيث الإعراب المفيدة لمعني من حيث المعني، والفائدة منها: هو المبالغة أو التأكيد في النفي؛ لأن (مِنْ) إذا دخلت على المنفي أفادت العموم وصارت نصًّا فيه.

وقوله: ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ يقول المؤلف: [جنون] فالجنة هنا بمعني الجنون، ويمكن أن يكون المراد به الجن الذي إذا خالط الإنسان جُن: ﴿مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ ﴿إِنْ﴾ تستخدم في اللغة على أربعة أوجه إن بمعني ما فهي نافية و﴿هُوَ﴾ أي محمد ﷺ الذي هو صاحبهم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ﴾ أي: قبل ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾في الآخرة إن عصيتموه يعني ما محمد ﷺ إلا رجل من أعقل الناس ومن أحن الناس على قومه؛ لأنه نذير لكم من ماذا؟ ينذرهم من العذاب الشديد القريب لهم إذ قال: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وبين يدي الشيء هو أن يكون قريبًا منه.

فالنبي ﷺ هذه حاله رجل عاقل ناصح لقومه حانٍ عليهم؛ لأن الذي ينذرك من العذاب يعتبر محسنًا إليك، لو أن رجلًا جاء يصيح أيها الناس جاءكم العدو، أيها الناس جاءتكم نار السعير، أيها الناس جاءكم الماء الفيضان بماذا تصف هذا الرجل؟ ناصح أو غشاش؟ ناصح، ولا تصفه بأنه مجنون، تصفه بأنه عاقل ناصح حانٍ عليك يحب لك السلامة من الشرور فالنبي ﷺ بالنسبة لنا ما هو إلا نذير ينذرنا من العذاب الشديد القريب ولهذا قال: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والشديد بمعني القوي، وهل يراد عذاب الآخرة أو يشمل عذاب الدنيا والآخرة؟ الصحيح أنه يشمل عذاب الدنيا والآخرة؛ ولذلك عذب المكذبون رسول ﷺ في الدنيا قبل الآخرة فزعماء قريش وصناديدهم قتلوا في بدر وألقوا جيف منتنة قريب من بدر، ومن بقي منهم كان آخر أمرهم أن دخلت عليهم البلد من أقطارها وذلُّوا حتى كان الواحد لا يأمن إلا بتأمين من دخل

داره وأغلق عليه بابه، فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[١]، ومن لم يكن في هذا فليس بآمن، وهذا من أكبر الذل أن تستحل بلدك ولا تأمن فيها إلا بتأمين هذا، لا شك أنه ذل وعار وآخر الأمر أن النبي ﷺ هو الذي منَّ عليهم وقال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ**»[٢]، وهذا بلا شك أنه عذاب في الدنيا لكن إذا أسلموا كان مثل هذا العذاب كافيًا، ومن أبى وكفر كان له عذاب شديد أيضًا في الآخرة والله أعلم.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** دعوة الإنسان المعاند للتأمل في الأمر والنظر فيه حتى لا يتعجل بالرد لقوله ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن طلب الحق أن يكون مخلصًا لله بعيدًا عن الهوى؛ لقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

٣ ـ **ومنها:** جواز التعاون في طلب الوصول للحق، وذلك من قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

٤ ـ **ومنها:** أن الإنسان قد لا يصل إلى الحق إلا بمساعدة غيره؛ لقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فإنه إذا أمكن أن يصل للحق بنفسه فذاك وإلا استعان بغيره.

٥ ـ **ومنها:** أن التفكير كما يكون في الآيات الكونية، يكون كذلك في الآيات الشرعية؛ لأنه هنا طلب منه التفكر في ما جاء به الرسول ﷺ وفي عقول نفسه أيضًا.

٦- **ومن فوائدها:** انتفاء الجنون عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ لقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

٧- **ومنها:** بيان عتو قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ مع أنه صاحبهم الذي يعرفونه وكان أولى بهم أن يصدقوه.

٨- **ومنها:** أننا إذا أردنا استكشاف حال الشخص فإننا نسأل مصاحبه الذي يصاحبه ويلازمه؛ لأنه أعلم الناس به، وقد شاهد بعض صفاته إذا أردت أن تسأل عن حال الشخص يسأل المسئول يقول: هل سافرت معه؟ فإن قال: لا، ترك تعديله له، وإن قال: نعم قُبِل تعديله إياه؛ لأن السفر يظهر حقيقة الرجال، حتى قيل: إنه إنما كان سفرًا لا يسافر ويبتعد عن البلد ويخرج إلى الفضاء؛ ولكن لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، ولا شك أن السفر من أكبر ما يدل على الرجل؛ لأن في البلد الناس كلهم لهم شأن يغنيهم عن الآخرين، لكن في السفر محك للأخلاق الفاضلة من عدمها.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٤/ ١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: قال الألباني رحمه الله في كتابه: «دفاع عن الحديث النبوي» ص (٣٢): هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت وهو عند ابن هشام معضل.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ منذر للناس من عذاب قريب إذا خالفته؛ لقوله: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

١٠ - **ومنها:** استعمال الأسلوب المناسب للحال، وهذا معروف في علم البلاغة أن يستعمل الإنسان ما يوافق مقتضى الحاجة فهنا ذكر الإنذار دون البشارة؛ لأن المقام مقام تخويف وإنذار؛ لأنه يخاطب المكذبين لكن عند وصف الرسول ﷺ الوصف المطلق يقول: إنه شاهد ومبشر ونذير، فبدأ بالبشارة قبل الإنذار وهذا من حيث حال النبي - صلى الله عليه وسلم - المطلقة، أما في المقامات التي تقتضي ذكر الإنذار دون غيره فيستعمل فيها الإنذار دون غيره.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء وعقوبة المخالفين لقوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

١٢- **ومنها:**

استعمال الأوصاف التي تستلزم الموافقة والمتابعة؛ لقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ فأنت عندما تخاطب الإنسان لذاته لا تأتي له بالألفاظ التي تبعده، بل ينبغي أن تأتي له بالألفاظ التي تدنيه وتقربه لتألف قلبه.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٤٧-٥٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ ﴿قُلْ﴾ الخطاب معلوم أنه للرسول ﷺ ؛لأنه هو النذير لهؤلاء ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ (ما) يحتمل أن تكون شرطية يعني: أي أجر أسأله منكم فهو لكم ويحتمل أن تكون (ما) موصولة يعني قل: الذي سألتكم من الأجر فهو لكم، ويكون اقتران الفاء بالخبر؛ لأن اسم الموصول يشبه الشرط في العموم، فأوضح حكمه ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على [الإنذار والتبليغ] ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ (مِن) هذه بيان لما فعلته وليست زائدة؛ لأن ما غير نافية وقوله: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ الأجر هو ما يعطى في مقابلة عمل أو في مقابلة منفعة، كما لو استأجرت رجلًا

يعمل لي عملًا أو أستأجرت شيئًا، كما لو استأجرت منك بيتك يعني هذا هو ما يعطى على العمل أو استعمال المنفعة يعني هذا العمل الذي قمت به، إن كنت سألتكم عليه أجرا وقلت: أعطوني مالا، أو أعطوني كذا فهو لكم وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾هذا فرض على أن يكون هذا موجودًا، وإلا فإنه غير موجود كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فالرسول ﷺ قال لهم: إن كنت سألتكم أجرًا فهو لكم لا تعطوني إياه قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿إِنْ﴾ بمعني (ما) ومن علامات إن النافية أن يقع بعدها إلا وذلك ليس بشرط.

وقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: [ثوابي] على تبليغي وإنذاري إلا على الله وحده - سبحانه وتعالى - فإن أجري علي الله فإنه سيجد الثواب العظيم؛ لأن عطاء أكرم الأكرمين سيكون أعظم عطاء ولهذا يجزي الله - سبحانه وتعالى - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ثم الداعي إلى الله يؤجر على دعوته سواء قبلت أم رفضت، يؤجر أيضًا على ما يناله منها من أذى سواء كان الأذى قوليًّا أم فعليًّا، وسواء كان يعود الأذى إذا ما رد ما جاء به أم يعود الأذى إلى اتهام هذا الإنسان بما يخدش كرامته.

وكل هذا قد وقع للرسول ﷺ أُوذي على دعوته وأُوذي فيما يخدش كرامته ونزاهته فأصحاب الإفك [1] لما رموا عائشة رضي الله عنها ما رموا عائشة لأنها عائشة، لكن رموها لأنها زوج النبي ﷺ فالرسول ﷺ أوذي في عرضه، وأوذي في بدنه، وأوذي في مهمته التي جاء من أجلها فأجره على الله - سبحانه وتعالى -.

واعلم أنك كلما أوذيت في الدعوة إلى الله فإن ذلك زيادة أجر لك من جهة، وزيادة قوة الدعوة من جهة أخرى؛ لأن الإنسان إذا أوذي على شيء لابد أن يجد ما يتعاون معه كما تقتضيه سنة الله - عز وجل -، حتى الذين يتكلمون بالباطل إذا أوذوا على باطلهم وجدوا من يتعاطف معهم فكيف بمن يتكلم بالحق؟! ولهذا أدعو نفسي وإياكم إلى أن يكون علمنا منسابًا إلى غيرنا، بمعني أن ننشر العلم، وأن ندعو الناس إليه، صحيح أن حضورنا إلى هذا المجلس وتعلمنا لاشك أنه فائدة عظيمة وأنه مجلس من مجالس الذكر ينبغي أن ننشر هذا العلم وندعو الناس بقدر المستطاع، وأما أن نبقى ننسخ من الكتب الفائدة لا تعدو صدورنا، فهذا لا شك أنه ضعيف ولا يليق بطالب العلم، وعلينا أن نعرف ما جرى في أئمة المسلمين من علماء المسلمين من الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - ولست بذلك أريد أن تكرسوا جهودكم كلها في الدعوة؛ لأن الدعوة بلا علم ضررها أكثر من نفعها، كما يوجد من بعض الأخوة الحريصين على الخير تجدهم يضيعون أوقاتهم في

---

(١) قصة الإفك مشهورة أخرجها الشيخان في صحيحهما فأخرجه البخاري برقم (٤٧٥٠) ومسلم برقم (٥٦/ ٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الزيارات إلى فلان وإلى فلان، وفي الخروج، حتى إن العلم عندهم ليس بشيء، بل تجدهم يكرهون العلم والتعمق فيه ويريدون أن تكون دعوتهم دعوة سطحية مهلهلة، أي إنسان يحكيهم، أنا أريد منكم أن تكونوا علماء ربانين دعاة إلى الخير ما استطعتم ويكون أجركم على الله - سبحانه وتعالى - ؛لأن الإنسان مسؤل عن علمه، فإن الله تعالى ما أعطاك العلم إلا بميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [مطلع يعلم صدقي] ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ كل شيء الله شهيد عليه يعني مطلع عليه ومنه حالي معكم فهو مطلع عليه، مطلع على أني بلغتكم وأنذرتكم ومطلع على أنكم كذبتموني وخالفتموني فأجري على الله وعقوبتكم على الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ وهل الله - عز وجل - شهيد على ما في نفس الإنسان؟ نعم شهيد حتى على معرفة ما لا يطلع عليه أحد، فالله تعالى شهيد عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ [يلقيه إلى أنبيائه] ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [ما غاب عن خلقه] قال: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ﴾ هذه جملة خبرية مؤكدة بـ(إن)، واسم إن (رب)، وخبرها جملة ﴿يَقْذِفُ﴾، و﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ خبر ثانٍ يعني هو أيضًا علام الغيوب.

وقوله: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ القذف هو الرمي بقوة يسمى قذف وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بقول الحق وهو الوحي الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه، وظاهر كلام المؤلف أن القذف هنا: لازم لا يتعدى الأنبياء، وأن المراد به الوحي المنزل على الرسل ولكن قول المؤلف فيه نظر، والصواب أن هذه الآية تفسرها الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وأن ما في الآية ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وهو إشارة إلى أن حقه سوف يمحو باطلهم ويزهقه ويهلكه، بدليل أنه قال فيما بعد: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ قال: نقذف بالحق ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال علام بصيغة المبالغة؛ لأن الغيوب كثيرة فناسب أن يضاف إليها العلم على سبيل المبالغة كما أن في المبالغة تكون أيضًا من حيث الكيفية لا من حيث الكمية فقط، من حيث الكيفية فإن علم الله - عز وجل - للغيوب ليس علمًا سطحيًا، بل هو علم عميق يصل إلى أخفى شيء من الغيوب قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ والغيوب جمع غيب وهو ما غاب عن الإنسان، وهذا خاص بالمستقبل والحاضر والماضي؛ أما المستقبل فإنه لا أحد يمكنه أن يعلم الغيب إلا في المستقبل، بل من ادَّعى أنه يعلم المستقبل فهو كافر؛ لأن الله يقول ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيكون منتهى الغيب في المستقبل تكذيبًا للقرآن، وتكذيب القرآن كفر، أما الحاضر فهو في الحقيقة غيب نسبي يكون غيبًا عني وليس غيبًا عمن شاهده فلو أن حادثة وقعت في بلد ما وأنا لست في هذا البلد فهي بالنسبة لي غيب وبالنسبة لمن

شاهدها ليست بغيب؛ فإذن المستقبل غيب مطلق، والحاضر والماضي غيب نسبيًّا يظهر لمن رآه ولا يظهر لمن لم يره.

قال: ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [ما غاب عن خلقه في السموات والأرض].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ قال المؤلف: [الإسلام] والإسلام لا شك أنه دين الحق وأنه عال وسيعلو على جميع الأديان، كما قال الله - عز وجل -: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ولو أن المؤلف عمم وقال: الحق كل ما أخبر به الرسول ﷺ وما جاء به من الأحكام فهو حق.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ أي: [الكفر] ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: [لم يبق له أثر] هذه الجملة ما يبدأ الباطل وما يعيد، أو ما يبدأ فلان وما يعيد أسلوب من أساليب العرب كناية عن هلاك هذا الشيء وعدم وجوده؛ لأن الذي لا يبدأ يعني لا يأتي بالشيء ابتداءً ولا يعيد ما صنع أو لا، هذا غير موجود في الوقت ما له حراك لا حراك به فهو كالهالك، والمعني (ما يبدأ الباطل) أي: ما يتبين ابتداءً (وما يعيد) ما يتبين إعادة، فهو إذن هالك لا أثر له لا ابتداء ولا إعادة، فإذا كان (الحق) إذا جاء، والباطل (ما يبدئ ولا يعيد)، فمعناه أن الدولة ستكون للحق لما جاء به النبي ﷺ وإن كذبوه، الباطل إن كان في الأخبار فهو الكذب، وإن كان في الأركان فهو الجور والظلم.

وكل ما خالف حكم الله فهو جور وظلم وإن زعم أهله أنهم عادلون فيه، فهم كاذبون فالقوانين الوضعية المخالفة لشريعة الله نقول: إنها باطل، ونقول: إنها ظلم وجور، وأما ما وافق الشرع فإنه وإن سمّي قانونًا أو نظامًا فهو شرع، يعني: لو أن أحدًا صنع موادًا معينة في الحكم لكنها مأخوذة من الكتاب والسنة، لا نقول: إن هذه قوانين وضعية أو نظم وضعية بل نقول: هي أحكام شرعية لكنها ركبت على مواد، كما أن الفقهاء - رحمهم الله - رتبوا الفقه على أبواب فالخلاف في كيفية العرض، وإلا فهو حق، أما أن يقنن الشريعة بمعني أن ندخل عليها أحكامًا تخالف أحكامها، فهذا كفر، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وأما تقنينها بمعني: تبويبها وجعلها مواد معينة فهذا لا بأس به، بشرط ألّا يكون الحكم لازمًا بهذه المواد؛ لأن إلزام القضاة مثلًا أو الحكام بأن يحكموا بهذه المواد معناه بأنهم يلزموا وأن يحكموا بما يعتقدون أن الحق في خلافه؛ لأن الناس يختلفون في اجتهادهم، فقد ترى اللجنة أن الحكم في هذا هو كذا وكذا، ويرى القاضي أن الحكم خلاف ذلك فوضعها على أنها موضحة أو كاشفة أو دالة هذا لا بأس به بلا شك، لكن وضعها على أنها ملزمة هذا لا يجوز؛ لأن الناس يختلفون في الاجتهاد.

وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: إثم ضلالي عليها ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من القرآن والحكمة ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ [للدعاء] ﴿قَرِيبٌ﴾، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ هذا من باب

التنزل مع الخصم، وإلا فمن المعلوم أن الرسول ﷺ كان أهدى الناس أليس كذلك؟ بلى، وهذا كقول الرجل المؤمن من آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]، مع أن المؤمن هذا يؤمن بأنه صادق، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم لإلزامه بقول الحق يقول الله - عز وجل - : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ﴾ ومعلوم أن الإنسان لا يريد أن يتمادى في إضلال نفسه، ومثل النبي ﷺ إذا ضل لا يكون ضلاله أيضًا، بل عليه وعلى من اتبعه؛ ولهذا كان ضلال العالم أو زلة العالم من أعظم ما يفسد الناس، زلة العالم يست بهينة؛ لأنه قدوة وأمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾وليس عليكم بذلك شيء﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ لم يقل: فإن ذلك من نفسه بل وكله، وأضافه إلى ما جاء به الوحي النازل من عند الله ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ والباء للسببية و(ما) إما أن تكون مصدرية، وإما أن تكون موصولة إن كانت موصولة، فإن عائدها محذوف تقديره فبما يوحيه إلي ربي، وإن كانت مصدرية فلا تحتاج إلى عائد.

وقوله ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الوحي في اللغة هو: الإعلام بخفاء وسرعة هذا في اللغة سواء كان الإعلام بالهمس، أم بإشعار العين أم بإشعار اليد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وما يتكلم؛ لأنه قال له: ﴿آيتك ألَّا تتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا﴾؛ إذن أوحى إليهم بمعني أشار إليهم، أما في الشرع فهو: إعلام الله - سبحانه وتعالى - أحدًا من خلقه بشرع يُؤمر بتبليغه إن أمر بتبليغه، فهو رسول، وإن لم يأمر فهو نبي.

وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الإضافة هنا إضافة خاصة؛ لأن الله ربه ورب غيره، لكن الإضافة هنا إضافة خاصة تفيد العناية؛ لأن من أفضل نعم الله على العبد أن يرسل إليه بالرسالة حتى ينال المرتبة العليا من بني آدم، وكذلك من نعمة الله على العبد أن يلهمه هذه الرسالة لتعلم، ولهذا كان العلماء ورثة الأنبياء فهذا من أفضل النعم؛ ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾، فأضاف الربوبية إلى نفسه؛ لأن هذه الربوبية خاصة تقتضي العناية والتأييد والرحمة واللطف ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ إنه سميع قال المؤلف: [للدعاء]، والصواب: أن الآية هنا عامة سميع لكل شيء وليس للدعاء فقط، بل هو سميع لما أقول لكم، وسميع لما تقولون لي، وسميع لدعائي بمعني: مجيب، وقد مَرَّ علينا أن السمع المضاف إلى الله - عز وجل - ينقسم إلى قسمين، سمع بمعني: إدراك المسموع، وسمع بمعني إجابة المسموع، السمع بمعني إدراك المسموع تارة المراد به التهديد وتارة يراد به التأييد، وتارة يراد به الإحاطة، أي إحاطة الله - عز وجل - بكل مسموع فهذه ثلاثة أشياء تارة يراد به التهديد، وتارة يراد به التأييد، مثل قوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ

وَأَرَىٰ﴾ وتارة يراد به بيان الإحاطة مثل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، أما السمع الذي بمعني الإجابة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وقول المصلين: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»(١).

وقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ هذه اسم فاعل أو صفة مشبهه، والضمير المستتر فيها يعود على الله - عز وجل - وكل فعل أو وصف يكون عائدًا إلى الله، فالمراد به ذات الله فإذنْ هذه القاعدة ذكرها ابن القيم يقول: كل فعل أو وصف يحمل ضميرًا يعود إلى الله، فالمراد به ذات الله، لكن يجب أن يكون في ذهنك تنزه الله عما لا يليق به فيكون القرب هنا قرب رحمته، أو قرب علمه، أو قرب سمعه، أو بصره، أو هو ذاته قريب؟ هو ذاته؛ ولهذا قال ابن القيم بأنه قريب بذاته لكن يجب أن تعلم مع قربه بذاته فهو مستوٍ على عرشه حتى قال النبي ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(٢)، لكن مع هذا يجب أن ننزه الله عما لا يليق به؛ بحيث يتوهم أنه معنا في المكان هذا لا يمكن بل هو قريب بذاته مع علوه، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في «**العقيدة الوسطية**» قال: هو عليٌّ في دنوه قريب في علوه ولا تظن أن الجمع بين القرب والعلو فوق السموات متناقض لماذا؟

أولًا: لأن الله تعالى جمع بينهما لنفسه ودل عليهما كتاب الله، وكتاب الله ـ عز وجل ـ لا يمكن أن يدل على متناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

ثانيًا: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء يعني: لو قلت أن بين القرب والعلو تناقضًا في حق المخلوق، فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله ليس كمثله شيء ولهذا نقول: إن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة وهو مع ذلك مستوٍ على عرشه لا تقل: هذا محال نقول: هذا محال بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فيجب أن نؤمن بما أخبر النبي عن صفات الله وهو استواؤه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا ونقول: أن هذا ممكن في حق الخالق.

أما الوجه الثالث: مما يجمع فيه بين القرب والعلو أنه قد يكون الشيء عاليًا وهو قريب، حتى من المخلوقات مثل القمر عالٍ لكنه قريب كأنه معك، كأنه في المكان الذي أنت فيه وضوؤه واصل إلى الأرض وهو في السماء.

إنَّ الله إذا أضاف الشيء إلى نفسه سواء كان فعلًا أم وصفًا فإننا لا يجوز لنا العدول عن تحويل هذا الشيء من مراد الله إلى شيء آخر؛ لأننا إذا سلكنا ذلك احتج علينا أهل التأويل من المعتزلة والأشاعرة وقالوا: كيف تؤولون هذه الآية مثلا وتنكرون علينا التأويل في آيات أخرى، أو في نصوص أخرى، فإذا قلت لهم: إن هذا لا يمنعه العقل قالوا: ونحن نرى أن هذه الآيات

---

(١) قول المصلي سمع الله لمن حمده هذه سنة من سنن الصلاة واردة عن نبينا ﷺ في الصحيحين وغيرهما.
(٢) **صحيح**: أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٤٦/ ٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

والأحاديث يمنعها العقل، لكن إذا أبقيت النصوص على ما هي عليه على ظاهر جلالته مع ما لا يليق به، سَلِمْت في دينك وسلمت أمام الله ـ عز وجل ـ حين يسألك يوم القيامة كيف تطرقت في كلامي وكيف أخرجته عن ظاهره؟ وسلمت أيضًا من معارضة أهل التأويل وقد مر علينا أن الفلاسفة الذين ينكرون الميعاد بل وينكرون كل شيء احتدّوا على المعتزلة، وأهل التعطيل وقالوا: كيف تجوزون التأويل في آيات الصفات وأحاديثها، ولا تجوزون التأويل في نصوص الميعاد، إذا أولتم في هذا أولوا في هذا، وإلا فقد ظهر تناقضكم وسبق لنا إجابة المعتزلة لأهل الكلام ماذا قالوا لهم؟ قالوا: إنما قد علمنا بالاضطرار أن الرسل جاءت بإثبات الميعاد وعلمنا أن الشبهة المانعة منه واهية فوجب القول بثبوته، هذه من أهم المسائل في جوانب التوحيد، وذكرنا أن هذه الحجة التي دفع بها المعتزلة اعتراض الفلاسفة، احتج بها أهل السنة على المعتزلة وقالوا: قد علمنا بالضرورة أن الرسول جاء بإثبات الذات لله وعلمنا إثبات الشبهات المانعة منه فوجب القول بثبوته وأن ترك القاعدة في هذا وهذا هو الذي فيه السلامة، أما أن نتناقض ونؤول في شيء ونترك النصوص، فإن هذا وهم وضعف في الطريقة، وأن القريب هنا إنه قريب في علمه، أو قريب في رحمته، أو قريب في سمعه، أو ما أشبه ذلك فنخصص هذا بشيء؛ لأنك لو قلت قريب في رحمته أو سمعه أو بصره أو علمه أو ما أشبه ذلك، خصصته فإذن قريب شمل كل ما تقتضيه هذه الذات من الصفات فكان أعم.

وقد صرح شيخ الإسلام بن تيمية في شرح حديث النزول بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قريب بنفسه، وتلميذه ابن القيم قال: إنه قريب بذاته ولكن مع ذلك يجب علينا أن نعلم علم اليقين بأنه قريب ولكنه في السماء على عرشه، وهذا لا تناقض فيه، وقد علمتم الجواب على ما يوصف أنه متناقض وأن الجواب من ثلاثة وجوه، والله أعلم.

لم يطلب من أحد أجرًا على تبليغه للرسالة وإنذارهم؛ لأنه قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

١- **من الفوائد أيضًا:** التنزل مع الخصم أي: على فرض إن سألت فهو لكم.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** تحريم أخذ الأجر على إبلاغ العلم الشرعي، ووجهه أنه مخالف لهدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تبليغ الشرع واجب على الإنسان.

والواجب لا يجوز أن يتخذ الإنسان عليه أجرًا، فإن قلت: هل يجوز الأخذ على تعليم القرآن؟ فالجواب: أن العلماء اختلفوا في ذلك على قولين لاختلاف ظواهر النصوص، ومنهم من قال: إنه

جائز لقول النبي ﷺ «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»[1] ؛ لأن هذا الرجل لا يأخذ أجرًا على قراءة القرآن، لو أخذ أجرًا على قراءة القرآن قلنا: هذا حرام، لكنه أخذ أجرًا على التعليم والتعب وتلقين هذا الرجل، ولذلك لو كان في مسألة واجبة عليه، بمعنى أنه لو كان يجب عليه أن يعلم هذا الرجل لكان أخذ الأجر عليه حرام، الوجه الثالث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعله عوضًا للنكاح فقال: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[2] ، وعوض النكاح أجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فلما جعل النبي ﷺ عوضًا في النكاح دل ذلك على جواز أخذ العوض على تعليمه؛ ولأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجاز أخذ قطيع الغنم للجماعة الذين قرأوا على سيد القوم الذي لدغ وأخذوا عليه قطيعًا من الغنم، فأجاز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لا لأنهم قرأوا القرآن، ولكن لأنهم عالجوا هذا اللديغ، وهذا هو الصحيح أي أنه يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لكن إن كان تعليم القرآن واجبًا فإن أخذ الأجرة عليه حرام، وهل يجوز على القول بأن أخذ الأجرة عليه حرام هل يأخذ راتبًا من بيت المال؟

الجواب: نعم؛ لأن هذا ليس بأجرة، ولذلك جاز للمؤذن والإمام أن يأخذ من بيت المال مالًا يستعين به على أذانه وعلى إمامته.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إخلاص النبي ﷺ في تبليغه لدعوته؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه واضح بأنه إنما يريد الأجر من الله وهذا هو الإخلاص.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** علو همة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث اختار الأجر الأوفى على الأجر الأدنى؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ .

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** تهديد الخصم بما تقتضيه أسماء الله وصفاته؛ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإن في ذلك تهديدًا لهم يعني فسيشهد على تكذيبكم وعلى تبليغي.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** الاستشهاد بإقرار الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان على صدق ما قال، يؤخذ من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ قال العلماء: شهادة الله تعالى لرسوله بأن ما جاء به حق، تشمل الشهادة القولية والشهادة الفعلية وهي إقراره على ما دعا إليه الناس واستباحة أموالهم ودماؤهم إذا لم يستجيبوا له.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ :

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** قضية الرسول ﷺ وذلك بإضافة الربوبية إليه ـ ربوبية الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٧) ومسلم (٧٦/ ١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

إليه ـ؛ حيث قال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي ﴾ وهذه ربوبية خاصة.

٢- ومن فوائدها: بيان قوة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يرمي بالحق على الباطل على وجه القوة بل ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أي يرمي به بقوة وشدة على الباطل.

٣- ومن فوائدها: عموم علم الله بما شوهد وبما غاب وما شوهد من باب أولى يعني أنه إذا كان يعلم الغيب فالمشهود من باب أولى.

٤- ومنها: إثبات أن ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق.

٥- ومنها أيضًا: تهديد هؤلاء المكذبين بيان باطلهم سوف يُقضى عليه بطريق الإسلام في الحق سيقضى على باطلهم ويؤيده قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ جاء الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ في هذا تحديد هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ؛ لأنه لو كان ضالًا لظهر أثر ضلاله على نفسه ولأهلكه الله ـ عز وجل ـ ولم يمكنه قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ فلو كان ضالًا بما جاء به لكان ضلاله على نفسه ولتبين أمره، ولعلكم بلغكم ما أنزل الله تعالى بالمكذبين الذين ادّعوا الرسالة فأهلكهم الله مثل: مسيلمة الكذاب، والأسود العَنْسِي وغيرهم، كلهم يظهر الله ـ تعالى ـ ضلالهم وكذبهم، وذكرت عليكم مرات ما ذكر من آيات مسيلمة، يقولون: إن مسيلمة يدّعي أنه رسول وأن بئرًا من آبار قومه غار ماؤها ولم يبق إلا قليل فجاءوا إليه يشكون هذا الأمر فأراد أن يقتدي بالرسول ﷺ فأخذ منها ماءً وأدخله في فمه ثم مجه في الماء فجعل ينتظر فوران الماء حتى يصل إلى يديه لكن الماء الذي كان فيها غار ونفد هذه آية على كذبه، وجيء إليه بصبي أصلع، أصلع يعني: ما عليه شعر إلا شعرًا قليلًا فجاءوا إليه ليمسح رأسه فيظهر له شعر كثيف فلما مسح رأسه تساقط الشعر الموجود وكان هذا آية على كذبه فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يمكن أبدًا أن يمكن لكاذب مهما كان حتى الكاذب بعد الرسول ﷺ لو كذب ثم دعا الناس إليه، وكان يدعو الناس إلى الحق رياءً وسمعة، فلابد أن يظهر الله تعالى أمره للناس، قال الشاعر:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾ أي: فيتبين أمري وضلالي.

الفوائد:

١- ومن فوائد الآية الكريمة: الاعتراف لله ـ عز وجل ـ بالجميل؛ لقوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾.

٢- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن ينسب الخطأ إلى نفسه، وينسب الصواب إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه بنعمته ونحن إذا أصبنا هل نقول: فبما يوحي إلينا ربنا، أو فبما أوحاه ربنا إلى نبينا؟ هذا هو

الصواب، فإذا أصبنا فإن الواجب أن نضيف النعمة إلى معطيها ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الله ـ عز وجل ـ لا نفتخر ونجعلها من ذات أنفسنا، أما الضلال فإنه على أنفسنا فإننا سببه.

٣ ـ **وفيها أيضًا:** إثبات أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول؛ لقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن النظر في الوحي القرآن والسنة سبب للهداية؛ لأن الباء في (بما يوحي إلي ربي) سببية وإذا كان سبب للهداية كان من العقل والبصيرة أن ننظر في وحي الله وشرعه، وألّا نطلب الصواب من غيرهما لا نطلب الصواب مما قال فلان وقال فلان، لكن مما قال الله ورسوله ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

العِلْـمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُـــولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ
مَا العِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُـــولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلَانِ

وقال في موضع آخر:

الْعِلْـمُ مَعْرِفَـةُ الهُـدَى بِدَلِيلِـــهِ ... مَـا ذَاكَ وَالتَّقْلِيـدُ يَسْتَوِيَـانِ

المهم: أن الهداية لها سبب وهي النظر فيما أوحى الله به إلى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٥- **ومن فوائد الآية:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ وأنها مؤثرة بإذن الله لا مؤثرة بنفسها، ففي ذلك الرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الأسباب لا تؤثر بنفسها حتى أنهم يقولون إن الورق إذا احترق بالنار فإنه لم يحترق بالنار لكن احترق عند النار، لا بها.

وإذا ضربت الزجاجة بالحجر فانكسرت قالوا: لم تنكسر بالحجر لكن انكسرت عنده،قالوا: لأنك لو أثبت لسبب أثرًا ذاتيًا لأشركت بالله العظيم؛لأنه لاشيء يؤثر بنفسه إلا الله ـ عز وجل ـ فأنت إن أثبت أن الحجر هو الذي كسر الزجاجة (هي نفسها تكسر الزجاجة) فهذا شرك بالله فمثلًا رجل أوتي بلحم فجعل يقطعه بالسكين نقول: تقطع بالسكين، أو عند السكين لا بها انظر كيف العقول وصلت إلى هذا الحد؟ الآن الزجاجة ضع عندها الحصاة بل ضعها فوقها بهدوء تنكسر؟ لا، أقبل الحجر على الزجاجة ولم يمسه لكنه حف من حوله، عنده، ما ينكسر، كيف؟ هو يقول: إنه انكسر عنده فنقول أن الأسباب مؤثرة بنفسها لكن من خلق فيها هذا التأثير؟ الله ـ عز وجل ـ والله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير، لو أنك قلت لصبي: أدخل الورق في النار واحترقت ترى النار ما حرقتها، وليست سبب لإحراق، وإنما عندها النار لا بالنار قل له: ما هذا الكلام؟ كلام سخف، إذن نقول: إثبات الأسباب دل عليه السمع والعقل، ولكنها تؤثر بذاتها أو تؤثر بأن الله خلق فيها التأثير؟ خلق فيها التأثير الدليل على ذلك النار محرقة فقال الله ـ عز وجل ـ لها حين ألقي فيها إبراهيم: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فكانت بردًا وسلامًا، إذن هذا السبب المؤثر زال تأثيره بقول الله وبأمر الله، ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ فكانت بردًا وسلامًا، والماء جوهر

سيال فكان بإذن الله كالجبال حين ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات سمع الله وقربه، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين أيضًا: السميع والقريب.



قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[سبأ:٥١-٥٤]

التفسير

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هذه (لو) شرطية وفعل الشرط فيها ترى، وجواب الشرط محذوف تقديره (لرأيت أمرًا عظيمًا)، وحذف للتفخيم والتعظيم ولأجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب، أو لأنك مهما قدرت فالأمر أعظم مما قدرت وقول المؤلف: [يا محمد] هذا لا شك أنه محتمل أي أن الخطاب للنبي ﷺ وفيه احتمال أن الخطاب لمن يصح توجه الخطاب إليه الرسول ﷺ وغيره وهذا أحسن؛ لأنه أعم، وإن وجد الأعم والأخص، فإن الأولى الأخذ بالأعم لدخول الأخص فيه ولا عكس.

وقوله: ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ متى هذا؟ هذا يوم القيامة إذا نفخ في الصور قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يعني لو رأيت فزعوا لرأيت أمرًا عظيمًا وقوله ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ فزعوا هذه فعل ماضي مقترن بواو الجماعة، واضح، نعم يجعلون التعبير في الماضي عن المستقبل قوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وهذه صريحة أتى أمر الله فلا تستعجلوه لأنه لو كان قد وقع ما قال فلا تستعجلوه.

﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ قال المؤلف: [عند البعث لرأيت أمرًا عظيمًا] ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ هذه لا نافية للجنس و﴿فَوْتَ﴾ اسمها وخبرها محذوف، وقد قال ابن مالك في ألفيته:

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إِسْقَاطُ الخَبَر

يعني: كثر إذ المراد مع سقوطه ظهر ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ أي: فلا فوت لهم، وهذا يعني: حذف الخبر في مثل هذا التركيب أبلغ ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ يعني: ما في أبدًا فوات، لو قلت فلا فوت لهم لكان أرق أم ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ فهي أشد وقعًا نعم، ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ قال لهم منا أي لا يفوتنا قال: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ أخذوا معطوفة على ﴿فَزِعُواْ﴾ يعني أنهم يفزعون ويأخذون من مكان قريب يأخذون بالعذاب ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ قال المؤلف: [هي القبور] وهذا احتمال بلا شك؛ لأنهم يخرجون من حين ما يخرجون يجدون والعياذ بالله أمرًا عظيمًا ولهذا يقولون إذا خرجوا من قبورهم يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ فهم يؤخذون من قريب من حين يؤخذون من القبور يكشف لهم عن أمر أعظم مما كانوا يشاهدونه في القبور وإلا فإنهم يعذبون في قبورهم على القول الراجح قال: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ أي القبور ـ والله أعلم ـ.

(إذ) لما مضى، (وإذن) للمستقبل، وإذ تأتي أيضًا تعليلية في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزُّخرُف:٣٩]

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ قالوا: يعني عند فزعهم وعند أخذهم من هذا المكان القريب﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ آمنا به أي بما كنا كافرين به في الأول فيشمل الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان بموسى وعيسى وإبراهيم، وغيرهم من الرسل، هذا إذا كان الكلام عامًا في جميع الكفار، فإذا كان خاصًا في كفار قريش فالمراد بآمنا به أي: بمحمد ﷺ الذي قالوا عنه أنه: كذاب، وبالقرآن الذي قالوا عنه أنه سحر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [بواو والهمزة بدلها] التناوش والتناؤش، والهمزة بدلًا من الواو، والتناوش معناه: أخذ الشيء من بعيد يقول: تناوشت الشيء يعني: أخذته بأطراف أصابعي على بعد، أي أنهم لم يتمكنوا من تحقيق ما أرادوه من الإيمان ولا من بعد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾، (وأنى) هنا استفهام بمعني الاستبعاد يعني أنه يبعد لهم التناوش من المكان البعيد؛ لأن الذي يتناول الشيء إذا كان عن قرب يقال: تناوله وأدركه، أما إذا كان من بعد فهو يقال: تناوشه ومع ذلك فإنه لا يتمكن منه، فهؤلاء يبعد عنهم كل البعد أن ينالوا ما يريدونه من هذا الإيمان؛ لأن هذا الإيمان ضروري يعني أنهم اضطروا إليه حين رأوا العذاب ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، بل كانوا يقولون: إنهم لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا، ولكن الله كذبهم بقوله ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ فهم بإيمانهم هذا إنما يريدون الخلاص من العذاب، ولكن العذاب بعد وقوعه لا خلاص منه، وهذا له شواهد في القرآن كثيرة قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [النساء:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ يقول ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أي: تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن محله إذ هم في الآخرة ومحله في الدنيا وهذا بعيد؛ لأنه ماض من الزمن لن يرجع حتى الأيام في الدنيا الماضية لا يمكن أن ترجع، فيوم الأحد اليوم ليس هو يوم الأحد الماضي، وإن وافقه في الاسم لكنه غيره فالشيء الماضي بعيد، والشيء المستقبل قريب، والماضي بعيد وإن قرب، والمستقبل قريب وإن بعد؛ لأن كل آتٍ قريب، إذن نقول: إن هؤلاء حكى الله عنهم أنهم يقولون حين يفزعون ويؤخذون بالعذاب يقولون: آمنا ولكن هذا الإيمان لا ينفعهم؛ لأنهم يتناولونه من مكان بعيد قال ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية، ويحتمل أن تكون حالية من قوله ﴿وَأَنَّى لَهُمُ﴾ يعني وأنى لهم التناوش من مكان بعيد، والحال أنهم قد كفروا به من قبل.

[﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا] ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالنبي ﷺ أو بالقرآن وهم أيضًا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: يرمون، والقذف كما سبق هو الرمي بشدة، وما معني يقذفون بالغيب؟ أي: يتكلمون بأمر غائب عنهم يدعونه وهم فيه كاذبون مثل أن ينكروا البعث ويقولون: كيف يبعث الناس وقد كانوا عظامًا رميمًا ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يقذفون بالغيب يقولون: إن محمدًا ﷺ شاعر وكاهن ومجنون وما أشبه ذلك، هذا من القذف بالغيب؛ إذن هم يتكلمون بكلام لا حقيقة له ليس بواقع ملموس مشهود، بل هو أمر غائب عنهم، وهم لا يعلمونه والغيب هنا شبيه بقولنا: يتكلمون بالظن ويقولون: الظن وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ [أي: بما غاب علمه عنهم غيبةً بعيدة حيث قالوا في النبي ﷺ ساحر وشاعر وكاهن، وفي القرآن سحر وشعر وكهانة، وكذلك قالوا في البعث: إنه مستحيل أن يحي العظام وهي رميم]، حال هؤلاء إذن الكفر والكلام بالغيب من مكان بعيد يعني: أنهم يتكلمون بأمر غائب عنهم والغائب بعيد عن الإنسان وكيف يتكلمون به وهم لا يعلمون؟

ثم قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [من الإيمان] (حيل) فعل ماضٍ مبني للمجهول أين نائب الفاعل؟ الظرف لكن هل ينوب الظرف مناب الفاعل أين الدليل ؟

نقول: هذا النائب هو الظرف؛ لأن المفعول به لم يوجد حيل بينهم وبين ما يشتهون ما الذي يشتهونه؟ الذي يشتهونه هو النجاة، النجاة من العذاب الذي حل بهم، ولكن هذه النجاة إنما تكون لو قبل الإيمان منهم، والإيمان منهم غير مقبول في هذه الحالة، فلهذا لم يتمكنوا مما يريدونه والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: [أي قبوله ﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان] أي: قبوله ولكن هم في

الحقيقة يشتهون شيئًا قبل قبول الإيمان وهو: النجاة من العذاب وهذا فرع عن قبول الإيمان، وقبول الإيمان غير ممكن؛ لأنه فات محله إذن حيل بينهم وبين ما يشتهون، ما الذي يشتهونه؟ النجاة من العذاب، والنجاة من العذاب لا تكون إلا بعد قبول الإيمان منهم، وقد وصلوا إلى هذه الحالة غير ممكن إذن النجاة من النار غير ممكن؛ ولهذا قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فالذي حال بينهم وبين ما يشتهون هو تأخر الإيمان والتوبة ولو أن ذلك حصل في الدنيا قبل أن يعانوا من العذاب لكان هذا ممكنًا.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ كما فعل بأشياعهم بأشباههم في الكفر ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبلهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ يعني: حيل بينهم وبين ما يشتهون كما حيل بين أشباههم في الكفر من قبل أي: من قبل هؤلاء مثل من؟ قوم نوح وعاد وصالح وغيرهم، وهذا يؤيد ما ذكره بعض المفسرين بأن قوله ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ يعني: عند الموت؛ لأنه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ وهذا فعل ماضٍ يدل على أن هذا أمرٌ قد مضى على من سبق ولو كان يوم القيامة، لم يكن قد مضى من قبل، أما على رأي المؤلف ومن تابعه من المفسرين، بأن الفزع هذا هو فزع يوم القيامة ويدل عليه الآية التي استشهدنا بها من قبل، فيقول: (كما فعل) أي كما قدر أن يفعل بأشياعهم من قبل، وقوله -عز وجل-: ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ كيف نعرب (ما) (ما) مصدرية يعني كالمفعول بأشياعهم من قبل، فما مصدرية أي كفعلنا أو كالمفعول بأشياعهم من قبل.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ الجملة هذه تعليل لما قبلها، فصلتها بما قبلها أنها تعليل، أي إن هؤلاء الذين لم ينجوا من العذاب كانوا في الدنيا في شك، والشك هو التردد بين الإثبات والنفي، والإيمان يجب أن يكون جازمًا لا شك فيه، ولهذا مَن شك في ما يجب الإيمان به لم يكن مؤمنًا، وقوله ﴿مُّرِيبٍ﴾ قال المؤلف: [موقع في الريبة لهم فيما آمنوا به الآن ولم يعتنوا بدلائله في الدنيا] يعني أنهم في الدنيا غفلوا عن دلائل الإيمان ولم يتفكروا بها، بل أنكروها، إما مكابرة، وإما شكًّا وترددًا، فلم ينفعهم.

والحاصل: أن هذه الآيات كلها فيها إنذار هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ، وتذكيرهم بهذه الأحوال التي ستكون واردة عليهم عند الموت وفي الآخرة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** إشارة إلى عظيم ما سيقع بهؤلاء عند الموت، أو يوم القيامة، مأخوذة من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾؛ حيث حذف جواب الشرط؛ لأن ذلك أعظم في التهويل والتفخيم، حتى يذهب الذهن كل مذهب في تقدير ما يمكن أن يكون جوابًا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المكذبين لله -عز وجل- ولرسله لا يفوتون الله ولا

يعجزونه؛ لقوله: ﴿فلا فوت﴾.

٣- **ومن فوائدها:** بيان ما يقع بهؤلاء عند معاينة العذاب من الفزع الشديد الذي لا ينفعهم ولا يستفيدون منه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنهم يؤخذون بالعذاب من مكان قريب لا من مكان بعيد؛ لأن من قدر على الهرب ربما لا نصل إليه لأخذه بالعقوبة، إلا من مكان بعيد لو أن لصًّا أمسكته ـ ضبطته ـ بجريمته فهرب فإذا هرب لن يؤخذ بالعقوبة، إلا من مكان بعيد، أما هؤلاء فيؤخذون من مكان قريب؛ لأنهم لا فوت لهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء على الأعمال وهذا هو الحكمة من الأمر والنهي، فإن الأمر والنهي لو لم يترتب عليه الثواب والعقاب لكان عبثًا ينزه الله تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ لا يؤمر ولا يُنهى.

ثم قال تعالى ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾:

الفوائد:

١- **في هذه الآية:** أن هؤلاء المكذبين إذا عاينوا العذاب آمنوا لقوله ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ويؤيد ذلك آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الإيمان بعد معاينة العذاب لا يفيد؛ لقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وإنما كان غير مفيد؛ لأن الإيمان بالمشاهد لا قيمة له فالشيء المشاهد لابد أن يؤمن به كل إنسان، لكن المحنة والابتلاء إنما تكون في الإيمان بالغيب قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أما إنسان تقول له مثلا: ترى هذه حقيبة وترى هذه كراسة وهذا مكبر صوت وهذه مسجلات ينكر أو لا ينكر وهي أمامه؟ لا ينكر حين أنكر فهو مكابر لكن شيء غائب تخبره به ربما ينكر، هؤلاء إذا آمنوا بعد مشاهدة العذاب فإن إيمانهم لا ينفعهم؛ لأن إيمانهم حينئذٍ إيمان مشاهدة لا إيمان بالغيب، والإيمان بالمشاهد ليس فيه مدح ولا ثناء ولا يستحق صاحبه جزاءً.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بُعد الإيمان عمن لم يؤمن إلا إذا شاهد العذاب المراد بعد الإيمان يعني بعد قبول الإيمان يعني ما قال الله ـ عز وجل ـ لا ينفعه فقط بل قال: إن هذا أمر بعيد ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾:

الفوائد:

١- **في هذه الآية:** الإشارة إلى أن إيمانهم الحاضر لا ينفعهم؛ لأنهم كفروا من قبل حين كان الإيمان نافعًا كانوا كفارًا، وحين كان الإيمان غير نافع كانوا مؤمنين، ولهذا إذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم لكن الله يقول: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين يتكلمون في حق النبي ﷺ أو ما جاء به من الوحي - بالسب والعيب إنما يتكلمون رجمًا بالغيب لقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء لم يحاولوا القرب والنظر فيما جاء به الرسول ﷺ بل كانوا كالذي يرمي بالحجارة من بعد ولا يريد أن يقترب ليتبين الأمر وهذا سوء أدب منهم؛ لأن العقل يقتضي أن يدنوا من الشيء ليتعرفوا إليه حتى لا يقذفوه من بعيد، لكن هم كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد وهذا يبعد أن يكون الإيمان مقبولًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾:

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أن الكفار إذا عاينوا العذاب يشتهون بل يتمنون أن يردوا إلى الدنيا يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولكن هذا الذي يشتهونه ويتمنونه لا ينفعهم قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وأن يقال في عدم بيان الفاعل ما قال (وحال الله بينهم)، ولم يقل: (وحال الكفر) في هذا، لأجل أن يكون الحائل صالحًا؛ لئن تقدره بكل ما يناسب الحال إن شئت فقل: حال بينهم وبين ما يشتهون كفرهم في الدنيا، وإن شئت فقل حال بينهم وبين ما يشتهون تقديم شهواتهم في الدنيا منعهم شهواتهم في الآخرة وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ بدل عما أذهبتموه من الطيبات في الدنيا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** استعمال القياس؛ يؤخذ من قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** الإشارة إلى الاعتبار بمن مضى وسبق، سواء كان من أهل الخير أم من أهل الشر لقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يقرن أحيانًا الحكم بعلته لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ وقرن الحكم بالعلة له فوائد سبق لنا عدة مرات ذكرها وهي:

أولًا: بيان الحكمة وأن الله - عز وجل - لا يحكم بشيء سواء كان كونيًا أو قدريًا إلا بحكمة.

ثانيًا: إذا ذكرت العلة ألحق بهذا الشيء ما يجتمع معه في العلة.

ثالثًا: اطمئنان النفس إلى الحكم والرضا به وإن كان الواجب على المسلم أن يرضى بحكم الله مطلقًا، لكن لا شك أن مشاهدة الإنسان لحكمة، الحكم أبلغ في الطمأنينة من عدم ذلك؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الشك الحاصل لهؤلاء أوقعهم في ريبة، والريبة ليست مجرد شك، بل قال شيخ الإسلام: إن الريب شك مع قلق واضطراب، يعني: أن الشاك عنده تردد في الأمور لكن ما عنده تشوش فكر، لكن المرتاب يكون عنده شيء من التشويش الفكري والقلق النفسي وعدم الاتجاه السليم ولهذا قال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشك منافٍ للإيمان فيما يجب الإيمان به، فلو أن أحدًا شك في يوم القيامة أو في البعث ما نفى وجذم بالنفي ولا أقر وجذم بالإقرار نقول: إن هذا في حكم المنكر تمامًا فهو كافر.

إنهم سيشتهون الجنة والنجاة من العذاب، وإذا نجوا من العذاب، ما في إلا الفوز بالجنة، إنما يشتهون من النجاة من العذاب، والنجاة من العذاب ما تكون إلا بعد قبول الإيمان وقبول الإيمان غير ممكن هكذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: [من الإيمان] أي: قبوله لكننا قلنا: لأنهم يشتهون في هذا الحال هو النجاة من العذاب الذي وقعوا فيه.

التناوش ممن؟ تناوش شيء من بُعد، عندنا باللغة العامية يقول تناوشت الشيء يعني تناولته من بعد وأيضًا ما تمكن فيها التمكن التام مثلما نقول مثلًا من بعيد من دون تمكن.

تم الانتهاء من سورة سبأ



الفهرس